

اشيخ عبد الحميد كشك

كلمتنا

في الرد على

أولاد حارتنا

نجيب محفوظ



كتاب المختار

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

الشيخ عبد الحميد كشك

كلمتنا في الرد على أولاد حارتنا

نجيب محفوظ



كتاب المختار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة للناشر

كتاب المختار

أسسه حسين عاشور عام ١٩٧٩

٣ حارة الجمل - ميدان السيدة زينب - القاهرة - تليفون وفاكس ٣٩٢٢١٥١

الإهداء

أهدى كتابى هذا إلى الذين ينشدون الحق ولا يبغون عنه حولا ولا يبتغون إلى غيره سبيلا إلى الذين قال الله لهم : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ﴾ .

وقال لهم : ﴿ فدا لكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ .

وقال لهم : ﴿ قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون ﴾ .

أهدى كتابى هذا إلى الذين لا يرضون بالحق بدبلا ودعوا الله قائلين : « اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا إتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه » .

إلى الذين وقفوا كثيرا عند قوله تعالى : ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾ .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا أولئك هم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا ﴾ .

أهدى كتابى هذا إلى الذين تأملوا قوله تعالى : ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ .

أقول لهؤلاء وأولئك لقد قطع الله المعاذير على العباد عندما أرسل رسلا وأنزل كتابا وزود الإنسان بالعقل الذى فضله به على كثير مما خلق تفضيلا . قال تعالى : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعداذب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا

فتتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴿ . وقال جل شأنه : ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير . قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إنا أنتم إلا في ضلال كبير وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ﴿ .

فاللهم إنا نشهدك ونشهد ملائكتك وحملة عرشك وجميع خلقك أنك قد أرسلت إلينا رسلا وأنزلت إلينا كتبا وخلقت لنا عقلا كما نشهدك أن نبيك محمداً صلوات ربي وسلامه عليه قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الغمة ومحا الظلمة وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك فجراه الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته ورسولا عن قومه .

عبد الحميد كشك

مقدمة الكتاب

ما من يوم ينشق فجره إلا ويزيدنا الله بالإسلام يقينا ذلك لأنه دين الله والله هو الحق المبين : ﴿ فذالكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ .

﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ وقد أكمل الله دينه وأتم نعمته ورضى لنا الإسلام ديناً فإذا كان الله أكمل دينه فدين الله لا ينقص أبداً وقد أتم نعمته فهي ليست في حاجة إلى زيادة أبداً ورضى لنا الإسلام ديناً ﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ﴾ .

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ . ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ .

وقد تعلمنا من دروس التاريخ وأحداث الأيام أن هذا الدين العظيم وهو الإسلام يزداد شموخاً ورسوخاً وأصاله فهو كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. يزداد على الأيام رسوخاً أشد من الجبال الراسيات والرواسي الشمم فكلمة ادهمت الخطوب واحتدمت الأحداث واشتدت الإحن وعصفت الخن فإنها لا تنال من الإسلام شيئاً بل إنه يتألق ويطاول السماء ويزاحم الجوزاء ذلك لأن الله العلي القدير تعهد بحفظه : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

﴿ يريدون ليظفتوا نور الله بأفواههم ويأى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ . ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ . ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾ .

﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ويمكّن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ﴾ . ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم هم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ .

وكم بغت قوى على الإسلام، وجارت ثم زالت واندحرت ورد الله كيدها في نحورها
وتلك عقبي التعدى .

لقد لاقى صاحب الرسالة العصماء وأستاذ الإنسانية الأكبر وقائد المسلمين الأعظم
محمد ﷺ كما لاقى أصحابه رضوان الله عليهم ومن جاء بعدهم من رافعى لواء التوحيد لاقوا
من الحرب الضروس ما يعجز عنه البيان . لقد وقف لهم المشركون في مكة كما تحركت
جحافلهم إلى المدينة كما وقف لهم اليهود في بنى قينقاع، وبنى النضير وبنى قريظة وفي خيبر كما
وقف لهم الرومان في تبوك والبرموك كما وقف لهم الصليبيون أيام صلاح الدين ومن قبله ومن
بعده كما وقف لهم المغول حتى هزمهم الله في موقعة عين جالوت وما زال وسيظل الإسلام في
سرب مع أعداء الحق وشرار الخلق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ولكن لا يصح
إلا الصحيح : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ .

﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾ إن
من الحقائق الثابتة التي لا مرأى فيها أنه لن يرتفع صوت الباطل إلا إذا غفل أهل الحق ولن
يستأسد الحمل إلا إذا استنوق الجمل وكثيرا ما رددت من فوق المنبر هذه العبارة : (أنا
لا أخشى على الإسلام من أعدائه إنما أخشى عليه من أديعائه) ولقد طالعتنا في القديم
والحديث وستظل تطالعنا كتب وأفلام وقصص تتعرض لمقدسات الإسلام ولكن لن ينالوا من
الإسلام شيئا وإننى أقول بصراحة صريحة لو اجتمع أهل الأرض جميعا ليثيروا التراب على
السماء فسوف يثرونه على أنفسهم وستبقى السماء هى السماء ضاحكة السن بسامة الحيا .

وأقول لرسول الله ﷺ هذه الآيات التي قالها فيلسوف الإسلام محمد إقبال :

فكم زالت رياض من رباها وكم بادت نخيل في البوادي
ولكن نخلة الإسلام تنمو على مر العواصف والعوادي
ومجدك في حمى الإسلام باق بقاء الشمس والسبع الشداد

وقد أثبت الله تعالى أن الزبد يذهب جفاء وأن ما ينفخ الناس فسيظل باقيا في الأرض
قال تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماء فسالأت أودية بقدرها فاحمل السيل زبدا رابيا وما يوقدون
عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء
وأما ما ينفخ الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ .

وبين أيدينا كتاب (أولاد حارتنا) للكاتب نجيب محفوظ .

وهذا الكتاب قصة رمزية لا تختفى فيها الرموز إلا خلف غلالة رقيقة من الواقع
الاجتماعى .

وخطورة هذا الكتاب التي تدمر وتضل عن سواء السبيل تكمن في أنها تتعرض لقضايا دينية مقدسة كما أن كاتب هذه الرواية تعرض لأشخاص الأنبياء عليهم صلوات الله وتسليماته من آدم إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ بل لقد جعل في هذه الرواية شخصا يمثل الله عز وجل والله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

كما أن صاحب هذا الكتاب قد بلغ من جرأته أنه صور الله جل جلاله وأنبياؤه عليهم الصلاة والسلام كما صور الحقيقة الإيمانية على غير ما آمن على ذلك المؤمنون وسوف نتعرض لهذا الكتاب بالرد الإسلامى الصحيح حتى لا تنزل أقدام ولا تتعثر أقدام وحتى لا ينفلت خيال الكاتبين وسنعرض لهذا الكتاب بأسلوب موضوعى علمى وهذا شرطى على نفسى وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب وعلى الله فليتوكل المؤمنون وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وحسبنا ما قاله الله لرسوله : ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ والله تعالى من وراء القصد فاللهم إنا نسألك ونتوجه إليك أن تجعلنا من عبادك الذين قلت فيهم : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبصار الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ربنا إنا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمننا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا بسيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴾ .

عبد الحميد كشك

الفصل الأول

خطورة هذا الكتاب

تكمن خطورة هذا الكتاب الذي نال صاحبه جائزة نوبل ١٩٨٨ وقامت له الدنيا ولم تقعد وأحدث ضجيجا وعجيجا من قبل الجائزة ومن بعدها ذلك لأنه احتوى على قضايا كثيرة تعرضت للمقدسات الإسلامية مما أثار ردود فعل عنيفة كان أول هذه الخطورة أن هذا الكتاب تعرض أولا :

١ - لشئون الدين تعرضا لا يليق بالله ورسله فقد جعل فيها رموزا لله وصور أنبيائه في رموز أخرى . وكذلك رمز للرسالات السماوية وصور حقيقة الإيمان التي تؤمن بها على غير وجهها الصحيح .

٢ - كما أن هذه القصة جعلت من الشيوعية الماركسية والاشتراكية العلمية بديلا للدين الذي أنزله الله والوحي الذي بعث به أنبياءه عليهم السلام ليسعدوا به الناس في الدنيا والآخرة والذي قال الله تعالى فيه : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ .

٣ - كذلك جعل من الاشتراكية العلمية بديلا للألوهية وأن العلم الدنيوى المادى بديلا للدين بل هو الذى سيحل مشاكل العالم .

وقد رأى فى هذه القصة أن الدين قد أصابه البلى وقد خارت قواه . وبما هو جدير بالذكر أن هذه القصة قد بدأ نشرها مسلسلة فى الأهرام سنة ١٩٥٩ .

وقد ثارت ثورة الأزهر على هذه القصة وبين وجه الافتراء فيها على الإسلام وأبدى الرأى فى ذلك صريحا واضحا فما كان من رئيس تحرير الأهرام وقتئذ محمد حسين هيكل إلا أن أنبرى لثورة علماء الأزهر على هذا الكتاب وأبدى احتجاجه الشديد للهجة على رد

العلماء وشجع الأستاذ نجيب محفوظ على مواصلة نشر هذه القصة ولم يعبأ بما أبداه علماء الأزهر من غضبة لله تعالى ودفاع عن شرع رسوله الكريم ﷺ فاستمر نشر هذه القصة في تلك الظروف القائمة السواد .

ولم تظهر هذه القصة في كتاب مكتمل في مصر ولكنها صدرت في بيروت عن دار الآداب سنة ١٩٦٧ وتذكر بعض الآراء أن الناشر قد حذف منها بعض العبارات مما يدل على أنها كانت مليئة بالسموم الناقعات مفعمة بما يندى له جبين العقيدة حياء أو خجلا .
ومما هو معلوم الثبوت أن هذه القصة ترجمت إلى الإنجليزية وصدرت سنة ١٩٨١ عن دار هايمان وقال المترجم (فيليب استيوارت) في مقدمته وكذلك الناشر على الغلاف أنها أكمل طبعة لهذه الرواية .

٤ - هذه القصة تلقفها أصحاب الدراسات الأدبية العربية من أجناب ومستشرقين ومستغربين بل وخصوصها بجانب متميز من دراساتهم لأدب نجيب محفوظ حتى لقد بلغ من اهتمامهم بهذه القصة أنه لا تكاد تخلو ترجمة لإحدى قصصه إلى الإنجليزية من الحديث عن هذه القصة (أولاد حارتنا) في المقدمة ومناقشة لقضاياها الفلسفية (الجريمة) التي أثارها .

٥ - ولا ينسين أحد أن هذه القصة بالذات كانت على رأس الحثيات التي منحت كاتبها هذه الجائزة (جائزة نوبل) وذلك لأنهم اعتبروها قصة غير عادية وقد صرحوا بذلك كما جاء في الخطاب الذي ألقاه سكرتير لجنة الجائزة في حفل التسليم باستوكهولم والذي أشار في هذا الخطاب وهو يمدح المؤلف ويطريه مشيرا إلى ما تضمنته القصة من (موت الإله) وهكذا يتبين لنا ما جبلت عليه نفوس هؤلاء من حقد دفين على الإسلام فقد تحركت عقارب البغضاء وزحفت ثعابين الحقد في الصدور لتوجه إلى عقيدة المسلمين سهما طائشا عندما زعموا كذبا وبهتاناً أن الدين قد استنفد وخوت قواه وخارت عزائمه وأن البديل للدين هو الاشتراكية العلمية وسبحان الله رب العالمين الذي يقول : ﴿ ولا تدع مع الله الها آخرلا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ .

(أ) أضواء كاشفة

وقبل أن نتعرض لأحداث هذه القصة بالرد ودحض ما جاء بها من شبهات قبل ذلك نرى أن من الأهمية القصوى أن يعلم الناس أن الاعلام سلاح ذو حدين فهو إما أن يبنى فيرتفع البناء إلى عنان السماء إن سار على الضراط السوى ولم يتككب جادة الطريق قال بعضهم : (أعطنى شاشة أبني بها شعبا) هذا في البناء وقد يكون الاعلام سلاحا هداما إذا حاد عن الطريق الصحيح وانحرف عن سواء السبيل . كان كارل ماركس يقول : (لأنسين

الناس الله بالمرسح) هذا القول قاله قبل اختراع وسائل الاعلام الحديثة التي امتلأ بها الأثير عبر الأجواء والكتاب جزء من الاعلام له دوره الخطير في الهدم والبناء لذا يحسن بنا أن نسجل هذه السطور المستفيضة عن وسائل الاعلام التي كان لها دور خطير في اعلان الحرب على الإسلام والمسلمين فإننا إذا رجعنا إلى الوراة أيام الاحتلال البريطاني الذي خيم ظله على أرض مصر الإسلامية وما كان لذلك من فساد وإفساد لرأينا عجباً .

ولنبداً القصة من تاريخ محمد على وأبنائه .

كان محمد على وأبنائه حتى الخديو إسماعيل عند حسن ظن فرنسا بهم فأسسوا للنفوذ الفرنسي في مصر وقاموا بعملية التغريب على النحو المطلوب وقال إسماعيل قولته المشهورة : (أريد أن أجعل مصر قطعة من أوروبا) حتى جاء توفيق فتغير الريان الذي يمسك بالدفعة ولكن لم يتغير الاتجاه بدأ النفوذ الانجليزي في عهده يتدخل في شئون مصر من بعيد ثم انتهى الأمر باحتلال الانجليز لمصر عام ١٩٨٢ م .

وكانت الخطة الجديدة بطبيعة الحال هي التغريب على الطريقة الانجليزية بدلا من الفرنسية، وإن كان العجيب أن انجلترا لم تتعرض قط للمؤسسات الصليبية الفرنسية كالمدارس والمعاهد التبشيرية وما شاكلها رغم حرصها على طرد النفوذ الفرنسي السياسي ذلك أن دول أوروبا الصليبية قد تنافس فيما بينها على النفوذ والمغانم تنافسا عنيفا يؤدي إلى الحرب بين الحين والحين ولكنها إزاء الإسلام تتساند كلها ويحمى بعضها مصالح بعض .

يقول الأستاذ محمد قطب :

(أهم ما حدث من التغيير هو الأسلوب الانجليزي البارد في تحويل الناس عن الإسلام ذلك الأسلوب الذي يتفق مع مثلهم المشهور Allow but Sure بلىء ولكنه أكيد المفعول .

كان في نابليون حماقة الفرنسيين يغضب فيضرب فيؤدي الضرب إلى مزيد من اليقظة ومزيد من المقاومة كما حدث حين ضرب الأزهر بالقنابل وجعله اصطبلا للخيل .

أما الانجليز فهم لا يقلون في صليبيتهم عن الفرنسيين ولا يقلون في مقتهم للأزهر عن غيرهم من الصليبيين ولكن طريقتهم في التغيير تختلف في الوسائل وإن لم تختلف في الأهداف فتأتى بنتائج مختلفة في نهاية المطاف .

بلىء ولكنه أكيد المفعول . يعمل عمله دون أن يتيقظ الناس للتغيير .

يقول اللورد كرومر أول (معتمد بريطاني) في مصر : (إن مهمة الرجل الأبيض الذي وضعته العناية الإلهية على رأس هذه البلاد [يقصد مصر] هو تثبيت دعائم الحضارة

المسيحية إلى أقصى حد ممكن بحيث تصبح هي أساس العلاقات بين الناس . وإن كان من الواجب - منعا من إثارة الشكوك - ألا يعمل على تنصير المسلمين وأن يرعى من منصبه الرسمي المظاهر الزائفة للدين الإسلامي كالاحتفالات الدينية وما شابه ذلك) .

و حين بدأ حكمه في مصر شكاه المبشرون إلى الحكومة البريطانية بدعوى أنه يضيق عليهم ! فلما أرسلت الحكومة البريطانية الشكوى إليه ليرد عليها ، جمع المبشرين وقال لهم : هل تصورون أنني يمكن أن أضيق عليكم ؟! ولكنكم تخطفون الأطفال من الشوارع ، وتخطفون الرجال لتنصيرهم فتستفزون المسلمين فيزدادون تمسكا بدينهم ولكني اتفقت مع شاب تخرج قريبا في كلية اللاهوت بلندن ليضع سياسة تعليمية ستحقق جميع أهدافكم ! هكذا يكون العمل البطيء الأكيذ المفعول ! سياسة تعليمية تحقق جميع أهداف المبشرين - أى جميع الأهداف الصليبية - على مهل ودون ضجة تثير الانتباه (منعا من إثارة الشكوك) .

تفيد الحقائق التاريخية التي لا تحتل الجدل أو الانكار أن المستر دنلوب القسيس الذى عينه كرومر مستشارا لوزارة المعارف تولى مهام منصبه وكان فى يد (سعادة المستشار) - كما كانوا يسمونه - السلطة الفعلية الكاملة فى وزارة المعارف المصرية الإسلامية . وحين يكون القسيس على رأس السلطة فى وزارة التعليم فما الذى يتوقع أن يكون من أمر التعليم ؟

جاء دنلوب ليضرب الأزهر - موطن الخطر على كنيسة المسيح - ولكن بغير حماقة نابليون ، وقد علم أن ضربه بتلك الحماقة كان سببا فى استشارة المسلمين . ترك دنلوب الأزهر على ما هو عليه لم يتعرض له على الإطلاق ولكنه على الأسلوب البطيء الأكيذ المفعول فتح مدارس جديدة تعلم العلوم الدنيوية ولا تعلم الدين إلا تعليما هامشيا هو فى ذاته كما سيحيىء جزء من خطة إخراج المسلمين من الإسلام .

وقال الناس فى بادئ الأمر - على البديهة واستيحاء من البقية الباقية من الحس الإسلامى فى قلوبهم - أن هذه المدارس مدارس كفر لأنها لا تعلم القرآن إذ كانت المدارس الأولية التى تمهد لدخول الأزهر تعلم القرآن كله فى سنوات الدراسة الأربع .

ولكن مدارس الكفر هذه أصبحت بتدبير دنلوب - هى الوسيلة للرزق من ناحية وللمكانة الاجتماعية من ناحية أخرى .

لقد كان المتخرج من هذه المدارس - بعد أربع سنوات فقط من الدراسة - يعين فور تخرجه فى دواوين الحكومة براتب يبلغ أربعة جنيهات كاملة كانت فى ذلك الوقت ثروة

ضحمة إذ كانت الأسعار زهيدة إلى حد لا يتصور بالنسبة للأسعار الحالية وكانت القوة الشرائية للجنينة المصرى عظيمة بحيث كانت الجنينات الأربعة تكفى للحياة الكريمة فى العاصمة ذاتها. ويستطيع صاحبها أن يتزوج ويكون أسرة ويتبقى معه بعد ذلك ما يدخره ليشتري به الأتيان فى الريف .

أما خريج الأزهر الذى يقضى فى الدراسة عشرين سنة من عمره فى بعض الأحيان فلا يجد عملاً وإن وجد عملاً فى إقامة الشعائر فى المسجد فهائة وعشرين قرشاً تكفى للحياة نعم ولكنها حياة ذليلة ضئيلة بالنسبة لخريج المدرسة الابتدائية الذى يعمل فى الديوان .

وحين يكون الوضع على هذا النحو ويكون لك ولد تريد تعليمه فىلأ أين تذهب به ؟

تذهب به إلى الأزهر ليقضى زهرة شيا به هناك ثم يتخرج ليقبى عاطلاً أو يعمل مقيم شعائر فى المسجد بهذا المرتب الضئيل ؟

أم تذهب به إلى مدارس دنلوب فيتخرج بعد أربع سنوات ليكون من المشاء إليهم فى المجتمع من موظفى الحكومة الذين يتودد إليهم البقال والجزار وصاحب المسكن ويحتلون المكانة المرموقة فى كل مكان .

لقد كان الانتساب إلى الأزهر فيما مضى شرفاً تتسابق إليه الأسر وكانت الأسرة التى تحوى ضمن أفرادها عالماً أى واحداً من خريجي الأزهر تصبح محط الأنظار سواء فى العاصمة أو فى الأقاليم وينظر إليها الناس بالتبجيل والاكبار لأن العلم فى حس الناس هو علم الدين الذى هو خير الدنيا والآخرة ولأن وظائف الدولة يحتل معظمها خريجو الأزهر فينالون فى المجتمع الإسلامى كل وسائل الرفعة والصعود .

وبصرف النظر عما كان فى الأزهر من تخلف عن المنهج الإسلامى الصحيح الذى كانت تمثله جامعات الأندلس بل كان يمثله الأزهر نفسه فى عصور الازدهار من الجمع بين علوم الدين والدنيا وإعداد الناس لعمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى فقد كان مرتبطاً فى حس الناس بالإسلام وكان رمزاً حياً له فى ضمائرهم ومن ثم كان اعتزازهم به وتوجههم إليه وكانت لخريجيه تلك المكانة فى المجتمع الإسلامى فأما الآن - فى عهد دنلوب - فقد تغير الحال تماماً .

لم يعد يذهب إلى الأزهر إلا الفقراء الذين يعجزون عن دفع مصروفات المدارس الحديثة . وفى الوقت ذاته ينالون جزاء فقرهم ضياعاً فى المجتمع وهواناً فيه .

وقد تبعث بعض الأسر العريقة واحداً من أبنائها للأزهر من أجل البركة وابتغاء المكانة فى الريف خاصة - كما صنعت أسرة مصطفى عبد الرازق مثلاً - ولكن هؤلاء الأفراد القلائل

من خريجي الأزهر من الأسر العريقة والثرية لم يكونوا لينفوا الصورة العامة التي صار الأزهر إليها وهي أنه مأوى الفقراء العاجزين عن دفع تكاليف التعليم الحديث العاجزين في الوقت ذاته عن نيل المكانة في المجتمع الحديث .

أما خريجو المدارس الجديدة فأولئك هم الطبقة الجديدة في المجتمع الطبقة الصاعدة الذين يلوون ألسنتهم برطانة المستعمر ويفاخرون بها ويحتضنهم المستعمر من جانبه ويؤدى عن طريقهم الدور المطلوب البطيء الخطوات الأكيد المفعول .

من هم أولئك الخريجون ؟ ما ثقافتهم ؟ ما وجهتهم ؟ كيف نفذ بهم دنلوب أهدافه الصليبية التي انتدبه من أجلها كرومر ومنحه من أجلها ما منحه من سلطان ! فلننظر في المناهج التي وضعها دنلوب في مدارسه ولنتخير من بينها أشدها خطرا وأبعدها أثرا مناهج اللغة العربية ومناهج الدين ومناهج التاريخ فأما اللغة العربية - لغة القرآن الذي يحترق قلب الصليبية حقدا عليه - فقد خطط دنلوب لقتلها والقضاء عليها .

فقد كان الراتب الذي يتقاضاه المدرسون من أصحاب المؤهلات العليا اثني عشر جنيها إلا مدرس اللغة العربية وحده يتقاضى أربعة جنيهات وكان لهذا الوضع انعكاساته ولا شك سواء في داخل المدرسة أو في المجتمع على اتساعه .

فأما في داخل المدرسة فلم يعد مدرس اللغة العربية هو المقدم بل أصبح في ذيل القافلة ! يتقدمه المدرسون جميعا حتى ذوو المؤهلات المتوسطة بل يتقدمه - في الرواتب - فراش المدرسة أحيانا إذا كان ذا أقدمية طويلة !!

ومن ثم لم تعد له كلمة في المدرسة فلا هو يستشار في شئونها ولا هو يشارك في شئ من ادارتها ولم يعد له كذلك عند التلاميذ احترام ولولا العصا التي يحملها ويؤدب بها التلاميذ ما قره أحد ولا عمل له حساب ! بينما يحظى مدرس اللغة الانجليزية بالذات بأكبر قدر من التوقير والاحترام .

أما في المجتمع الواسع فهو أشد ضياعا منه في المدرسة ! فالناس جميعا يعلمون وضعه المالى ويعلمون أنه في ذيل القافلة وأن المدرسين الآخرين مقدمون عليه في الراتب وفي الاحترام سواء !

وإذا كانت العصا التي يحملها تخيف منه تلاميذه فيلتزمون بالأدب في درسه فإن المجتمع في الخارج لا يخشى عصاه تلك بل يتخذها مادة للتندر والهزاء والاستخفاف بينا العصا التي يحملها زميله مدرس اللغة الانجليزية توفر له الاحترام داخل المدرسة ولا تعيبه في المجتمع بشئ ، إن لم توفر له المهابة والتقدير والتعظيم .

وهكذا ينحدر وضع مدرس اللغة العربية في المجتمع بقدر ما ينحدر راتبه ويصبح مادة دائمة للسخرية يتحدث الناس عن جهله وتخلفه وضيق أفقه و فقره وانحطاط مستواه الاجتماعي والفكري .

وأشد ما يعاب عليه ويزدرى من أجله أنه لا يعرف لغة أجنبية .

وحين يصبح مدرس اللغة العربية في هذا الوضع المهين الذي لا يبعث على الاحترام فإن وضعه يؤثر حتماً على المادة التي يدرسها وقد كان هذا هو الهدف المقصود من وراء ذلك التدبير الخبيث .

لقد انتقل الوضع المهين المزرى من المدرس إلى المادة وصارت اللغة العربية موضع الازدراء والتحقير والنفور .. فالطلاب يشكون من صعوبة اللغة العربية نحواً وصرفاً وبلاغة ونصوصاً وأدباً وقد ظلوا يعايشونها ثلاثة عشر قرناً قبل ذلك بلا شكوى وكأنيما اكتشفوا فجأة تلك الصعوبة التي تصرفهم عنها صرفاً وقد بدأوا يوازنون بينها وبين اللغات الأجنبية - وبالذات الإنجليزية - ليجدوا أن اللغات الأجنبية أيسر وبالذات الإنجليزية في كل شيء فهي لغات غير معربة لا تحير القارئ بين الرفع والنصب والجر ونحوها سهل ، وهجاؤها سهل وتراكيبها غير معقدة والخلاصة التي يصلون إليها أن العناية باللغة العربية غيز واجبة بل ربما كانت غير جائزة بينا العناية باللغة الأجنبية - وبالذات الإنجليزية - واجبة كل الوجوب ! وأصبح الطالب الذي وجه هذا التوجيه وطبع ذلك الطبع يغطي في النحو العربي فينصب الفاعل ويرفع المفعول بلا تخرج ولا مبالاة ، فإذا صحح له خطؤه أو نبه إليه هز كتفيه مستكفاً وقال : يا عم ! دعك من (الفقهنه) هل أنا (فقي) بينا يكثر كل الاحتراز أن يغطي في نطق كلمة من لغة أجنبية أو في تصريف فعل من أفعالها أو في صياغة تركيب من تراكيبها وإذا وقع منه الخطأ صار سخرية المجلس كله ورمى بالجهل المعيب والكتاب يشكون من جمود اللغة وعدم مرونتها وعدم طواعيتها وعدم قدرتها على نقل المعاني (وظلال المعاني) كما تستطيع ذلك اللغات الأجنبية - وبالذات الإنجليزية - في طلاقة ويسر ورشاقة وعمق وكأنيما الكتاب لم يصحبوا هذه اللغة ثلاثة عشر قرناً من قبل ذلك وعبرت عن خلجات نفوسهم كلها بغير عجز ! وكأنيما اكتشفوا قصورها فجأة وكانوا غافلين عنه .. فانصرفوا إلى دراسة آداب اللغات الأخرى وهجروا الأدب العربي وأصبح المتنبى واليحتري أو علقمة وامرؤ القيس أسماءً سخيفةً مملوكة تصم صاحبها لتوه بالتخلف العقل والحضاري !

وأصبح دانتي وشكسبير ووردزورث وبايرون واندريه جيد وأناتول فرانس وفكتور هوغو هي التي تتردد على ألسنة المثقفين للدلالة على أنهم مثقفون ولو لم يكن لهم من حصيلتها إلا حفظ الأسماء !

والعلماء أو بالأحرى مترجمو العلوم يشكون من أن اللغة العربية لغة غير علمية !!
إن صلحت للأدب - أى الأدب الرديء - فإنها لا تصلح للعلم جامدة معقدة
محدودة متخلفة ولا بد من اتخاذ اللغات الأجنبية وبالذات الانجليزية لدراسة العلوم ولا بد أن
نعلمها لأبنائنا في المدارس إذا أردنا أن يكون لدينا في يوم من الأيام علماء !

وكأنما لم يكن لهذه اللغة أصل بالعلم من قبل - في عصور الازدهار - بل كأنها لم
تكن في وقت من الأوقات هي لغة العلم ، يوم قال روجر بيكون : (من أراد أن يتعلم
فليتعلم العربية فهي لغة العلم) .

وهكذا صوبت السهام إلى اللغة العربية من كل جانب ولم تعد شيئا يعتز به المسلم
العربى كما كان يعتز طيلة ثلاثة عشر قرنا من قبل بل أصبحت معرة يسارع الإنسان إلى
الانسلاخ منها ويمعن في العيب فيها والانتقاد عليها لكى يصبح من المثقفين ولم يكن بد من أن
ينتقل هذا الوضع المزرى من اللغة ذاتها إلى ما هو مكتوب بتلك اللغة وكان هذا هو الهدف
الأخير المطلوب من ذلك التخطيط الخبيث .

فالمكتوب باللغة العربية هو تراث الأمة كله وعلى رأسه القرآن !!

والمطلوب هو صرف الأمة عن تراثها كله وعلى رأسه القرآن !!

وانصرف الناس بالفعل عن قرآنهم وتراثهم بالتدريج فلم يعودوا يشعرون أنه هو
(الزاد) إنما الزاد هو المكتوب بلغة السادة الغالبيين، أما درس الدين في مناهج دنلوب فلا يقل
سوءا إن لم يكن أسوأ .

فمدرس الدين هو نفسه مدزس اللغة العربية الذى وضعه دنلوب في هذا الوضع
المزرى المهين ولكن يزيد عليه أن أكبر المدرسين سنا هو الذى يوكل إليه تدريس الدين بحجة
إراحته من تعب تصحيح الدفاتر وحملها من المدرسة إلى البيت وبالعكس ويزيد على ذلك
أيضا أن حصص الدين توضع في نهاية الجدول المدرسى فهى - في أغلب الأحيان - السابعة يوم
السبت أو الخامسة يوم الخميس أو السادسة في بقية الأيام !

وفحوى ذلك أن التلاميذ يتلقون درس الدين وهم في حالة الضجر والاعياء في نهاية
اليوم المدرسى ، وهم ينتظرون دق الجرس لينفلتوا إلى الشوارع وإلى البيوت ويتلقونهم
مدرس عجوز فان يسعل ويتفل ويتحرك في تراخ ظاهر فيقترن درس الدين في نفوسهم
بالعجز والفناء والضجر والضييق والرغبة في الانفلات !

فوق أنه درس ميت في طريقة تدريسه فهو مجموعة من النصوص تلقى لتحفظ حفظا
وتستظهر بلا حركة ولا حياة ولا روح !

ولكى تعلم أنها خطة مقصودة لتنفير التلاميذ من درس الدين ثم من الدين ذاته في
النهاية كتفنيرهم من اللغة العربية ومما هو مكتوب بها فاعلم أن درس الدين المسيحي في
المدارس التبشيرية حتى التي تزعم أنها (علمانية) لا علاقة لها بالدين والتي يؤمها التلاميذ
(المسلمون) ويحضرهم درس الدين يقام في الصباح الباكر والتلاميذ قادمون بنشاطهم كله
وبشرهم كله ويقوم بتدريسه أشب المدرسين والمدرسات وأحجم إلى قلوب التلاميذ ولا يقام
في فصل الدراسة حتى لا تكون له رتبة الدروس اليومية العادية إنما يقام في كنيسة المدرسة
ويقام في وسط الأناشيد التي تتجاوب بها حناجر التلاميذ وقلوبهم فيقرن درس الدين في
نفوسهم بالفرحة والبهجة والنشاط والحركة والاستبشار بالحياة . أضف إلى ذلك أن درس
الدين في منهج دنلوب هو في الحقيقة رقعة في الثوب الدراسي غير متجانسة معه إن لم نقل
متنافرة معه فهو ثوب علماني بحث لا علاقة له بالدين على الإطلاق على الطريقة الغربية
اللاذنية التي فصلت الدين عن العلم وفصلته عن الحياة فإذا جاء درس الدين ذكر الله
ورسوله وذكر الدين والآخرة ولكنه حتى في أفضل أحواله صوت ضعيف لا يكاد صداه يبلغ
الأذان فضلا عن القلوب فإذا كان على حاله التي يلقي بها بالفعل نصوصا لا تشرح ولا تبث
فيها الحياة بل تستظهر استظهارا بغير فهم ويقوم بتدريسها ذلك العجوز الفاني الضعيف فقد
حمد الصوت تماما ولم يعد له أثر بل صار له الأثر العكسي وهو التنفير من الدين وذلك هو
المطلوب ولكي تعلم أنها خطة مقصودة لتنفير التلاميذ من الدين فلتعلم أن الدين في المدارس
التبشيرية التي يؤمها التلاميذ المسلمون لا يقتصر على ذلك الدرس مع حيويته التي أشرنا إليها
ولإحاطته بالفرح والنشاط والبهجة بل هو (روح) تلقى إلى التلاميذ في كل مناسبة في أثناء
الدروس وأثناء اللعب وأثناء الوقوف في الصف وأثناء الانصراف إلى الفصول أو الانصراف
من المدرسة ومن ثم يكون ذا أثر عميق في نفوس التلاميذ ولا يكون درس الدين المتخصص
رقعة في الثوب متنافرة معه وغير متناسقة بل قطعة طبيعية من نسيج الثوب متناسقة معه
ومزينة له .

وزيادة في النكايه لدرس الدين فقد وضعه المنهج الدنلوي ضمن (المواد الإضافية)
التي تحذف في جدول الصيف المختصر الذي يقتصر على (المواد الرئيسية) فيحذف منه الدين
والرسم والاشغال اليدوية والألعاب الرياضية وهكذا يصبح في حس التلاميذ مادة
(هامشية) ليس لها اعتبار . وبهذا التدبير البطيء الأكيد المفعول تخرجت أجيال وراء أجيال
لا تحس بأى توقير نحو الدين .

أما (ثلاثة الأثافي) فهي درس التاريخ بشقيه الإسلامي والأوربي فأما منهج التاريخ

الإسلامي فيبدأ كالمعتاد بدراسة أحوال الجاهلية تمهيدا لدراسة البعثة النبوية وصدر الإسلام .

وفي دراسة الجاهلية ترد تلك الجملة (الشهيرة) : كان العرب في الجاهلية يعبدون الأصنام ويشدون البنات ويشربون الخمر ويلعبون الميسر ويقومون بغارات السلب والنهب فجاء الإسلام فنهاهم عن ذلك . وتبدو هذه الجملة بريئة في ظاهرها ولكنها خبيثة كل الخبيث في واقعها فأما البراءة الظاهرية فمصدرها أن العرب في الجاهلية كانوا حقيقة على الصورة التي تصفها هذه العبارة وأن الإسلام قد أزال تلك الصورة بالفعل وأما الخبيث فمنشؤه أن العبارة لم تتحدث عن (جوهر) الجاهلية الذي جاء الإسلام لمحوه وتغييره وإنما تحدثت عن (مظاهر) الجاهلية العربية خاصة التي قد لا توجد في الجاهليات الأخرى بينما الإسلام لم يتنزل لمحو مظاهر الجاهلية العربية وإنما لالغاء جوهر الجاهلية كله وابدال الإسلام به .

بعبارة أخرى حين نحصر مهمة الإسلام في محو هذه المظاهر وحدها فماذا يكون قد بقي من مهام الإسلام في الوقت الحاضر ؟ حين ينظر التلاميذ حولهم فلا يجدون أصناما معبودة فقد سقط إذن هذا (البند) من مهام الإسلام .

وحين لا يجدون البنات تؤد بل يجدون على العكس من ذلك بنات مدلات أشد التدليل فقد سقط هذا البند كذلك من مهام الإسلام . وحين يجدون بعض الناس يشربون الخمر ويلعبون الميسر فقد دعا الإسلام دعوته (الأخلاقية) فاستجاب لها من استجاب ووقع غيرهم في (المعاصي) ولا حيلة . وأما غارات السلب والنهب فتوجد اليوم حكومات نظامية ذات قوات مخصصة للأمن تحول دون وقوع مثل هذه الغارات وتعاقب من تسول له نفسه اقترافها فماذا بقي إذن من مهام يمكن للإسلام أن يؤديها في العالم الحديث ؟ إن الإسلام بهذه الصورة يكون قد استنفد أغراضه وهذا هو الأبحاء المطلوب منذ أول درس من دروس التاريخ الإسلامي إنه جاء لزمان معين كان يتسع له ويحتاج إليه ولكن لم تعد هناك حاجة إليه في الوقت الحاضر فهو جزء من التاريخ الغابر ولا زيادة .

وكان الأمر يختلف اختلافا واسعا بطبيعة الحال لو ذكرت الحقيقة الجوهرية التي جاء من أجلها (الدين) الدين كله من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ وهي دعوة الناس إلى عبادة الله وحده بلا شريك ، العبادة المتمثلة في الاعتقاد بوحداية الله وتقديم الشعائر التعبدية إليه وحده وتحكيم شريعته في كل شأن من شؤون الحياة مع الخصيصة التي اختصت بها الرسالة الأخيرة المنزلة على محمد ﷺ وهي أنها رسالة للبشرية كافة منذ مبعثه عليه السلام إلى قيام الساعة . كم تتغير الصورة في حس التلاميذ حيث تدرس لهم تلك الحقيقة الجوهرية التي جاء من أجلها (الدين) وتلك الخصيصة التي اختصت بها الرسالة الأخيرة . إنه تغير يبلغ ما بين السماء والأرض . فلا هذا الدين استنفد أغراضه في الماضي ولا استنفدها بالنسبة

للحاضر ولا استنفدها بالنسبة للمستقبل ولا يستنفدها أبدا طالما هناك مشرك واحد في الأرض يعتقد بوجود آلهة غير الله أو يقدم الشعائر التعبدية لأحد غير الله (أو مع الله) أو يحكم شريعة غير شريعة الله . بل حتى لو تصورنا جدلا أن أهل الأرض آمنوا كلهم بالله (وهو فرض لا يتحقق أبدا لأنه يخالف ما قدر الله) فلن يستنفد هذا الدين أغراضه لأن مهمته عندئذ تكون المحافظة على إيمان الناس بالتذكير بما أنزل الله تحقيقا للتوجيه الرباني : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ فكيف والأرض مليئة بكل أنواع الشرك سواء شرك الوثنية أو شرك الرسالات السماوية المحرفة لدى اليهود والنصارى أو شرك الاتباع المتمثل في تحكيم الشرائع الجاهلية بدلا من شريعة الله ؟ بل كيف والعالم الإسلامي ذاته ومصر من بينه قد نحيت فيه الشريعة الربانية ووضعت بدلا منها قوانين الجاهلية أى مهمة للإسلام يؤديها اليوم أعظم من مهمة رد الناس عن هذا الشرك كله ودعوتهم إلى التوحيد ؟

ولكن هذا بالذات هو الذى يراد أن يبعد عن أذهان التلاميذ ، يراد منهم ألا يتذكروا أبداً أن مصر قد نحيت فيها الشريعة الإسلامية منذ دخلها الاحتلال الصليبي وصارت تحكمها القوانين الجاهلية لأن تذكر ذلك يترتب عليه أن يجاهد المسلمون في مصر هذا الاحتلال جهادا دينيا لاجتراح الصليبيين من بلاد الإسلام ، من أجل ذلك يشوه الدرس الأول ذلك التشويه حتى تنسى الأجيال المتخرجة في (مدارس الكفر) أن الإسلام له مهمة يمكن أن يؤديها في الوقت الحاضر ثم يدرس للتلاميذ عصر البعثة وصدر الإسلام بطريقة قد تكون وافية وإن كان لا يركز فيها على جوهر الجاهلية الذى جاء الإسلام لازالته وجوهر الإسلام الذى بعث الرسول ﷺ لبيانه للناس ودعوتهم إليه وتمكينه في الأرض بالجهاد . ولكن الصورة المشرفة المتمثلة في عصر البعثة وصدر الإسلام تطمس فجأة وتحبو لأن الذى يدرس للتلاميذ بعد ذلك هو (التاريخ السياسى) للإسلام أو بالأحرى هو التاريخ الذى يغلب عليه الانحراف . حقيقة أن خط الانحراف واقع تاريخي وخاصة في الجانب السياسى من حياة المسلمين وأن هذا الانحراف بدأ مبكرا منذ العهد الأموى وأنه ارتكبت فيه فظائع من أجل الاستيلاء على الحكم أو استبقائه لا يرضى عنها الله ولا رسوله ولا تليق بالمسلمين ولكن التركيز على خط الانحراف وحده وإسقاط بقية الصورة هو تشويه متعمد للتاريخ الإسلامى لأمر يراد فلو أن الصورة أعطيت كاملة كما هي في الحقيقة لأعطت إجماع آخر مختلفا كل الاختلاف ، وقع الانحراف نعم في الجانب السياسى خاصة ولكن لم ينته الإسلام من الوجود وبقي في الواقع التاريخي للإسلام جوانب كثيرة من الإسلام مطبقة في عالم الواقع وبقيت فيه أمجاد كثيرة جديرة بالتسجيل وجديرة باعتزاز المسلمين . ولكن الذى يراد من دراسة التاريخ الإسلامى في المنهج الدولوى ليس هو إثارة اعتزاز المسلمين بتاريخهم بل هو على وجه التأكيد قتل هذا الاعتزاز . ومن أجل هذا الهدف تحفى الصفحة البيضاء كلها أو بالأحرى يخفى ما في صفحة التاريخ الإسلامى من

بياض ويبرز الخط الأسود وحده على أنه هو التاريخ يخفى نشر العقيدة الصحيحة في مساحة واسعة من الأرض تمتد من المحيط إلى المحيط وإخراج الناس فيها من الظلمات إلى النور وإجراء العدل الرباني المتمثل في تطبيق الشريعة الربانية وتحقيق العدل خاصة بالنسبة لمن بقى على دينه في تلك الرقعة الواسعة من الأرض مما لا مثيل له في التاريخ البشرى كله ويقدم هذا كله في عبارة موجزة مبهمة موهمة وهي امتداد الفتوح الإسلامية كأنما هي حركة توسع حرنى لا هدف له إلا فسح الرقعة وبسط النفوذ .

ويخفى بقاء المجتمع الإسلامى فى عمومه فترة طويلة من الزمن نظيفاً من الفاحشة آمنة على أعراسه ، آمنة على أنسابه وحيثما كانت الدولة قوية مبسوطة السلطان فهو آمن أيضاً على دمايته وأمواله فى ظل شريعة الله . وتخفى الحركة الحضارية الإسلامية الضخمة بشقيها المعنوى المتعلق بالقيم الإنسانية العليا والمادى المتعلق بالعمارة المادية للأرض والأشكال التنظيمية للحياة كما يخفى بطبيعة الحال تفرد كلتا الحركتين بميزتها الإسلامية الخاصة المستمدة من المنهج الإسلامى وهى فسح المجال للنشاط البشرى فى جميع مجالاته الحيوية مع الالتزام بالمنهج الربانى الذى يجمع الروح والمادة ويجمع الدنيا والآخرة كلها فى نظام . وحين يخفى هذا كله فماذا يبقى ؟ يبقى إجماعان خبيثان مقصودان :

أولهما : أن الإسلام لم يحكم إلا فترة قصيرة جداً فى عهد الخلفاء الراشدين ثم انتهى إلى غير رجعة .

والثانى : أن التاريخ الإسلامى بعد صدر الإسلام خال من كل القيم التى تقيم الحياة الإنسانية الصحيحة وأنه عبارة عن عمليات دموية من أجل السلطان . وبعد أن يفرغ التاريخ الإسلامى من محتواه الحقيقى على هذا النحو يوجه التلاميذ إلى أوروبا . أوروبا هى العلم - أوروبا هى الحضارة - أوروبا هى القيم - أوروبا هى الديمقراطية - أوروبا هى حقوق الإنسان - أوروبا هى التقدم الصناعى - أوروبا هى الصورة الصحيحة للوجود البشرى فى جميع المجالات . ويخفى عمداً فظائع الاستعمار الوحشية فى كل مكان دنسته أقدام المستعمرين وخاصة فى العالم الإسلامى وتخفى عمداً البواعث الصليبية للتحرك الأورنى نحو العالم الإسلامى ويخفى عمداً الفساد الخلقى الآخذ فى الانتشار يومئذ فى أوروبا ويخفى عمداً غلبة الروح المادية على تلك الحضارة وانطماس الروح وهكذا يقدم التاريخ الإسلامى والأورنى كاذبا من شقيه كليهما وإن احتوى جانباً من الحق . ففى التاريخ الإسلامى يقدم الخط الأسود من الصفحة بتركيز فائق ويخفى ما فى بقية الصفحة من البياض وفى التاريخ الأورنى يقدم الخط الأبيض من الصفحة بتركيز فائق ويخفى ما فى بقية الصفحة من السواد ، وحين يقدم التاريخ بصورته الكاذبة هذه من شقيها فماذا تكون النتيجة؟ تكون تخريج أجيال متعاقبة من (المتعلمين) ينجحون تدريجياً إلى

الانسلاخ من الإسلام على أنه شيء قد استنفد أغراضه ولم تعد له مهمة يؤديها في الوقت الحاضر بل على أنه شيء قد عاش أكثر مما ينبغي وكان ينبغي أن يندثر من زمان بعيد ويتجهون إلى أوروبا على أنها مهبط الوحي ومنبع النور ومنتجع الصحة لمن يريد الاستشفاء من التخلف والرجعية .

وإذا كان هذا كله في المدرسة الدنلوبية الابتدائية فالمدرسة الثانوية تحتوى هذه السموم كلها ولكن بجرعة أكبر فالطلاب في المدارس الثانوية انضج بلا شك وأقدر على الاستيعاب وأجدر حين يتناولون جرعة السم أن يكون تأثرهم بها أشد من أجل ذلك يزداد في تحقير مدرس اللغة العربية إلى جانب الدروس الأخرى عامة ودرس اللغة الانجليزية خاصة ويزاد من تحقير درس الدين ووضعه في أقصى الزاوية الهامشية ويزاد في إعطاء التفصيلات في خط الانحراف التاريخي للمسلمين مع الاخفاء الكامل لكل بياض الصفحة ويزاد أخيرا وليس آخرا في الجرعة الأوربية التي تصور أوروبا على أنها القمة السامقة الفريدة في تاريخ البشرية وتلوى أعناق الطلاب ليا إليها مع الاعجاب المبهور الذي لا يدع للإنسان الفرصة لالتقاط أنفاسه فإذا تم هذا كله جاءت (مدرسة المعلمين العليا) لتكمل التخطيط الدنلوبى الخبيث .

كانت هذه هي المكان الذي يتخرج فيه معلمو المواد كلها ما عدا اللغة العربية التي يتخرج معلموها في الأزهر وحده أولا ثم فيه وفي (دار العلوم العليا) فيما بعد وكانت في الوقت ذاته هي (معمل التفريخ) للمخطط كله الذي يضمن دوام التأثير وعمق التأثير على أسلوب المخطط كله البطيء الخطى الأكيذ المفعول .

كان طلابها يختارون بادية ذى بدء من بين خريجي المدارس الثانوية الذين حققوا بالسم الخبيث على جرعتين متواليتين طويلتين أحدها في أثناء التعليم الابتدائى والثانية في أثناء التعليم الثانوى أى خلال تسع سنوات متواليات . وكانوا يختارون ثانيا على أسس معينة وضعها وينفذها مدير المدرسة ومعلموها وكلهم من الانجليز . ولك أن تتوقع نوع (العينة) المطلوبة ونوع (المؤهلات) المطلوبة وبطبيعة الحال لن تكون الاستقامة على الإسلام ولا التقوى والصلاح بين تلك المؤهلات وأيا كانت نوعية الداخل وقت دخوله فالخارج (مضمون) مضمون النوعية ومضمون المؤهلات . هنا في (معمل التفريخ) يتم كل شيء بعناية فائقة لأنه مستقبل أمة كاملة يصاغ . كانت المدرسة تقع في حى (المنيرة) على بعد دقائق معدودة من ثكنات جيش الاحتلال في قصر النيل وكان الأساتذة الانجليز لا يدخلون على طلابهم في الحقيقة بوصفهم أساتذة فحسب بل بوصفهم قوة الاحتلال القاهرة التي جاءت لتقهر نفوس هؤلاء الطلاب وتشعرهم بالضالة والدونية إزاء (الرجل الأبيض) العظيم الذي وضعته (العناية الإلهية) على رأس هذه البلاد هذا هو المعنى الظاهر الذي كان يتعمد أولئك (الأساتذة) إظهاره ، أما المعنى الخفى وهو القهر الصليبي للمسلمين فهذا لم يكونوا

يصرحون به ولكنه ينيث واضحا في كل مناسبة وفي كل توجيه وأيما كان الأمر فقد كان أولئك (الأساتذة) يمثلون في نفوس الطلاب شيئا مرهوبا لا يقاوم بل حسب الطالب منهم أن يتحاشى فتكاته المتوقعة في أية لحظة ولكنه لا يحس بالأمن الحقيقي لحظة واحدة حتى ينتهى من دراسته ويتخرج فإذا تخرج فالرغبة من (الخواجة) لا تغادر قلبه وإن أخذت صورا متعددة متجددة في حياته العملية وفي جو الرهبة العام يتلقى الطلاب جرعات السموم هل يملك أحد أن يمتنع عن تناولها بل هل يملك أحد أن يمتنع عن التأثر بها حتى لو أراد ؟

جرعات السم هنا واضحة - والتلقين مباشر - .

إن ما بكم من تخلف سببه الإسلام الدين كله يسبب التخلف ولكن الإسلام بصفة خاصة يعمل على التخلف أكثر من أى دين ستظلون متأخرين طالما بقيتم متمسكين بالإسلام لن تتقدموا إلا إذا تخلصتم من عقلية القرون الوسطى التي كانت تعتبر الدين أساس الحياة . أساس الحياة اليوم هو العلم وليس الدين .

وهذا إلى جانب التلقين غير المباشر . لقد كانت أوروبا في العصور الوسطى المظلمة خاضعة لسلطان الدين فكانت جاهلة متأخرة جامدة وحين نبذت الدين تقدمت وتحضرت وتعلمت وأوتيت كل وسائل القوة والتمكن كان الدين حاجزا عن العلم لأنه مجموعة من الخرافات وحاجزا عن العمل والنشاط والانتاج لأنه ينظر إلى الآخرة ويهمل الدنيا .

كان لابد من تخطيه للقضاء على الخرافة والاستمتاع بالحياة على الأرض الفكر الإنساني الحر هو الذى تصدى بجرأة لتحطيم الخرافة ووصل إلى التقدم الرائع الذى تمارسه أوروبا اليوم هو الذى قرر الديمقراطية وقرر حقوق الإنسان ورفع من قيمة الكرامة الإنسانية بتقرير مبدأ الحرية الشخصية التي كانت مهددة في ظل السيطرة الدينية وما كان الطلاب يومئذ يملكون الرد على التحدى وما كانوا يملكون في هزيمتهم الداخلية المبهورة بما عند الغرب ورهبتهم من الاحتلال العسكرى الجاثم على أرضهم ورهبتهم من (الخواجة) الذى يجرعهم ذلك السم ما كانوا يملكون المعرفة التي يردون بها على التحدى حتى لو بقيت لهم نفوس ترغب في الرد هل في إمكانهم يومئذ أن يدركوا أن التخلف الذى أصابهم والذى يعيرهم به (الخواجة) وينفذ منه لمهاجمة عقيدتهم ودينهم وتقاليدهم لم يكن سببه الإسلام إنما كان سببه التخلف العقيدى الذى أبعد الأمة عن حقيقة الإسلام . وهل كان في إمكانهم يومئذ أن ينفذوا إلى حقيقة (الحضارة الغربية) فيعرفوا جوانب قوتها وجوانب ضعفها ويدركوا أن الدين الذى حطمته أوروبا لتتقدم وتحضر كان دينا زائفا من صنع الكنيسة وكان جديرا بالتحطيم بالفعل لأنه عائق عن الحياة وعن التقدم وعن عمارة الأرض ولكن الحياة بلا دين من جانب آخر مفسدة لا تقل عن مفسدة الدين الزائف إن لم تكن أشد وأنها تعرض الحضارة في النهاية إلى

الانبيار؟ كلا ما كان في طوقهم يومئذ أن يدركوا شيئا من ذلك كله حتى لو أوجعهم
تبيكت الخواجة لهم وتعيره إياهم ونسبته كل ما في حياتهم من سوء إلى الإسلام .

وإذا لم يكن في طوقهم أن يدركوا شيئا من ذلك فقد كان من المتوقع لهم وهو ما
حدث بالفعل أن يتأثروا بالسموم التي تقدم لهم وينصبوا في القالب الذي وضع لهم
بلا مقاومة تذكر أو بلا مقاطعة على الإطلاق . وهل كان (الخواجات) من مدير وأساتذة
سيسكتون على واحد من الطلاب لو وجدوا فيه شيئا من المقاومة لأهدافهم ؟ كلا ولا شك
ولكننا لم نسمع على أى حال أن واحداً من الطلاب قد قاوم وفصل لأنه قاوم فإذا انتهت
سنوات الدراسة الأربع في مثل هذا الجو وهذا التوجيه فقد ضمن الخواجات أن (فراخهم)
التي انتجوها في (معمل التفرخ) والتي ستخرج لتتولى تربية جيل جديد من النشء ستقوم
بالدور المطلوب تلقائياً بغير حاجة إلى توجيه جديد فقد انطبعت نفوسها بما يراد طبعها به
وصارت (تلقياً) تلقائياً ما سكب في كيانها من السم ولكن لا لتتخلص منه وتفتىء إلى
صحتها كما يفعل الإنسان السوى حين يتناول السم بل لتطعمه فراخا جديدة صغيرة السن
لا تدرك شيئا مما حولها بل تلتقط كل ما يوضع أمامها بلا تمييز ولا قدرة على التمييز . بهذا
التخطيط الخبيث أحكم دنلوب قبضته الصنيبية على الأجيال فلم تكن المسألة إفساد جيل بعينه
يذهب ويذهب معه فسادة . إنما كان الهدف ضمان سريان السم في الأجيال المتعاقبة لكيلا
يخرج جيل يفكر في العودة إلى الإسلام . وعن طريق معمل التفرخ الضخم الذي أقامه ضمن
الدورة الكاملة للسم ضمن الأستاذ والتلميذ .. الأستاذ الذي سيصب التلاميذ في القالب
المطلوب والتلاميذ الذين سينشأون في داخل القالب لا يقاومون نشأتهم فيه .

ولكن التخطيط مع ذلك لم يكتف بتلك الدورة المتكاملة التي تدور دورة كاملة مع
كل جيل جديد بل كان أشد خبثاً وأشد إحكاماً فمد الخيوط إلى مدى أبعد فإذا كان المدرس
العادى قد صُب في القالب فانصب وسلط على النشء ليصبه من جديد في نفس القالب فإن
المدرس (الممتاز) وناهيك (بامتياز) يكافأ على امتيازته هذا مكافأة إضافية ليستفاد منه على
نطاق أخطر فيبتعث إلى إنجلترا ليصاغ من جديد صياغة أدق .

صحيح أن (الخواجات) هنا قد قاموا (بالواجب) على النحو المطلوب ولكن فرق
بين أن تظل في بلدك وإن صاغك الخواجات متأثراً ببعض تقاليدها وأفكارها وعقائدها وبين
أن (تستببت) من جديد في أرض الخواجات أنفسهم فتصبح كأنك خواجة بالفعل بدلا من
أن تكون مصريا متأثراً بالخواجات فحسب بل إنك قد تعود ملكيا أكثر من الملك فتقوم
بالدور المطلوب بأعنف مما كان الخواجات أنفسهم يفعلون فإذا عاد أولئك المبتعثون وقد
صاروا مخلقا آخر ممسوخا كل المسخ لا يعرف دينه ولا لغته ولا قومه وينظر إلى ذلك كله

بازدراء شامل فهناك يوضعون في مراكز التوجيه ليكون أثرهم في الافساد أشمل وأوسع حتى إذا صار أحدهم في نهاية المطاف وزيرا للمعارف أو وكيلًا للوزارة حطم من مقدسات قومه ما لم يكن يجزؤ دلوب نفسه أن يفعل .. فدلوب كما خطط لنفسه أو خطط له سيده الذي استخدمه ليقوم بدوره يحافظ على المظاهر الزائفة (منعا لاثارة الشكوك) أما هذا الثور الهائج فلا يتقى شيئًا ولا يحفل بشيء .

وفي وسط هذه الدورة الخبيثة يظل مدرس اللغة العربية (ومدرس الدين) يتعد عن الطريق ويداس بالأقدام يسبقه غيره على الدوام ولا يتولى وظيفة واحدة من وظائف التوجيه فيظل صوته يخفت ويخفت حتى لا يسمعه أحد من الناس ويظل الآخرون يبرزون ويبرزون حتى تصبح في أيديهم صدارة (المجتمع الجديد) وتمضى دورة الزمن فتفتح الجامعة الأهلية ثم الجامعة الرسمية ثم تتلوها الجامعات ذوات العدد فتسير نفس السيرة على نفس المخطط وقد غاب صاحبه من الوجود كله ولكن مخططه يظل سارى المفعول وأكد المفعول .

(ب) وسائل الاعلام

إذا كان هذا نصيب مناهج التعليم في عملية الغزو الفكرى الصليبي ضد الإسلام فهناك أداة أخرى لا تقل خطرا إن لم تكن أخطر تلك هى وسائل الاعلام : الكتاب والصحيفة والمسرح والسينما ثم الاذاعة (ولم يكن التليفزيون قد اخترع بعد في الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها ولكنه منذ جاء سار على نفس التخطيط) فأما الكتاب فقد بدأ مترجما في أول (عهد النهضة) ثم أصبح مؤلفا فيما بعد وإن كان خطر الترجمة ظل موجودا على الدوام . ومن الأمور الطبيعية في مثل الحال التي كان المسلمون قد وصلوا إليها أن يبدأ الأمر بالترجمة لغياب عنصر التأليف وفراغ الجو الإسلامى كله من الفكر الحى المتدفق المتألق المواكب لخط الحياة . ولكن ما الذى ينبغى أن يترجم .

كان المفروض كما حدث في حركة الترجمة الأولى أن يبدأ الأمر بترجمة الكتب العلمية فقد كان الفقر العلمى شديدا وكان التخلف في الميدان العلمى من أبرز ما أحس به المسلمون حيث صحوا على الهزيمة أمام جحافل الصليبيين . ولا شك أن بعض الكتب العلمية قد ترجمت في تلك الفترة ولكن الجانب الأعظم من حركة الترجمة سار في قنوات أخرى بعيدة كل البعد عن المطلوب أو عن الأمر الواجب في ذلك الحين . فإلى جانب الكتب العلمية القليلة التي ترجمت ترجمت مئات من القصص والمسرحيات والكتب التي تحمل الفكر الغربى (العلمانى) الجاحد للدين المناوىء له مع عناية خاصة بنشر أفكار عن نظرية التطور الداروينية . فأما القصص والمسرحيات فقد كان الهدف من نشرها على نطاق واسع هو تحطيم التقاليد الإسلامية التي تمنع

الاختلاط وتفر من الفاحشة والتحلل الخلقي فقد كانت هذه التقاليد مع كونها تقاليد خاوية من الروح عقبة ضخمة في سبيل الافساد الخلقي الهائل الذى تهدف الصليبية إلى إحدائه في المجتمع الإسلامى .. وإذا تذكرنا أن نابليون كان قد جاء معه ببعض (الساقطات) كما سماهن الجيرتى وهو يروى أحداث الحملة وأن هذا كان هدفا مقصودا من أهداف الحملة أو من مآثرها لإشاعة السفور في المجتمع المصرى المسلم ومن ثم إشاعة الفاحشة سهل علينا أن نفهم الهدف من القصص الغرامية والمسرحيات التى تعرض جوا مختلفا تماما عن الجو الإسلامى المحافظ الذى لا يجهر فيه بالفاحشة ولا يتعالم بالمنكر والذى تسعى الصليبية إلى تحطيمه بوصفه ركنا من الحياة الإسلامية التى يراد هدمها أولا عن آخر . فالذى تعرضه تلك القصص والمسرحيات لا يزيد على أن يكون علاقات غير مشروعة بين رجل وامرأة أو بين شاب وفتاة تعطى في القصة أو المسرحية شرعية وواقعية ليست لها في الميدان الإسلامى ويتم هذا في جو (الفن) الذى يسبغ على كل شيء جمالا وجاذبية مهما يكن فيه من الشر تلك مزية الفن وتلك خطورته في ذات الوقت . فهو يحمل القدرة على التأثير ويعرض ما يعرض في جو من المشاعر والوجدانات تجعل القارئ أو السامع يشارك بخياله مع المشهد المعروض وينفعل بما ينفعل به الأشخاص المعروضون في المشهد . ومن هنا يحمل الفنان مسؤوليته فحيث يكون خيرا حيث يكون ملتزماً بالقيم الإنسانية العليا فإنه يتجه إلى تزيين الخير والتنفير من الشر وليس من الضروري أن يكون ذلك عن طريق التوجيه المباشر . بل كلما لجأ الفنان إلى الطريق غير المباشر أى عرض ما يريد عرضه من خلال مواقف ومشاهد ومشاعر ووجدانات دون أن يتدخل بشخصه تدخلها مباشرا كان ذلك أبلغ في التأثير في نفس القارئ أو السامع وأفضل في جذبه إلى صف المعنى المطلوب وأما حين لا يكون ملتزماً بالقيم العليا أو حيث يكون أسوأ من ذلك معاديا لها راغبا في تحطيمها فإنه يحمل القدرة الفنية التى تمكنه كذلك من جذب القارئ أو السامع إلى صف التوجيه الذى يريده وقد كان الفن الذى يترجم هو الفن الذى تخلص تماما من القيم الدينية وراح يدعو إلى إقامة مجتمع (طليق) من تلك القيم مجتمع يهبط تدريجيا حتى يصبح مجتمعا حيوانيا في النهاية وسواء كان الذين ينقلون هذه القصص والمسرحيات إلى العربية واعين تماما للدور الذى يلعبونه أو غير واعين فقد كان هناك تشجيع خفى لنشر هذا (الفن) وتروجه بين الشباب خاصة . والهدف واضح . فحين يقرأ الشاب قصة غرامية أو عاطفية كما كانوا يسمونها يلتقى فيها الفتى والفتاة بعيدا عن أعين الناس ويجرى بينهما من الكلام والمواقف ما يجرى مصورا بجاذبية الفن وإغرائه فسيتمنى في دخيلة نفسه أن لو كان هو صاحب الموقف أو أن يقع له مثل ما يقرأ في القصة أو المسرحية .. ويعلم الشاب جيدا أن مجتمعه المحافظ لا يسمح بمثل هذه المواقف التى يقرأ عنها ولكنه عندئذ يتمنى أن يجيء يوم تنحطم فيه تقاليد مجتمعه التى تحول بينه وبين (الاستمتاع) على النحو الذى يتم في المجتمعات الأخرى التى (تحررت) من مثل تلك التقاليد .

فإذا جاء اليوم الذى تحطم فيه هذه التقاليد بالفعل وقد جاء فلن يكون مثل هذا الفن من المعارضين بل سيكون أول المرحبين أما الكتب التى تحمل الفكر (العلماني) فالهدف من ترجمتها واضح كذلك يقول (أ . شاتيليه) فى مقدمة كتاب (الغارة على العالم الإسلامى) : (ولا شك فى أن إرساليات التبشير من بروستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن ترحزح العقيدة الإسلامية فى قلوب منتحليها ولا يتم لها ذلك إلا بيبث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأوربية فنشرها اللغات الانجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية تحيك الإسلام بصحف أوروبا وتمهد السبيل لتقدم إسلامى مادمى وتقض إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التى لم تخطط كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها .

وهذا يوضح لنا الهدف من ترجمة هذه الأفكار ونشرها باللغة العربية ذلك أنه مهما انتشر تعلم اللغات الأجنبية فستظل الجماهرة الكبرى من الشعب عاجزة عن قراءة هذه الأفكار فى لغاتها الأصيلة ومن ثم يبقى الحاجز الذى يشكو منه ذلك المبشر قائما يحمى العالم الإسلامى من عوامل التدمير الخارجية فإذا انساح الحاجز عن طريق الترجمة قضت الصليبية لبانتها على حد تعبير المبشر وأمكن إحداث الدمار المطلوب . وأما العناية الخاصة بالداروينية ونظرة التطور فقد يكفيننا فيها قول البروتوكولات : (لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشه وأن تأثير أفكارهم على عقائد الأميين واضح لنا بكل تأكيد) . وقد استطاعت اليهودية العالمية عن طريق ترويج أفكار داروين وتوسيع نطاقها أن تحطم ما كان قد بقى من عقائد (الأميين) الأوربيين وتنشئ هناك مجتمعا (جديدا) بلا دين ولا أخلاق ولا تقاليد وكان فى تخطيط الصليبية استخدام تلك القذائف المدمرة لذات الهدف فى المجتمع الإسلامى لإنشاء مجتمع (جديد) بدلا منه لا دين له ولا أخلاق ولا تقاليد . لذلك كانت العناية بنشر تلك النظرية بالحاح فى العالم الإسلامى لعلها تصنع هنا ما صنعته هناك .. أما الصحافة فشأنها أخطر .. فلئن كان الكتاب بصفة عامة هو زاد (المثقفين) فالصحافة زاد شامل يشمل المثقفين وأنصاف المثقفين كما يشمل العامة حتى الذين لا يقرأون منهم إذ هناك من يتحلقون حوله ليقرأ لهم الصحيفة حتى فى أعماق الريف .

وفى مصر بالذات قامت الصحافة بدور خطير لعله أخطر الأدوار إذ كانت مصر فى نظر المخططين كما أسلفنا هى مركز التوجيه الروحى والثقافى بسبب موقعها الجغرافى ومكانتها التاريخية وبسبب وجود الأزهر فيها فإذا أمكن إفسادها من الناحية الإسلامية كان ذلك عوناً كبيراً للذين يخططون لإفساد العالم الإسلامى كله لأن الفساد سيصدر يومئذ وعليه خاتم القاهرة فيكون أفعال فى الإفساد مما لو جاء وعليه خاتم لندن أو باريس لذلك لا نعجب كثيرا من وجود ثلاث دور صحفية كبيرة لبنانية مسيحية مارونية فى القاهرة وإن كان السؤال يظل باقيا : لماذا اختار أولئك المسيحيون المارونيون اللبنانيون القاهرة لتكون موضع نشاطهم ؟

أبتوجيه وتخطيط من الصليبية العامة أم بدافع من صليبيتهم الذاتية وبطبيعة الحال لا يوجد فرق في النهاية بين هذا الوضع وذلك فالقنوات الصليبية تلتقى كلها في النهاية في مجرى واحد ولكن هناك دلائل كثيرة تدل على أن هناك اتفاقا صليبيا عالميا على جعل القاهرة مكان الأفكار الناشئة عن الإسلام والحركات المناوئة للإسلام وللدولة العثمانية كنتشجيع نازلي فاضل على بث أفكارها (التحررية) في صالونها بالقاهرة بحضور اللورد كرومر ، وكصدور بعض النشرات السرية للقومية العربية المطاردة من قبل الدولة العثمانية من القاهرة وكإقامة جمال الدين الأفغانى في مصر فترة من الوقت فإذا لاحظنا هذه الدلائل كلها كان الأقرب إلى الحساب أن يكون وجود هذه الدور الصحفية الثلاث : دار الأهرام لآل تولا - ودار الهلال لآل زيدان - ودار المقطم لآل صروف نتيجة توجيه صليبي عالمي لا مجرد انبعاث صليبي ذاتي ولا توافق خواطر بين أصحاب هذه الدور الثلاث .

وأيا يكن المنبع فالمصوب واحد والتخطيط واحد والأهداف واحدة .. الهدف هو تحويل هذه الأمة عن الإسلام والمنهج هو منهج الدولة الصليبية الحاكمة (بطيء ولكنه أكيد المفعول) (منعا من إثارة الشكوك) وهل كان يتصور في ذلك الزمان أن تكون الخطى أسرع مما كانت؟ كلا! فتجربة نابليون الحمقاء كانت ما تزال ماثلة للعيان والفشل الذى منيت به نتيجة حماقتها وسرعة خطوها وعنف حركتها كان ما يزال ماثلا في الأذهان .. وكانت بقايا الإسلام في نفوس المسلمين المصريين كفيلة بإفساد الخطة كلها لو انكشفت وسرعة الخطو من العوامل التى يمكن أن تكشف الخطة وتفسد المفعول . ولذلك كان كرومر ودنلوب حريصين على العمل البطيء الذى لا يثير الشكوك ، نعم .

لم يكن يتصور أن تبدأ الصحافة اللبنانية المسيحية المارونية عملها بمهاجمة الإسلام فقد كانت غضبة الجماهير كفيلة بتحطيم تلك الدور على رؤوس أصحابها من أول الطريق . ولكن على مهل ممكن بل لقد يندع الغافل إذا اطلع على بعض أعداد هذه الصحف فيحسبها لأول وهلة صحافة إسلامية فهى تمتدح الإسلام وتمتدح رسوله العظيم ﷺ وتخصص مكانا يوميا لأخبار (الباب العالى) ومقابلات السلطان وتنقلاته ولا تقصر في توفية أخبار ما يدور بين السلطان والدول الأوربية من مفاوضات أو مناوشات أو منازعات فأى شئ يريد المسلم من صحيفته أكثر من ذلك؟ نعم ولكن الذى يدقق فى الأمر يجد من خلال ذلك وإلى جانب ذلك أشياء أخرى تنم عن مقاصد مختلفة .

فالإسلام يمتدح بما يرضى (عواطف) المسلمين نعم ، ولكن لا يتحدث عنه كنظام حياة وشريعة حكم وحينما تناقش المشاكل القائمة في مصر أو في العالم الإسلامى فلا يقدم لها الحل من شريعة الإسلام ولا حتى من روحه إنما تقدم الحلول كما سنرى من التجربة الأوربية ومن

(الحضارة الأوربية) بل أكثر من ذلك أن هذا الإسلام الذى يتحدث عنه بما يرضى عواطف الجماهير دون أن يقدم للناس على أنه نظام حياة أو شريعة تحتوى على حلول مشاكلهم هذا الإسلام ليس حديثا يوما يطالع القارىء هذه الصحف فيظل على ذكر دائم من دينه ولو حتى على مستوى العواطف والوجدانات إنما هو حديث (مناسبات) معينة يطلق عليها (المناسبات الدينية) فلا ينحسر الدين عن مفهومه الحيوى الشامل فحسب بل ينحسر مرة أخرى إلى مناسبات عارضة فى حياة المسلم يتمتع فيها وجدانه بمدح الرسول ﷺ ومدح الإسلام ثم يبقى وجدانه خاويا حتى من ذكر الإسلام بقية الشهور وبقية الأيام .

وكاملء الفراغ الناجم من تفرغ التاريخ الإسلامى من محتواه فى المنهج الدولوى بذكر أوروبا وقوتها ونهضتها وحضارتها وأصالتها وعظمتها فكذلك تملأ الصحف الفراغ الناجم من تفرغ الإسلام من محتواه الحقيقى والفراغ الناجم من عدم ذكر الإسلام إلا فى (المناسبات الدينية) فحسب تملأ الصحف هذا الفراغ وذاك بذكر أوروبا فهناك ذكر يومى دائم لأوروبا فى باب الأخبار وحديث دائم عن أوروبا فى كل مناسبة من المناسبات فأما الأخبار فقد يبدو ذكر أوروبا فيها أمرا طبيعيا وبديها ليس فقط لأن مهمة الصحف أن تطلع قارئها على أخبار العالم الذى يعيش فيه وليس فقط لأن أوروبا فى تلك الفترة كانت مركز نشاط دائم لا يفتر فى جميع الاتجاهات بل لأن الحقيقة الواقعة رضينا أم أئينا أن أوروبا كانت تمسك بيدها يومئذ أزمة الأمور وتقرر للعالم ما يقوله وما يفعله بحكم غلبتها العسكرية والسياسية والعلمية والحضارية ومع ذلك فإن الصحيفة الإسلامية فى الوطن المسلم يكون لها طريقة فى تقديم الأخبار تشعر قارئها أنه مسلم ولو كان مغلوبا على أمره وتشعره أن له نظرة إلى الأمور فتميزه عن نظرة غيره إلى الأمور ذاتها فهو قد يغضب لأمر قد يرضى بها غيره وقد يفرح بأمر يأسف لها غيره وقد يأسى لأمر يرضى بها غيره وقد يشارك غيره ولكن من موقفه الخاص المتميز ومع ذلك فإذا تناضينا عن الأخبار وطريقة تقديمها فلا نستطيع أن نتغاضى عن الذكر الدائم لأوروبا فى تلك الصحافة فإن فيها بيت القصيد أن أوروبا لا تذكر فى هذه الصحافة بحجمها الحقيقى وهو يومئذ فى ذاته كبير ولكن يزداد عليها ويضاف إليها حتى يلقي فى روع القارىء أن أوروبا هى العالم وألا وجود لشيء غير أوروبا فى هذا الوجود .

وحقيقة أن أوروبا كانت يومئذ غالبية ومسيطرة ولكنها كانت مسيطرة على عوج عظيم فى منهج حياتها كله فهل كانت تلك الصحافة تكتب عن بشاعة الاستعمار وبشاعة الجرائم التى يرتكبها ضد البلاد المحتلة ومعظمها بلاد إسلامية . وهل كانت تكتب عن الدوافع الصليبية للاستعمار فى البلاد الإسلامية من وراء (المصالح الاقتصادية) و(المصالح السياسية) وما شابهها من المصالح وهل كانت تكتب من الفساد الخلقى فى أوروبا وما يجره على الناس من آثار سيئة فى حياتهم وهل كانت تكتب عن الربا وهل كانت تكتب عن المؤامرة

الأوربية - الصليبية اليهودية- للقضاء على الخلافة العثمانية؟ أن الصحيفة الإسلامية في الوطن المسلم لم تكن لتغفل الحقيقة الواقعة أو تتجاهلها لم تكن لتغفل أن أوروبا هي المتحكمة في شئون العالم وأنها هي القوة المتمكنة في كل اتجاه سواء في المجال السياسي أو الاقتصادى أو الحربى أو العلمى أو التكنولوجى ولكنها حيث تكون إسلامية لا بد أولاً أن تقف موقف الناقد من انحرافات أوروبا حيث توجد انحرافات وهي موجودة بوفرة في الحياة الأوربية ولا بد ثانياً أن تنهض همم المسلمين ليتداركوا تخلفهم ليستردوا ما فقدوه من التمكن في الأرض مرشدة لهم إلى الطريق السوى لتدارك التخلف وهو أن يأخذوا من أوروبا ما هم في حاجة إليه من تقدم علمى ومادى مع المحافظة على دينهم وأخلاقهم وتقاليدهم وعدم الذوبان في أوروبا وعدم تقليدها فيما يخالف عقيدة الإسلام وشريعته وروحه وهذا هو مفرق الطريق بين الصحافة الإسلامية والصحافة غير الإسلامية وقد يقول قائل : وأين كان المسلمون ؟ ولماذا لم يصدرُوا صحافتهم التى تعبر عن موقفهم وتخدم وجودهم ومصالحهم ؟ ونقول أن المسلمين كانوا غائبين عن وعيهم ولا شك في غمرة الانهار التى نشأت عن التخلف العقيدى الذى كانوا واقعين فيه والذى أدى في حياتهم إلى كل ألوان التخلف الأخرى : العلمى والمادى والحضارى والفكرى والحربى والاقتصادى والسياسى ولكننا نريد أن نبرز فقط حقيقة تلك الصحافة التى أقامها المسيحيون اللبنانيون المارونيون في مصر وحقيقة الدور الذى قامت به فضلاً عن علامة الاستفهام التى تحيط بهم : لماذا جاءوا إلى مصر بالذات ليعملوا فيها وينشئوا بها دورهم الصحفية دون أى بلد آخر فهناك موقفها الخاص من كل هذه القضايا التى أشرنا إليها فإنه إذا استحال عليها أن تقف الموقف الإسلامى وهى مسيحية فهى لم تقف كذلك الموقف (المحايد) الذى يعرض الحسنات والسيئات إنما وقفت موقف المدافع المستميت عما يسمى (الحضارة الأوربية) بكل سقطاتها وانحرافات كما وقفت موقف المحرض للمسلمين في مصر أن يقتفوا أثر أوروبا في كل شىء وأن يحلوا مشاكلهم على النسق الأوربى وأن ينظروا إلى الأمور كلها لا بعينهم هم ولكن بعين أوروبا وإليك مثلاً واحداً يبرز المعنى الذى نقصد إليه . لقد أدت الثورة الصناعية في أوروبا إلى تحطيم الأسرة وفساد الأخلاق وانتشار البغاء وبصرف النظر عن كل شىء فتلك مشكلة أوربية بحته نشأت من ظروف محلية هناك ما شأن المسلمين بها ؟ لماذا يشغلون بها ؟ وإن انشغلوا بها فمن أى زاوية ينظرون إليها ؟ أمن زاوية أنه فساد أخلاق أصاب أوروبا حين تنكرت للدين والأخلاق والتقاليد أم من زاوية أنه (ضرورة) ضرورة اجتماعية في الحياة الحضارية الصناعية ؟ هذا هو مفرق الطريق .

لقد ظلت الصحافة المصرية اللبنانية المسيحية المارونية تتحدث عن البغاء وعن كونه (ضرورة اجتماعية في العالم المتحضر) عشرات السنين قبل أن تكون في العالم الإسلامى كله مشكلة تدعو إلى وجوده ولا إلى الحديث عنه ... لماذا ؟

ألمجرد (تسلية) القارىء المصرى ؟

وهل هذه القنطرة النفسية والأخلاقية والاجتماعية تصلح مادة للتسلية كلالا لم يكن القصد هو التسلية إنما كان القصد تهيئة الأذهان لليوم الذى يراد فيه نشر البغاء فى المجتمع الإسلامى المصرى وجعله جزءا من كيان المجتمع تحرسه (الدولة) بقوانينها وتسهر عليه .

كان المراد هو تنويب (الحس) الإسلامى الذى ينفر من الفاحشة ومن التعالين بها بعد أن نحيث الشريعة التى تمنع البغاء وتعاقب عليه حتى إذا جاء اليوم المنشود وقد جاء لم تكن النفوس نافرة ولا القلوب منكرة إنما كان هناك تقبل مسبق (للضرورة الاجتماعية) التى تنشأ عن الحضارة وكان المعارضون لممارسة هذه الضرورة هم (المتزمتين) (الجامدين) (المتحجرين) الذين لا يريدون أن يسايروا (ركب الحضارة) ولا روح التطور السارية فى العالم كله وذلك مجرد نموذج يمكن أن تقاس عليه كل (القضايا التقدمية) الأخرى كالاختلاط والعلاقات الحرة و(قضية المرأة) ودور الذين فى الحياة العصرية و(العلمانية) .. الخ .. الخ .. وكيف كانت الصحافة (المصرية) تتناولها وكيف كانت بكل خطتها جزءا من الغزو الفكرى الصليبي المقصود . لقد أدت هذه الصحافة دورا خطيرا فى حياة المسلمين فى مصر .. على خطين رئيسيين : تقليص دور الإسلام ولى الأعناق ليا إلى أوروبا بحيث تصبح تدريجيا هى الوجهة التى يتجه المسلمون إليها بدلا من الإسلام والتى يتوسمون فيها طريق الخلاص من حاضرهم السئ الذى يعيشونه ويتطلعون من خلالها إلى مستقبل سعيد باسم يلحقهم بركب الحضارة ويدفع عنهم وصمة التأخر والانحطاط يذكرنا هذا بما قلناه عن رفاة رافع الطهطاوى ولقد رُفضت دعاوى رفاة الطهطاوى يومئذ لأنه فاجأ بها قوما غير مستعدين لتقبلها ولكنها هى بخلافها وأكثر منها ستصبح منذ اليوم مقبولة لأن الصحافة على الخط البلىء الأكد المفعول قد مهدت لها الأذهان والقلوب فإذا جاءت الآن وقد جاءت بالفعل وجدت الناس أكثر استعدادا لتقبلها بل وجدت بعضهم متلهفين إليها يستبطنون قدومها ويستعجلون خطاها . ولقد يقول قائل : أو لم تكن الأمور صائرة إلى هذا المصير بحكم جميع الظروف المحيطة بالمسلمين ؟ فليس دور تلك الصحافة إذن إلا مواكبة ما كان حادثا بالفعل من (تطور) فى أفكار الناس ومشاعرهم مما كان لا بد أن يحدث فى جميع الأحوال ؟ ونتوقف فى الاجابة عند نقطتين ... أما أن الأمور كانت صائرة من تلقاء نفسها إلى هذا المصير فأمر قد نرجحه بحكم الظروف التى كانت تحيط بالمسلمين يومئذ ولكننا لا نقطع به .. فالذى حدث فى الجزيرة العربية من انطلاق محمد بن عبد الوهاب بحركته القومية لتصحيح العقيدة وإزالة ما شابها من الغش يدلنا على أن الطريق الذى سارت فيه الأمور فى مصر لم يكن حتميا إنما كان يمكن أن يحدث فى مصر ما حدث فى الجزيرة العربية من محاولة لتصحيح أحوال الأمة بإزالة (التخلف العقيدى) الذى نشأت عنه كل ألوان التخلف

الأخرى من علمية ومادية وحضارية وعسكرية .. الخ . ولكن الجو الذى أحدثته تلك الصحافة (مع وسائل الاعلام الأخرى بلا شك) قد جعل قيام مثل هذه الحركة فى مصر فى ذلك الوقت احتمالا ضئيلا جدا وجعل الاحتمال الأقوى هو السير فى الطريق الذى سارت فيه بالفعل . وأما النقطة الأخرى فهى أن هذه الصحافة لم تكن مواكبة ولكنها كانت رائدة .. لم تكن تتحدث عن أشياء قائمة بالفعل فى نفوس الناس بل عن أشياء يراد أن تقوم فى نفوسهم والمثال الذى ضربناه بقضية البغاء واضح فقد كانت هذه الصحافة تدأب على ادخال الأفكار الغربية اللادينية إلى المجتمع الإسلامى ولو لم يكن متقبلا لها أو مشغولا بها من قبل . ولو فرضنا جدلا أن وضع الغالب والمغلوب هو الذى سيحسم القضية سواء أقامت تلك الصحافة بلورها أم لم تقم فما لا شك فيه أن دور الصحافة كان هو الاسراع فى تعبيد المغلوب للغالب الصليبي ومدته فى الغنى وابعاد صحوته إلى ما ينبغى أن يكون عليه ومنعه من الرجوع إلى الإسلام لو أراد أن يرجع إليه .. وتدرجيا على مهل شديد بدأت تلك الصحافة تهاجم الإسلام هل كان يتصور أن تهاجم الإسلام يومئذ باسمه الصريح ؟ كلا فالبقية من الدين فى قلب هذه الأمة فى ذلك الحين كانت تمنع حدوث ذلك ولو حدث لثارت الجماهير على هذه الصحف وهدمتها على رؤوس أصحابها .. إنها تهاجم التقاليد .. التقاليد البالية .

وإذا سألنا أنفسنا : ما تلك التقاليد البالية التى تهاجم لوجدنا أن معظمها كان هو الإسلام . حقيقة كان من بين تلك التقاليد التى تهاجم تقاليد جاهلية ارتدت إليها الأمة الإسلامية فى فترة التخلف العقيدى كالتقاليد التى منعت تعليم المرأة والتى قضت بإساءة معاملتها وتحقيرها على أساس أن مهمتها أن تحمل وتلد ولكن ليس لها كيان إنسانى يوجب الاحترام وهى ردة جاهلية فى هذا المجال كانت الأمة قد هبطت إليها نتيجة البعد عن المنهج الربانى القويم الذى ساوى فى الإنسانية بين كيان المرأة وكيان الرجل وإن فرق بينهما فى بعض التكاليف وبعض الحقوق وبعض الواجبات حيث قال سبحانه : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض ﴾ .

وقال : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ وقال : ﴿ وعاشروهم بالمعروف ﴾ . وقال عليه السلام : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى » ولقد كانت تلك التقاليد غير الإسلامية هى المدخل الخبيث الذى دخلته الصحافة المهاجمة (التقاليد البالية) بحجة أنها ليست من الإسلام إنما هى من صنع المتزمتين من الرجال الذين أضفوا عليها قدسية الدين ليحموا من ورائها أنانيتهم وتزمتهم وقد كان هذا حقا يراد به باطل فلم يكن القصد من مهاجمتها هو ردها إلى

أصلها الإسلامى الصحيح إنما كان القصد هو النفاذ من هذا المدخل الخبيث لمهاجمة التقاليد الإسلامية الصحيحة الأصيلة بحجة أنها كلها (تقاليد بالية) ليست من الإسلام .

فاحتقار المرأة وتعبيرها بأنها تحمل وتلد وليست مساوية في الكيان الإنسانى للرجل وعدم تعليمها وتركها في جهالة ومهانة كل هذا ليس من الإسلام ولكن منع الاختلاط بغير موجب ومنع التبرج والفتنة ومنع إقامة علاقة (حرة) بين الرجل والمرأة إلا العلاقات الشرعية التى أذن الله بها وحدها .. هذا كله من صميم الإسلام قرره الله ورسوله ولم يقرره المتمتون من (رجال الدين) ولا قرره الرجل وأضفى عليه قداسة الدين ليحمى أنانيته وترتمته ولكن الذين كانوا يهاجمون (التقاليد البالية في الصحافة المصرية) اللبانية المسيحية لم يقفوا عند التقاليد غير الإسلامية ولم يسعوا إلى تصحيحها بردها إلى أصلها الإسلامى الصحيح ذلك أن هدفهم لم يكن تصحيح عقيدة هذه الأمة وتصحيح مسلكها بإرجاعه إلى صورته الإسلامية إنما كان هدفهم الحقيقى هو محو الإسلام محوا وإزالته من الوجود .

وهذا هو مفرق الطريق .. لقد كان من شأن الداعية المسلم والمصلح المسلم أن يهاجم تلك التقاليد الجاهلية التى ارتدت إليها الأمة في فترة التخلف العقيدى ويندد بها ويدعو إلى إبطائها وإزالتها ولكن لحساب الإسلام . لحساب المنهج الربانى الصحيح وكان من شأن الداعية المسلم والمصلح المسلم في ذات الوقت أن يرسخ التقاليد الإسلامية الصحيحة فيدعو إلى المحافظة على الحجاب الإسلامى ومنع التبرج ومنع الاختلاط ومنع التفسخ الخلقي ولكن الذى صنعت تلك الصحافة وكتابها كان هو المهاجمة الشاملة لكل التقاليد صحيحها وفاسدها التقاليد التى تمنع تعليم المرأة والتقاليد التى تمنعها من (مشاركة الرجل في كل أمور المجتمع) ولقد كانت (قضية المرأة) من أكبر الموضوعات التى خاضتها تلك الصحافة وكتابها ومن أبعدها أثرا في تحويل المجتمع إلى الوجهة التى يريدونها المخططون الصليبيون ومن كان في شك من التخطيط الصليبي وراء إثارة (قضية المرأة) فليقرأ قرارات المؤتمر التبشيري الذى عقد في لكنو سنة ١٩٠٣م والذي كان كغيره من مؤتمرات المبشرين يخطط علانية لهدم الإسلام ومحاولة محوه من الوجود حيث جاء في قرارات تلك المؤتمر :

سابعا : الارتقاء الاجتماعى والنفسي بين النساء المسلمات :

وذلك عن طريق (تعليمها) و(تحريرها) والهدف من تعليمها واضح ... فكما كانت تجربة اليهود الأولى في أوروبا كذلك تجربة الصليبيين في مصر (وغيرها من بلاد العالم الإسلامى) أنه مهما حاولوا إفساد المجتمع عن طريق إفساد الرجل وحده فإنه في النهاية

لا يفسد أو لا يفسد بالدرجة التي يرغبونها ولا بالسرعة التي يرغبونها ذلك أنه طالما كانت هناك أم متدينة ولو كانت جاهلة بالقراءة والكتابة والعلوم فإنها تبذر في أبنائها بذور العقيدة وهم بعد أطفال فمهما فسدوا في شبابهم فإنهم يعودون إلى ما لقتتهم إياه في طفولتهم فلا يحدث الفساد المطلوب وأنه لا بد من إفساد الأم لضمان إفساد المجتمع ولا بد من إفسادها وهي فتاة قبل أن تصبح أما حتى إذا أصبحت أما في يوم من الأيام لم تكن لديها العقيدة التي تبذرها في قلوب أبنائها ولا الأخلاق الدينية التي تطبع بها سلوكهم وهم في سن التكوين .

فكيف يفسدون الأم المسلمة والفتاة المسلمة ؟

إذا كانت قابعة في بيتها فمن أين يصلون إليها ؟ وإذا كانت جاهلة فمن أين يوصلون إليها الأفكار التي يلوثون بها عقلها ويفسدون عقيدتها وأخلاقها؟ لا بد إذن من (تحريها) و(تعليمها) لكي يصل إليها كيد الشياطين ولقد كان تعليمها واجبا إسلاميا بل فريضة إسلامية نكلت عنها الأمة المسلمة ولكن أى نوع من التعليم ؟

أما (تحريها) على الطريقة التي تم بها ذلك التحرير بمعنى إخراجها من دينها وأخلاقها وتقاليدها فقد كان هذا هو بيت القصيد .

الفصل الثاني عرضٌ ومقارنة

ونعرض الآن في هذه الصفحات ما جاء في كتاب (أولاد حارتنا) للكاتب نجيب محفوظ حتى يكون القارئ على بينة مما جاء في هذا الكتاب إذا لم يكن قد قرأه من قبل ثم بعد ذلك نبين في ردنا عليه القول الحق المطابق لما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ولا تأخذك الدهشة عندما تقرأ ما جاء في هذا الكتاب فقد قالوا قد يزول العجب إذا عرف السبب والشئ من معدنه لا يستغرب ولكي نعرف النهاية لأي قول لا بد أن نبحث بدايته أولاً . إذ رأس جبل الجليد تابع لقاعدته .

لقد سئل الكاتب نجيب محفوظ : (هل كان لسلامة موسى أثر قوى في تكوينك الفكري كما يذهب بعض الباحثين !) .

- نعم كان لسلامة موسى أثر قوى في تفكيري فقد وجهني إلى شيئين مهمين هما العلم والاشتراكية ومنذ دخلا مخي لم يخرجنا منه إلى الآن وكان الأديب الوحيد الذي قبل أن يقرأ رواياتي الأولى وهي مخطوطة قرأ ثلاث روايات وقال لي ان عندي استعدادا ولكن الروايات غير صالحة للنشر ثم قرأ الرواية الرابعة وكانت (عبث الأقدار) وأعجبت ونشرها كاملة في (المجلة الجديدة) كما قرأ أول أقاصيص كتبها ونشر بعضها في (الرواية) و (مجلتي) .

إذن فقد تأثر نجيب منذ بداياته الأولى كأديب بسلامة موسى المفكر ومنذ دخل عقله (الاشتراكية والعلمية) أو بعبارة أخرى (الاشتراكية العلمية) أو (الماركسية العلمانية) لم يخرجنا منه حتى الآن .

إذا تقرر هذا فاعلم أن النهاية معروفة من مطلع البداية (فالاشتراكية العلمية) (الماركسية المادية) التي عششت في مخ الكاتب وباضت وأفرخت وصادفت عنده مكانا شاميا فتمكنت . هذه الاشتراكية العلمية تناقض الإسلام كل التناقض ولا تلتقي به في أي موضع

من المواقع ، نعم تناقضه في أصول العقائد وشعائر العبادات وشرائع المعاملات ومناح السلوك ومبادئ الأحكام وقواعد النظام :

إياك تجنى سكرًا من حنظل فالشئ يرجع في المذاق لأصله

نعم لقد كانت النهاية معروفة من مطلع البداية فإن الأثر يدل على المسير وإياك أن يستولى عليك العجب عندما تقرأ ما جاء في هذا الكتاب مما يناقض الحقيقة الإيمانية فأى شيء تتوقع من الاشتراكية العلمية إذا ما تحدثت عن الدين وأصول عقيدته : ﴿ ومن الناس من يشتري هو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك هم عذاب مهين وإذا تلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴾ .

وما أجل قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولئس المهاد ﴾ .

وما أعظم قوله تبارك اسمه : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا وهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزون الله يستهزيء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾ .

لقد كان سلامة موسى ملحدًا وعلمانيا لا تلين له قناة وكان من أوائل ما نشره كتاب بعنوان (نشوء فكرة الله) سنة ١٩١٢ وليس إذن من قبيل المصادفة أن يكون من بين أوائل ما كتب التلميذ النجيب المخلص لفكر سلامة موسى والمتأثر به بحث من عدة مقالات عن

فكرة (الله) وتطورها . والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي نبث لا يخرج إلا نكدا
فإذا كانت هذه حال الأستاذ فقد بطل العجب .

وإذا المعلم ساء لحظة بصيرة جاءت لنظرته المعارف حولاً
والأستاذ سلامة موسى هو الذى وضع فى فكر نجيب محفوظ قيمة العلم وقد تعجب
عندما أغفل الكاتب نجيب محفوظ ذكر سلامة موسى وهو صاحب الأثر العميق فى فكره فقد
ذكر العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم لحظة إعلان فوزه بالجائزة وألفاظ (العلم)
(الاشتراكية العلمية) وهى أسماء فخمة تخفى الدلالة الاحادية الوثيقة بها .

ألفاظ مملكة فى غير موضعها كالمهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد
وليس هذا بعيد أو غريب عنا فإنه لا يعزب عن فكرنا بما جاء فى الميثاق الوطنى الذى
أحاطه الكثير من مرضى القلوب بمواكب النفاق الرخيص حتى قال بعضهم هذا البيت الردىء
الذى يطفح نفاقاً وكفراً والحادا قال :

لو جوز التنزيل بعد محمد لاستبدل الميثاق بالقرآن
وليس لدينا تعليق على هذا البيت إلا أن نقول : ليس بعد الكفر ذنب والحمد لله الذى
تعهد بحفظ كتابه وقال : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ لولا ذلك الحفظ
لاستبدلوا الميثاق بالقرآن كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا .

سبحانك هذا بهتان عظيم .. لقد جاء فى الميثاق : (حرية العقيدة الدينية يجب أن
تكون لها قدساتها فى حياتنا الجديدة ولكن علينا أن نكشف حقيقة الدين وتجليه جوهر
رسالته . وإن رسالة السماء كلها كانت ثورات وإن من واجب المفكرين الاحتفاظ للدين
بجوهر رسالته على أساس الاقتناع الحر) .

إن عبارة (الاقتناع الحر) عبارة براقه لينة الملمس كالثعبان الذى يلدغ وهو ناعم
الملمس وذلك أننا إذا عرفنا أن الدين الرسمى للدولة السوفيتية والحزب الشيوعى السوفيتى هو
(الاتحاد العلمى) وأن الاتحاد العلمى يعنى فى دائرة المعارف السوفيتية (الاقتناع الحر) لتبينا
بوضوح وجلاء مدى الصلة الوثيقة بين (الاشتراكية العلمية) وميثاق (الاشتراكية
العربية) . وليعلم القارىء أن الاشتراكية العلمية هى الماركسية الموحدة ويصبح هذا الكلام
مفهوماً عندما نعلم أن مؤلفات كبار الماركسيين السوفيت اختاروا لها عناوين مثل (محمد خرافة
رجل لم يكن) و (رجعية الإسلام) وأنه استناداً إلى هذه المصادر السوفيتية جاء أول تفسير
مادى للتاريخ الإسلامى فوصفت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة بأنها تمت نتيجة
التجانس العقائدى مع جموع البروليتاريا من يهود يارب . وغير سلامة موسى نذكر ما جاء فى

ص حيثيات منح جاتزة نوبل لنجيب محفوظ من أنه تأثر بالمفكرين الغربيين مثل ماركس وفرويد وداروين . وسوف يرى القارئ في كتابنا هذا كيف يسير فكر كاتب أولاد حارتنا في نفس ذلك الاتجاه (التفسير المادى) لا لتاريخ الإسلام فحسب بل لتاريخ الرسالات السماوية كلها .

والآن نأتى إلى أهم وقائع تلك الرواية (أولاد حارتنا) وما اشتملت عليه من صور متنوعة اصطدمت بعقيدة الألوهية والرسالات السماوية التي أنزلها الله على أنبيائه المصطفين الأخيار ومن هؤلاء الأولاد ومن تلك الحارة؟ لقد ظهرت تحولات نجيب محفوظ الفكرية وتجده العقل على أعماله في كل مرحلة ومن هذه المراحل المرحلة الفلسفية التي عنى فيها بمناقشة قضايا كونية شاملة مثل قضية الوجود أو المصير الإنسانى والبحث عن اليقين المفقود .. الخ . ومرت هذه المرحلة برواية شديدة الضخامة نشرت بجريدة الأهرام مسلسلته في نهاية عام ١٩٥٩ ولم يشأ لها القدر أن تصدر في مصر بعد ذلك وكانت بعنوان (أولاد حارتنا) وقد أراد الكاتب إعادة تشييد العالم ببناء يوتوبيا خاصة على أرض الحارة التي ابتكرها وهى حارة مصرية تعيش على حافة المدينة - القاهرة - تحفها الصحراء . حارة عمها الظلم والعسف نتيجة ممارسات الفتوات على أبناء الحارة من الكادحين والغلابة . يتتبع الكاتب تاريخ الحارة وكأنه يتتبع تاريخ البشرية منذ خلقها الله فالجلاوى هو سيد الحارة وصاحبها وسكانها هم ذريته التي تسلسلت منذ أنشأ قصره الكبير في نهاية الحارة . والجلاوى قابع في القصر يتابع ما يجرى من ظلم وعذاب لأبنائه دون أن يفعل شيئاً حتى يخرج من ذريته من يحاول إقامة العدل والاصلاح أمثال (جبل) ثم يليه (رفاعة) ثم يليه (قاسم) وهم الذين يمثلون الرسالات الثلاث الكبرى ويستمر ما أقاموه من قيم العدل لفترة معينة بعدها سرعان ما يعود الظلم . و(أولاد حارتنا) تبشر في جزئها الأخير بعنوان (عرفة) بالعلم حيث أن عصر العلم والاختراعات الجديدة يمكن أن يحل مشكلة أولاد الجلاوى ، وكأن عرفة الذى يرمز للمعرفة هو المخلص للحارة من كل ما لم تنجح المبادئ السابقة في تحقيقه ، فالعلم لا بد أن يشمل كل شيء وهو ما دعا إليه نجيب محفوظ عندما حاول بناء الكون على أرض الحارة أو حاكى بناء الكون وتتبع تطوره منذ عصر الاسطورة حتى عصر العلم . وقد أحل المؤلف في (أولاد حارتنا) رؤيته العلمية في الجزء المسمى (عرفة) الذى استقدمه الكاتب ليكون خليفة للأنبياء العظام مما يصبح على حد قول د . جورج طراييش : (العلم هو دين العصور الحديثة) . وهى المقولة التي تبناها نجيب محفوظ من خلال العلاقات الدرامية والأبنية الفنية التي قدمها في أولاد حارتنا . ويرى جورج طراييش أن الامتداد الموضوعى لأولاد حارتنا كانت القصة الرائعة (حكاية بلا بداية ولا نهاية) . فالأنبياء فيها ثلاثة كما في أولاد حارتنا ولكنهم ليسوا أنبياء الكتب المقدسة بل أنبياء عصر العلم خلفاء عرفة وقد أتوا في قصة نجيب

محفوظ بعد أن ارتدوا ملابس الصوفية بينما هم يمثلون فكر كل من كوبرنيكس - وداروين - وفرويد .

ما الذى أهل ذلك الكاتب لتلك الجائزة (جائزة نوبل) ؟

إن عمليين من أعمال نجيب محفوظ كانا مستندا للجنة نوبل عند اختيارها للأديب عند منحه جائزتها عن عام ١٩٨٨ وهما (أولاد حارتنا) و(ثرثرة فوق النيل) وما تكاد تمضى سنتان على انتهاء نشر الثلاثية فى عام ١٩٥٧ حتى تبتدىء جريدة (الأهرام) سنة ١٩٥٩ نشر رواية جديدة لكاتبنا هى (أولاد حارتنا) المكتوبة بطريقة تختلف تماما أو تكاد عن أسلوبه السابق ، اتسعت فيها حدود الزمن إلى ما لا نهاية من الماضى الاسطورى إلى المستقبل البعيد كل البعد . ومع أن المكان الذى تتطور فيه الأحداث ضيق جدا وهو (حارتنا) وبعض الحارات المجاورة وأن جبل المقطم كان هو المنفى البعيد لأبطال الرواية فرغم ذلك تتسع المسافات الروائية لتشمل أراضى الشرق الأوسط برمته ، هذا الشرق الذى هو مهد أديان التوحيد الثلاثة .

أبطال الرواية :

أما أبطال الرواية فهم ليسوا بالأناس العاديين بل إنهم أصحاب الرسالة الموحى بها ولعل مصدر الوحي جدهم الجبلاوى أو هو نفوسهم المملوءة بعداب البشر وهم مناضلون فى سبيل إقامة العدل بين أهل الحارة ومن أجل الرخاء والسعادة .

ملحوظة :

إذا كانت الجائزة للكاتب كعمل تقديرى على عطائه الابداعى طيلة حياته فإنه فى الغالب يتم التركيز على عمل واحد من بين أعماله وذلك من خلال صياغة الديباجة السنوية التى يتلوها ممثل الأكاديمية أمام رجال الاعلام وهى ديباجة متكررة المعانى تكشف عن مدى الهدف الإنسانى والأخلاق الذى تلعبه الأكاديمية إلا أنه عادة ما يتم منح الجائزة للكاتب فيما يتعلق بعمل ابداعى معين مع التركيز على أهمية ما يمثله هذا العمل وسط عطائه الآخر مثلما فعلت الأكاديمية حيث أشارت إلى أن نجيب محفوظ قد منح الجائزة على روايته (أولاد حارتنا) مع الاشارة إلى الثلاثية و(ثرثرة فوق النيل)

مرحلة صمت :

وقد انقطع صمت نجيب محفوظ فقط سنة ١٩٥٩ بنشر (أولاد حارتنا) وهى رواية رمزية تقدم أساسا رؤية متشائمة لكفاح الإنسان من أجل وجوده . وقد برهنت معالجته

للموضوع على أنها لا تروق للمؤسسة الدينية في مصر وشعر أن أفضل نصيحة له هي أن^١ يتمتع عن نشرها في كتاب داخل مصر بالرغم من أنها منذ ذلك الحين أصبحت متاحة لدى ناشر لبناني وبسبب ما لاقاه هذا العمل من ردود فعل متباينة فقد ثبتت همته ولم ينشر أى أعمال أخرى لمدة عدة سنوات ، وقصته المنشورة سنة ١٩٦٢ (اللص والكلاب) تتناول بطريق حذر موضوعا أقل تعقيدا وأقل إثارة للنزاع .. وكان محفوظ قد سبق له في سنة ١٩٥٩ أن جلب على نفسه غضب علماء الأزهر معقل الإسلام وذلك بروايته الرمزية الاجتماعية والدينية (أولاد حارتنا) التي يمثل فيها أحد الشخصيات (الله) بينما يظهر فيها أيضا (موسى) و (عيسى) و (محمد) . وقد اضطر أن ينشر العمل في لبنان .

لقد كانت قصة (أولاد حارتنا) المنشورة في ترجمة انجليزية تحت عنوان (أبناء الجبلوى) قصة رمزية متفردة عن تاريخ البشرية منذ الخلق أو التكوين وحتى عصرنا الحاضر . وقد نزعت القداسة عن الأنبياء موسى وعيسى ومحمد وقد تم تمثيلهم تحت ستار رقيق باعتبارهم لا يزيدون عن كونهم مصلحين اجتماعيين ناضلوا بأقصى جهدهم لتحرير شعوبهم من الطغيان والاستغلال .

(موت الله) (المرجع كتاب الطريق إلى نوبل ص ١٨) للدكتور محمد يحيى - معتر شكري . وفي القصة شخصية أخرى تمثل العلم الذى يتم اظهاره على أنه حل محل الدين وعلى يديه تحقق في النهاية موت الله وتنتهى هذه القصة بنغمة تشاؤم حزين وإن كان ثمة بصيص من الأمل ، فالتشاؤم الحزين في هذه الحالة هو إفساد (أو إساءة استغلال) [عرفة] العلم وتحالفه مع القوى الغاشمة التى تقضى عليه في النهاية . بينما يكمن الأمل في كراسته الأخيرة التى تحتوى على الصفات أو التراكيب الخاصة بالتقدم والسعادة . والمشهد الأخير يصور البشرية وهى تنقب في حماس واستثارة وسط أكوام القمامة عن شيء يبشر بخلاصها .

العقيدة الإيمانية الصحيحة

الله حي لا يموت

﴿ ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ . ﴿ وتوكل على الحي الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا ﴾ . ﴿ الذى خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا ﴾ .

﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ . أخطر ما جاء في هذه الرواية ما تحدثت فيه عن الذات الأعظم عن الله جل جلاله وأنه قد انتهى دوره عندما ظهر العلم الذي رمز له بعرفة وأن الإله قد مات ونحن نبادر هنا بالرد على تلك الفرية فنيين العقيدة الإيمانية الصحيحة التي تبين أن الله جل جلاله حي لا يموت أبداً فهو أزلي لا أول لوجوده وأبدي لا آخر لوجوده ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ .

الله واجب الوجود لذاته

الحمد لله رب العالمين ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴾ .

وأشهد أن لا إله إلا الله من أرضى الله بأسخاط الناس كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن أسخط الله بارضاء الناس وكله الله إلى الناس ومن أصلح سريره أصلح الله علانيته :

يا من يجب العبد قبل سؤاله ويجود للعاصين بالغفران
وإذا أتاه الطالبون لعفوه ستر القبيح وجاد بالاحسان

وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبينا محمداً رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه . هو الإنسان الكامل والمثل الأعلى والقدوة الطيبة أخلص قلبه لله في السر والعلن وبين ثمرة ذلك فقال في الحديث الشريف : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يكن يعلم » .

سيدي أبا القاسم يا رسول الله :

البدر دونك في حسن وفي شرف والبحر دونك في خير وفي كرم
أخوك عيسى دعا ميت فقام له وأنت أحبيت أجيالاً من العدم
صلى عليك الله يا علم الهدى ما هبت النسام وما ناحت على الأيك الحمام .

إن الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني . فاعلم يا أخا الإسلام أنه لا بد لك من قرين يدخل معك قبرك وهو حي وتدخل معه وأنت ميت فإن كان صالحاً أكرمك وإن كان لئيماً خذلك فاجعله صالحاً فإنه عمك :

القبر باب وكل الناس داخله يا ليت شعري بعد الموت ما الدار
الدار دار نعيم إن عملت بما يرضى الإله وإن خالفت فالنار

هما محلان ما للعبد غيرهما فانظر لنفسك أى الدار تختار
ما للعباد سوى الفردوس إن عملوا وإن هفوا هفوة فالرب غفار

عندما قرأت وقائع هذه الرواية (أولاد حارتنا) سألت النفس مرارة وانفطر الفؤاد
أسفأً وتذكرت قول الله تعالى : ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان
أمره فرطاً ﴾ ومما تنشق له قلوب الأسود لوعة وتنفطر منه مرائر التهور حزناً ما جاء في هذه
الرواية من موت الله عندما ظهر العلم وتذكرت قول الله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه
يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى
القبور . ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثالى عطفه ليضل
عن سبيل الله له فى الدنيا خذى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك
وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ . وقول الله تعالى : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة
معرضون ما يأتهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ﴾ .
وقال جل شأنه : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم . يوم
ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى
وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا
سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾ ووقفت أفكر وأطيل التأمل فى
هذه الانذارات الإلهية المتلاحقة التى تنخلع لها القلوب وتنفطر من هولها الأكياد من ذلك قوله
جل شأنه : ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتهم بأسنا بياتا وهم نائمون أو أمن أهل القرى أن
يأتهم بأسنا ضحى وهم يلعبون أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ .

وقوله جلت حكمته : ﴿ أمأنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور
أمأنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير ﴾ كل أولئك وغيره
دعانى والرغبة شديدة والغرض ملح فى الكتابة فى هذا الموضوع الذى يدفع النفوس إلى
الاسراع فى تحصيل الخير والبعد عن مسالك الشرف إن الدنيا ليست هى دار الجزاء إنما الآخرة
هى التى يقوم الناس فيها لرب العالمين ليلقى كل ما قدمت يداه .

تزود من حياتك للمعاد وقم لله واجمع خير زاد
ولا تركن إلى الدنيا كثيراً فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد

قال الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه للعالم الزاهد الحسن البصرى رضى الله عنه : عظنا يا تقى الدين ؟ فقال الحسن : (يا أمير المؤمنين صنم عن الدنيا وافطر على الموت وأعد الراد لليلة صباحها يوم القيامة) . هذا جلال الموعظة وتلك روعة التقوى صدرت من قلب سليم وأحلت في قلب سليم . كلمة قالها عالم زاهد وطلبها خليفة زاهد ، ومن عجب أن تخرب الآخرة وتعمر الدنيا مع أن التى تخربها باقية لا تقنى والتى تجرى وراءها ونلثت من متاعها فانية لا تبقى : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ .

الله حق

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾ .. ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ .. ﴿ يرفع الله الذين آمنوا والذين أتوا العلم درجات ﴾ .

الإسلام يدعو إلى العلم ويرفع قدر أهله ويشيد بالمعرفة ويجل من قدر أصحابها . ومن حقائق الإسلام الثابتة التى تركزت حولها دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم جميعا الإيمان بالله واليوم الآخر ولذلك جاء الإيمان بهما فى آيات كثيرة من القرآن الكريم وفى أحاديث نبوية صحيحة .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره » إلا أن هناك نفوسا أبت إلا أن تحجب نفسها عن الرؤية الصافية وآلت على نفسها أن تظل ملففة فى حجب الكبرياء الداكنة فتراهم مرة يجادلون فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وتراهم مرة أخرى ينكرون ما بعد الموت من بعث وحساب وجنة ونار يدفعهم إلى ذلك دوافع عديدة أولها : الجهل بالإسلام وكتابه ونيبه كذلك يدفعهم ما يسيطر على عقولهم من قضايا باطلة ورثوها عن آباؤهم الأولين .. كذلك يدفعهم على إنكار تلك الحقائق إدعاء الظهور بالمعرفة وحب الجدال بالباطل وغالبا ما يكون الدافع لهؤلاء : العناد والاصرار على ما يدور فى رؤوسهم

وهما منهم أن ذلك يزيدهم في نظر الناس رفعة عندما يتشدقون بالمعرفة ويدعون العلم .. ومن شك في قضية الألوهية فإنه بالتالي سيشك في قضية البعث وقد يغتر الإنسان بقوته وجبروته فينسى قوة الله وعظمته . من ذلك قال الله تعالى في شأن عاد قوم هود عليه السلام : ﴿ فَأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ؟ وكانوا بآياتنا يمجدون ﴾ .

وقد تدفع العصبية العمياء صاحبها إلى الاصرار على الضلال : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ .

أما الذين ينشدون الحق لذاته ويلهثون وراء المعرفة بقصد الوصول إلى الغاية الشريفة فهؤلاء هم المنصفون الفائزون الذين رفع القرآن من قدرهم حيث قال فيهم مولانا : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ .

وقال فيهم جل شأنه : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وقال فيهم رسول الله ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء » .

وإن تعجب فعجب قول هؤلاء المتشدقين باسم العلم وهم أبعد ما يكونون عن العلم الصحيح تراهم يخبطون في الإسلام خبط عشواء وهم لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ولا من المصحف إلا رسمه همهم بطونهم وقبلتهم نساؤهم ، إذا جالستهم ودار الحديث في أى علم من العلوم الوضعية الحديثة أشرأبت أعناقهم وارتفعت هاماتهم يدعون أنهم قد أحاطوا بها علماً وبمعرفة دقائقها بحثاً وتمحيصاً فإذا ذكر أمثال (فرويد) و (سارتر) و (وليم مكدوجل) و (دير ملجم) و (مونتيه) امتلأوا عزا وفخاراً فإذا ذكر الله انتفخت الأوداج منهم غضباً ونفرت العروق بالدماء رهقاً .

هؤلاء هم الذين يصدق عليهم قول القرآن العظيم : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ . وأما المؤمنون الصادقون فإن حالهم مع الله دائماً معرفة بحقوقه وخوف من آياته وتفكير في عظمته : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾ ولو تفكر المتشدقون باسم العلم من أدعياء المعرفة فيما يقوله العلماء المحدثون في شتى علوم الحياة لعلموا أنهم في حاجة ملحة إلى أن يدرسوا ويحصلوا ويسعوا وراء الحقائق لا وراء الخيالات .

ماذا يقول علماء الكون عن حقيقة الوجود والوحدانية لله العلى العظيم . إليك أيها القارئ الكريم هذه النماذج من تلك الحقائق :

يقول د . ولتر أوسكار لندبرج (عالم الفسيولوجيا والكيمياء) : (إن العلم يؤدي إلى الإيمان بالله لولا شيوع الاحاد والتعصب الأعمى) وقال : (إن في الكون دلائل على قدرة الله ويجب على العالم أن يعرفها) .

ويقول د . ايرفنج وليام فوبلوتس (أستاذ العلوم الطبيعية) : (إن بعض الناس ينظرون إلى الحياة نظرة مادية ويفسرونها تفسيراً مادياً يعتمد على المصادفة ولكن العلوم لا تستطيع خلق السعادة والجمال والحق وان تحللها ولكن في الوقت نفسه تستطيع أن تثبت وجود الله) .

ويقول د . جون وليام كلوتس (عالم في الوراثة) : (إن النبات وتكوينه والحيوانات البرية ومعيشتها تحت ظروف خاصة لا بد لها من منظم) .

ويقول د . جورج أيرل دايز (عالم الطبيعة) : (إن المشتغل بالعلوم يستطيع أن يتأكد من أن هذا الكون له نظام وخالق إذا نظر إلى كل ما حوله من ذرات وكواكب وأحياء وأن هذا الإله ليس مادياً وليس له مثيل) .

ويقول د . بول كلارنس ايرسولد (أستاذ الطبيعة الحيوية) : (إن كل إنسان يستطيع أن يثبت أن لهذا الكون إلهاً وأن هذا الكون لا يقوم على المصادفة إذا مزج بين الناحية المادية والروحية بدون تحيز) .

ويقول د . توماس دافيد باركسن (أستاذ الكيمياء) : (إن الناظر للوزن الجزئي للماء وهو [١٨] يتوقع أن يكون غازياً تحت درجة الحرارة المعتادة والضغط فالتوشادر مثلاً تكون غازية عند درجة حرارة ناقص [٧٣] وتحت الضغط الجوي المعتاد ووزنها الجزئي [١٧] ووجود الماء على الحالة السائلة في درجة الحرارة المعتادة يجعل الإنسان يقف ويفكر ولصفات الماء الأخرى تأثير على درجة حرارة سطح الأرض وكذلك تلك الصفة التي تساعد على حياة الكائنات الحية في الماء عندما يتجمد وتلك الصفة هي أنه تقل كثافة الماء عندما يتجمد وللماء فوائد أخرى في حياة الإنسان وهذا درس واحد من الماء علمنا منه أن لهذا الكون إلهاً ونظاماً) .

ويقول د . ميريت ستانلي كونجرن (عالم طبيعى وفيلسوف) : (إن الاستدلال المنطقي في كثير من الأحيان هو الذى يوصلنا إلى بعض الحقائق الطبيعية وقد استخدم كثيرا في علم الفلك . فالأجرام والكواكب لا تخضع للتجربة ولكننا وصلنا إلى نتائج مفيدة في هذا العلم استفاد منها الإنسان وكذلك في علم الذرة عرفت آثارها وخواصها ولذلك يمكن أن نستخدم الاستدلال المنطقي في إدراك معرفة الله ومعرفة صفاته فمن الثابت المنطقي أن له

صفات كالحكمة والقدرة والارادة ولا يمكن أن يصف الإنسان شيئا ماديا بشيء غير مادي وكذلك لا يمكن للعلم أن يفسر ظواهر غير مادية مثل التمثيل الضوئي ودورة الماء في الطبيعة ودورة ثاني أكسيد الكربون وما لا يحصى من العجائب التي لا يمكن أن تقوم على المصادفة العمياء العشواء ولا بد أن يكون هنالك إله قادر عالم عظيم .

ويقول د . روبرت موريس بيج (عالم الطبيعة وأول من اكتشف الرادار سنة ١٩٣٤) : (لإدراك وجود الله: يجب أن نضع أمام أعيننا أننا لانستطيع أن نفسر جميع الظواهر الموجودة أمامنا بعلما لأن حواسنا قدراتها محدودة ضئيلة وأن الإله ليس ماديا محدود بعوامل الزمان والمكان ويجب أن يكون شرط الإيمان هو أن تكون هناك علاقة بين الإنسان وخالقه فعندئذ تغمر المحبة قلبه ويصبح مؤمنا بالله) .

ويقول د . جون كليفلاند كوثران (عالم الكيمياء والرياضة) : (أنه يوجد عوالم ثلاثة :

١ - عالم المادة .

٢ - عالم الفكر (العقل) .

٣ - عالم الروح .

وأن ما يمكن أن تقدمه الكيمياء في هذا المجال سيكون محدودا لأنه قليل من كثير فيه والكيمياء : علم مادي ليس له صلة بالروح فكيف تثبت لنا أن لهذا الكون إلهًا ؟

وسلوك المادة لا بد أن يخضع لقوانين ثابتة فكيف تصنع المصادفة هذه القوانين وترتيب العناصر في جدول دوري (جدول ماندليف) ترتيبا دوريا أدى لاستنباط عناصر مجهولة لا يمكن أن تتحكم في ذلك الصدفة العشوائية ؟ فهل يمكن التنبؤ بذلك إذا كانت تتحكم فيه الصدفة والعناصر رغم عدم اتحادها في اللون والكثافة وسرعة التفاعل والميل المغناطيسي والحالة الموجودة عليها فإنها تتكون من بروتونات ونيوترونات داخل النواة ومن الكترونات خارج النواة في مدارات مختلفة وهذه البروتونات والنيوترونات والالكترونات تختلف في إعدادها من مادة لأخرى فهل ذلك يترك للمصادفة العمياء أو أن المصادفة هي التي أوجدت هذا النظام (لا بد من وجود إله قادر حكيم منظم) .

ويقول د . إدوارد كوثر كيسيل (إخصائي علم الحيوان والحشرات) : (القانون الثاني للديناميكا الحرارية يثبت أن لهذا الكون بداية ولا يمكن أن يكون أزليا فهنالك انتقال للحرارة من الأجسام الساخنة إلى الباردة ولا يمكن أن يحدث ذلك بالعكس إلا بتأثير قوة ذاتية

ومعنى ذلك أنه سيأتى اليوم الذى تتساوى فيه درجات الحرارة وتقف العمليات الحيوية ولما كانت الحياة مستمرة وقائمة إذن لابد أن يكون لهذا الكون بداية ولا بد له من مبدىء محرك أول وهو الله والذى يقوم بالخلق والابجداد هو الله وليست الطبيعة الصماء ولا الصدفة العمياء .

ويقول د . أ . كريس موريسون (رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك : (إذا أردنا أن نثبت وجود الله وتنظيمه وحكمته وقدرته فلننتخذ من الأكسوجين مثلا على التنظيم المحرك إلى غير حد إن الهواء الذى فوق الأرض مكون من الأكسوجين والنتروجين وبخار الماء وثنائى أكسيد الكربون بنسبة $\frac{1}{10000}$ من ١٪ والغازات النادرة ومن أهمها الأرجون الذى يوجد بنسبة $\frac{1}{100}$ فى ١٪ فإنه يعطينا النور الساطع الباهر الذى تتقدم به المدينة حيث يستخدم فيما سبق ويوجد النتروجين بنسبة ٧٨٪ تقريبا فى الهواء والأكسوجين بنسبة ٢١٪ فى الهواء. وللهواء ضغط يعادل ١٥ رطلا على البوصة المربعة من السطح بمستوى البحر والأكسوجين الذى فى الهواء جزء من هذا الضغط وهو بمعدل نحو ثلاثة أرتال على البوصة المربعة وكل الباقى من الأوكسيجين محبوس فى شكل مركبات فى قشرة الأرض وهو يكون $\frac{1}{100}$ من جميع المياه فى العالم والأوكسيجين وهو نسمة الحياة لكل الأحياء التى فوق الأرض هو ما لا يمكن الحصول عليه لهذا الغرض إلا من الهواء .

ولنا أن نسأل : كيف أن هذا العنصر ذا النشاط البالغ من الوجة الكيميائية قد أفلت من الاتحاد مع غيره وترك فى الجو بنفس النسبة تقريبا اللازمة لجميع الكائنات الحية .

لو كان الأوكسيجين بنسبة ٥٠٪ مثلا أو أكثر فى الهواء بدلا من ٢١٪ فإن جميع المواد انقابلة للاحتراق فى العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لابد أن تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر .

ولو أن نسبة الأوكسيجين فى الهواء قد هبطت إلى ١٠٪ أو أقل فإن الحياة تكون مهددة بالخطر إذ أن ذلك يؤدي إلى اختناق الأحياء على وجه الأرض .

ثم يستطرد ذلك العالم قائلا : (حينما يتنفس الإنسان الأوكسيجين يتلقاه الدم ويوزعه فى خلايا جسمه وهذا الأوكسيجين يحرق طعامه فى كل خلية ببطء شديد عند درجة حرارة منخفضة نسبيا ولكن النتيجة هى ثنائى أكسيد الكربون وبخار الماء ولذا فإنه إذا وصف الإنسان بأنه يتنهد كالأتون ففى ذلك شىء من الحقيقة وثنائى أكسيد الكربون يتسلل إلى رئتيه ويكون غير قابل للتنفس إلا بمقادير صغيرة وهو يحرك رئتيه وعندئذ يتنفس الأوكسيجين ويخرج ثنائى أكسيد الكربون وهكذا كل كائن حيوانى حتى يلفظ ثنائى أكسيد الكربون ويمتص الأوكسيجين . وما من شك فى أن الأوكسيجين ضرورى للحياة لتأثيره فى عناصر أخرى فى

الدم وفي أجزاء أخرى في الجسم وبدونه تتوقف عمليات الحياة) . ثم يتكلم بعد ذلك عن المملكة النباتية من حيث الأوكسيجين وثاني أكسيد الكربون وعلاقة ذلك بالإنسان فيقول :

(تعتمد حياة كل نبات كما هو معروف على المقادير التي تكون متناهية الصغر من ثاني أكسيد الكربون الموجودة في الهواء والتي يمكن القول بأن النبات يتنسمها ولكي نوضح هذا التفاعل الكيماوى المركب الخاص بالتركيب الضوئى بأبسط طريقة ممكنة نقول أن أوراق النبات هي رئات وأن لها القدرة في ضوء الشمس على تجزئة ثاني أكسيد الكربون إلى كربون وأكسوجين . وبتعبير آخر يلفظ النبات الأوكسيجين ويحتفظ بالكربون متحدا مع أيديروجين الماء الذى يستمد النبات بواسطة جذوره من الأرض ويصنع الله من هذه العناصر سكرًا أو سيلولوزًا ومواد كيميائية أخرى عديدة وفواكه وأزهارًا ويغذى النبات نفسه وينتج فائضاً يكفى لتغذية كل حيوان على وجه الأرض وفي الوقت نفسه يلفظ النبات الأوكسيجين الذى تنتسمه وبدونه تنتهى الحياة بعد خمس دقائق) .

وهكذا نجد أن جميع النباتات والغابات وكل ما يتعلق بحياة الزرع بنى تكوينها من الكربون والماء ونلاحظ أن الحيوانات تلفظ ثاني أكسيد الكربون بينما تلتفظ النباتات الأوكسيجين . ولو لم تتم هذه المقايضة فإن الحياة الحيوانية أو النباتية كانت تستنفد في النهاية كل الأوكسيجين أو كل ثاني أكسيد الكربون تقريبا ومتى انقلب التوازن ذبل النبات أو مات الحيوان . هذا وقد اكتشف أخيراً أن وجود ثاني أكسيد الكربون بمقادير صغيرة هو أيضا ضرورى لمعظم الحيوانات كما اكتشف أن النباتات تستخدم بعض الأوكسيجين .

ثم يحدثنا عن الأيدروجين فيقول :

(يجب أن يضاف الأيدروجين أيضا وإن كنا لا نتنسمه فبدون الأيدروجين ما وجد الماء ونسبة الماء في المادة الحيوانية أو النباتية كبيرة جداً) . ثم يستطرد قائلاً : (إن الأوكسيجين والأيدروجين وثاني أكسيد الكربون والكربون كل تلك العناصر سواء أكانت منعزلة أو على علاقاتها المختلفة مع بعضها هي العناصر البيولوجية الرئيسية وهى الأساس الذى تقوم عليه الحياة) .

ويخلص بنا ذلك البروفيسور العالم إلى نتيجة محتومة وصحيحة لأنها جاءت بعد مقدمات صحيحة هذه النتيجة يقول فيها : (أنه لا يمكن أن تكون هناك مصادفة بين عدة بلايين من آحاد المخلوقات تقضى بأن تكون كلها في وقت واحد وفي كوكب سيار واحد بتلك النسب الصحيحة اللازمة للحياة) . ويرد بقوة وصرامة على الذين يلحدون في آيات الله ويتشددون بكلمة المصادفة والطبيعة فيقول : (إن القول بأن ذلك نتيجة المصادفة إنما هو قول يتحدى العلوم الرياضية) .

غزو الفضاء

وأخيرا وليس آخرا ننتقل من هذه التماذج العلمية الثابتة مع أساطين الفكر وأساتذة العلوم الذين حدثونا في شتى القوانين العلمية ومختلف العلوم الحديثة إلى رائد الفضاء حيث قد عبر الجاذبية الأرضية ليصل إلى القمر في عصر غزو الفضاء . ماذا يقول ذلك الرائد وهو في سفينته (أبوللو) يقول القائد فرانك بورمان : (الله خلق السماوات والأرض) ثم يستطرد قائلا : (يا إلهي امنحنا الرؤية حتى نستطيع أن نرى الحب الإلهي الذي يسود العالم بالرغم من الاخفاق الإنساني وامنحنا الإيمان حتى نثق في الخير بالرغم من جهلنا وضعفنا وامنحنا المعرفة حتى نستطيع مواصلة الصلاة بقلوب واعية واجعلنا نرى ما يستطيع كل منا أن يفعله حتى يقترب هذا اليوم الذي يسود فيه العالم السلام العالمي) .

مؤمنون حقا

طالعنا جريدة (المساء) في عددها رقم ٤٩٦٣ الصادر بتاريخ الأربعاء الموافق الرابع من جمادى الأولى سنة ١٣٩٠ هـ - الثامن من يوليو ١٩٧٠ م طالعنا بهذا العنوان :

(خمسة آلاف من الدائمك يعتقدون الإسلام) جاء في هذا المقال حوار دار بين المحرر وبين أحد المسلمين الدائمكيين . قال الدائمكى للمحرر : أعتقد أنك عربى ؟ فقلت : طبعاً . قال : وما هى ديانتك ؟ قلت : مسلم . ويقول المحرر : بدأت أشرح له مفهوم الديانة الإسلامية ومدى انتشارها فى العالم . وبعد أن استمع لحديثى قال لى : أنا أعرف الإسلام جيداً وإننى أدرسه لأننى أعتقد أن يوماً ما سأكون مسلماً وقد أسلمت . ويقول المحرر : ثم أحضر ثلاثة أجزاء من القرآن الكريم وأخذ يشرح لى ما درسه وما فهمه حتى أصبح ملماً بشروط الإسلام وأركانه وتعاليمه . وراح يسألنى السؤال تلو السؤال وأنا أجيبه بقدر ما أعلم إلا أنى فى الحقيقة شعرت بالحجل فقد اكتشفت أنه يعرف عن الإسلام أكثر منى إنه قارىء واع يحفظ بعضاً من الآيات القرآنية كما يعرف تفسيرها تماماً ثم أخبرنى هذا المسلم الدائمكى أنه قد بنى مسجد فى كوبنهاجن (عاصمة الدائمك) على أحدث طريقة عصرية وأن الدائمكيون يذهبون إليه لأداء الصلاة فيه وكثيراً ما أذهب إليه أفضى بعض الوقت ، إننى أحس فيه براحة نفسية غريبة .

ويمضى المحرر فى حديثه فيقول : لقد حدثنى هذا المسلم قائلاً : غدا سأصحبك إلى هذا المسجد إنه فى أطراف المدينة ولكنك يجب أن تشاهده وتروره . وبعد ذهابى معه إلى

المسجد لاحظت أن الرجال يصلون في مقدمته بينما النساء يصلين في مؤخرته وقد راعني أن رأيت على باب المسجد سيدة شابة ترتدى الملابس الإسلامية الطويلة التي لا تظهر من جسدها شيئا وقد لفت رأسها بغطاء أبيض .. أخطأت عندما مددت يدي لتحيتها فرفضت أن تصافحني واكتفت بإيماءة من رأسها .

هذه السيدة من الدانمارك ومتزوجة رجل أمريكي مسلم .. قالت لي : (إنني لم أسلم ، لأنني تزوجت برجل مسلم فكلانا - أنا وزوجي - اعتنقنا الإسلام عن عقيدة واقتناع كاملين) .

ولقد علمت أنهما مواظبان على حضور دروس العلم في مسجد (كوبنهاجن) كما علمت أنهما محافظان على صيام رمضان .

قلت لها : ما هي أنواع الطعام التي تأكلونها في رمضان ؟

قالت : أقل الطعام .. ففي هذا الشهر لا يهمننا الطعام كثيرا .. بل إننا لم نحسب له حسابا .. ويكفينا كوب من اللبن وقطعة من لحم البقر .. إننا نخرج بعد هذا الشهر بصحة ممتازة ..

ثم قالت : (إن ابنتي الصغيرة لا تقوى على الصوم ، ولكن عندما تبلغ ثمان سنوات سأنصحها بمزاولة هذه الرياضة الدينية الرائعة) .

ثم يستطرد المحرر قائلا : لقد علمت أن هذا المسجد أنشئ سنة ١٩٦٧ على نفقة رجل من مسلمي باكستان الأثرياء وقامت الهيئات الإنشائية في الدانمارك بتصميمه وبنائه ، وقد تكلف بناء هذا المسجد خمسين ألف جنيه ويضم مكتبة تحتوي على نفائس الكتب الإسلامية ، كما تحتوي على مجموعة من النشرات عن فضائل الإسلام وفضائل الصلاة ، وكل هذه الكتب قام بإعدادها المسلمون الباكستانيون في (كوبنهاجن) .

اللهم إنا نرفع أكف الضراعة إليك أن تجعلنا كذلك ، لترسم خطا نبيك الكريم ، ونعمل بكتابك المستبين .

وبعد : فهذه جولة مع الإسلام أثبتنا فيها أن الإسلام حقائق ثابتة ، وأنه يحمل من عوامل القوة ما يمكنه أن ينشر نفسه بنفسه ، وأن فيه من الخصائص الذاتية ما لو عرض على العقول السليمة تمكن فيها أفضل تمكين .

قيل لأعرابي : لم آمنت بمحمد ؟ فأجاب إجابة موجزة المبني لكنها عظيمة المعنى ، قال : لأنه لم يأمر بشيء ، وقال : العقل ليته ما أمر ولم ينه عن شيء ، وقال : العقل ليته ما نهى .

رجاء ، ورجاء

ليت الذين يضعون العصاة السوداء على عيونهم ويجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .. ليتهم يمعنون النظر الصحيح والفكر السديد في قضايا الإسلام بقصد الوصول إلى الحق ، فقدما قيل : (قال أرسطو : أفلاطون صديق ، والحق صديق ، ولكن : الحق أصدق منه) .

وقد قرر القرآن الكريم هذه القاعدة الإسلامية ، وهي قاعدة العدل والإنصاف ، حيث قال جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا إعدلوا ، هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خير بما تعملون ﴾ .

وقفة تأمل

عندما يلقي القارئ الكريم نظرة فاحصة على ما قدمناه من النماذج العلمية وحقائق البحث المجرد : لا يسهه - إذا كان هدفه الوصول إلى الحق - إلا أن يردد معنا هذه الآيات الكريمة :

﴿ الله خالق كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل . له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون ﴾ .

﴿ قل : أغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ؟ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ، بل الله فاعبد ، وكن من الشاكرين . وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

أخى القارئ :

كل الكائنات العليا في هذا الكون الكبير تدفعها قوة الله إلى اشتراق عظمته وكبريائه ، وكل الكائنات تبحث بحثاً حثيثاً للوصول إلى صراط الله الذي خلق عالمنا الفذ ، وأهمه سننه وقوانينه ، ونظامه المحكم الوثيق . وكل إنسان تناديه هذه الأسرار .

وقد اختلفت مسالك الناس في طريق معرفة الله . فمننا من اهتدى إلى الله بطريق الرسائل الدينية ومناهج الأنبياء ، ومننا من سلك طريق العلوم التي أوصلته إلى معرفة الله ووجوده ، ومننا من سلك هذا الطريق متتبعاً خطى العلماء .

وهذه المسالك - وإن تنوعت - إلا أن الغاية المنشودة منها هي معرفة أن الله واحد ، وأنه أنزل كتاباً معجزاً وهدايا ، وعلى نبي جعل دعوته دعوة عالمية ، ﷺ .

قضية الألوهية

أعلم بأن العقل السليم لا يمكن بأى حال أن يصطدم بقضية الألوهية أو يختلف معها أدنى اختلاف ، فإن الله تعالى - عندما دعا الناس إلى الإيمان به - لم يكلفهم بما يشق فهمه على عقولهم ، فليست قضية الألوهية ألبتة ألبتة أو طلاسماً ، فقد نصبت الآيات في الآفاق والأنفس ناطقة وشاهدة على وجود خالقها ، وسبيل العباد إلى معرفة هذا النظر والتأمل وشحذ قوى العقل جميعاً .

تأمل معى في هذه الآيات الكريمة : ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ .. ، وقوله جل شأنه : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم : أفلا تبصرون ؟ ﴾ وقوله جل شأنه : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحى من الميت ؟ ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبر الأمر ؟ ﴾ . وفي قوله جل شأنه : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبصار ﴾ .

إن في هذه الآيات لدعوة صريحة إلى البحث عن الحقيقة العليا من خلال ملاحظة الآيات الكونية ملاحظة عقلية وعلمية .

وتأمل معى يا أبا الإسلام هذا المشهد القرآنى الرائع الذى وقفه أبو الأنبياء إبراهيم الخليل يحاج به قومه الذين عبدوا الأجرام وخضعوا للأفلاك وكيف أن الخليل عليه السلام ساق أمامهم الحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة على أن هذه كلها مخلوقات يطرأ عليها الأفعال ، ويلازمها التغيير فلا بد لها من مؤثر يؤثر فيها تلك الخصائص ، ولا بد لها من خالق يصرفها بحكمة عالية ، وإرادة نافذة ، وسلطان قاهر ..

يقول المشهد القرآنى العظيم : ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل ، قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى ، فلما أفل ، قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة ، قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما نفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون ﴾ .

وبعد إرخاء العنان للخصم ثم تلقيه الحقيقة أعلنها إبراهيم الخليل عليه السلام صريحة مجلجله ، وقوية مدوية ، في قلعة الأصنام ، وعاصمة الشرك : ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين ﴾ هذا هو المنطق السديد ، وهذه هي أحكام العقل الرشيد ، يعلنها الخليل عليه السلام الذي رفع لواء التوحيد بعدما أثبت لكل مخالف معارض أن الفطرة السليمة تهتف بوحداية الله تعالى ، وأن كوناً عجيباً يسير بهذه الدقة المتناهية في الحكمة والاتساق ، لا يمكن أن يكون وراءه الصدفة أو الطبيعة الصماء .. بل لا بد له من إله حكيم قادر .

فلا نسأل بعد ذلك عن الله بمتى كان : لأنه خالق الزمان ، ولا بآين هو : لأنه خالق المكان ، ولا نسأل عن الكيفية أو المائية فإنه سبحانه ليس يمتلون ولا متكيف ، والعارفون بالله علموا قدره بأشراق البصيرة . وما أبجل ما قالته العارفة بالله (رابعة) رضى الله عنها حين سئلت : ما الدليل على وجود الله ؟ فقالت بأسلوب التعجب : ومتى غاب سبحانه حتى يسأل عن وجوده ؟

وما أروع ما قاله الإمام على رضى الله عنه حين سئل فقيل له : متى كان الله ؟ فأجاب بمنطقه الرائع وأسلوبه الحكيم قائلاً : ومتى لم يكن ؟

آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وجحد الجاهد ووجوده - أى الجاحد - في ملك الله دليل على وجود الله : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ ﴾ .

فإذا سألت عن الله بهذا الأسلوب الساذج فاعلم بأن هذه الأسئلة من وحى الطفولة المادية الساذجة ، وأن العقل لا يزال محجوباً بحجب الغفلة عن الحقيقة العليا .

نسأل الله السلامة

معرفة الله تعالى

لقد سئل رسول الله ﷺ : كيف رأيت ربك ؟ فأجاب قائلاً : « نور أنى أراه ؟ » . لقد وضع السلف الصالح معياراً دقيقاً لذلك فقالوا : كل ما خطر ببالك فإنه هالك ، والله بخلاف ذلك .

فاعرف الله يا أخى معرفة تليق بذاته : لا تدركه الأبصار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا يؤثر فيه الليل والنهار ، وهو الواحد القهار .

أعرف الله تعالى معرفة تليق بكرمه عليك ، ومنته الكبرى بك ، فإنه - جل شأنه -
 رفع من شأن الإنسان وقال للملائكة : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ ، كما قال لهم :
 ﴿ إني خالق بشرأ من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ .
 ويرحم الله بلال بن رباح وقد قيل له : يا بلال : من أبوك ؟ فأجاب على الفور : أنا
 ابن الذى أسجد الله له الملائكة .

إن الإيمان بالله فى حقيقته يمثل اسمى آفاق التفكير الإنسانى وأسمى منازع التقدم
 والانطلاق والإيمان . يقول للإنسان : ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ .

ولكى نسلك الطريق إلى الله فلا بد أن نسرع على مناهجه المستقيم الذى حدد القرآن
 معالمه فقال : ﴿ وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا
 يسرا ﴾ . وقال أيضاً : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان
 سعيهم مشكورا ﴾ .

بقى هنا سؤال : هل نفى العقل وجود الله ؟

وللإجابة على هذا السؤال ، فلا بد أن تعلم أن العقل لا يمكن أن يصطدم بقضية
 الألوهية إذا فهم العقل بمفهومه الصحيح ، إذ أن أحكام العلم والعقل تستمد صدقها من
 حواسنا ومن التجربة التى نجربها فى معاملتنا والأحكام التى تهيئنا عن هذا الطريق تكون موضع
 يقيننا ونسبها فى إجلال (المعرفة) وأهم مميزات هذه المعرفة : أنها ضد الأحكام النهائية
 تذكر هذا جيداً .

فإذا جاءنا من يصدر فى قضية الإيمان حكماً نهائياً فيقول : ليس هناك إله ؟ فإن العلم
 نفسه يقول له : هذا غرور .. لأن إصدار مثل هذا الحكم يتطلب أن تكون قد عرفت الحقيقة
 كلها .. وعرفت جميع المجهولات التى سيظل سكان هذا الكوكب بلايين السنين يكشفونها
 جزءاً فجزءاً وسيقول له العلم أيضاً إننا نستمد صدق أحكامنا من التجربة ، والمعامل لم تشهد
 حتى اليوم تجربة مادية تنفى وجود الله . فالمعرفة بمفهومها العلمى تتورع عن نفى وجود الله ،
 لأنه إذا كان العقل لا يؤمن إلا بما يثبت وجوده . فواجبه ألا يجحد إلا ما يثبت نفيه .

فتمت : أثبت العقل نفى الله ،

ب- لم يثبت ذلك ، بل ولن يستطيع أن يثبته .. إننا نحتكم إلى العقل بتفكيره التجريبي
 الواقعى ، والطريقة التى أثبت بها حركة الأرض وتحول المادة .. عليه أن يثبت نفى الله وإذا لم
 يفعل - ولن يفعل فلا أقل من أن نحترم دوماً ذلك الهاتف الأهدى الذى لا يفتأ منذ وجد

الإنسان على وجه الأرض يصبح به قائلًا : إن هناك إلهًا ، وهذا الهاتف نفسه : حقيقة آتية من العقل ومن المعرفة بأصدق ما للعقل والمعرفة من دلالة .

فالعقل الإنساني ليس هو هذا الجزء الذي نفكر به ونبحث والذي يطل على الكون من نوافذ حواسنا الخمسة : السمع ، والبصر ، والذوق ، والشم ، واللمس . بل هذا جزء من عقلنا الإنساني لا غير . لقد ثبت أن لهذا العقل الإنساني مناطق أخرى تكشف لبعض الناس الأفذاذ ، وأبصروا بها ما لا تبصر الكافة .

أجل ؟؟ إن هناك عيوناً أخرى للعقل تتفتح في بعض العقول المهيأة لترى ما لا يراه غيرها . وهناك إذن مستويات أخرى للتجربة الإنسانية لا تتاح لكل الناس ... بيد أنها تعطى أحكاماً صادقة صدق التجربة العلمية ذاتها وعند هذه المستويات العالية من التجربة استطاع أناس منا أن يعاينوا حقيقة الإيمان ويهتفوا بوجود الله ، فلماذا لا نصدقهم ؟ ولماذا نحاول أن نقيس الله تعالى بنفس المقاييس التي نقيس بها أنفسنا .

يرحم الله الإمام علياً رضي الله عنه وقد قيل له : يا إمام حدثنا عن الله ؟ فقال : سبحان ربي لا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس فوق كل شيء ، وليس تحته شيء ، وهو في كل شيء ، لا كشيء في شيء ، ليس كمثل شيء وهو السميع البصير .

ويرحم الله أبا بكر الصديق رضي الله عنه إذ قيل له : يا أبا بكر : بم عرفت ربك ؟ فقال : عرفت ربي بربي ، ولولا ربي ما عرفت ربي . قيل : فكيف عرفته ؟ فقال : العجز عن الإدراك إدراك ، والبحث في ذات الله إشراك !!

الله يدري كل ما تضمّر يعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

فلماذا نحاول أن نقيس الله بنفس المقاييس التي نقيس بها أنفسنا ؟ ولماذا نحاول قياس حرارة الشمس بترموتر عادى ؟

ولله المثل الأعلى ؟؟

إن في حياة كل فرد إنساني تجارب كثيرة يحس من خلالها وجود الله حتى وكأنه يراه . ولكن هذه التجارب العابرة والأحاسيس الخافتة تدور في المستوى العادى لشعورنا وتفكيرنا . إن هناك رعيلاً عظيماً من البشر عانوا التجربة في مستواها الأعلى وتحدث الله إليهم من خلالها أولئك هم المرسلون والأنبياء والهداة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

فهل من حقنا أن نرفض تصديقهم وننتظر حتى نرى ما رأوا ، وحتى يكلمنا الله كما
كلمهم ؟؟

وإن أمورنا لا يمكن أن تسير على هذا النحو أبدا ، فإنه لا يلزم من عدم الرؤية عدم
الوجود ، فنحن لم نر الأشعة تحت الحمراء ومع هذا نؤمن بوجودها ، لأن أفراداً منا
اكتشفوها وأخبرونا بوجودها . وأنت لم تفجر الذرة ، ولكنك تؤمن بكل أخبارها لأن أفراداً
من العلماء فجروها وأطلقوا طاقتها .

وأنت لا تحس أدنى احساس أن الأرض تدور ، ومع ذلك تؤمن إيماناً مطلقاً بدورانها ،
لأن العلم قرر دورانها .

وأنت لم تر الزهرة ، وعطارد والمريخ والمشتري ولا المجموعات الشمسية الأخرى التي
لم يصل العلم إلا إلى جانب يسير منها ، وهذا الجانب اليسير قدر بمائة ألف مليون مجموعة
شمسية ، وكل مجموعة اشتملت على مائة ألف مليون شمس كشمسنا هذه ، فما بالنا بما خفى ؟
إن ما خفى كان أعظم .

ومع ذلك فأنت تؤمن بوجودها ، لأن غيرك ممن تثق بهم رأها من وراء عدسات
المنظار بأنه يسير بسرعة ١٨٦٣٠٠ ميل في الثانية الواحدة فلماذا تصدق كل ذلك وأنت لم
تكتشف صدقه بنفسك ، إنما اكتشفه لك آخرون ؟

قد تقول إن الأمر مختلف ، لأنك تستطيع التأكد من صحة هذه الأشياء إذا أخذت
مكانك في أى معمل أو مرصد وهذا حق لكن ليس في الأمر خلاف ..

فأنت أيضاً تستطيع أن تتأكد من صدق الذين حدثوك عن الله إذا أخذت مكانك في
معاملهم ومراصدهم .. ومعاملهم ومراصدهم من نوع آخر .. نوع يستطيع كل إنسان أن
يملكه إذا جلا روحه وأيقظ كل قوى نفسه الفاضلة ، واكتشف المناطق المخبوءة من عقله
وبصيرته .

إن الإيمان الدينى ، كالإيمان العلمى ، كل منهما نوعان : إيمان رؤية وإيمان تصديق :
فإيمان الرؤية في العلم ، هو إيمان العلماء الذين اكتشفوا بأنفسهم .

وإيمان التصديق في العلم ، هو إيمان ملايين البشر الذين لم يمارسوا التجربة بأنفسهم ،
لكنهم صدقوها ...

وإيمان الرؤية في الدين : هو إيمان المرسلين والهداة الذين عاينوا وشاهدوا وذاقوا .

وإيمان التصديق في الدين : هو إيمان الكافة فإذا رضيت أن تؤمن بحقائق العلم إيمان مصدق لا غير ، فلم لا تؤمن بالله إيمان مصدق أيضاً ؟

هل أنت مصمم على أن يكون إيمانك بالله إيمان رؤية ويقين مباشر ؟ حسن هذا ..

فاصنع إذا ما يجب صنعه حين تريد أن يكون إيمانك بحقائق العلم إيماناً مباشراً ؟

أخى في الله : دع عنك حجب الغفلة ، وأذل عن عينيك عصاة الجحود ، واقرأ هذه الآيات الكريمة التي سجلها الله للمخلصين الأصفياء .

قال جل شأنه : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً ، سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ .

وتمن قول رسول الله ﷺ في شأن الآية الأولى : « ويل لمن لا كها بلسانه ولم يتدبرها قلبه » .

الألوهية في الإسلام

رسالة السماء : التعريف بالله ، وكشف معالم الطريق إليه هو الدرس الأول لكل نبي من أنبياء الله ولكل رسول من رسله .. يلتقى به على أسماع قومه ، ويؤذن به . فهم .

إن ذلك هو أول الطريق الذي يلتقى فيه النبي بقومه ، وهو مجال الدعوة ، ومركز الثقل فيها .. وفي هذا المجال يشتد الصراع ، وتحدث الخصومة ، وتجتمع قوى الشر ، وأجناد الباطل لتخفت صوت الحق ، ولتطفئ نور الله : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله مع نوره ولو كره الكافرون ﴾ .

وفي سبيل الدعوة إلى الله ، والتعريف به احتل أنبياء الله ورسله الكرام أشد ما عرف الناس من ألوان الأذى والضر دون أن يهنوا ، أو يضعفوا ، أو يستسلموا : إنها رسالة لا يقوم لها ، ولا يستقل بحملها إلا أولو العزم ، الموصولون بأسباب السماء ، الآمنون برعاية الله وتأييده ولهذا لم يكن رسل الله إلا الصفوة المختارة من عباده ، قد اصطفاهم لهذه الرسالة ، وأعدهم لهذا الأمر العظيم : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ .

ومع هذا فإن الرسل بشر ، تظهر عليهم أعراض البشرية وتتجلى فهم خصائصها : الجسدية والنفسية والروحية فهم يألمون كما يألم الناس ويضيقون ، ويخزون ، ويفرحون ، ويغضبون ، ويحلمون . ولكنهم في جميع الأحوال التي تتقلب بالناس كانوا على أكمل الكمال

الذى تتسع له البشرية ، وتحتمله . نقول هذا لنفهم منه : أن لكل رسول - كما لكل إنسان - سعيه وجهده ، في محاسبة نفسه وفي مغالبة ضعفه البشرى . وأنه بقدر ما يعمل ، وبقدر ما يحتمل تكون منزلته عند الله ودرجته بين رسله وأنبيائه : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله . ورفع بعضهم درجات ﴾ .

ونفهم من هذا أيضا أن الرسل مطالبون بأن يجاهدوا ، وأن يعملوا ، وأن يستقلوا بحمل العبء الملقى عليهم ، وألا يدخل (التواكل) على مهمتهم ، بحسبان أن الله هو صاحب الدعوة ، وهو الذى يتولى أمرها ؟! وكلا .. فإنهم مكلفون بأن يواجهوا بأنفسهم هذه المهمة التى نديتهم لها السماء ، وأن يقوموا عليها قيام الراعى القوى الحذر ، الذى يسوق قطيعه إلى مواطن العشب ، وموارد الرعى ، والذى لا يغمض عينه عن الذئب المتربصة بالقطيع ، الراصدة غفلة الراعى أو غفوته ؟

ولو شاء الله سبحانه أن يحمل عن الرسل والأنبياء عبء ما حملوا وأن يطوع لهم كل شيء لكانوا مجرد أدوات ، ولم يكن لهم فضل مجاهدة ، ولا ثمرة جهاد ولكن هكذا اقتضت حكمة الله أن يحمل الرسل تبعه مهمتهم النبيلة العظيمة ، وأن يبدلوا لها من الجهد ، وأن يحتملوا في سبيلها من الأذى على قدر نبيلها ، وشرف غايتها : (فإن العظام كفؤها العظام) .

ونفهم من هذا كذلك أن أصحاب الرسائل من القادة والزعماء مطالبون بما لم يطالب به غيرهم من الناس ، من حمل الأعباء ، وتلقى الصدمات بالقدر الذى تضم رسالاتهم من معاني الخير والحق !

الرسالة الإسلامية :

وإذا كان نبي الإسلام محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وهو الذى اختصه الله بأن يكون خاتم أنبيائه ، وأن تكون رسالته مختتم الرسائل .. فإن أعباء الرسالة التى حملها كانت أضعاف ما حمل الرسل من قبله لأنها رسالة تقف موقف التجميع ، والشرح ، والضبط ، والتحديد للرسالات كلها ولأنها تواجه الحياة كلها ، وتشرع للإنسانية كلها ، وتتسع لحاضر الزمان ومستقبله جميعا .

مهمة نبيلة ، ورسالة كريمة ولكنها محملة بأعباء ثقال تنوء الجبال بحملها إنها تمس الصميم من حياة كل إنسان .. تمس عقيدته ، وتنال ضميره ووجدانه ، وتحمل قوى الهدم لأربابه وآلته .. وليس أعز على الإنسان من محقده أيما كان مكانه من الضلال أو الهدى حتى لقد يتخلى المرء عن حياته ، ولا يتخلى عن عقيدته !

وحينَ قام محمد صلوات الله وسلامه عليه بأداء الرسالة ، واحتمل فيها ما احتمل من أذى ، كان أول ما افتتح به رسالته هو الدعوة إلى الله ووصل الناس به حتى إذا آمن الناس بالله وأقروا بوحدانيته جاء دور التشريع الذى ينظم حياة الإنسان الروحية والمادية ، ويحدد صلته بمخالقه ، وصلته بالمجتمع الإنسانى الذى يعيش فيه ..

وقد اتخذت شريعة الإسلام أعدل الطرق ، وأوضحها وأكثرها فعالية فى الوصول إلى الغاية التى قصدت إليها من الدعوة إلى الله والتعرف إليه .

فلم تشأ هذه الشريعة أن تفرق الناس فى اللجج من الجدل الفلسفى ، وفى تصورات من المنطق العقيم الذى لا يلد إلا خيالات وأوهاما ولا ينتهى إلا إلى ظنون بضرب بعضها وجه بعض .

لقد سلك الفلاسفة طريق البحث عن الله ، فأضنوا عقولهم ، وأمروا قلوبهم ولم يصلوا إلى غاية يستريح إليها عقل أو يطمئن لها قلب .

وفى تاريخ الفلسفة مواقف مثيرة لهذا الصراع الذهنى الذى أنفق فيه الفلاسفة حياتهم باحثين عن الحقيقة فى (الله) .. ما هو ؟ وكيف هو ؟ وما هذا الوجود ؟ ومن أين جاء وإلى أين ينتهى ؟ وما صلة الوجود بالله ؟ وهل هو الله ذاته أم هو من صنع الله ؟ وهل هو قديم قدم الصانع ؟ وهل هو محتاج إلى الصانع أم مستغن عنه ؟ وهكذا دارت عقول الفلاسفة مع هذه الأسئلة ومع كثير غيرها .. وكانت خاتمة المطاف عجزا وحيرة ، وقلقا وتخبطا وضللا .. ذلك أنهم حملوا أنفسهم ما لا تطبق ، وساقوا عقولهم إلى ما وراء حدودها التى يجب أن ترضع عندها .

ولكن شريعة الإسلام غير هذا .. إنها تهبى إلى الناس كمن تعرفهم ، انهم بشر لهم حدود لا يتجاوزونها ، ولعقولهم مدى لا تتعداه ... ثم هم مع هذا عامة الناس .. وليسوا فلاسفة ؟ من أجل هذا لم تفتح شريعة الإسلام باباً للجدل فى الله ولم تستمع إلى الذين يدعونها إلى الخصومة فيه .. بل قطعت عليهم الطريق وفوتت عليهم ما يقصدون من صرف الدعوة عن غايتها الجادة فى كشف الضلالة عن العقول ، والعماية عن القلوب إلى محاكات سقيمة وجدل مريض .

وليس هذا شأن الإسلام وحده ، وإنما هو سبيل الشرائع السماوية كلها منهج واحد وطريق واحد .. لأنه أعدل منهج وأقوم طريق :: لا جدل فى الله ، ولا بحث فى ذاته !! ولكن استدلال على الله ، ونظر إلى هذا الوجود الذى يصفاح حواسنا ، ويأخذ بمجامع عقولنا وقلوبنا .. نظرة تمتلئ بها القلوب خشية وانجباتاً لمن خلق فسوى ، وقدر فهدى .

ذلك هو منهج الدعوات السماوية في كل أمة وعلى لسان كل نبي : ﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسننتنا تحويلاً ﴾ .

المنهج السماوي في الدعوة إلى الله :

والذى ينظر في سير المنهج السماوي في الدعوة إلى الله يجد بين يديه دلائل الإعجاز التى تعنو لها الوجود وتخضع لها أعناق المعاندين والمكابرين فإن تديره وتدرجه مع التطور العقلى للإنسان ومسايرته للملكات التفكير الإنسانى عصرأ بعد عصر ، ينطق بشهادتين : الشهادة الأولى : أن هذا التدبير لا يكون إلا من حكيم خبير ، يعلم من الناس ما لا يعلمون .. ذلك هو الله رب العالمين .

الشهادة الثانية : صدق هذا القرآن .. الذى نأخذ عنه ذلك المنهج الصادق المعجز ، ذلك أننا إذا أضفنا المنهج إلى ذات الله وأن القرآن هو المنبىء عن هذا المنهج لزم أن يكون هذا القرآن مضافاً إلى الله ، وأن يكون النبى نبيأ صادقاً موصولاً بأسباب السماء : يتلقى رسالته عن الله ويحمل إلى الناس شريعته .

ونعود إلى منهج الدعوة إلى الله في رسالات الأنبياء كما جاء بها القرآن الكريم .

ونود أن نلاحظ هنا أن التوقيت الزمنى لدعوات الأنبياء الذين ذكروا في القرآن لم يكن من شأن القرآن الالتفات إليه والاهتمام به لأن هذا التحديد ليس له أثر في الواقعة التى يذكرها القرآن ولهذا المعنى ذاته لم تشر آيات الكتاب إلى أماكن الدعوات ، وإن جاء شيء من هذا فإنما ليخدم غرضاً آخر وراء هذا الغرض الأصيل للواقعة (كمدين) التى ذكرت في دعوة شعيب : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾ فإن ذكرها هنا ينبىء عن أنها هي (مدين) التى توجه إليها موسى عقب فراره من مصر والتى ذكرها الله في قوله تعالى : ﴿ ولما توجه تلقاء مدين ﴾ وبهذا تكتمل قصة موسى وشعيب ، ويتحدد مكان التقائهما . فالزمان والمكان ليس لهما شأن في (وقائع) الدعوات السماوية التى ذكرها القرآن الكريم ، إذ أن مرمى (الواقعة) الايرادية هو عرض مشهد من مشاهد الصراع بين الإيمان والكفر وبين الحق والباطل . وليكن الزمان أى زمان أو كل الأزمنة وتقع في كل مكان . فلا أثر للزمان أو المكان فيها .

وهنا يبدو وجه الحكمة في إطلاق وقائع الدعوة من ظروف الزمان والمكان في هذا الصراع بين الحق والباطل ، حيث تظل هذه الوقائع ملء الأزمنة وملء الأمكنة وبهذا لن تكون غريبة في أى زمان أو مكان ، إنها للناس جميعاً ولأجيال الناس جميعاً ..

فحين كان صراع بين حق وباطل كانت وقائع الفصوص القرآني دستوراً محكما يحكمهم إليها ، ويتأسى به .

ونلاحظ أيضاً أنه مع إطلاق وقائع الدعوات السماوية من قِبو الزمان والمكان فإن الترتيب الزمني بين هذه الدعوات قد نال شيئاً من اهتمام القرآن به .. فهناك أكثر من وجه يمكن أن يستدل منه على مكان كل دعوة من سابقتها أو لاحقتها في الزمن . ومن هذا مثلاً .. في دعوة (هود) يجيء على لسانه وهو يخاطب قومه : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ .. كما يجيء على لسان (صالح) مخاطباً قومه : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾ .. وكذلك يذكر القرآن (مدين) في قوله تعالى : ﴿ ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴾ فيفهم من هذا أن دعوة شعيب كانت بعد دعوة صالح لأن صالحاً كان رسولاً إلى (ثمود) وأن شعيباً كان رسول (مدين) .

فهل كان ذكر هذا الترتيب مقصوداً أم غير مقصود ؟ وإذا كان مقصوداً فما غايته وما مرماه ؟

ولا أريد أن أعطي جواباً عن هذا .. ولكنني سأجعل لهذا الترتيب شأنه في تقييم المنهج الذي وضعت السماء لدعوة الحق ، وفتح عقول الناس وقلوبهم بها .

وننظر في هذا فنجد أن الإنسانية وهي تدرج أولى مدارج الحياة كانت أشبه بحياة الطفولة أو الصبا في حياة الإنسان . وإذا كان هذا شأنها فقد كان من تدبير الحكيم العليم أن تكون دعوات السماء في تلك المرحلة من حياة الإنسانية دعوة (تلقائية) تدعو إلى الله مباشرة دون أن تلتفت العقول إلى الاستدلال عليه من النظر في ملكوت السموات والأرض لأن عقول المخاطبين أضعف من أن تنفذ إلى ما وراء الغريب الواضح من ظاهر المحسوسات وتكاد الدعوات التي سبقت إبراهيم عليه السلام تدخل في هذا (الاطار) وأن تكون جميعها هتافاً واحداً بهاتين الكلمتين : (اعبدوا الله) هكذا من غير أن يدعى العقل إلى البحث عن الله والاستدلال عليه بالنظر في ظاهر الوجود وباطنه !.. هذا شأن التربية مع الصغار ! يدعو إلى الخير وينهى عن الشر دون أنه يترك لإلهم التعرف على الخير أو الشر والاستدلال عليهما من طريق البحث والنظر . ولهذا فقد كان موقف الرسل في تلك الفترة موقفاً يحتاج إلى قوة ظاهرة بين يدي الرسول ، قوة لا تخاطب العقل وإنما تجابه الحس ، فتبهر الأبصار ، وتضم الآذان وترعد الفرائص .. إنها المهلكات التي يخيف بها الرسل أقوامهم إن هم أبوا الاستجابة لدعوة الرسول ، والإيمان بالله الذي يهتف باسمه .. إنها حجارة من سجيل ، وريح صرصر عاتية تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر وطوفان يفرق السهل والجبل ، وصواعق تهلك الحرث والنسل !!

تلك هي القوى المخيفة التي كان يتهدد بها الرسل - في تلك الفترة - أقوامهم الذين هم رجال في أحلام أطفال أو صبيان ؟

ونستعرض الآن أصول أربع دعوات سماوية من بين الدعوات التي جاءت في تلك الفترة من حياة الإنسانية التي سبقت دعوة (إبراهيم) وهي دعوات : نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب .

دعوة نوح :

وقد ذكرت في القرآن مرات كثيرة ، ولها في كل مرة لون جديد .. إلا أنها جميعا تكمل صورة الدعوة ، وتحدد معالمها :

١ - يقول الله تعالى : ﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم ، قال يا قوم إني لكم نذير مبين .. أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ، يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ .

٢ - ويقول سبحانه : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ؟ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ، ولو شاء الله لآنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آياتنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة فترىصوا به حتى حين ﴾ .

٣ - ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم فقال الملأ الذين كفروا من قومه ، ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ، قال : يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ، ويا قوم لا أسألكم عليه مالا .. إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقوا ربهم ، ولكنى أراكم قوماً تجهلون ، ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ، ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيمهم الله خيراً ، الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين ﴾ .

في هذا الإطار كانت دعوة نوح إلى قومه : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ . ولكنهم كانوا في مستوى إنساني بحيث لا تستجيب عقولهم لغير العقاب المادى المباشر .. فكان لا بد أن يقع العذاب الذي أوعدهم به واستعجلوه :

﴿ قالوا : يا نوح قد جادلتنا ، فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ !

وجاء العذاب .. فكان الطوفان الذى أغرقهم الله به وبجنا نوحا ومن آمن معه :
﴿ فأخذهم الطوفان ، وهم ظالمون ﴾ .

دعوة هود :

وهود .. دعوته إلى قومه قريبة من دعوة نوح ولكن فيها إشعارا بأن الإنسان الذى يخاطبه هود قد كبر شيئا ما عن ذلك الإنسان الذى كان يخاطبه نوح ، وأنه قادر نسبياً على أن يستبصر ويدرك ، فكان فى دعوة هود إلى قومه إلفات قريبة إلى بعض المظاهر المادية الملائمة لهم والملتصقة بحياتهم ، وأن ما هم فيه من نعمة إنما هو من عند الله الذى يدعوهم إليه :

﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ، قال : يا قوم ، اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ؟ قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ، قال : يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين ، أوعجبم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾ .

فهود إذ يدعو قومه إلى الله يذكرهم بفضل الله عليهم ، وأنهم خلفوا قوم نوح الذين أهلكهم الله بظلمهم ، كما أن الله قد من عليهم ببسطة الأجسام وقوة الأبدان وتلك نعم جديرة بأن يذكرها ، ويذكروا المنعم بها ، وفى هذا رشدهم وفلاحهم . وفى موقف آخر يهتف هود بقومه : ﴿ إني لكم رسول أمين .. فأتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون .. أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون .. إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ فهذه أنعام ، وبنين ، وجنات ، وعيون يعيشون فيها وينعمون بها ، وهى ليست من صنع أيديهم وإنما هى من عند الله الذى يدعوهم إلى الإيمان به .

دعوة صالح :

وفى دعوة صالح آفاق للنظر والتأمل أوسع من تلك الآفاق المحدودة التى جاءت بها دعوة هود ..

وللزمنا أثره فى تلك الفوارق العقلية بين قوم صالح وقوم هود ، إذ كان قوم صالح قد خلفوا قوم (هود) وخلفوا الأحداث التى وقعت لهم والبلاء الذى صب عليهم بعد أن عصوا

رسول ربهم ، واستخفوا به وبدعوته !.. وذلك لا شك تارك آثاره في هؤلاء القوم - قوم صالح - بما فتح عليهم من أبواب البحث والتفكير :

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً .. قال : يا قوم .. اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .. هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ﴾ .

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءكم بينة من ربكم .. هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم .. واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتتحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعفوا في الأرض مفسدين ﴾ . ﴿ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على زب العالمين ، أتركون فيما هنا آمنين ، في جنات وعميون ، وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتتحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴾ .

إن صالحاً يذكر قومه بقدرة الله الذي يدعوهم إليه .. أنشأهم من الأرض واستعمرهم فيها ..

والعقل الذي يستطيع أن يتصور خلق الإنسان من تراب ويرتب مراحل عملية الخلق هذه ترتيباً منطقياً واقعياً بحيث يرى أن النطفة التي هي بذرة خلق الإنسان إنما هي من الغذاء الذي يتحول في الجسم إلى دم ، ثم إلى نطفة وأن هذا الغذاء من النبات وأن النبات هو أجنة الأرض حملته في بطنها ، وغذته بعصارها . العقل الذي يستطيع أن يدرك هذا أو بعض هذا هو غير العقل الذي كان عليه قوم هود أو قوم نوح !

ولهذا لم تحمل دعوة هود معجزة استدلالية تنبئ عن قدرة الله ، وإنما حملت هلاكاً وتدميراً ، بعد أن انتهى دور النصح ، والوعد ، ومن قبلها كانت كذلك دعوة نوح ! لم تصحبها معجزة استدلالية ، بينما حملت دعوة صالح معجزة استدلالية ، يرى فيها أولوا الرشد إشارة إلى الله ، وطريقاً إليه .. وتلك المعجزة هي (الناقة) التي اقترحوا على صالح أن يخرجها لهم من صخرة معروفة عندهم وأن تكون عشراء تمخض .. وأعطوا العهد لصالح أنهم يؤمنون بالإله الذي يدعوهم إليه إذا جاءهم بما طلبوا .

وقد استجاب الله دعوة صالح ، فخرجت الناقة من الصخرة التي أشاروا إليها وجنيتها يتحرك في أحشائها .. وقد آمن بعضهم لهذه المعجزة ، ولم يؤمن أكثرهم وتآمروا على الناقة فقتلوها .. وهنا حل بهم العذاب الذي أوعدهم به : ﴿ ففعلوها فدمم عليهم ربهم بذنبيهم ﴾ .

دعوة شعيب :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تقصوا المكيال والميزان ، إني أراكم بخير ، وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين .. بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ .

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً ، واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ .

ونلاحظ هنا أن دعوة شعيب لم تقف عند حدود الدعوات الثلاث السابقة وهي الدعوة إلى الله ، بل إنها شملت هذا الأمر ثم تجاوزته إلى التشريع ، وذلك بمخاطبة الضمير الإنساني ، ودعوته إلى رعاية حقوق الناس ومعاملتهم بالعدل ..

(والضمير) إنما يأخذ مكانه في كيان الإنسان حين يرشد ، ويكتمل وعيه ، أما في مرحلة الطفولة والصبا فلا مكان للضمير !!

إن مع قوم شعيب أجزاء إنسانية كادت تستكمل حظها من العقل والادراك فهم لهذا أهل بأن تخاطب ضمائرهم وأن يطلب إليهم إقامة حياة اجتماعية يؤدي فيها الفرد حقوق الآخرين لكي يؤديوا له حقه .

ولعل سؤالاً يدور في خاطر من ينظر في تلك الدعوات ف يرى أنها تحمل في يمينها هداية ونورا حين تدعو إلى الله وتصل الناس به ، بينما تحمل في اليد الأخرى عذاباً أليماً وبلاءً محيطاً شاملاً ، معجلاً .. حين تبعث الطوفان وترسل الصواعق ، وتسوق العواصف فتأتي على كل شيء : ﴿ ما تزر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ .. وليسأل سائل : لم هذه الإبادة الجماعية للمجتمع ؟ وأي شيء يسلم للناس وللحياة بعد أن يذهب كل شيء ويفنى كل شيء ؟

فهذا شعب يفنى كله ، وجماعة تبيد جميعاً .. فماذا أفادت الإنسانية من تلك الرسالة الكريمة التي جاءت لخلاصها ، وإسعادها ؟ وقد يكون الأمر محتملاً ومقبولاً لو سلم بعض فكان الذاهب فداء لمن بقي ؟ وكان الهالك وقاية لمن سلم : أما أن تفنى الجماعة كلها ، وتذهب معالمها جميعاً فذلك هو موضع السؤال ، والتساؤل معا ؟

النظرة المحدودة هي التي تسير بنا إلى هذا الموقف ، فنسأل ونتساءل حين نجد أننا إزاء عملية إصلاح دار فهدمه هدمًا ونحمله كومة تراب !

ولكن إذا وسعنا دائرة النظرة فرأينا الحياة كلها لا في هذا المجتمع وحده الذي حملت إليه الرسالة ، ووجهت له الدعوة ، ولا في هذه الفترة وحدها من الحياة التي جاءت فيها الرسالة .. إننا لو فعلنا ذلك لرأينا أن أولئك الذين ذهبوا جملة وهلكوا جميعا لم يذهبوا هباءً ، وإنما خلفوا وراءهم عبرة ماثلة وعظة بالغة لمن كان - من غيرهم - في أيامهم ولمن أتى بعدهم من الجماعات .

إن طوفان نوح ، وعواصف هود ، ورجفة صالح ، وقد هلك بها من هلك ، قد كانت عبرة وعظة ، انتفع بها كثير ، واهتدى بها كثير ، ولا تزال إلى اليوم درسا نافعا ، وعظة ماثلة لكل من أراد العبرة والعظة ولا نذهب بعيدا .. فقد كانت كل زاجرة من تلك الزواجر مثلا يسوقه الرسول لقومه ، ويشرف منه بهم على مصارع الذين عصوا رسل ربهم ، وأنكروا مكانهم فيهم .

فهذا هود يذكر قومه بما حل بقوم نوح : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ وهذا صالح يذكر قومه بما وقع لقوم هود : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ؟ ﴾ .

وهذا نبي الله شعيب يجمع المثل لقومه ، ويستعرض مشاهد الدمار والبلاء الذي نزل بمن سبقوهم في تحدى الرسل وإعنتهم : ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاق أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم بعيد ﴾ .

فهذه المهلكات التي رمى بها أولئك الأغبياء المعاندون لم تكن إلا مثلا تخيف من حولهم ، ومن بعدهم وتدعوهم إلى الانصياع والتسليم للهداة الراشدين الذين يدعونهم إلى الطريق المستقيم .. وهذا ما تنطق به الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها .. وما نرسل بالآيات إلا تخويفا ﴾ .

مرحلة أخرى :

ومنذ إبراهيم عليه السلام تبدأ مرحلة جديدة من مراحل الدعوات السماوية فتتخلل الدعوات عن الجانب التأديبي العاجل منها ، وتصير بالناس إلى جزاء مؤجل يلقونه في الحياة الآخرة .. إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . والإنسان الرشيد ينظر إلى أبعد من يومه الذي يعيش ينظر إلى الغد ، وإلى ما بعد الغد ، بل إنه لينظر إلى ما بعد الحياة الدنيا ، بل وإنه ليركز نظره كله إلى ما بعد هذه الحياة الدنيا .

وإذ كانت دعوات إبراهيم ، وموسى ، وعيسى قد استرخى بها الزمن حتى رشدت الإنسانية - أو كادت - فقد حملت إلى الناس دعوة إلى الله قائمة على النظر في ملكوته ، وعلى الإيمان به عن طريق هذا النظر الذى يرسله الإنسان فى هذا الوجود ، فيعود إليه عملاً بالآيات الدالة على قدرة الله الناطقة بحكمة الخالق وعظمته .

دعوة إبراهيم :

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين ، إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين . قال : لقد كنتم أنتم وآباءكم فى ضلال مبين .. قالوا : أجبنا بالحق أم أنت من اللاعين ؟ قال : بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن ، وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ .

﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه : اعبدوا الله واتقوه ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون إفكاً ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتنوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له .. إليه ترجعون ﴾ !!

إن إبراهيم يضع قومه أمام موقف يحتاج إلى عقل ونظر ، وإلى حساب وتقدير ليميزوا الخبيث من الطيب ويفرقوا بين الحق والباطل : ﴿ ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ﴾ .

﴿ إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون إفكاً .. إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتنوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ﴾ .

إن العقل الرشيد المكتمل هو الذى يدعى إلى هذا النظر ويحمل على المراجعة والموازنة بين الأشياء .

دعوة موسى :

وموسى رسول إلى جهتين : إلى قومه - بنى إسرائيل - وإلى فرعون ، الذى طغى ، وامتد طغيانه إلى بنى إسرائيل : ﴿ يذبح أبناءهم ، ويستحى نساءهم ﴾ وهو مع فرعون - إذ يدعو إلى الله - يحمل إليه معجزات لا تقبل التحدى ولكن فرعون يتحداها ، ويتهى التحدى بانتصار المعجزة السماوية فيؤمن سحرة فرعون بموسى ويمن جنون فرعون ، وتأخذه العزة بالإثم ، فيضاعف البلاء الذى يصبه على بنى إسرائيل ولا يجد موسى إلا الهرب بقومه فيتبعهم فرعون وهناك على مشارف (سيناء) عند البحر الأحمر يقف موسى وقومه ، ومن ورائه فرعون وجنوده يكادون يلحقون بهم .. ويضرب موسى بعضاه البحر فيفلق وينفتح له ولقومه طريق منه وينسحب بقومه إلى الشاطئ الشرقى من البحر وفرعون وجنوده جادون فى

أثرهم يركبون نفس الطريق في قلب البحر . وهنا تنتهى المعجزة بعد أن أدت دورها وينطبق البحر على فرعون وجنوده فيغرقون .

وهذه المعجزات قد شهدها بنو إسرائيل وكان من شأنها أن تقع من القوم موقع الإيمان وأن تقوم شاهد صدق على رسالة موسى ولكن القوم قد التوت نفوسهم فلم تستقم فيها تلك المعجزات ، ولم تقع في مغارس طيبة ، وظل القوم في حاجة إلى معجزات أخرى يتلو بعضها بعضا . وجاءهم موسى بالبينات .. ضرب بعصاه الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا ، لكل قبيلة منهم عين تستقى منها .. وأنزل عليهم المن والسلوى وجاءهم بالثورة فيها هدى ونور .. وفيها تذكير لهم بما فضل الله عليهم من نعمة إذ نجاهم من آل فرعون : ﴿ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ نجياكم من آل فرعون .. يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم .. وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ .

ومع هذا فقد لجوا في الضلال والعناد وأبوا أن يقنعوا بكل هذه الآيات وطلبوا إلى موسى أن يريهم الله جهرة : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ .

وقد كان من المتوقع - في ظاهر الأمر - أن ينزل العذاب الشامل بهم جميعا وأن يقع البلاء الساحق الذى لا يبقى ولا ينر ، ولكن يجيء الأمر على غير هذا ، فيقع البلاء ، ويحل العذاب في حدود معينة تنال المعتدين وتأخذ الظالمين .

فالذين اعتلوا في (السبت) وخرجوا على الشريعة ، هؤلاء مسخوا مسخا خرج بهم عن الإنسانية ، فكانوا قردة .. يسخر منهم ، ويستهزأ بهم ، وتكون فيهم العبرة لمن اعتبر : ﴿ ولقد علمم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم : كونوا قردة خاسئين فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين ﴾ .

والذين صغر في نفوسهم شأن الله حتى طلبوا أن يروه عيانا كما يرون الأشياء هؤلاء أخذتهم الصاعقة بظلمهم : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ﴾ .

وأما الذين عبثوا العجل وجعلوه لها فقد نالهم من الله غضب وذلة في الحياة الدنيا وإن يكونوا قد تابوا ورجعوا عن ضلالهم بعد أن راجعهم موسى ونسف العجل الذى عبثوه وهم ينظرون : ﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين ﴾ . وأما رأس الفتنة وهو (السامرى) الذى دعا إلى اتخاذ العجل من الخلى التى جمعها من القوم وصوره منها فقد مثل به في الدنيا فكان لا يمسك بشيء إلا أصابه منه

الضر والأذى : ﴿ قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه ﴾ .

لم يقع العذاب شاملا ولم يأخذ القوم جميعا وإنما وقع على من استحقوه بما ظلموا لأن في البقية رجاء وفهم مكان لمغارس الهداية والإيمان .. إن الجسم الذى يصلح بيتر عضو من أعضائه تقتضى الحكمة أن بيتر هذا العضو وحده دون أن يمتد البتر إلى غيره من الأعضاء وقد كان في بنى إسرائيل مفسدون لم تستقم مع الحق والخير نفوسهم وكانوا نبينا سيما فتولت السماء اقتلعه ... أرأيت إذن كيف كان المنهج الذى قامت عليه دعوة الرسل رسولا بعد رسول وعصرا بعد عصر ... لقد سائر هذا المنهج عقلية الإنسان وتقابل معها على المستوى الذى كان لها من الوعى والادراك ، كان المنهج في الرسائل الأولى منها تلقائيا يلقن الإنسانية في طفولتها مبادئ العقيدة : ﴿ أعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ كما يلقن الطفل أسماء المسميات : هذا مصباح ، وهذا مذيع ، وذاك كرسى ، وتلك سيارة وهكذا . ثم دخل المنهج مدخلا آخر حيث تطورت الإنسانية واتسعت مداركها بعض الشيء فكان إلى جانب الدعوة إلى (الله) إلفات إلى الوجود المادى ليستدل من النظام الممسك به على عظمة الخالق وقدرته .. كذلك صحب هذه المرحلة من دعوات الرسل معجزات غير انتقامية يراد بها تأييد الرسول وتزكية دعوته بأنه رسول رب العالمين وذلك حين يراها الناس فيرون معها ما لا يمكن لبشر أن يأتي به وذلك عمل يحتاج إلى وعى وإدراك لا يبلغه المرء إلا بعد أن يجاوز مرحلة الصبا ويشرف على مرحلة الرجولة أو يبلغها .

ونعود لنقرر مرة أخرى أن في هذا المنهج الذى حوته دعوات الرسل والذى نقله إلينا القرآن الكريم دليلا قائما على أن القرآن منزل من عند الله وذلك لما اشتمل عليه هذا المنهج من مساهرة لتطور الإنسانية ومواءمة لوعيا وإدراكها ولو كان هذا القرآن من عند غير الله لما كان فيه هذا الضبط الدقيق واليقظة الواعية لسير الحياة وصدحركات العقول فيها ولوقع على أقل تقدير في هذا المنهج بعض الخلل في ترابطه وتماسكه ولكننا إزاء منهج متماسك أقوى ما يكون التماسك سواء في وحداته وعناصرها أم في تدرج هذه الوحدات واحدة بعد أخرى من تدرج الكائن الحى نحو النضج والكمال فإلى جانب الأدلة الكثيرة على إعجاز القرآن وصدق الرسول يمكن أن يضاف هذا الدليل إليها وبحسب في حسابها .

أسلوب القرآن في الدعوة إلى الله :

والرسالة المحمدية كما أشرنا من قبل هى خاتمة الرسائل السماوية ومعنى هذا أنها التقت بالإنسانية وقد بلغت رشدها وأن السماء تقول في هذه الرسالة كلمتها الأخيرة للناس وأنها بعد هذا ستنهى وصايتها على الناس وتدعهم لأنفسهم وما بين أيديهم من وصايا السماء .

لقد انتهى الدور (التلقائي) أو (التلقيني) الذى يقول فيه الرسول لقومه : (اعبدوا الله) هكذا أمراً ملزماً من غير أن يكون للناس مشاركة عقلية أو قلبية في البحث عن الله والاستدلال عليه . انتهى هذا الدور بعد أن استشعر العقل بنفسه دلائل كثيرة تشير إلى وجود (الله) الذى ينبغى أن يضاف إليه هذا الوجود وأن يرد إلى علمه وقدرته وحكمته كل ما يستند إليه هذا الوجود من علم وقدره وحكمة ..

(فالله) في واقع الحياة في هذه المرحلة الأخيرة من رسالات السماء ليس (ذاتا) مجهولة أو منكرة في عقول الكثرة الغالبة من الناس فقد كان لدعوات الرسل المتتابعة والمواقف الراشدين والعالمين من أتباعهم آثار كثيرة في كشف الطريق إلى الله والتعريف به كما كان للزمن وتطور العقل الإنساني نحو الكمال أثره القوي كذلك في هذا الأمر .

لقد جاء الإسلام والعرب يعرفون كلمة (الله) ويتعاملون بها في حياتهم على أنها قوة ممسكة بالوجود وقائمة على كل شيء وأنها تعلم ما يخفى الناس وما يعلنون .

يقول زهير بن أبى سلمى - الشاعر الجاهلى - وأحد أصحاب المعلقات :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينتقم

فلقد كان العرب في جاهليتهم يعتقدون في الحياة بعد الموت وفي الجزاء والجنة والنار . يقول جوستاف جرونبياد : (وعندما ولد [محمد] كان [الله] معروفاً من قبل بأنه إله الناس وكان الناس قد أدركوا أن شريعته - أى شريعة الله - أبعد أثراً وأرحب مجالاً من شريعة الأوثان ولكن لم تقم لله أية عبادة . أجل إن بعض المكيين ربما كانوا يعتقدون أن الكعبة بيت الله المقدس ويلوح أن المكيين وقد كانوا فوق المستوى العام لمواطنهم كما كانوا على أتم الاستعداد للاعتراف بسيادة الله) ...

ويقول الشهرستاني عن عرب الجاهلية :

(ومن العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وينتظر النبوة ومن هؤلاء زيد بن عمرو ابن نفيل كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول : أيها الناس هلموا إلى فإنه لم يبق على دين إبراهيم أحد غيرى . ومنهم قيس بن ساعدة الأيادي وكان يقول : هو الله إله واحد ليس بمولود ولا والد أعاد وأبدي وإليه المآب غدا . ومنهم عامر بن الظرب العدواني وكان يقول : إني ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً ولا جاثياً إلا ذاهباً ولو كان يظمت الناس الداء لأحياهم الدواء) . فالرسالة المحمدية تواجه إنسانية فيها وعى ولها إدراك وعندنا استعداد للبحث عن الله والتشوق إليه من خلال هذا الوجود الذى يعيش فيه الناس .

وإذن فلن تكون الدعوة إلى الله دعوة تلقائية لأن مواجهة العقل المدرك المستعد للبحث للنظر أو مواجهته بالأمر الواقع والحكم الملزم فيه تعسف وإعنات لا تلقاه مثل هذه العقول إلا بالتمرد والعناد .

مقتضى التربية الحكيمة أن تشارك العقول المستعدة للنظر والقادرة على الفهم في البحث عن الحقيقة التي تدعوا إليها وأن تثير فيها دواعي التطلع إلى الكشف عن المجهول الذي تبحث عنه . وهذا الضرب من التربية يحقق أمرين :

أولها : استرضاء العقل وكسبه إلى جانب القضية التي يراد بحثها حيث يصبح فيرى نفسه أحد المشتركين فيها والمدافعين عنها وأنت ترى الفرق واضحا بين إنسان تدعوه إلى مشاركتك في البحث عن حقيقة شيء ما وبين إنسان آخر تلقى إليه هذه الحقيقة وتطلب منه التسليم بها والاذعان لما تقول ، إنك مع الإنسان الأول في صحبة صديق ينزل معك إلى ميدان البحث ويقف إلى جوارك يعينك وتعيه وإنك مع الإنسان الآخر في مواجهة شخص ينظر إليك نظر المستريب الحذر الذي يخاف أن يقع تحت سلطانك ويتلقى أوامرك ونواهيك وإنه إن لم يقف منك موقف العلو الذي يريد أن يبطل قولك وينقض رأيك فلا أقل من أن يتخذ موقفا سلبيا لا عليك ولا لك .. يصمم أذنيه دونك ويحجب عقله عنك وقليل جملأ أن تجد هذا الإنسان الرشيد الذي لا ينظر إليك كإنسان في مواجهة إنسان وإنما ينظر إلى ما معك من حق وما بين يديك من علم .

وتنظر في دعوة الإسلام إلى (الله) كيف واجهت الناس وكيف كان الطريق الذي سلكته إلى عقولهم وكيف كان الأسلوب الذي أدارت به معركة الرأي في هذه الدعوة . ماذا كان موقفها من المعاندين الذين لج بهم العناد فانسحبوا من معركة الرأي ليدبروا معارك القوة المادية التي كانت كلها في أول الدعوة مجتمعة بين أيديهم .

وحين ننظر في هذا نجد أن الدعوة قد مرت في مراحل وأنها انتقلت بالناس من حال إلى حال كما ينتقل طلاب العلم من طور إلى طور ومن علم إلى علم .

الطور الأول : وطبيعي أن يكون أول ما تفتتح به الدعوة درسها الأول في التعريف بالله هو توجيه العقول وإفاتها إلى هذا الوجود وإلى إطالة النظر فيما في هذا الوجود من عظمة ونظام وحكمة فإذا عرف العقل هذا كله أو شيئا منه وعرف أن هذا الوجود لم يكن من صنع الإنسان ولم يكن من صنع أي موجود من تلك الموجودات مهما عظم شأنه أو كبير جرمه ، إذا عرف العقل هذا أسلمه ذلك إلى البحث عن (ذات) يضيف إليها هذا الوجود ويعلقه بها .

الطور الثاني : وهنا يأتي الطور الثاني من الدعوة فتكشف عن تلك (الذات) ما هي ؟ وما صفاتها ؟ وكيف تخلق ؟ وكيف تدبر ؟

الطور الثالث : ثم يأتي الطور الثالث وهو الكشف عن موقف الإنسان من (الذات) وصلته بها ، وهذا الطور يبرز أحكام الشريعة التي تحمد للإنسان مكانه في الحياة وترسم له سلوكه فيها وتكشف له عن الحياة الآخرة وما يلقي فيها من نعيم أو عذاب فإذا ما انتهى الإنسان إلى نهاية الطور الثالث كان قد استكمل كل مقومات العقيدة في عقله فعرف (الله) واستوثق من صدق النبي وآمن بشريعته وأعد نفسه للحياتين الدنيا والآخرة وسعى لهما سعياً الذي رسمته الشريعة ودعت إليه ... ثم يجيء بعد هذا طور رابع وأخير وهو الطور الذي يشهد التطبيق العملي لأحكام الشريعة . وفي هذا الطور يشرح الرسول كثيراً من (مواد) الشريعة التي أساء بعض الناس فهمها فأساءوا تطبيقها .. يتولى شرحها بأقواله وأعماله أو تتولى السماء شرحها بما ينتزل من آيات الكتاب .

وفي المرحلة الأولى من مراحل الدعوة نجد أن أول ما افتتح به الوحي رسالة الرسول هو قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ فقد جمعت الآيات الأولى طورين من أطوار الدعوة هما الطور الأول والثاني معاً . وكان هذا الجمع هو عنوان الموضوع الذي تدور حوله الدعوة في مراحلها الأولى (الخالق وما الخالق) وذكر الخالق هنا هو تحديد للموضوع الذي من أجله كان توجيه النظر إلى المخلوقات والوقوف على ما في صورها وألوانها وأشكالها من عجائب وأسرار فإذا استباننا لعين الناظر المتأمل تنبيه إلى الخالق الذي خلق .. ويكاد العهد المكي كله - من تاريخ الرسالة - يقوم على أداء هذا الدور والعمل على التعريف بالله عن طريق الاقتناع بالنظر والتفكير في آيات الله .

ولقد جاء القرآن الكريم في هذا الباب بما لم يكن لدعوة من الدعوات السماوية أو غير السماوية أن تحيء بمثلها وبما لم تنفذ إليه من قلوب الناس وعقولهم أجهزة الدعايات العصرية التي تيشر بالمذاهب السياسية أو الاقتصادية والتي تحتشد لها كل قوى الدعاية من ملايين الأنفس وملايين الأموال تعمل جميعها في كل ميدان يصل إلى الناس : من الاذاعات والكتب والصحف وتقديم الخدمات الاجتماعية وتنشئة الصغار في دور التبشير واغراء الناس بالأموال والنساء ، كل أولئك لم يكن شيئاً إلى جانب المنهج الذي اتبعه الإسلام في دعوته إلى الله إذ كان منهجاً قائماً على الحق وداعياً إليه عن طريق النظر والاستدلال والاقتناع حيث يمسك الإنسان الخيط أو الخيوط التي تصل بينه وبين خالقه وماذا يشوق الإنسان ويوقظ عقله ووجدانه أكثر من الرحلة العقلية المتمتع في عالم الوجود لا يبذل لها المرء مالا ولا يتكلف لها سعياً وانتقالاً وإنما هي نظرة واعية يملأ بها عينيه من صامت الوجود وناطقه فإذا الوجود كله

في مسرح نظره ومسبح خاطره ومجلى تفكيره وقلبه كيف يشاء ويأخذ منه ما يريد .

استمع إلى قوله تعالى : ﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يصبرون ﴾ . وإلى قوله سبحانه : ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر ، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . يغشى الليل النهار ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد وفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

واستمع إلى قوله جل شأنه : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شققاً فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ فتلذذ دعوات يستحضر بها العقل هذه الظواهر التي تتبدل بها الطبيعة حالا بعد حال وتلبس فيها أثوابا بعد أثواب وهي تحيء وتذهب بين يدي الإنسان دون أن يلتفت إليها كثير من الناس أو يقفوا عندها فإذا جاءهم من يدعوهم إليها ويلفتهم نحوها أحسوا بها وعجبوا منها كأنما يرونها لأول مرة . وقد ذهب القرآن الكريم في هذا كل مذهب وجاء إلى العقل من كل أفق يثيره ويجلد صور الوجود في نظره .

ومن تدبير القرآن في هذا استعراض مظاهر قدرة الله وعظمته وحكمته وتديبه فيما يبلى عليه النظام الكوني من روعة ودقة وإحكام : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ .

﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة ﴾ . ﴿ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

ومن الأساليب التي نهجها القرآن في الالتفات إلى عظمة الله وقدرته أسلوب الاستفهام التقريرى الذى يتحدث عن خلق من خلق الله أو عن آية من آياته ونعمة من نعمه وفى هذا الأسلوب يجد السامع نفسه أمام سؤال ليس له إلا جواب واحد هو الاقرار بالله فإن استجاب للحق أقر به وإلا فحم ودهم وخرس :

﴿ أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أءله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ . ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلا ما تذكرون ﴾ .

﴿ أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور ﴾ .

﴿ أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجو فى عتو ونفور ﴾ . فهذه قضايا يطالب الخصم فيها بإقامة الدليل على بطلانها وذلك غير الأسلوب الذى يتخذ القرآن فيه موقف المدعى فيدلى بالحجج والبيّنات ويقيم البراهين بين يدي دعواه فلا نجد الخصم منفذا ينفذ منه إلا أن يركب رأسه وتأخذ العزة بالإثم فيكابر فى غير حياء ولا خجل كما كان بين إبراهيم و(الفرود) فيما يقص القرآن الكريم: ﴿ إذ قال إبراهيم: ربى الذى يحى ويميت قال: أنا أحيى وأميت . قال إبراهيم: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ . وهذا أسلوب قد جاء فيه القرآن بألوان من ضروب الإعجاز خرسنت له الألسنة وتضاءلت أمامه العقول وتصاغرت الأفهام .

أما الأسلوب الذى أشرنا إليه وهو وضع الخصم موضع المدعى وجود قدرة غير قدرة الله فهو من تمام الحكمة فى سد منافذ الهرب والإفلات فى وجهه فإنه حيث يكون مدعى عليه يمكن أن يكابر فيرد كل حجة إلى غير سبيلها كأن يقول مثلا (بالطبيعة الخالقة) المدبرة حيث يقال له : الله يحى ويميت . وأما هنا فهو مطالب أن يقيم الدليل على دعواه الباطلة : كيف تخلق الطبيعة ؟ هل من خالق غير الله ؟ أءله مع الله ؟ فهو حيث يطالب بالدليل على ما يدعيه يسقط فى يده فلا يجد قولاً ولا يجد جواباً . وهذا أسلوب من الجدل المنتج يهتدى إليه العقل ويتجه نحوه . سأل أحد الملحدين تلميذا فقال : أقم لى دليلا واحدا على وجود الله وأنا أوؤمن لك به ؟ فأجاب التلميذ : وأنت أقم لى دليلا واحدا على عدم وجوده وأنا أكفر به .

الفصل الثالث

مقارنة بين الجبلاوى والزعبلاوى

بعدها عرضنا فيما مضى جزءاً من رواية الكاتب نجيب محفوظ (أولاد حارتنا) أو (أبناء الجبلاوى) ثم عقبنا بعد ذلك بالرد على ما جاء متناقضاً كل التناقض مع الحقيقة الإيمانية نقرر هنا أن نجيب محفوظ في الأعمال التى نشرها سنة ١٩٥٩ عاد مرة بعد مرة إلى موضوعات الوهم والحقيقة والهلوسة وتحلى ذلك بوضوح فى قصة (زعبلاوى) التى هى بمثابة مذكرة الكاتب التفسيرية لشخصية الجبلاوى . وهنا نعقد مقارنة بين ما سماه الكاتب بالجبلاوى والزعبلاوى . لقد وصف المترجم شخصية (زعبلاوى) بأنها التفسير الذى قدمه المؤلف لشخصية (جبلاوى) فى (أولاد حارتنا) .

ولخطورة هذا الرأى الذى كاد يكون محل إجماع النقاد ولأهميته وصلته الوثيقة بالدراسة الحالية لأولاد حارتنا وعلى رأسهم (الجبلاوى) نلخص للقارئ قصة (زعبلاوى) ونشير هنا إلى شدة اعتزاز الكاتب بشخصية زعبلاوى من بين عدد كبير من القصص القصيرة التى كتبها فقد اختارها على رأس اثنتى عشرة قصة قصيرة لكى تنشرها سلسلة روايات الهلال بمناسبة فوزه بجائزة نوبل للآداب سنة ١٩٨٨ .

جاء فى كتاب (الطريق إلى نوبل) لكاتبه : د . محمد يحيى ومعتز شكرى . جاء ما نصه : إنها واحدة من أشهر قصص نجيب محفوظ القصيرة . ولعل سبب ما حظيت به من اهتمام أنها تكاد أن تكون تلخيصاً وتكثيفاً لرحلتين سيقوم بهما بطلا روايته التاليتين (الطريق) ١٩٦٤ ثم (الشحاذ) ١٩٦٥ فما أشبه الباحث زعبلاوى بصابر بطل (الطريق) فى بحثه عن الحرية والكرامة والسلام ، وبعمر الحمزاوى المتسائل عن معنى الحياة . الأبطال الثلاثة يجمع بينهم أنهم فى رحلة بحث عن شخص كل القدرة أو شىء يهب المعنى لحياة بلا معنى وتتعدّد سبل البحث من الدين إلى العلم ومن الخمر إلى التصوف ومن الحب إلى الجنس . وقد يجد الباحث فى آخر الطريق الموت أو الجريمة لكن هذه ليست النهاية فالأمل يبقى موجوداً ... الخ .

يقول راوى القصة وهو ليس بطلها الحقيقي فبطلها كما سنرى هو الغائب الحاضر زعبلاوى : إنه كان يسمع عن الشيخ زعبلاوى منذ طفولته وخطر له أن يسأل أباه عنه كمادة الأطفال في السؤال عن كل شيء فسأله : من هو زعبلاوى يا أبى ؟ فرمقنى بنظرة مترددة كأنما شك فى استعدادى لفهم الجواب لكنه قال : فلتحل بك بركنه إنه ولى صادق من أولياء الله وشيال الهموم والمتاعب ولولاه لمت غما . ثم تمر السنوات حتى أصابنى الداء الذى لا دواء له عند أحد وسدت فى وجهى السبل وطوقنى اليأس .

وهكذا نحس من بدايات القصة أن هذه الشخصية رمزية وأنها بالتحديد ترمز لله تعالى وإذن فالراوى فى رحلة بحث عن الله .. هو يسمع عنه منذ طفولته ولكنه يريد أن يعثر عليه أو يجده . على أن أجد الشيخ زعبلاوى بمعنى أن يقتنع بوجوده أو يراه بعقله ومن الطبيعى أن يخلص فى البحث عنه عندما (تسد فى وجهه السبل ويطوقه اليأس لأن الإنسان يكون أقرب ما يكون من الله وقت الأزمات والضيق) . ويبدأ البحث - الذى هو أشبه بالمطاردة البوليسية - فيذهب الراوى إلى كل من يسمع أن له صلة أو كانت له صلة بهذا الشيخ وهنا لا يمكن أن تفوتنا دلالات ما يقوله هؤلاء عنه واحداً بعد الآخر ويصل فهمنا للدلالات إلى ذروته إذا وضعنا فى أذهاننا الدلالات الموازية التى سبق أن بثها الكاتب فى تناوله للجبلالوى فى (أولاد حارتنا) .

يقول الشيخ قمر المحامى الشرعى : (كان ذلك فى الزمان الأول وما أكاد أذكره اليوم) فإذا كان (زعبلاوى) يرمز لله تعالى فالمعنى هو نفسه الذى جاء فى (أولاد حارتنا) وهو أن الله وجد فقط أو وجد الإيمان به فقط فى العصور القديمة .. عصور الأسطورة والخرافة قبل أن يضع العلم الإله الجديد حداً لذكره بين الناس .

ويقول بائع الكتب القديمة :

(زعبلاوى يا سلام والله زمان كان يقيم فى هذا الربع حقاً عندما كان صالحاً للاقامة ولكن أين زعبلاوى اليوم) وهذا الربع يرمز للعالم القديم فأنه تعالى كان يقيم فيه لأن ذلك العالم بتفكيره الخرافى أو الاسطورى قبل النضوج وقبل عصر العلم كان يصلح لاقامة الإله فيه أما الآن فأين هو إذنا ما زلنا أمام التفسير المادى الالحادى .

ثم يقول عنه شيخ الحلزلة :

(ربما صادفته وأنت خارج من هنا على غير ميعاد وربما قضيت الأيام والشهور بحثاً عنه دون جدوى إنه رجل يبحر العقول) . وهذا ينقل معنى التخبط فى رحلة البحث عنه فليس هناك بهذه المنطقة خيط يمكن تتبعه حتى نصل إليه بل إن الأمر من قبيل المصادفة البحتة

بعض الناس يجلبونه وبعضهم لا يجلبونه .. الذى لا يبحث عنه قد يصادفه فجأة والذى يبحث عنه الأيام والشهور قد لا يجده واللوم عليه هو - يعنى زعبلاوى - لأنه (يحير العقول) وهذا المنطق غريب جدا لأن المنتظر ممن يبحث عن خالق للكون بعقلانية أن يعمل عقله فى نفسه وفيما حوله ويتتبع خيطا أو أكثر من تلك الخيوط الكثيرة التى تصل به إليه - كنظام الكون البديع وبدائع الخلق واستحالة الوجود بالصدفة إلى آخر ذلك - فلا بد له أن يصل إليه بعقله إذا كان مخلصا . أما المستهتر الذى لا يبذل هذا الجهد فأحرى به ألا يهتم بالأمر أو يفكر فيه وبالتالي قد لا يصل إليه مع كونه أمرا فطريا . أما هنا فالكتاب يقلب هذا المنطق العقلانى الذى يدعيه رأساً على عقب ويجعل من رحلة البحث عن الخالق أمرا عبثيا يخضع للمصادفة البحتة فيصادر على المطلوب لأنه لو كان يفترض وجود خالق افتراضا جدليا لتصور هذا الخالق مهتماً بأن يهدى خلقه إليه على الأقل وينير لهم سبيل الهداية ولا يتفرج عليهم وهم فى هذه الحيرة القاتلة تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ويقول شيخ الحارة عبارة دالة : كان الله فى عونك لكن لم لا تستعين بالعقل ؟ وإن كان ما ذكرناه الآن يتناقض مع ذلك لكن (العقل) هنا يوحي بشيء آخر فيه رائحة العلم المادى .

ويقول عم حسنين الخطاط (وأمانه لوحة مكتوب عليها [الله]) :

(كان ياما كان الرجل اللغز يقبل عليك حتى يظنوه قريبك ويختفى فكأنه ما كان) .

ف نجد هنا عبارة كان ياما كان تعطى دلالة الخرافة أو الاسطورة لأنها العبارة الموروثة التى تبدأ بها الحكايات الشعبية الخرافية ثم تأتى عبارة (الرجل اللغز) فتكشف المعنى .

ويقول المطرب عن زعبلاوى :

(هذا الرجل يتعب كل من يريدته كان أمره سهلا فى الزمان القديم عندما كان يقيم فى مكان معروف اليوم الدنيا تغيرت وبعد أن كان يتمتع بمكانة لا يحظى بها الحكام بات البوليس يطارده بتهمة الدجل) فهو أولا يتعب كل من يريدته (البحث عن الله أمر شاق لا يسره الخالق نفسه) وهو ما يتناقض مع الحقيقة القرآنية : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ ثم ان أمره كان سهلا فى الزمان القديم عندما كان يقيم فى مكان معروف وهو بعد أن كان يتمتع بمكانة لا يحظى بها الحكام (أى أن تأثير القوة الروحية كان قديماً أكبر من تأثير السلطة الرمنية) أصبح الآن مطاردا من الشرطة (لعلها ترمز للعلمانية وقواها) بتهمة الدجل (أى الخرافة) ثم تصل القصة إلى ذروتها عندما يذهب الراوى إلى حانة النجمة ليقابل الحاج ونس الدمنهورى الذى سمع أن (زعبلاوى) يتردد عليه .

القول الحق

﴿ فذلکم الله ربکم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ نعم إن ما كتبه نجيب محفوظ فى القصة السابقة يطفع بالسموم الناقعات . وهنا لا بد أن نرد عما جاء فى كلامه مناقضا كل التناقض عقيدة الألوهية من الصدقة والعبث واللغز إلى آخر ما قاله ، وقبل أن نشرع فى الرد نقول ان العالم كله من شرقه إلى غربه لو اجتمع لينال من الإسلام مغمزاً أو طعنة فإن مثله مع الإسلام كمثل بعوضة وهنأة سقطت على نخلة شماء تنخلع الرقاب عند ذراها فلما أرادت أن ترحل قالت أيتها النخلة استمسكى فإننى راحلة عنك فقالت النخلة فى شموخ ورسوخ وبزوخ : أيتها البعوضة ما شعرت بك حين سقطتى على فكيف أشعر بك وأنت راحلة عنى .

أرأيت عصفورا ينازل باشقا إلا لخفته وقله عقله

لا مجال فى هذا الكون للعبث أو الصدفة

﴿ أفحسبم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ . لو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ومن سماءه إلى أرضه وقلت له : من خالقك لأجابك بلسان الحال والمقال قائلا : أنا مخلوق للواحد الديان .

سل الواحة الخضراء والماء جاريا	وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى	سل الليل والأصباح والطيير شاديا
وسل هذه الأنسام والأرض والسما	وسل كل شىء تسمع الحمد ساريا
فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا	فمن غير ربى يرجع الصبح ثانيا
ولو غاص هذا الماء فى القاع هل	لكم سوى الله يجريه كما شاء راويا
ولو أن هذى الريح ثارت واعترت	أفى كونكم من يمسك الريح ناهيا
تأمل فى نبات الأرض وانظر	إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات	بأبصار هى الذهب السميك
على قضب الزرجد شاهداث	بأن الله ليس له شريك

ليس فى عقيدة الألوهية وقضية التوحيد مغمز لطاعن أو مطعن لغامز إن مثل المعاندين المكابرين المجادلين فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير كمثل ذبابة واهية تحاول أن تحجب بجناحيها ضوء الشمس أو نور القمر فهل تستطيع إلى ذلك سيلا . إن القرآن يقول لهؤلاء وأولئك : ﴿ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾ وفى ربهم يترددون وفى غيهم يعمهون .

إن العلم بوجود الله تعالى مركوز في فطر الصبيان وطباع البهائم لا يجادل في ذلك إلا كل أفاك أئيم ﴿ إذا تلى عليه آياتنا ولي مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴾ وقبل أن تفصل القول في الرد على ما جاء من أفكار لهذا الكاتب نسوق هذا الحوار الذى دار بين عالين .. ويسعدنى أن استشهد في هذا المقام بهذا المشهد الذى سجله العالم الهندى المغفور له الدكتور عناية الله المشرق وهو من أعظم علماء الهند فى الطبيعة والرياضيات ويتمتع بشهرة كبيرة فى الغرب لاكتشافاته العديدة وأفكاره الجديدة وهو أول من عرض فكرة القنبلة الذرية قال : (خرجت فى أحد الأيام من عام ١٩٠٩ وكانت السماء يومها تمطر بغزارة فإذا نى أرى الفلكى الشهير السير جيمس جينز الأستاذ بجامعة كامبردج فذهبت إليه ودار بينى وبينه حوار فى بعض الشئون أدى ذلك الحديث إلى أنه دعانى لزيارته فى بيته . وعندما وصلت إلى داره فى المساء أخبرت بأنه ينتظرنى وعندما دخلت عليه فى غرفته وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعا عليها أدوات الشاى وكان البروفيسور منهمكا فى أفكاره . وعندما شعر بوجودى سألتنى : ماذا كان سؤالك ؟ ودون أن ينتظر ردى بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية ونظامها المدهش وأبعادها وفواصلها اللامتناهية وطرقها ومدارها وجاذبيتها وطوفان أنوارها المذهلة حتى أننى شعرت بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله أما السير جيمس جينز فوجدت شعر رأسه قائماً والدموع تنهمر من عينيه ويده ترتعدان من خشية الله وتوقف فجأة ثم بدأ يقول :

(يا عناية الله عندما ألقى نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودى يرتعش من الجلال الإلهى وعندما أركع أمام الله وأقول له : إنك لعظيم أجد أن كل جزء من كيانى يؤيدنى فى هذا الدعاء وأشعر بسكون وسعادة عظيمين وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين الغامرة) .

ويقول عناية الله مستطردا : (ان هذه المحاضرة أحدثت طوفانا فى عقلى وقلت له : يا سيدى لقد تأثرت جدا بالتفاصيل العلمية التى رويتوها لى وتذكرت بهذه المناسبة آية من كتاب الله المقدس فلو سمحتم لى لقرأتها عليكم .. فهز رأسه قائلا : بكل سرور .. فقرأت عليه الآيتين التاليتين : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود . ومن الناس والذواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾ فصرخ السير جيمس جينز قائلا : ماذا قلت ؟ إنما يخشى الله من عباده العلماء مدهش وغريب وعجيب جدا أن الأمر الذى كشفت عنه بعد دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة . من أنبأ محمداً به ؟ هل هذه الآية موجودة فى القرآن حقيقة لو كان الأمر كذلك فاكذب شهادة منى أن القرآن كتاب الله موحي به من عند الله) .

ويستطرد السير جيمس جينز قائلاً : (لقد كان محمد أمياً ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه ولكن الله هو الذى أخبره بهذا السر مدهش وغريب وعجيب جلنا) .

هذه شهادة عالم من مشاهير العلماء تخصص في علوم الفلك التى نطق بها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ . وهكذا تبين لنا من شهادته أن الإسلام يصلح العلم ويصافحه ولا يخاصمه أو ينفر منه . لقد قال مولانا جل ذكره : ﴿ مسترهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ . إن هذا العالم من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه لا مجال للصدفة فيه فلو سألته وقلت له : من خالقك ؟ لقال لك بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان . وأسألوا العلم وحقايقه وقولوا له : مم تتركب الأجسام الحية ؟ إنه سيخيبكم بلسان اليقين قائلاً : أن الأجسام الحية تتركب من خلايا حية وهذه الخلية مركب صغير جداً ومعقد غاية التعقيد وهى تدرس تحت علم خاص يسمى (علم الخلايا) ومن الأجزاء التى تحتوى عليها هذه الخلايا : البروتين .. والبروتين هذا مركب كيميائى من خمسة عناصر هى : الكربون والهيدروجين والنيتروجين والأوكسجين والكبريت ويشتمل الجزيء البروتينى الواحد على أربعين ألفاً من ذرات هذه العناصر . وفى الكون أكثر من مائة عنصر كيميائى كلها منتشرة فى أرجائه فأية نسبة فى تركيب هذه العناصر يمكن أن تكون فى صالح قانون (الصدفة) . أيمكن أن تتركب خمسة عناصر من هذا العدد الكبير لايجاد (الجزيء البروتينى) بصدفة واتقان محض إننا نستطيع أن نستخرج من قانون الصدفة الرياضى ذلك القدر الهائل من المادة الذى سنحتاجه لنحدث فيه الحركة اللازمة على الدوام كما نستطيع أن نتصور شيئاً عن المدة التى سوف تستغرقها هذه العملية . لقد حاول الرياضى السويسرى الشهير وهو الأستاذ تشارلز يورجين أن يستخرج هذه المادة عن طريق الرياضة فانتهى فى أبحاثه إلى أن (الامكان المحض) فى وقوع الحادث الاتفاق الذى من شأنه أنه يؤدى إلى خلق كون إذا ما توفرت المادة هو واحد على 10^{16} (أى : 10×10 مائة وستين مرة) وبعبارة أخرى نضيف مائة وستين صفراً إلى جانب عشرة وهو عدد هائل لا يمكن وصفه فى اللغة .

إن إمكان حدوث الجزيء البروتينى عن صدفة يتطلب مادة يزيد مقدارها بليون مرة عن المادة الموجودة فى سائر الكون حتى يمكن تحريكها وضخها وأما المدة التى يمكن فيها ظهور نتيجة ناجحة لهذه العملية فهى أكثر من 10^{24} سنة أى (مائتان وثلاثة وأربعون صفراً أمام عشر سنين) . إن جزيء البروتين يتكون من سلاسل طويلة من حوامض الأمينو وأخطر ما فى هذه العملية هو الطريقة التى تختلط بها هذه السلاسل بعضها مع بعض فإنها لو اجتمعت فى صورة غير صحيحة لأصبحت سماً قاتلاً بدلاً من أن تصبح موجدة للحياة .

إن هذا الجزيء البروتيني ذو وجود (كيميائي) لا يتمتع بالحياة إلا عندما يصبح جزءاً من الخلية فهنا تبرا الحياة وهذا الواقع يطرح أهم سؤال في بحثنا : من أين تأتي الحرارة عندما يندمج الجزيء بالخلية ؟ ولا جواب عن هذا السؤال في أسفار المعارضين الملحدين . إن من الواضح الجلي أن التفسير الذي يزعمه هؤلاء المعارضون متسترين وراء قانون (الصدفة الرياضية لا ينطبق على الخلية نفسها وإنما على جزء صغير منها هو الجزيء البروتيني وهو ذرة لا يمكن مشاهدتها بأقوى منظار بينما نعيش وفي جسد كل فرد منا ما يربو على أكثر من مئات البلايين من هذه الخلايا .

لا مجال للصدفة في هذا الكون

يقول زعيم الملحدين جوليان هكسلي : (لو أجلس ستة من المقردة على آلات كاتبة وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبها قسيده من قصائد شكسبير ! فكذلك كان الكون الموجود الآن .. نتيجة لعمليات عمياء ظلت تدور في المادة لبلايين السنين) .

ويقول أهل الحق :

(إن أي كلام من هذا القبيل [لغير مثير] بكل ما تحويه هذه الكلمة من معان ، فإن جميع علومنا تجهل - إلى يوم الناس هذا - أية صدفة أنتجت واقعا عظيما ذا روح عجيبة في روعة الكون) .

إن هذا الكون لا تطرف فيه عين ، ولا تهب فيه نسمة هواء ، ولا يحدث فيه حدث كبير أو صغير إلا بإذن الله وعنايته : ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ .

وقد صدق الله جل شأنه إذ يقول :

﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تفيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ .

وصدق جل شأنه إذ يقول :

﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ .

ويقول البروفيسور ابروين كونكلين : إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة (حادث اتفاق) شبيه في مغزاه بأن تتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار صدى يقع في مطبعة وما أبرع قول أمير الشعراء شوقي :

تلك الطبيعة قف بنا يا سارى حتى أريك بديع صنع البارى
الأرض حولك والسماء اهترتا لروائع الآيات والأثار
من شك فيه فنظرة في خلقه تمحو أثيم الشك والإنكار

الكون يتحدث عن وحدانية الله

يقول تبارك وتعالى :

﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنتبنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرهاؤه مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاًؤه مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أهؤه مع الله ؟ قليلاً ما تذكرون . أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أهؤه مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون . أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أهؤه مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ .

إنها آيات تنطق بالحق ، وتسطر على وجه الكون دلائل التوحيد ، وتسجل في صفحات الوجود الآيات القاطعة التي تدل على أن كل أثر لا بد له من مؤثر .
وهذه الآثار تحدثنا بلسان الصدق ، وتنطق أماننا بقوانين الحق .

جاء في كتاب (الطبيعة والعلم يتحدثان عن الله) :

(إن وجود الكون والنظام العجيب الذى اشتمل عليه وأسراره الدقيقة لا يمكن تفسير ذلك كله إلا بأنه قد خلقه إله عالم مرید قادر حى سمیع بصیر حكيم مدبر ، وأن هذا الإله القادر منزه عن العبث) .

آيات ناطقة بالحكمة والقدرة

إن هذا النظام الذى يلف الكون كله نجده في صورته الكاملة في أصغر عالم عرفناه - فنحن نعرف - طبقاً لأحدث معلوماتنا أن الذرة أصغر عالم وأنها قد تناهت في صغرها حتى

لا يمكن مبيهاهدتها بالمنظار الذى يكبر الأشياء ملايين المرات فهى - بناء على هذا - ليست شيئا بل أنها (لا شيء بالنسبة إلى أدنى ما يستطيع البصر الإنسانى أن يراه .

ولكن هذه الذرة مع ما وصفناها به تحتوى بصورة رائعة على نظام الدورات العجيب الموجود فى النظام الشمسى . فالذرة اسم لمجموعة من الالكترونات وهذه الالكترونات لا يتصل بعضها ببعض وإنما يوجد بينها فراغ كبير الحجم نسبيا ولناخذ مثلا قطعة من الحديد التى توجد فيها الذرات متصلا بعضها ببعض اتصالا شديدا . سنجد أن هذه الالكترونات

لا تشغل أكثر من _____^١ من مسافة الذرة ، وبقية المجال يكون خاليا . ولو أننا
١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠

أخذنا صورة مكبرة لجزيئين من الالكترونات والنيوترون فسوف يكون الفاصل بينهما ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين ياردة .

والالكترتون الذى هو الجزء السلبى فى الذرة يدور حول النيوترون الذى هو الجزىء الإيجابى منهما .

هذا النظام الذرى يستحيل قيامه بنفسه ، ولا طريق إلى مشاهدته ولا يمكن تفسير عمله داخل الذرة بغير العلم . أما وقد تبناه العلم فعلا فإنه دليل قاطع على وجود منظم قائم على هذا التنظيم ، لأنه يستحيل أن يقوم هذا النظام بنفسه .

هذه بديهة عقلية لا يجادل فيها إلا كل أفاك أئيم . .

آية أخرى

﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (صدق الله العظيم) .

إننا نتحير إذا رأينا النظام المعقد لأسلاك التليفون ، ونتحير إذا وجدنا أن مكالمة من لندن إلى أستراليا تتم فى بضعة ثوان ، فإذا كان نظام أسلاك التليفون يوقعنا فى هذه الحيرة ، فما بالنا بنظام الجهاز العصبى وهو أوسع من هذا النظام وأشد تعقيدا .

إن ملايين الأخبار تجرى على أسلاك نظامنا العصبى ، الذى أوجده الله تعالى - من جانب إلى آخر - ليل نهار .

وهذه الأخبار هى التى توجه القلب فى تدفقه وحركته ، وتتحكم فى حركات الأعضاء المختلفة ، وتتحكم فى الحركات البرئوية ، ولو لم يكن هذا النظام موجودا فى أجسامنا

لصارت الأجسام تليفياً لأشياء مبعثرة تسلك كل منها مسلكها الخاص .
ومركز هذا النظام للمواصلات مع الإنسان ، وفي هذا المخ يوجد ألف مليون خلية عصبية ، ومن كل هذه الخلايا تخرج أسلاك تنتشر في سائر الجسم وتسمى هذه الأسلاك (الأنسجة العصبية) . وفي هذه الأنسجة تجرى نظام استقبال وإرسال للأخبار بسرعة سبعين ميلاً في الساعة وبواسطة هذه الأنسجة تنلوق ونسمع ونرى ونباشر سائر أعمالنا . وتؤدي الحواس الخمسة وظائفها على الوجه الذي أراده الخالق البارئ المصور . قال : ﴿ فمن ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ .

بل إن هناك ثلاثة آلاف من الشعيرات المتنوقة ، ولكل منها سلك خاص متصل بالمخ وبواسطة هذه الشعيرات نحس بالمذاقات المختلفة .

وتوجد في الأذن عشرة آلاف خلية سمعية ومن خلال نظام معقد يسرى من هذه الخلايا يحدث السمع . وفي كل عين مائة وثلاثون مليوناً من الخلايا الملتقطة للضوء وتقوم بمهمة إرسال المجموعة التصويرية إلى المخ وهناك شبكة من الأنسجة الحية على امتداد جلدنا فإذا قربنا إلى الجلد شيئاً حاراً فإن ثلاثين ألفاً من الخلايا الملتقطة للحرارة تحس بهذه العملية وترسلها فوراً إلى المخ . وإذا قربنا إلى الجلد شيئاً بارداً فإن ربع مليون من الخلايا التي تلتقط الأشياء الباردة تحس به ، عندئذ يمتلئ المخ بأثرها ويرتعد الجسم ، وتتسع الشرايين الجلدية ، فيسرع مزيد من الدم إليها ويزودها بالحرارة . وإذا أحست هذه الخلايا بحمارة شديدة فإن مخابرات الحرارة توصلها إلى الدفاع وحينئذ تفرز ثلاثة ملايين من الغدد العرقية - تلقائياً - عرقاً بارداً إلى خارج الجسم . والنظام العصبى يشتمل على عدة فروع منها الفرع المتحرك (ذاتياً) ويقوم بأعمال تحدث ذاتياً في الجسم كعملية الهضم والتنفس وحركات القلب ويتدرج تحت هذا النوع نظامان : أحدهما (النظام المسبب للحركة) والآخر هو المانع لها . وهذا الأخير يقوم بعملية المقاومة والدفاع ، ولو ترك الأمر للنظام الأول لازدادت حركة القلب زيادة يترتب عليها موت صاحبه . ولو سيطر النظام الثاني لتوقفت حركة القلب توقفاً تاماً . وأقسام هذين النظامين تباشر أعمالها في دقة فائقة وفي توازن تام ، ولكن هناك حالات يزداد فيها نشاط أحد النظامين . فالنظام الأول يتغلب عند الضغط واحتياج القلب إلى قوة مسعفة . وعندئذ تزيد سرعة عمليات القلب والرئة . والنظام الثاني يتغلب عند النوم فيسود السكون جميع الحركات الجسمية .

تباركت ربنا وتعاليت ، إنه صنع الله الذي أتقن كل شيء : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ .

انظر إلى المرء وقيل من شق فيه بصره من ذا الذي جهزه بقوة مفتكروه
ذاك هو الله الذي أنعمه منجزة ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدره

آية الله في الماء

﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ﴾ (صدق الله العظيم)

يقول علماء الكون :

(إن العلم لا يملك أى تفسير لبعض الحقائق ، والقول بأنها حدثت [اتفاقاً] إنما يعتبر تحدياً وتصادماً مع الرياضيات) .

وإن هناك وقائع كثيرة جداً لا طريق لنا إلى فهمها أو تفسيرها إلا إذا سلمنا بأن الله اليد العليا في إحداثها .

فمن الخصائص المهمة التي توجد في الماء : أن كثافة الثلج تقل بنسبة كبيرة عن كثافة الماء . فالماء إذن مادة تقل كثافتها بعد التجمد ، ولهذا الأمر قيمة عظيمة بالنسبة إلى الحياة ، إذ يترتب على هذه الخاصية أن الثلج يطفو على سطح الماء ولا ينزل إلى قاع البحار والأنهار ، ولولا ذلك لتجمد الماء كله في البحار والأنهار والخزانات المائية .

إن الثلج يقوم بدور الحاجب للماء الذي تحته كما تبقى حرارته دون درجة التجمد فتبقى الأسماك والحيوانات المائية على قيد الحياة ، فإذا ما جاء موسم الربيع ذاب الثلج ، ولولا خاصية الثلج هذه لعانى سكان الأقطار الباردة الكثير من المتاعب والمصائب الناجمة عن عدم ذوبان الثلج .

وهكذا تختلف القوانين العلمية وتتناقض الحقائق المرئية وليس من هدف لإقيام الحياة وتديير أمورها ، وتيسير سبلها ، أليس في ذلك الرد .. أبلغ الرد على من يقول بميكانيكية الحياة ؟

تباركت ربنا وتعاليت يا من قلت : ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .

آية الله في نظام الفلك

﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون ﴾ .

(صدق الله العظيم)

إن الفضاء الكوني فسيح تجلدا تتحرك فيه كواكب لا حصر لها بسرعة خارقة بعضها يواصل رحلته وحده ، ومنها أزواج تسير مثنى مثنى ، ومنها ما يتحرك في شكل مجموعات .

ولو أنك لاحظت ضوء الشمس الذى يدخل غرفتك من النافذة فسترى أن هناك ذرات كثيرة من الغبار تتحرك وتسير في الهواء فلو استطعت أن تتخيل هذا في شكل أعظم لأمكنك أن تحظى من الفهم بشيء عن السيارات والكواكب في الكون ، مع الفرق الهائل المتمثل في أن ذرات الغبار تتحرك ويتصادم بعضها مع بعض . ولكن الكواكب مع كثرتها يواصل كل واحد منها سفره على بعد عظيم يفصله عن الكواكب الأخرى ، ومثلها كمثل بواخر عديدة تمشى في أعالي البحار متباعدة حتى إن إحداها لا تعرف شيئا عن الأخرى .

إن هذا الكون يتألف من مجموعات كثيرة من الكواكب والنجوم تسمى (مجاميع النجوم) وكلها تتحرك دائما .

الشمس والأرض والقمر والنجوم

ولكم تحير عندما نرفع أعيننا إلى السماء ونشاهد الكواكب والنجوم التي لا حصر لها . إن هذه الكرات السماوية التي لا تزال معلقة في الفضاء منذ قرون لا نعرف عدتها تلور في الفضاء الفسيح السحيق على نظام معين وهو بلا شك نظام لا مثيل له من الذرة إلى قطرة الماء إلى الكواكب السحيقة في أجواز الفضاء . نظام تسنبط على أساسه قوانين علمية .

يقول علماء الفلك : إن أقرب حركة منا هي حركة القمر التي تبعد عنا (٢٤٠,٠٠٠ ميل) وهو يلور حول الأرض .. ويكمل دورته في مدة تسعة وعشرين يوما ونصف يوم .. وكذلك تبعد أرضنا هذه عن الشمس (٩٣ مليون ميل) وتستكمل هذه الدائرة مرة واحدة في سنة كاملة .

وكذلك توجد تسعة كواكب مع الأرض تسمى (العائلة الشمسية) وهي عطارد، والمريخ، والمشتري، والزهرة، والأرض، وزحل، وأورانوس، ونبتون، وبلوتو. وكلها تدور حول الشمس بسرعة فائقة. وأبعد هذه الكواكب السيارة (بلوتو) الذي يدور في دائرة ٧٥٠٠ مليون ميل حول الشمس وحول هذه الكواكب يدور واحد وثلاثون قمراً أخرى.

وتوجد غير هذه الكواكب حلقة من ثلاثين ألفاً من النجميات وآلاف من النجوم ذوات الأذنان وشهب لا حصر لها وكلها تدور في وسطها ذلك السيار العملاق الذي نسميه (الشمس) ويبلغ قطرها ٨٦٥ ألف ميل، وهي أكبر من الأرض بمليون ومائتي ألف مرة.

ثم إن هذه الشمس ليست بثابتة أو واقفة في مكان ما .. وإنما هي بدورها مع كل هذه السيارات والنجميات تدور في هذا النظام الرائع بسرعة ٦٠ ألف ميل في الساعة.

وهناك آلاف من الأنظمة غير هذا النظام الشمسي، يتكون منها ذلكم النظام الذي نسميه (مجاميع النجوم أو المجرات) .. ولم يكتشف العلم إلا جانباً يسيراً يقدر بمائة ألف مليون مجموعة شمسية كل مجموعة تتكون من مائة ألف مليون شمس، أصغرها شمسننا هذه. ويقول علماء الفلك:

(إن حركة الأرض حول الشمس منضبطة تمام الانضباط بحيث لا يمكن أن يحدث أدنى تغير في سرعة دورانها حتى بعد مرور قرن من الزمان).

وهذا القمر الذي يتبع في حركته الأرض يدور في فلك مقرر ومنضبط مع تفاوت يسير جداً، يتكرر بعد كل ثمانية عشر عاماً ونصف عام بدقة فائقة، وتلك هي حال جميع الأجرام السماوية).

ويرى علماء الفلك أيضاً:

(أن مجرات النجوم يتداخل بعضها في بعض فتدخل مجرة تشتمل على بلايين من السيارات المتحركة في مجرة أخرى مثلها وتتحرك سياراتها هي الأخرى، ثم تخرج منها بسياراتها جميعاً دون أن يحدث أي تصادم بين سيارات المجرتين).

فتأمل يا أبا الإسلام أبعد هذا النظام والعناية والاتقان؟

يقول أي جاحد: إن هذا الكون وذلك النظام جاء وليد الصدفة العمياء أو الطبيعة الصماء: ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة﴾

ليلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سماوات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت . فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴿ .

عناية الله بالكوكب الأرضى

صدقت يا ذا الجلال والإكرام إذ تقول :

﴿ الذى جعل لكم الأرض مهذا وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ .

وإذ تقول : ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ﴾ .

يقول علماء الفلك :

(إن هذه الأرض أهم عالم عرفناه ، إذ توجد فيها أحوال لا توجد فى شىء من هذا الكون الواسع ، وهى فى ضخامتها كما تبدو لنا لا تساوى ذرة من هذا الكون العظيم) .

يقول حجة الفلك العالمى السير جيمس جينز فى كتابه (الكون الغامض) :
(ربما كان مجموع عدد النجوم التى فى الكون قريبا من مجموع عدد حبيبات الرمل التى تغطى شواطئ البحار فى العالم كله) .

ويقول كذلك فى كتابه (النجوم فى مسالكها) :

(يكاد يكون من المؤكد أن هناك أكثر من ٦٠ نجماً مقابل كل رجل وامرأة وطفل على وجه الأرض وقد يصل العدد إلى ضعف هذا ، بل ربما إلى ثلاثة أضعاف أو خمسة أمثاله ثم يضرب مثلا لعدد النجوم فيقول :

(يجب أن نتصور مكتبة ضخمة تحوى على الأقل نصف مليون كتاب من الحجم المتوسط ، فجميع حروف الطبع التى فى جميع صحف كل كتب هذه المكتبة عددها مساو تقريبا لعدد نجوم السماء . وإذا كنا نطالع بسرعة صفحة فى الدقيقة مدة ثمان ساعات فى كل يوم فلا بد لنا من ٧٠٠ سنة لقراءة هذه المكتبة ، كذلك لو كنا نعد النجوم بسرعة ١٥٠٠ نجم فى الدقيقة لاستغرق عدنا النجوم كلها ٧٠٠ سنة) .

أما الأرض التي نعيش عليها فهي أقل - أقل بكثير جدا - من نقطة على حرف في مكتبتنا ذات النصف مليون مجلد ، أو على الأصح يجب أن نشبهها بهباءة من التراب بين صفحتين - أى صفحتين - في أى كتاب من هذه الكتب في هذه المكتبة .

ومن ثم تتجلى لنا الحكمة الإلهية في خلق الأرض على هذا النحو إذ لو كان حجمها أقل أو أكثر مما هي عليه الآن لاستحالت الحياة فوقها ، فلو أنها كانت في حجم القمر مثلا بأن كان قطرها ربع قطرها الموجود فعلا لكانت جاذبيتها سدن جاذبيتها الحالية ، ونتيجة لذلك لا يمكن أن تمسك الماء والهواء من حولها كما هي الحال في القمر الذى لا يوجد فيه ماء ولا يحوطه غلاف هوائى لضعف قوة الجاذبية فيه .

وانخفاض الجاذبية في الأرض إلى مستوى جاذبية القمر سترتب عليه اشتداد البرودة ليلا حتى يتجمد كل ما فيها ، واشتداد الحرارة نهارا حتى يحترق كل ما عليها .

وكذلك يترتب على نقص حجم الأرض إلى مستوى حجم القمر أنها لن تمسك مقدارا كبيرا من الماء ، وكثرة الماء أمر ضرورى لاستمرار الاعتدال الموسمي على الأرض، ومن ثم أطلق أحد العلماء على هذه العملية لقب (عجلة التوازن العظيمة) وكذلك سيرتفع الغلاف الهوائى للأرض في الفضاء ثم يتلاشى ويتبع ذلك أن تبلغ درجة حرارة الأرض أقصى معدلها ثم تنخفض إلى أدنى درجاتها .

وعلى العكس من ذلك إذا كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالى إذا لتضاعفت جاذبيتها الحالية ، وحينئذ يتكمش غلافها الجوى الذى هو على بعد خمسمائة ميل إلى ما دون ذلك وسيترتب على هذا أن يزيد تحمل كل بوصة مربعة من خمسة عشر رطلا إلى ثلاثين من الضغط الجوى ، وهو ضغط يؤثر أسوأ الأثر في الحياة .

ولو أن الأرض تضاعفت حجمها فصارت مثل حجم الشمس مثلا لبلغت قوة الجاذبية فيها مثل جاذبيتها الحالية مائة وخمسين مرة ، ولاقترب غلافها الهوائى حتى يصير منها على بعد أربعة أميال فقط بدلا من خمسمائة ميل ، ولارتفع الضغط الجوى إلى معدل طن واحد على كل بوصة مربعة ، وذلك يؤدي إلى استحالة نشأة الأجسام الحية ، وهو من الناحية النظرية يعنى أن يصير وزن الحيوان الذى يزيد رطلا واحدا تحت الكثافة الهوائية الحالية خمسمائة رطل ، كما يهبط حجم الإنسان حتى يصير في حجم فأر كبير ولاستحالة وجود العقل في الإنسان لأنه لا بد للعقل الإنسانى من أنسجة عصبية كثيرة في الجسم ، ولا يوجد هذا النظام إلا إذا كان حجم الجسم بقدر معين .

فتبارك الله أحسن الخالقين ..

أبعد هذا النظام والعناية والاتقان يقول قائل : إن هذا الكون وليد الصدفة العمياء ،
أو الطبيعة الصماء ؟

﴿ ألم • تلك آيات الكتاب الحكيم . هدى ورحمة للمحسنين . الذين يقيمون
الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم
المفلحون . ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها
هزوا أولئك لهم عذاب مهين . وإذا تلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في
أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴾ .

يا أخوا الإسلام :

انظر إلى الشمس التي جنوبتها مستعرة فيها ضياء وبها حرارة منتشرة
من ذا الذي أوجدها في الجو مثل الشره ذلك هو الله الذي أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة وانظر إلى الليل فمن أوجد فيه قمره
وزانه بأنجم كالدر المنتشرة ذلك هو الله الذي أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة

حقيقة علمية

صدق الله تعالى إذ يقول :

﴿ فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون ﴾ .

يقول الدكتور دالكسيس كيرل :

(إن الكون الرياضى شبكة عجيبة من القياسات والفروض لاتشتمل على شىء غير
[معادلة الرموز] . الرموز التي تحتوى على مجردات لا سبيل إلى تفسيرها . والعلم الحديث
لا يدعى ولا يستطيع أن يدعى أن الحقيقة محصورة فيما علمناه من التجربة المباشرة ، فالحقيقة
أن [الماء سائل] ونستطيع مشاهدة هذه الحقيقة بأعيننا المجردة ، ولكن الواقع أن كل
[جزىء] من الماء يشتمل على ذرتين من الهيدروجين وذرة من الأوكسجين وليس من
الممكن أن نلاحظ هذه الحقيقة العلمية ، ولو أتينا بأقوى ميكروسكوب في العالم ، غير أنها
ثبتت لدى العلماء لإيمانهم بالاستدلال المنطقى) .

ويقول البروفيسور أ . ي . ماندير :

(إن الحقائق التي نتعرفها مباشرة تسمى [الحقائق المحسوسة] غير أن الحقائق التي توصلنا إلى معرفتها لا تنحصر في الحقائق المحسوسة ، فهناك حقائق أخرى كثيرة لم نتعرف عليها مباشرة ، ولكننا عثرنا عليها على كل حال ، ووسيلتنا في هذا السبيل هي الاستنباط فهذا النوع من الحقائق هو ما نسميه [بالحقائق المستنبطة] . والأهم هنا أن نفهم أنه لا فرق بين الحقيقتين ، وإنما الفرق هو في التسمية من حيث تعرفنا على الأولى مباشرة وعلى الثانية بالواسطة ، والحقيقة دائما هي الحقيقة ، سواء عرفناها بالملاحظة أو بالاستنباط) .

ويضيف ماندير قائلا :

(إن حقائق الكون لا تدرك الحواس منها غير القليل ، فكيف يمكن أن نعرف شيئا عن الكثير الآخر ؟

فالكون كله مرتبط بعضه بالآخر ، حقائقه متطابقة ، ونظامه عجيب ولهذا فإن أية دراسة للكون لا تسفر عن ترابط حقائقه وتوازنها هي دراسة باطلة) .

ويقول ماندير في هذا الصدد :

(إن الوقائع المحسوسة هي أجزاء من حقائق الكون ، غير أن هذه الحقائق التي ندرکها بالحواس قد تكون جزئية وغير مرتبطة بالأخرى فلو طالعناها منفردة مجردة عن أخواتها فقدت معناها مطلقا ، أما إذا درسناها في ضوء الحقائق الكثيرة مما علمناه مباشرة أو بلا مباشرة فإننا سنذكر حقيقتها) .

ثم يأتي بمثال سليم يفسر ذلك فيقول :

(إننا نرى أن الطير عندما يموت يقع على الأرض ، ونعرف أن رفع الحجر على الظهر أصعب ويتطلب جهدا . ونلاحظ أن القمر يدور في الفلك . ونعلم أن الصعود في الجبل أشق من النزول منه . ونلاحظ حقائق كثيرة كل يوم لا علاقة لإحداها بالأخرى ظاهرا ، ثم نتعرف على حقيقة استنباطية هي، [قانون الجاذبية] وهنا ترتبط جميع هذه الحقائق فنعرف للمرة الأولى أنها كلها مرتبطة لإحداها بالأخرى ارتباطا كاملا داخل نظام . وكذلك الحال لو طالعنا الوقائع المحسوسة مجردة فلن نجد بينها أي ترتيب فهي متفرقة وغير مترابطة ، ولكن حين ترتبط الوقائع المحسوسة بالحقائق المستنبطة فستخرج صورة منظمة للحقائق) .

إن قانون (الجاذبية) و (الأثير) و (المغناطيسية) و (الكهربية) لا يمكن ملاحظتها قطعا بطريق الحس ، وإنما لاحظ العلماء أشياء أخرى اضطروا لأجلها - منطقيا - أن يؤمنوا بوجود هذه الحقائق والقوانين .

وهذه الحقائق والقوانين تلقى قبولا علميا عظيما .

إن نظرية معقدة غير مفهومة ولا طريق إلى مشاهدتها تعتبر اليوم بلا جدال حقيقة علمية !!

لماذا ؟ لأنها تفسر بعض ملاحظتنا . فليس بلازم إذن أن تكون الحقيقة هي ما علمناه مباشرة بالتجربة . ومن ثم غمضى إلى القول بأن العقيدة الإلهية التي تربط بعض ما نلاحظه وتفسر لنا مضمونه العام تعتبر حقيقة علمية من نفس الدرجة .

وقد صدق الله تبارك وتعالى إذ يقول :

﴿ آلم ﴾ . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴿ .

أبعد هذا البيان الذى نطقت به الحقائق العلمية ، وصاحت بأعلى صوتها تقول : إن للكون إلهاً حكيماً عليماً مريداً قادراً .

أبعد هذا يسأل سائل فيقول : أين الله ؟

إن قال ذلك فإن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا . إن الله على كل شيء قدير ﴾ .

ويقول : ﴿ سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش . يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ .

إن قالوا : أين الله ؟ فإن الله يقول لهم : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾ .

وقد صدق الله تعالى إذ يقول :

﴿ لا تخافا إنى معكما أسمع وأرى ﴾ .

﴿ لا تخزن إن الله معنا ﴾ .

﴿ إن معى رضى سيهدين ﴾ .

﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ .

فإن قالوا فلم لا نراه .

فإن الله يقول لهم : ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ .

وإن الغلم يقول لهم : وهل كل ما فى الكون من حقائق أدركته الأبصار ؟

هل رأينا بأبصارنا الأشعة فوق البنفسجية أو تحت الحمراء ؟

هل رأيت أبصارنا قانون الجاذبية ؟ ما شكل الأثير ؟ ما وزنه ؟ ما حجمه ؟ وهو يملأ الدنيا طولا وعرضا ؟ ما حقيقة الضوء والكهرباء ؟

عرفت كل هذه بآثارها ولم نقف على حقيقتها بأبصارنا .

فإذا كانت هذه المخلوقات التى سبق ذكرها لا تدركها أبصارنا فإن خالقها وهو الله أكبر وأعظم وأجل من أن تدركه أبصار لها طاقة محدودة .

ويرحم الله الإمام على بن أنى طالب وقد قيل له : يا إمام هل رأيت ربك ؟

قال : وكيف أعبد ما لا أرى ؟ قيل له : فكيف رأيت ؟ قال رضى الله عنه : إن كانت العيون لا تراه بمشاهدة العيان فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان .

سبحانك ربي يا من تنزه عن الشريك ذاته ، وتقدس عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالر معروف ، وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية ، جلم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما لا يكون . لو كان كيف كان يكون .

قيل للإمام مالك بن أنس رضى الله عنه : ما معنى قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ؟ فقال : الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، والإيمان به واجب ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، لأنه تعالى كان ولا مكان ، وهو على ما كان قبل خلق المكان لم يتغير عما كان :

أبعد كل هذه الحقائق يقول قائل : إن هذا النظام وتلك العناية وذلك الاتقان وهذا الكون أتى وليد الصدفة العمياء أو الطبيعة الصماء ؟

سبحانك ربى يا من قلت : ﴿ حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون . ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ، من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء وهم عذاب عظيم . هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ﴾ .

الفصل الرابع

دلالات الرموز في القصة

فيما يلي الرموز التي استعملها الكاتب في الرواية ، وما تشير إليه من شخص وأحداث . وقد رأينا تقديم دلالات الرموز وهي :

- ١ - الجبلاوى : الله سبحانه وتعالى .
- ٢ - البيت الكبير : السماء أو العرش .
- ٣ - الحارة : العالم أو الكون .
- ٤ - أدهم : آدم عليه السلام (والاسمان متقاربان) .
- ٥ - عباس : في الرواية : أبناء الجبلاوى ويرمزون للملائكة فقد يكون عباس هو عزرائيل .
- ٦ - رضوان : رضوان هو حارس الجنة .
- ٧ - جليل : هو جبريل عليه السلام وإن كان الذى يرمز لجبريل سياتى فى قصة قاسم تحت اسم (قنديل) فيجب أن نلاحظ أن بعض الشخصيات تحمل أكثر من رمز .
- ٨ - إدريس : إبليس (والاسمان متقاربان) .
- ٩ - أميمة : حواء عليها السلام (واشتقاق الاسم من [أم] يشير إلى أنها أم البشر) .
- ١٠ - قدرى : قابيل .
- ١١ - همام : هايل .. أبناء آدم عليه السلام والقاف فى (قدرى) والهاء فى (همام) للرمز إلى اسمهما الحقيقى .

- ١٢ - جبل : موسى عليه السلام (والاشارة في الاسم الى تكليم الله تعالى له في جبل سيناء) .
- ١٣ - الأفندي : فرعون (والاسم يشير الى تميزه وسيادته على قومه) .
- ١٤ - السيدة هدى : امرأة فرعون (واسم هدى يشير الى هدايتها وأنها امرأة مؤمنة على عكس زوجها) .
- ١٥ - زقلط : هامان .
- ١٦ - عم حمدان : كبير بنى إسرائيل .
- ١٧ - أهل حمدان : بنو إسرائيل .
- ١٨ - قدرة : الذى وكزه موسى فقضى عليه .
- ١٩ - دعيس : الذى استغاب موسى واستصرخه مرتين .
- ٢٠ - ضلمة : الذى جاء من أقصى المدينة يسعى : ﴿ قال يا موسى إن الملائمة يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج ﴾ .
- ٢١ - البلقيطى : الرجل الصالح - أو شعيب - فى قصة سيدنا موسى عندما ورد ماء مدين وسقى لبننيه .
- ٢٢ - شفيقة : بنت الرجل الصالح التى تزوجها موسى .
- ٢٣ - سيدة : أختها .
- ٢٤ - عبده : مريم عليها السلام (والاسم يشير الى نذرهما للعبادة منذ ولادتهما) .
- ٢٥ - شافعى : يوسف النجار .
- ٢٦ - رفاعة : عيسى المسيح عليه السلام (لأن الله تعالى رفعه إليه) .
- ٢٧ - زنفل : هرودس الذى كان يقتل أطفال بيت لحم عندما ولد المسيح (الفتوة الذى يقتل الأطفال الرضع) .
- ٢٨ - خنفس : الحاكم المعاصر للسيد المسيح ولعله ييلاطس .
- ٢٩ - تمرد إدريس وطرده من بيت الجبلاوى : تمرد إبليس وطرده من رحمة الله .

- ٣٠ - طرد أدهم وأميمة من بيت الجبلأوى حيث النعم إلى الشقاء في الصحراء : إخراج آدم وحواء من الجنة بعد المعصية إلى الأرض حيث الكد والتعب .
- ٣١ - عصيان أوامر الجبلأوى بعدم الاقتراب من الكتاب السرى : عصيان آدم لنهى الله تعالى عن الاقتراب من الشجرة .
- ٣٢ - الكتاب السرى : اللوح المحفوظ .
- ٣٣ - الشروط العشرة في الكتاب السرى : الوصايا العشر في التوراة - الكتب المنزلة المقدسة .
- ٣٤ - قتل قدرى لهمام : قتل قابيل لهابيل .
- ٣٥ - لقاء جبل بالجبلأوى في الظلام في صحراء المقطم : تكليم الله تعالى لسيدنا موسى عليه السلام في طور سيناء .
- ٣٦ - ياسمين البغى التى دافع عنها رفاعة ثم خانته وأسلمته لأعدائه : ١ - مريم المجدلية التى قال فيها المسيح : « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر » . ٢ - يهوذا الذى خان السيد المسيح .
- ٣٧ - العشاء الذى تناوله رفاعة مع ياسمين وزكى وكريم وعلى وحسين : العشاء الأخير للسيد المسيح مع حواريه .
- ٣٨ - حارة الجرايع : مكة حيث نشأ رسول الله ﷺ (وفى الاسم إشارة إلى حالة أهل الرسول من حيث الفقر وإن كان هذا حتى مع كونه رمزا مرفوضا لا يبرر سوء الأدب فى اختيار الاسم) .
- ٣٩ - الجرايع : أهل الرسول ﷺ وأتباعه وأنصاره .
- ٤٠ - قاسم : سيدنا محمد ﷺ (وفى الاسم إشارة واضحة إلى كنيته ﷺ [أى القاسم]) .
- ٤١ - زكريا (بائع البطاطا) : أبو طالب عم النبى ﷺ الذى كفله (وفى الاسم تشبيهه بالنبى زكريا الذى كفل مريم) .
- ٤٢ - حسن : سيدنا على رضى الله عنه (وفى الاسم إشارة إلى كنيته أبى الحسن) .
- ٤٣ - يحيى : ورقة بن نوفل .

- ٤٤ - السيدة قمر : السيدة خديجة رضی اللہ عنہا (ولعل في الاسم إشارة إلى جمالها) .
- ٤٥ - صادق : أبو بكر الصديق رضی اللہ عنہ (والتشابه بين الاسمين واضح) .
- ٤٦ - سكينه (خادمة قمر) : نفيسة صديقة خديجة .
- ٤٧ - قنديل (خادم الجبلأوى ورسوله إلى قاسم) : ناموس الوحي (جبريل) عليه السلام الذي جاء لسيدنا محمد ﷺ في الغار . ولعل للاسم دلالة لأن القنديل يعنى النور والملائكة من نور بالإضافة إلى اشتراك الاسمين في المقطع الأخير (الياء واللام) .
- ٤٨ - بلرية (أخت صادق) : السيدة عائشة رضی اللہ عنہا ابنة سيدنا أنى بكر الصديق رضی اللہ عنہ (ولعل في الاسم إشارة إلى جمالها ونضجها كالبلبر) .
- ٤٩ - عرفة (الساحر الذى تسبب في موت الجبلأوى) : الشيوخى الملحد الذى ينكر وجود اللہ تعالى وكل ما لا يراه بعينيه والذى كان وجوده (أى وجود فكره وعلمه المادى اينانا بانتهاى عصر الدين في زعم المؤلف أو أن عرفة هو نفسه العلم المادى العلمانى) .
- ٥٠ - كرامة عرفة (المدون فيها علوم السحر) : أسرار العلم الحديث الذى يمثل الانفاذ والخلاص الوحيد للبشرية حسب منطق الكتاب .

الفصل الخامس

عرض لأحداث (أولاد حارتنا)

مما يصادم عقيدة الألوهية والنبوات

تبدأ الرواية الضخمة بمقدمة يقول فيها الكاتب : هذه حكاية حارتنا أو حكايات حارتنا لم أشهد أنا من واقعها إلا طوره الأخير ولكنى سجلتها جميعا كما يرويها الرواة وما أكثرهم وكما نقلتها الأجيال . وهذه حكايات تروى في ألف مناسبة ومناسبة فكلما ضاق بأحد حاله أو ناء بظلم سوء معاملة أشار إلى البيت الكبير على رأس الحارة من ناحيتها المتصلة بالصحراء وقال في حسرة : (هنا بيت جدنا جميعنا من صلبه ونحن مستحقو أوقافه فلماذا نجوع وكيف نضام ؟) . ثم تقص هذه الحكايات قصص أبطال حارتنا العظام : أدهم وجبل ورفاعة وقاسم . جدنا هذا لغز من الألغاز عمر فوق ما يطمع إنسان أو يتصور حتى ضرب المثل بطول عمره واعتزل في بيته لكبره منذ عهد بعيد فلم يره منذ اعتزاله أحد وكان يدعى الجبلاوى وباسمه سميت حارتنا وهو صاحب أوقافها وكل قائم فوق أرضها والأقطار المحيطة بها في الخلاء . ثم جاء زمان فتناولته قلة من الناس بكلام لا يليق بقدره ومكانته وكم دفعنى ذلك إلى الطواف ببيته الكبير لعلى أفوز بنظرة منه دون جنوى أليس من المحزن أن يكون لنا جد مثل هذا الجددون أن نراه أو يرانا .. إن أحداً لم يره منذ اعتزاله ولم يكن ذلك بذى بال عند أكثر الناس فلم يهتموا إلا بأوقافه وبشروطه العشرة . ومن هنا نشب النزاع في حارتنا منذ ولدت ومضى خطره يستفحل بتعاقب الأجيال حتى اليوم والغد .

أدهم

كان مكان حارتنا خلاء فهو امتداد لصحراء المقطم الذى يربض في الأفق ولم يكن في الخلاء من قائم إلا البيت الكبير الذى شيده الجبلاوى كأنما ليحتوى به الخوف والوحشة وقطاع الطريق .

وذاث يوم استدعى سيد البيت أبناءه إلى حجرة الجلوس بالطابق السفلى وجاء أبنائه جميعا : إدريس وعباس ورضوان وجليل وأدهم مرتدين حللهم الحريرية . ويخبرهم أنه رأى من الأفضل أن يعهد بإدارة الأوقاف إلى شخص آخر غيره . وظن الجميع أنه سيعهد بها إلى إدريس ابنه الأكبر ولم يشك أحد في ذلك . ولكن المفاجأة أن الجبلاوى يختار أدهم بدلا من إدريس ويثور إدريس ويحتج بأنه أكبرهم ولكن الأب يؤكد له أن اختياره لصالح الجميع . ويقول إدريس : إننى وإخوتى أبناء هاتم خيرة النساء أما هذا فابن جارية سوداء . ويرد الجبلاوى بعد أن يأمر إدريس بالتزام الأدب بأن أدهم يعرف المستأجرين ومعظم أسمائهم وعلى علم بالكتابة والحساب . وتثور نائرة إدريس وينفجر قائلا : أى نوع من الآباء أنت ؟ خلقت فتوة جبارا فلم تعرف إلا أن تكون فتوة جبارا ونحن أبنائك تعاملنا كما تعامل ضحاياك العديدين .. والحق أنه لم يبد من الأب قبل هذا اليوم ما ينم عن التحيز في معاملته لأبنائه .. حتى إدريس على قوته وجماله وإسرافه أحيانا في اللهو لم يسء قبل ذلك اليوم إلى أحد من إخوته كان شابا كريما حلو المعشر .

ويتهى الموقف بطرد إبليس من البيت بينما يتولى أدهم إدارة الموقف . فكان أدهم يذهب كل صباح إلى مكتب الوقف في الحديقة المجاورة للبيت الكبير يعمل بمجد واجتهاد يجمع الايجار من المساكن ويوزع الأسهم على المنتفعين ثم يعرض الحسابات على أبيه .

ويتعلق قلب أدهم بفتاة في البيت الكبير هى أميمة ويتم زواجهما . أما إدريس فيدخل في حالة شبه دائمة من السكر والعريضة على مقربة من البيت الكبير ويرسل لعناته في الهواء . ويفاجأ إدريس أدهم بزيارة أثناء عمله ويطلب منه أن يسدى إليه معروفا هو أن يطلع على ما دون الأب (الجبلاوى) في الكتاب السرى ثم يخبر إدريس إن كان له نصيب في الوصية أم لا حتى يعرف مستقبله . ويظل إدريس يغرى أدهم مظهرا له الود وصدق النية والاخلاص ويستعطفه ولكن أدهم يستنكر أن يقوم بعمل مثل ذلك لأن الجبلاوى حرم على الجميع أن يقتربوا من الحجرة الصغيرة التى تحتوى على الكتاب السرى والملحقة بغرفة نومه .

ولكن أميمة تعلم بالأمر وتظل تحرض زوجها على أن يفعل ذلك وتزينه له باعتباره لن يضر أحدا بينما سينتفع به إدريس فيعلم ماذا ينتظره وسيعلم كذلك أدهم وأميمة ماذا سيكون نصيبهما . ويظل أدهم فريسة للتردد .. إلى أن يقدم على هذا الأمر ويتنزه فرصة عدم وجود أبيه ويتسلل إلى الحجرة الصغيرة الداخلية بينما تنتظره أميمة بالمصباح في الخارج وقبل أن يتمكن أدهم من قراءة محتوى الكتاب السرى يفاجئه أبوه ويمسك به متلبسا ويعرف منه أن إدريس هو الذى أغراه بارتكاب هذا الخطأ وينفتح باب البيت الكبير ولكن هذه المرة لكى يكون الطرد من النعيم إلى الشقاء الخارجى من نصيب أدهم وأميمة . ويقم أدهم وأميمة في

كوخ صغير خارج البيت الكبير وإلى جواره كوخ مماثل شيده إدريس لنفسه عند طرده وعاش فيه مع زوجته . ويفطن أدهم إلى أن إغراء إدريس له كان مكيدة لكي يطرد هو الآخر من البيت ويكونا سواء بعد أن فضله الجبلاوى عليه ويسعى أدهم لكسب قوته وقوت أسرته على عربة يد يبيع فيها الخيار وأصبح له ابنان : قدرى وهمام . وكأن قدرى ورث عن عمه إدريس صفاته الذميمة بينما يتصف همام بالصفات الطيبة وتكرر المأساة حينما يرسل الجبلاوى أحد خدمه إلى بيت أدهم يخبرهم فيه أنه قرر أن يعيش همام مع جده وينعم بالسعادة في قصره وتدب الفتنة حينما يرفض قدرى تمييز جده لأخيه همام واختياره وحده لهذا النعيم ويحرض إدريس قدرى على هذا التمرد .

وتصل الغيرة والنزاع بين قدرى الشرير وهمام الطيب ذروتها عندما يقتل قدرى أخاه ويدفنه في الصحراء ويفرض قدرى بعد ذلك مع هند ابنة إدريس ثم يعودان بعد زمان إلى الحارة ومعهما أولاد كثيرون من نسلهم جاءت الأجيال التالية .

جل

مات أبناء الجبلاوى صغاراً والوحيد الذى بقى من نسلهم وعاش طيلة حياته فى البيت الكبير كان (الأفندى) وهو ناظر الوقف .

أما أهل الحارة فكانوا بين باعة جائلين وأصحاب دكاكين أو مقاه و عدد كبير من الشحاذين . وقد استقر النظام على أن يسيطر ناظر الوقف على الحارة ومن فيها مستعينا بالفتوات فللكل حى فى الحارة فتوة يحمى أهله ويقهر من يعارضه ويدفع له الناس الأتاوات ثم للحارة كلها فتوة رئيس يساعد ناظر الوقف وكان فتوة الأفندى هو (زقلط) الذى كان يعيش فى بيت مواجه لبيت الأفندى .

وكان أفقر الناس وأكثرهم تعرضاً للذل والهوان مع كونهم أيضاً ينحدرون من نسل الجبلاوى هم آل حمدان . وفى بيت الأفندى وتحت كنفه وكنف زوجته السيدة هدى نشأ جبل وهو أصلاً من آل حمدان ولكن أهله ماتوا فتبنته السيدة هدى والأفندى لأنها لا ينحيان وينشأ جبل موزع النفس والضمير بين ولائه للبيت الذى تربى فيه وانتمائه لآل حمدان المستضعفين . ويشور آل حمدان ويذهبون - يتقدمهم حمدان - إلى بيت الأفندى طالين العدل والانصاف لكنه يردهم خائبين ويعمل فهم فتوته البطش والتنكيل .

ويحاول جبل أن يتدخل لوقف - أو على الأقل - تخفيف العقاب على آل حمدان ولكن موقفه يواجه رد فعل عنيفا من الأفندى وزقلط الفتوة . ويتساءل جبل : (أيعجبك هذا

الطغيان يا جيلوى) . ويستمر (قدرة) فتوة آل حمدان في اضطهادهم وسومهم صنوف العذاب .

ويطارذ ذات ليلة (دعيس) أحد أبناء الحى متوعدا إياه إلى أن يمسك به وينال عليه بنبوته الغليظ بلا رحمة ويرى جبل هذا المشهد فيحاول أثناء الفتوة عن بغيه بلا طائل فلا يملك إلا أن يبطش به ليوافقه عن قتل دعيس المسكين وينطرح (قدرة) أرضا بلا حراك ويعلم جبل أنه مات مع أنه لم يكن يقصد قتله ويهرب جبل من الحارة بأكملها قاصدا الصحراء بينما تثور نائرة الفتوات وينزلون بالأهالى أشد ألوان الاضطهاد والعذاب . ويسير جبل مبتعدا إلى أن يرى على البعد فى سوق المقطم منزلا متعزلا ينبعث منه نور فيقصده ويرحب به صاحبه (البليطى) مروض الحيات الذى يقيم فى الدار مع ابنته (شفيقة) و (سيدة) وكان جبل قد أسدى إلى الفتاتين معروفا عندما سقى لهما الماء وكانتا غير قادرتين على ذلك وسط الجموع الكثيرة وأخبرتا جبل أن أباهما رجل كبير متفرغ لعمله لا يستطيع أن يذهب معهما لحمل الماء .

ويقيم جبل مع البليطى الذى يعرف منه قصته ويتفق معه على أن يعلمه مهنة السحر وترويض الثعابين . ويتبادل جبل وشفيقة الاعجاب ويتم زواجهما . ويتقن جبل المهنة ويقضى زمنا مع البليطى يكتسب عيشه معه ثم يعود خفية إلى الحارة ومعه زوجته ويقصد بيت حمدان كبير قومه فيرحب به ويلدس الجميع كيف يمكن أن ينتقموا من الفتوات وينهوا حياة الذل والاضطهاد . ويقص عليهم جبل حادثة غريبة وقعت له وهى أن شخصا هائلا كالجيل استوقفه فى الظلام الخالك وهو يتجول فى الصحراء وقال له بصوت غريب : (لا تخف أنا جدك الجيلوى) . وقال له : (أنا هنا) فحذق جبل بصره فى الظلام لكنى يرى وجهه ولكنه لم ير شيئا فقال له الجيلوى : (لن تستطيع أن ترى وجهى فى الظلام) ، وبينما استمع آل حمدان إلى جبل وهو يقص عليهم القصة وهم مشدوهون متشككون أكمل جبل قائلا : إن الجيلوى قال له إنك رجل يعتمد عليك يا جبل ولكنك نبذت حياتك المريحة حزنا على ما أصاب قومك من اضطهاد ولكن قومك هم قومى ولهم حقوق فى وقفى لا بد أن يحصلوا عليها ولما سأله جبل : وكيف السبيل إلى ذلك ؟ قال : بالقوة سوف تحطمون الظلم وتنالون حقوقكم وتحيون حياة كريمة . فصاح جبل : سنكون أقوياء وباركه الجيلوى وانصرف . ويعلم الأندى وفتواته بعودة جبل وينتشر سر مقابلة الجيلوى وتثور نائرة الأندى لأنه يحس فى ذلك تهديدا لسلطته ونظارته للوقف إذ وقف الجميع خلف جبل مطالبين بحقوقهم .

وفجأة تنتشر في بيوت الناس وبالذات الأفندى والفتوات ثعابين مخيفة ويسود الذعر بين الناس لدرجة أنهم يغادرون بيوتهم ويبقون في الخلاء من الذعر ثم يرجون جبل أن يتدخل لانقاذهم من الحيات مستخدما مهنته التي تعلمها ويقبل جبل بشرط أن يكون الثمن هو كلمة شرف من الأفندى أن يحترم آل حمدان ويحفظ لهم كرامتهم وحقهم في الوقف ويوافق الأفندى تحت ضغط الموقف وسرعان ما يخلصهم جبل من كل الثعابين السامة والخطرة التي تملأ بيوتهم . ويقرر الأفندى وزقلط التخلص من كل آل حمدان حتى لا يطالبوا بحقهم في الوقف بينما يكون جبل وأهله قد دبروا خطة مضادة للقضاء على الفتوات قضاء مبرما فقد صنعوا لهم كمينا في دار حمدان حيث تركوا الباب مفتوحا وحفروا حفرة عميقة في المدخل غطوها من الخارج بحيث ينخدع الفتوات ويسقطون فيها وهذا ما حدث فعلا فقد سقطوا جميعا وعندئذ ألقوا عليهم المياه ليغرقوهم والتراب ليخنقوهم وأنهالوا كذلك عليهم بالهراوات ضربا عنيفا حتى يستأصلوا شأفتهم تماما ويستعطف الأفندى جبل حتى لا يلحقه أذى هو الآخر ويتفق الجميع على أن يحصل آل حمدان على حقهم في الوقف بالانصاف ويقضى جبل على دعوى بخلع إحدى عينيه قصاصا منه لأنه فقأ عين شخص آخر .. وهكذا يسود العدل والمساواة بين الناس زمن جبل وتنتهى قصته عند هذا الحد .

رفاعة

ذهب جبل وأيامه السعيدة وعاد عصر الفتوات والقهر من جديد متمثلا في (زنفل) هكذا تحدث شافعى النجار إلى زوجته عبّده وهما يفران من الحارة إلى مكان بعيد لكى تضع طفلها حيث إن زنفل الطاغية يقتل كل رضيع من قوم جبل . ويعود شافعى وعبّده إلى الحارة بعد سنوات قد هدأت الحال فيها ومعهما ابنتهما رفاعة شابا يافعا ويشغف رفاعة بالقصص التي تروى على الرابية في المقاهى عن الجبلاوى وأبنائه ويتحسس شاعر ضرير ملامح وجهه وكتفيه ذات يوم ويقول : (مدهش أن له جمالا مثل جمال الجبلاوى نفسه) ويحاول شافعى أن يجعل ابنه يعمل معه في دكان النجارة الذى افتتحه في الحارة ولكن رفاعة لا يركز في هذا العمل فهو مشغول بقصة الجبلاوى وما يرويه شاعر الرابية . وعلى مقربة من مسكن شافعى وعبّده تسكن بغى اسمها ياسمين تشرع في مغازلة وإغراء رفاعة الذى لا يستجيب لها وفي زيارة للراوى في منزله يلفت نظر رفاعة رسم بالزيت على الحائط . وتمثل الصورة شخصا هائلا تبدو بجانبه بيوت الحارة مثل لعب الأطفال ويسأل رفاعة : صورة من هذه ؟ فيأتيه الجواب : الجبلاوى . فيسأل : وهل رآه أحد ؟ فيجيبه (جواد) الراوى أو الشاعر : لا .. لم يره أحد من جيلنا وحتى جبل نفسه لم يستطع أن يتبين ملامحه في الظلام عندما قابله في الصحراء . ولكن الفنان رسمه حسب أوصافه في الحكايات . ويتساءل رفاعة في أسى : لماذا أوصد بابه في

وجه أبنائه؟ وينصح الشاعر بقوله: إنه ما دام الجبلاوى لا يفكر فينا فيجب ألا نفكر نحن فيه أيضا. ويعلم رفاعة أن زوجة الراوى (أم بخاطرها) تعمل في السحر وطرده الأرواح الشريرة، وتقول له أن كل إنسان له روح خاصة تحركه وإن كل روح تتطلب معاملة خاصة وأن الإنسان يشبه روحه المسيطرة فالأرواح الشريرة تتطلب بخورا خاصا ونغمات خاصة لطردها فيهم رفاعة بذلك اهتماما شديدا ويطلب منها أن تعلمه كل ما تعرفه من ذلك وتوافق على أن يوافيها كلما استطاع لكي تلقنه مهنتها على شرط ألا يغضب أبوه من ذلك.

ويطلب رفاعة من أبيه أن يحضر من يرسم لهم صورة زيتية للجبلاوى على الخائط في منزلهم كذلك التي شاهدها عند (جواد) فيقول له أبوه إنهم أحوج إلى المال الذي سينفقه على هذه الصورة ثم إنها أوهام وخيالات. وكم شهد رفاعة ليالى مع أم بخاطرها يتابع ويراقب دق الطبول واخضاع الأرواح الشريرة، وكان المرضى يساقون إلى بيتها ضعافا وفي حالة فقدان وعى وبعضهم كان يحمل حملا أو يقيد ويوضع في الاصفاد نظرا لتوحشه وكان لكل حالة ما يناسبها من البخور حيث يطهره البخور وتضرب الايقاعات المطلوبة.

ويحس رفاعة أن هذا هو العلم الذي يريده لكي يخلص الحارة من ناظر الوقف والفتوات وأمثالهم ولا سيما بعد أن اكتشف أنه يمكن اخضاع وتطهير النفوس الشريرة عن طريق أشياء طاهرة ونقية وطيبة مثل الروائح المعطرة والنغمات الجميلة. وصعد رفاعة إلى أعلى السطح وتأمل البيت الكبير قرب الفجر وراودته الخواطر: أين أنت يا جبلاوى لماذا لا تظهر ولو للحظة واحدة ألا تعلم أن كلمة واحدة منك تغير حال الحارة كلها؟

وأبوه يعنفه كلما سمع منه هذه الخواطر ويحثه على أن يعمل عملا جادا بدلا من أن يضيع وقته هكذا. وتزور الست زكية زوجة (خنفس) الفتوة عبده أم رفاعة وتقدم لها ابنتها عائشة وتفتح عبده وشافعى ابنتها بشأن هذا الشرف الكبير - ويحاولان اقناعه بأن هذه فرصة عظيمة للوصول بعد ذلك إلى منزل الناظر - الوصى على تركة بنى جبل ومن يدرى لعله يرث هذا المنصب يوما ما.. ويحتج رفاعة كيف أصاهر هذا الشيطان في الوقت الذي ينصب فيه كل اهتمامى على طرد الشياطين.. ويجن جنون أبيه ويتهمه بأنه يريد أن يتحول إلى ساحر ويأته كالبنيات، وبأن الحارة كلها لاحظت نعمته وطراوته.

ويعجب شافعى من رفض ابنه لفكرة الزواج ويحاول إثناءه عن أفكاره باللين وبالشدّة بينما يقرر رفاعة في نفسه أن هذا البيت ليس هو المكان الذى يبحث عنه.. إنه أصبح كالسجن ولا بد له من كان آخر.. ويفتقد شافعى ابنه في دكان النجارة بعد ذلك فلا يجده ويسأل عنه جواد في قهوة شلضم فيخبره بأنه لم يره.. ويستبد القلق بعبده عندما يعود شافعى وليس معه رفاعة وتنصحها أن يبحث عنه عند ياسمين البنى - وتفاجأ ياسمين بشافعى

ويسألها عن رفاة فتندesh وتقول له : لماذا يأتي هنا ؟ وينصرف ويسمع عند انصرافه حديثا من داخل المسكن تقول فيه ياسمين لرفيقها : إنهم يقلقون عليه كما لو كان بنتا ويذهب شافعي وعبداه إلى سوق المقطم حيث كانوا يعيشون لمدة ٢٠ سنة عندما هربوا من الحارة قبيل ولادة رفاة ويسألون جيرانهم القدامى ومعارفهم عنه ولكن بلا طائل .

ويظهر رفاة فجأة بعد فترة وقد أصابه الضعف والهزال ويخبر الجميع أنه كان في الصحراء لأنه أحس أنه يريد أن يخلوا إلى نفسه وأنه لم يخرج من الصحراء إلا البحث عن طعام .

وتخبرهم أم بخاطرها أن رفاة نمت مختلف عن باقي الناس وليس هناك من يماثله في الحارة كلها ، وأنه لم يكن من الحكمة محاولة إجباره على شيء لا يريده . وعاد رفاة للعمل في دكان والده شافعي النجار وكان يهاجم العنف في كل مناقشاته مع زبائن المحل ويقول لهم إن (العنف) لا يحل أى مشكلة وأن جبل لم يلجأ للعنف إلا للدفاع عن النفس . وذات يوم يقول رفاة لوالده أن هناك شيئا حدث ولا يستطيع كتمان أكثر من ذلك ويخبره أنه كان في الصحراء بالقرب من البيت الكبير . وسمع في الظلام صوت الجبلاوى يقول له أن جبل أدى رسالته وفعل ما عليه ولكن الأمور عادت لتصبح أسوأ مما كانت فنادى رفاة : (جدى لقد مات جبل وحل آخرون محله فامدد يدك إلينا وساعدنا فجاء الرد من الجبلاوى : كيف يطلب الحفيد من الجد أن يعمل إنما يعمل الابن المحبوب .

ويقلق شافعي وعبداه مما قاله ابنهما رفاة ويخشيان أن يبلغ الأمر لسكان الحارة وتحدث ضجة ذات يوم عندما يتجمع الأهالي ويطالبون بطرد ياسمين البغي من الحارة فيدافع رفاة عنها ويقول أن المسئول هو (يومى) - الفتوة - الذى أغواها ويطلب منهم أن يرحموا ضعفها ثم يعرض أن يتزوجها إنقاذا لها من بين أيديهم ويصرح رفاة ليلة زفافه بأنه شرب بعض الخمر وأنه جرب الحشيش ولكنه لم يجد لديه ميلا إلى شربه .

ويدور حوار بينهما ليلة العرس يتضح منه أن رفاة زاهد في متاع الدنيا وأنه لم يقرب عروسه مما أثار غيظها وحنقها وكان كل حديثه معها عن وجوب تطهير نفس الإنسان من الأرواح الشريرة حتى يحصل على السعادة الحقيقية .. ويتخذ رفاة له بيتا في حى آخر ويأتيه الناس ولا سيما الفقراء طلبا للعلاج والهداية ويتوب الكثيرون على يديه من غواياتهم وضلالاتهم ويصبح البعض هادى الطباع وهكذا ... ويتخذ من مرضاه أربعة يعتبرهم أصدقاءه بعد أن تحولوا إلى أناس أسوياء ذوى خلق حسن وطبيعة طيبة وكانوا من قبل ذلك أشرار فقد كان (زكى) متشردا صعلوكا و(حسين) حشاشا مدمنا و(على) بلطجى قاسى القلب و(كريم) قوادا .

وتخون ياسمين زوجها رفاعة مع (بيومى) الفتوة بينما ينهك رفاعة فى علاج الناس وتخليصهم من أرواحهم الشريرة ويطلب من تلاميذه الأربعة أن يمارسوا نفس العمل ويبلغوا هذه الرسالة لكل الناس لأنه لا يستطيع ذلك وحده .

وفى لقائهما سرأ فى بيته يتحدث بيومى مع ياسمين عن دعوة رفاعة ويخشى بيومى أن يكون هدف رفاعة استعادة الوقف وتسليمه من جديد إلى قوم جبل ويسخر من احتمال ادعاء رفاعة أنه سمع ذلك من الجبلاوى نفسه ويعلن فى نهاية الحوار - مؤكداً - أن الجبلاوى مات أو هو كالميت . وتحدث مواجهة بين رفاعة وكل من خنفس وبيومى بعد أن يستبد القلق بإيهاب ناظر الوقف وينذرانه بالكف عما يفعله من استقبال الناس وعلاجهم وإلا فالويل له وينصح الجميع (عبده وشافعى وياسمين والأصدقاء الأربعة) رفاعة بأن يهرب من الحارة كلها لأن الفتوات يتربصون به ليقتلوه وتخونه ياسمين وتبلغ بيومى بخطة الهرب . وفى اللحظة المقدرة يهجم عليهم الفتوات فهرب أصدقاء رفاعة ثم يسوقه الفتوات عبر الحارة ويمرون على البيت الكبير ويفكر رفاعة : هل يحس الجبلاوى بمعاناته الآن وينادى جبلاوى ولا يرد عليه أحد ثم يقتلونه بهراواتهم ويستخرج أصدقاءه جثته من المكان الذى دفنها فيه الفتوات ليدفنها فى إحدى المقابر ثم يقتلون ياسمين لخيانتها ويشرعون فى مواصلة رسالة رفاعة بتعليم الناس أسرار مهنته . وتناقل الناس قصة رفاعة وزعم بعضهم أن الجبلاوى نفسه هو الذى استخرجه وحمله بعيداً إلى حيث قصره ووضع تحت ثرى حديقته الغناء .

ويرى بعض تلاميذ رفاعة ضرورة الانتقام من الفتوات الجبارة ويرى آخرون أن فى ذلك مخالفة لتعاليم رفاعة التى تنبذ العنف ثم تبدأ موجة من الانتقام ضد كل الفتوات حيث يجد الناس جثثهم واحدا وراء الآخر أمام منازلهم ، وتحدث مواجهة بين الفتوات وأنصار رفاعة وتنتهى بانتصار (الرفاعيين) ويتم اتفاق بين (على) زعيمهم وناظر الوقف بمقتضاه يتم الاعتراف بهم وبأن لهم نصيباً من التركة مثل قوم جبل . ويعود كل الذين فروا من الحارة فى فترة الارهاب والاضطهاد ومنهم شافعى وعبده بينما يختلف أتباع رفاعة فمنهم من يرى أن رسالته مداواة المرضى والرحمة ومنهم من يرى غير ذلك ويتطرف بعضهم فيمتنع عن الزواج اقتداءً برفاعة .

قاسم

وتمر أجيال يسيطر فيها نظار الوقف واحدا وراء الآخر على الوقف ويأخذون خبراته لأنفسهم ويسومون الناس الظلم والاضطهاد مستعينين بالفتوات وبينما يعيش قوم جبل فى الحى الخاص بهم وكذلك أتباع رفاعة فى حميم ينشأ قاسم فى أفقر الأحياء وأكثرها بؤساً

(حى الجرايع) . وقاسم غلام يتيم يكفله عمه (زكريا) بائع البطاطا الفقير الذى لم يرزق بابنه (حسن) إلا بعد أن كفل ابن أخيه ولذلك اعثر وجوده معه فألا حسنا وبركة .

ويشب قاسم على حكايات الجبلاوى وأدهم وجبل ورفاعة وتتطيع هذه الأحداث فى ذاكرته ويذهب به عمه مرة إلى العجوز يحيى بائع الأحذية والمسابع والبخور الذى يتوسم فيه خيرا ، ويحيى هذا من أتباع رفاعة ولكنه هجر حى رفاعة بسبب بطش وظلم الفتوات .

ويكبر حسن فىرى قاسم أنه - أى حسن - أحق منه بمصاحبة والده فى جولاته على عربة البطاطا ويتفرغ قاسم لرعى الأغنام وهى المهنة التى أحبها حبا جما وجعلته يقضى أوقاته كلها تقريبا فى الصحراء يتأمل الطبيعة ويراقب الخراف فى حياتها الفطرية وكذلك جعلته هذه المهنة يكثر من زيارة العجوز يحيى .. وتقع حادثة تعلى من شأن قاسم وتجلب له احترام الفتوات والناس وذلك عندما صاح أحد الناس فنجرى وهو منجد كان خارجا لتوه من بيت أحد السادة الكبار بعد أن قبض مبلغا ضخما من المال نظير عمل طويل وشاق .. صاح بأن نقوده سرفت منه والتف الناس حوله وخرج الفتوات كل من منطقته واتهم كل منهم الآخر بأن اللص من حيه ثم رأوا تفتيش كل الأحياء ولكن فتوة كل حى وقف متمرا يدافع عن كرامة حيه وكادوا يقتلون وتحدث مجزرة إلى أن اقترح عليهم قاسم أن يطفئوا الأنوار فى كل الأحياء وعلى من سرق النقود أن يضعها فى الظلام دون أن يفتضح أمره أو أمر الحى الذى هو منه ونفذوا اقتراحه وأضاءوا الأنوار فإذا بالمحفظة ملقاة فأخذها صاحبها مسرعا وانتهت المشكلة .

ويحدث تقارب بين قاسم والسيدة (قمر) التى يرعى لها غنمها وتفاتها (سكيته) خادمتها فى أمر زواجه منها ويستبعد عمه زكريا وزوجته أن يتم هذا الزواج نظرا للفارق الاجتماعى ، ويستنكر (عويس) عم قمر أيضا هذه الزيجة لما فيها من تنازل كبير من جانب ابنة أخيه إلا أن قمر تصر على ذلك ويتم الزواج بالفعل . وفى ليلة العرس يشرب الجميع الخمر بما فيه قاسم الذى يتعاطى الحشيش أيضا .. المهم يعيش الزوجان قاسم وقمر فى هناة وسرور وبعد فترة يكتسب قاسم ثقة عم زوجته فيعمل فى مكتبه ويدير أموال زوجته وتكتمل الفرحة عندما يرزق قاسم وقمر بمولودتها الأولى (إحسان) ويصيب القلق قمر بسبب خروج قاسم إلى الصحراء فى الليل والمهموم التى بدأت تساوره . ويتأخر ذات ليلة إلى قرب الفجر فيستبد بها القلق وترسل فى طلب عمه (زكريا) وابنه (حسن) وصديقه (صادق) ليبحثوا عنه فيجدونه بعد بحث وتعب مغشيا عليه فى كوخ العجوز يحيى ويعلمون الأمر منه بعد أن أفاق فى بيته بعد ذلك . وقد أخير زوجته أولا بالسر لأنها أول شخص يثق فيه فأخبرها أن شخصا غريبا ناداه وهو فى خلوته بالصحراء وأبلغه أنه أحد خدم

الجبلاوى واسمه (قنديل) وقال له أن الجبلاوى يعرف كل شيء وأنه اختاره هو -
أى قاسم - بسبب حكمته يوم السرقة وبسبب ولائه لأسرته وأنه يبلغه أن كل أهل الحارة
أولاده سواء بسواء وأن الوقف هو تركتهم جميعا بالتساوى وأن الفتوات هم شر يجب أن
يزول وينتهى وأن الحارة يجب أن تكون امتدادا للبيت الكبير . ولما سأله قاسم : ولماذا يبلغنى
أنا بالذات بكل هذا ؟ أجابه قائلا : لأنك أنت الذى ستفعل كل هذا .. وبالرغم من حب
قمر لقاسم وثقتها فيه ويقينها من أنه رجل صادق وأمين إلا أنها تحاول التأكيد من أن الذى رآه
وسمعه حقيقة وليس حلما فتعيد عليه السؤال تلو السؤال : ألم يكن حلما لقد وجدوك مغشيا
عليك ؟ هل أنت على يقين أنك لم تشرب الحشيش ولم تختلط عليك الأمور؟ ولكنه يؤكد لها
أن الذى حدث كان حقيقة . وتتفاوت مواقف من حوله حينما يعلمون بالأمر ويقدرون
عواقبه فيؤيده ويصدقها تماما صديقه (صادق) وابن عمه (حسن) على حين يحاول إنشاءه
عن ذلك بكل ترغيب وترهيب ممكن كل من عم زوجته (عويس) وعمه (زكريا)
ويحذران من أنه لن يقف معه أحد إذا تصدى له الكبار الأقوياء والفتوات بهراواتهم ونبايتهم
بينما لا يشغل بال زوجته قمر سوى الخوف عليه من مغبة هذا الأمر . ويصر قاسم على تنفيذ
وصية جده الأكبر الجبلاوى وفى زيارة إلى العجوز يحيى ومعه (صادق) و(حسن) يسأله
يحيى : ما الذى ستركه للذين يتبعونك ؟ فيجيب قاسم : (إذا نصرنى الله فإن الحارة لن
تحتاج إلى أى شخص آخر بعدى) .

ثم يتعاطون جميعا الحشيش (قاسم وصادق وحسن والعجوز يحيى) فى هذه الجلسة
وتدور رءوسهم ويعود كل منهم إلى منزله تحت تأثير هذا المخدر .

وتأتى قاسم فكرة أن ينشئوا ناديا رياضيا خلف منزله وينضم إليه فقراء الحى بحيث يبنى
الجميع أجسامهم بممارسة الرياضة من رفع أثقال وخلافه ومعهم قاسم نفسه وصادق وحسن
ويتفقون على أن يظل سرهم طبي الكتمان : أى تنفيذ رغبة الجبلاوى إلا أن أحد الأتباع
(عجرمة) يبوخ بالسر فى الحارة ذات يوم وهو تحت تأثير الخمر فيلعن قاسم الخمر
وما تفعله بالإنسان ولكنهم يتفقون على الذهاب إلى محام من باب الاحتياط بحيث إذا حدثت
مواجهة بينهم وبين ناظر الوقف والفتوات يمكنهم رفع قضية للمطالبة بالتنفيذ العادل للوصية
وتوزيع ريع الوقف بالمساواة ويذهبون بالفعل إلى (الشنفرى) المحامى الشرعى الذى يقبل
القضية لفرط دهشتهم ويتناول مقدم الأتعاب ويظهر بعد ذلك سر موافقته السريعة والسهلة
عندما يعلمون أنه وشئ بهم إلى ناظر الوقف وفتواته .. وتحدث مواجهة عنيفة بين قاسم
والناظر وبعض الفتوات حيث يضربونه ويهينونه وينذرونه بالقتل إن استمر فيما هو فيه من
العرم على تنفيذ رغبة الجبلاوى لكى يسود العدل والمساواة . وتبدأ فترة من الاضطهاد لأتباعه
بينما لا يستطيع هو أن يغادر منزله وتأتي الأخبار أن حى جبل وحى رفاة يتداولون خبره

مكذبين له ويقول في حسرة : (لماذا يقولون أنني كاذب مع أن منهم جبل الذي كلم الجيلاوى ورفاعة الذي سمع صوته ؟ لماذا يتهموننى بالكذب في حين كان الأولى بهم - من دون الناس جميعا - أن يكونوا أول من يؤمنوا بي ويؤيدوني ؟) .

ويتصاعد الاضطهاد ويصل إلى درجة قتل بعض أتباع قاسم مثل (شعبان) وسط خوف الناس وذعرهم ويصل قاسم مع أصحابه إلى قرار البعد عن الحارة والهجرة إلى الصحراء حتى يستكملوا بناء قوتهم كما فعل جبل من قبل ثم يعودوا بعد ذلك . ثم تموت قمر بعد مرض ومعاناة ويسيطر على قاسم حزن عظيم ويأتيه أصحابه المهاجرون فيقابلونه سرا في المقابر لكي يقدموا له واجب العزاء وبوفاة زوجته الغنية ذات النسب والشرف يفقد قاسم جزءا كبيرا من الموانع الأدبية التي كانت تحول بين أعدائه وقتله أو التخلص منه وهكذا تصله الأخبار بأنهم يدبرون لقتله في ليلة معينة فيضع خطة لانقاذ ابنته فيتفق مع سكينه الخادمة على أن تذهب بها إلى حيث يوافقهم حسن ابن عمه لتهدئهم أما هو فسيبقى إلى أن يخيم الليل ويسود السكون فينتقل عبر الأسطح المجاورة إلى بيت عمه تاركا مصباحا مشتعلا في شفته لتضليل المتربصين به .. ومع أنه اضطر لتغيير خطته إلا أنه نجح آخر الأمر في الفرار وركض بأقصى سرعة حتى بلغ المكان الذي كان أصحابه ينتظرونه فيه . وانطلق الجميع في عربة إلى الجبل حيث قابلوا العجوز يحيى ثم ذهبوا إلى المكان الذي استوطن فيه المهاجرون من قبلهم في جبل المقطم حيث استقبلوه بالترحاب والغناء والهتاف ونشيد (يا معنى ديل العصفورة) وعندما تناولوه سكينه الخادمة كوب ماء وتقول له أنهم أحضروه من الصنبور العمومي كما سقى جبل المرأتين من قبل يسر قاسم كثيرا لأن أى إشارة تقرنه بجبل ورفاعة أو تشبه بهما تجعله سعيدا .. ويشعر قاسم بالوحدة بعد وفاة قمر ويفاتحه أصحابه في ضرورة الزواج وأخيرا يتزوج من بدرية - الفتاة الصغيرة الناضجة - أخت صادق أخلص أصحابه . ويتذكر قاسم قمر ذات يوم وتفلت منه عبارة ثناء عليها فتتجههم بدرية - غيرة - وتقول له : إنها كانت عجوزا ولم تكن جميلة فينهاها عن أن تتحدث عنها هكذا ويقول لها أن امرأة مثل قمر ينبغي أن تذكر بالترحم عليها . وبعد أن يزداد عدد المهاجرين وتزداد قوتهم في الجبل يهجمون على زفة (سوارس) فتوة الحارة وتحدث معركة رهيبه بالشوم والنبايت تنتهى بمصرع سوارس وانتصار قاسم وأصحابه وما يلبث الفتوات وأنصارهم أن يرحفوا على الجبل حيث قاسم وأصحابه للانتقام منهم . وبينما يخالف بعض أنصار قاسم أوامره ويتركوا مواقعهم الجنوبية يتسلل (لهيطة) (الفتوة الكبير) من الثغرة ويهاجم قاسم وأصحابه ولكن ينتصر قاسم وأتباعه (الجرايع) بعد معركة رهيبه تسيل فيها الدماء أنهارا ويقتل فيها لهيطة .

ويستدعى رفعت (ناظر الوقف) (جلطة) و (حجاج) الفتوتين الباقيين ويأخذ عليهما عهدا بالاتحاد من أجل الانتقام وذلك بحصار قاسم وأصحابه في الجبل ولكن جلطة

وحجاج يضمران لبعضهما البعض شرا حتى يفوز أحدهما بمنصب لهيطة (كبير الفتوات)
وبالفعل يُقتل حجاج غدرا وهو مخمور بالليل ويتم أنصاره جلطة بتدبير مقتله وما تلبث أن
تنشب معركة بين الفريقين يحاول ناظر الوقف منعها وإقناعهم بأنها مكيدة من قاسم لبث
الفرقة بينهم ومهاجمتهم على حين غرة ولكن نصح الناظر يذهب سدى .

ويحدث بالفعل هجوم مفاجيء من قاسم وأتباعه من أكثر من اتجاه وتحدث مواجهة
عنيفة ينتصر قاسم وأصحابه في نهايتها نصراً مؤزرأ ويقود قاسم الناس بعد انتصاره ويقف
الجميع أمام البيت الكبير حيث يقف فهم خطيبا قائلًا : (هنا يعيش الجيلاوى جدنا جميعا
وليس هناك حى من الأحياء أقرب صلة به من الآخر ولا أى شخص رجلا أو امرأة حولكم
أوقافه وهى تخصكم جميعا على قدم المساواة كما وعد أدهم عندما قال له أن الوقف لك
ولذريتك فيجب علينا أن نستخدمه كما ينبغى حتى يحصل كل منا على نصيبه ويعيش كما أراد
أدهم فى ببحوحة وسلام وسعادة . لقد ذهب ناظر الوقف بغير عودة وانتهى الفتوات ولا يجب
أن يحل غلهم فتوة آخر . لن تكون هناك إتابة تدفع إلى طاغية أو تكون هناك استكانة . وذل
لفتوة مخمور يمكن أن تقضوا حياتكم فى حب ورحمة وسلام وفى مقلوركم ألا تعود الأمور كما
كانت عليه من قبل) .

وقضى قاسم حياته فى البناء والتعمير والسلام يوزع بالعدل ريع الوقف على الجميع ولم
تشهد الحارة من قبل مثل هذه الوحدة والانسجام والسعادة لقد رأى فيه الجرايع رجلا
نموذجيا لم يروا مثله . وقال أناس فى زواج قاسم من أكثر من واحدة أنه يبحث عن شىء فقد
منذ افتقد زوجته الأولى قمر . وقال ابن عمه زكريا أنه يريد أن يوثق أسبابه بأحياء الحارة
جميعا لكنهم لم يكونوا بحاجة إلى تفسير أو تعليل لما حدث بل الحق أنه إذا كانت الحارة قد
أعجبت به لأخلاقه مرة فقد أعجبت به لحيويته وحبه النسوان مرات أن حب النسوان فى
حارتنا مقدره يتيه بها الرجال ويزهون ومنزلة تعدل فى درجتها درجة الفتوات فى زمانها
أو تزيد .

الفصل السادس القول الحق

وهنا نتحدث عن القول الحق في بيان العقيدة الإسلامية الصحيحة في قضية الألوهية والنبوة وانصحك يا أخي القارئ أن تقرأ مرة ومرة ما سبق عرضه من أحداث هذا الكتاب (أولاد حارتنا) ولا يكفيك أن تقرأه قراءة سطحية أو تمر به مروراً سريعاً بل إنى أكرر النصح أن تقرأ ما بين سطوره لترى ماذا تخفى الألفاظ وراءها من حقد دفين على الإسلام عقيدة وشريعة ، وقد سرى هذا الحقد بين السطور سريان النار في الخلفاء والسم الزعاف في الأحشاء . ولا يمكن أن نبدأ بالرد التفصيلي قبل أن نعرض العقيدة الإسلامية النقية في ثوب عام وشامل ثم بعد ذلك نرد تفصيلاً على كل ما جاء في العرض السابق فليس الرد على هذا الكتاب قصة تروى ولا رواية تقص وإنما سنحاول جهد الاستطاعة في ردنا التفصيلي أن نركز العناصر الأساسية ونعصر المراكز الأصلية بما تيسر من التقدير ويقدر من التيسير ولنبدأ ببيان عقيدة الألوهية وكيف نعرف الله ما يليق به من كلمات لا تنتهى فهو صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق وخير طريق توصلك إلى معرفة الله كلمات ربي سبحانه وتعالى فيها تتجلى العقيدة الصحيحة من توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وخير من يحدثك عن الله هو الله جل جلاله فإنه سبحانه وتعالى أرسل رسلاً وأنزل كتباً وقال في محكم آياته : ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً . الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش . الرحمن فاسأل به خبيراً ﴾ فالله جل جلاله ليس بصورة ولا جسم ، ولا محدود ، ولا معدود ، ولا متبعض ، ولا متجزئ ، ولا متناه ، ولا متلون ، ولا متكيف ولا يسأل عنه بما هو لأنه لا يعرف حقيقة الله إلا الله ، ولا يسأل عنه بمتى كان لأنه خالق الزمان ، ولا يسأل عنه سؤال إحاطة بأين هو لأنه خالق المكان ، فهو سبحانه وتعالى كان ولا مكان ، وهو على ما كان قبل خلق المكان لم يتغير عما كان ، علم ما كان وعلم ما يكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ، وما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك . والقول الفصل قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ . وإليك مزيد بيان في هذه القضية من كتاب الله تعالى .

كلمات ربي

قال الشيخ لتلميذه : إننى أنصحك وأنصح نفسى بل كل إنسان بما نصح به ابن رشد وهو أن نلجأ في إثبات وجود الله إلى البراهين البديهية السهلة البسيطة الواضحة التى يدركها العقل بدون أن يحتاج إلى الغوص فى لجج الاستدلال والجدل . ومن غير أن يعتره ارتباك أو اعلال أو عجز أو وهم وهى البراهين التى أكثر من ذكرها القرآن واعتمد عليها أكثر مما اعتمد على البراهين العقلية المركبة الأخرى لأنه يستوى فى إدراكها الجاهل الساذج ، والعالم الفيلسوف . أما الساذج فيدركها إجمالاً لبساطتها ووضوحها وبدايتها . وأما العالم فيدركها تفصيلاً ، ويعلم أن هذه البدايات فى أدلة القرآن تعتمد على شواهد كثيرة ، تؤلف ، مجموعها ، حكماً عقلياً يكون إنكاره بمثابة الإنكار لقضية رياضية صحيحة .

حيران : هذا والله عجيب وعظيم فقد سبق لمولاي الشيخ أن نوه بما فى القرآن من إعجاز ، فى باب التذليل على وجود الله وخلق العالم ، وسبق لى أن لاحظت عند التلاوة بعض هذه الأدلة ، ولكنى لم أكن أظن أنها تؤلف بمجموعها حكماً عقلياً ، يعد إنكاره بمثابة الإنكار لقضية رياضية صحيحة .

الشيخ : كم مرة قرأت ؟

التلميذ : أظن أننى قرأته أكثر من عشر مرات .

الشيخ : ألا تذكر قول أيبك لك فى الرؤيا : (ألا تقرأ القرآن) ؟

التلميذ : أذكره ولا أنساه .

الشيخ : هل خطر على بالك أن تمنع النظر فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ، لتدرك أنه ، سبحانه ، حصر الخشية فى العلماء ، وأنه أراد بهم العالمين بأسرار الوجود وأسرار الخلق ، كما قال ابن رشد والجسر ؟

التلميذ : لقد سألت عن هذا فقبل لى أن المقصود بالآية (علماء الدين) .

الشيخ : وهل المفروض فى علماء الدين أن يكون علمهم قاصراً على المعنى الاصطلاحى (للفقهاء) ، الذى يراد به استنباط أحكام العبادات والمعاملات ، وأن لا يكونوا مطلعين على أسرار الوجود والخلق ، من طريق العلم والفلسفة ؟ كلا يا تلميذ ، فالفقه هو (الفهم) لكل شئ ، ولكل ما فى الدين من أسرار وحكم وأحكام ، وأول ما يجب أن

نفهمه هو كلام الله ، وأول شيء يجب أن نفهمه من كلام الله هو الآيات الدالة على وجود الله ونغنى أنه الخالق العليم القادر المريد الباري المصور الحكيم . وهذه الآيات لا تفسر ، على الوجه الأكمل ، إلا إذا أطلعنا على ما في الكون من أسرار الخلق ، والنظام والأحكام ، والاتقان فعلماء الدين هم أولى الناس بالاطلاع على أسرار العلم ، ولا يصدق عليهم (الحصر) الوارد في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ . والمراد به الخشية الكاملة إلا إذا كانوا عارفين ، من العلوم الكونية ، كل ما يتعلق بأسرار الوجود والخلق ، التي دلنا عليها القرآن وذكر لنا بعضها ، لأن هذه الآية لم ترد في سياق الكلام عن أمر يتعلق بالعبادات ، أو المعاملات أو الأخلاق ، بل وردت في سياق الدلالة على قدرة الله وحكمته في إنزال المطر ، وخلق النباتات والحيوانات على اختلاف أنواعها وألوانها ، حيث يقول الله تعالت قدرته : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ، وَغَرَابِيبُ سُودَ ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ الْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ .

التلميذ : لا ريب في أن المراد بالآية هم العلماء المطلعون على أسرار الخلق ونواميسه .

الشيخ : فالفهم الكامل ، لما جاء في القرآن من البراهين الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته ، يفتقر إلى ثلاثة أمور جمع هذه الآيات كلها في صعيد واحد ، حتى تكون في متناول البصر والبصيرة عند المقارنة ، فلا يتشتت الفكر للبحث عنها في خضم القرآن . ورغبة صادقة في درس هذه الآيات على ضوء العلم والفلسفة ، لاستنباط ما فيها من البراهين وما فيها من الردود على المنكرين . وانطلاق من قيود التعصب الأعمى لأي رأى ديني أو فلسفي .

التلميذ : إنني سمعت من بعض العلماء ، أن القرآن لم يترك شيئاً من العلوم إلا وأشار إليه ؟

الشيخ : كلا يا تلميذ كلا . وهؤلاء الذين يقولون ذلك ليسوا بعلماء ولا عقلاء ولا أذكىاء ، فالقرآن ليس بدائرة معارف علمية . ولا من مقاصده إرشاد الناس ، إلى العلوم الكونية ، ومن باب التعليم . ولكن ما ورد فيه من الآيات ، التي تشير إلى حقائق كونية كشفها العلم إنما ورد بقصد التنبيه إلى ما في خلق العالم من آثار الإرادة ، والقدرة ، والعلم ، والحكمة ، والاتقان ، والاتزان ، الدالة على وجود الله ، النافية للتكوين بالمصادفة ، ولم يقصد به تقرير العلوم الكونية ، لأن القرآن خطاب للبشر بلغة البشر ، والله أحكم من أن يخاطب الناس بأمور لا يعرفون أسمائها ، فضلا عن أسرارها ، ولكنه أشار إلى دلائل وجوده وقدرته ، وإرادته ، وعلمه ، وحكمته ، ببيان عجيب يفهمه على ظاهره ، البلوى الساذج في

القرن السابع ، ويفهم أسرارها رجل العلم في القرن العشرين . وفي هذا يتجلى إعجاز القرآن ، لا في بلاغته وحدها ، كما سبق القول . فإعجاز البلاغة والفصاحة إنما يدرسه العرب ، والقرآن خطاب للناس كافة . وإلى هذا الضرب من الإعجاز أشار العليم الحكيم بقوله : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ وقد أراهم ، سبحانه ، بعد عصور وعصور ، آياته في آفاق السموات والأرض ، وفي أنفسهم ، كما وعدهم ، فتبين لهم أنه الحق ، وألقوا في ذلك المقولات ، في بلاد الغرب . ولكننا نحن المسلمين ، الذين كان لنا السبق والفضل في كشف كثير من تلك الآيات ، من طريق العلم ، قصرنا في آراء أولئك العلماء ، إن هذا القرآن قدم هذا الوعد ، وأشار إلى الكثير من دلائل وجود الله ، ووحدانيته وقدرته ، وحكمته منذ ألف وأربعمائة سنة ..

وخلاصة القول ، يا تلميذ ، أن آيات القرآن تكاد تكون مقسمة بين دعوة إلى الله . وارشاد إلى دلائل وجوده ، ووحدانيته وعلمه ، وقدرته ، وإرادته ، وغنائه ، ورحمته ، وجميع صفات كماله ، ووعد ووعد للترغيب في طاعته والتحذير من معصيته ، وتوكيد ليوم البعث والدين ، وأحكام في العبادات والمعاملات ، وحكمة عملية في الحياة ، وحض على مكارم الأخلاق ، وقصص تمت بسبب إلى هذه الأقسام الستة ولكن أهم هذه الأقسام، وأعظمها عند الله ، هو القسم الأول ، لأن الإيمان بالله هو الأصل وهو الأساس لكل ما عده . ولذلك ترى ، وأنت تتصفح القرآن ، أن الآيات الدالة على الله ، لا تكاد تخلو منها سورة من السور ، بل يتكرر ذكرها ، أحيانا ، في السورة الواحدة .

يقول التلميذ بن الأضغن : وهنا ناولني الشيخ الدفتر الذي كان يكتب فيه الآيات وقال :

الشيخ : هذا هو الدفتر الذي جمعت لك به ، على ترتيب النزول ، أكثر آيات القرآن التي أراد بها الله تعالى إقامة البراهين على وجوده ، وعلى أنه هو الخالق ، البارئ ، المصور ، العليم ، القادر ، الحكيم . وأكثر فيها سبحانه من الإشارة إلى أسرار قدرته وحكمته الدالة على القصد والنظام والأحكام والاتقان والتقدير والاتزان ، في خلق السموات والأرض ، والشمس ، والقمر ، والكواكب ، والنجوم ، والليل ، والنهار ، والرياح ، والأمطار ، والجبال ، والأنهار ، والبحار ، والنبات ، والحيوان ، والإنسان ، والأسماع ، والأبصار ، والأفئدة وما ينطوى عليه هذا الخلق من قوانين ، ونواميس . فعال يا تلميذ نقرأ هذه الآيات ونستعرضها جملة واحدة ثم ندرسها على ضوء ما كشفه العلم من أسرار الوجود والخلق .

التلميذ : لماذا اختار مولاي إيراد الآيات على ترتيب النزول ولم يوردها على ترتيب السور ؟

الشيخ : لأنى أردت لك أن تتصور نفسك من أهل العصر الذى نزل به القرآن ، لترى كيف توالى الوحى ، وتتابع الهدى ، فى خطاب الناس بهذه البراهين الدالة على الله فإن ذلك يجعل تلاوة هذه الآيات أبلغ أثراً فى نفسك وأيسر فى تفهم أسلوب الهدى الكريم ، الذى اتبعه القرآن .

يقول التلميذ : ثم دفع إلى الشيخ ذلك الدفتر وقال : اقرأ واسمعى فقرات الآيات الآتية :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى . والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى ﴾ .

﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

﴿ قتل الإنسان ما أكفره . من أى شئ خلقه . من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره ﴾ .

﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شققاً . فأنبتنا فيها حباً . وعبأ وقضياً . وزيتوناً ونخلاً . وحدائق غلباً . وفاكهة وأباً ﴾ .

﴿ والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها . والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها ﴾ .

﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ .

﴿ أيمسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ .

﴿ والمرسلات عرفاً . فالعاصفات عصفاً . والناشرات نشراً . فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكراً . عذراً أو نذراً ﴾ .

﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدردنا فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين . ألم نجعل الأرض كفاتاً . أحياء وأمواتاً . وجعلنا فيها رواسى شامخات . وأسقيناكم ماء فراتا . ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

- ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج .
والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل
عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل
باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ .

- ﴿ ألم تجعل له عينين . ولسانا وشفتين . وهديناہ النجدین ﴾ .

- ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ .

- ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على
العرش . يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له
الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ . . .

- ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالاً
سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات . كذلك نخرج الموتى لعلكم
تذكرون ﴾ .

- ﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾ .

- ﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ .

- ﴿ أشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ﴾ .

- ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها
جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم
أفلا يشكرون . سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا
يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها
ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس
ينبغي لها أن تدرک القمر ولا الليل سابق النهار . وكل فى فلك يسبحون ﴾ .

- ﴿ أولم يروا أنا خلقناهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون . وذللناها لهم
فمنها ركبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾ .

- ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا
ونسى خلقه . قال : من يحيى العظام وهى رميم . قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو
بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أوليس
الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم . بلى وهو الخلاق العليم ﴾ .

- ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ .

- ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا . وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا . وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته . وأنزلنا من السماء ماء طهورا . لنحى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيرا . ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ .

﴿ وهو الذى مرج البحرين . هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج . وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا . وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴾ .

- ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا . وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ .

- ﴿ يا أيها الناس أذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض . لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ .

- ﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ .

- ﴿ والله خلقكم من تراب م من نطفة ثم جعلكم أزواجا . وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب . إن ذلك على الله يسير . وما يستوى البحرين هذا عذب فرات سائغ شرا به . وهذا ملح أجاج . ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها . وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . يوبخ الليل فى النهار ويوبخ النهار فى الليل . وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه لا يملكون من قطمير ﴾ .

- ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها . ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها . وغرايب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾ .

- ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا ﴾ .

﴿ أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾ .

﴿ قال : فمن ربكما يا موسى . قال : ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . قال : فما بال القرون الأولى ؟ قال : علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهذا وسلك لكم فيها سبلا . وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم . إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ .

﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون . أفأرأيتم ما تمنون . أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ ﴾ .

﴿ أفأرأيتم الماء الذى تشربون . أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون . أفأرأيتم النار التى تورون . أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين . فسيح باسم ربك العظيم ﴾ .

﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسام لو تعلمون عظيم ﴾ ﴿ أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ .

﴿ أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إليه مع الله . بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً إليه مع الله . بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب . صنع الله الذى أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ﴾ .

﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ .

﴿ قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .

- ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾ .
- ﴿ ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيمًا ﴾ .
- ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ .
- ﴿ ويسألونك عن الروح . قل : الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ .
- ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق . يفصل الآيات لقوم يعلمون . إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ .
- ﴿ قل : من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أمن يملك السمع والأبصار . ومن يخرج الحى من الميت . ويخرج الميت من الحى . ومن يدبر الأمر . فسيقولون : الله . فقل : أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ .
- ﴿ قل : هل من شركائكم من يبدأوا الخلق ثم يعيده . قل : الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون ﴾ .
- ﴿ قل : هل من شركائكم من يهدى إلى الحق . قل : الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع . أمن لا يهدى إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون . وما يتبع أكثرهم إلا ظنا . إن الظن لا يغنى من الحق شيئا . إن الله عليم بما تفعلون ﴾ .
- ﴿ هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرًا . إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ .
- ﴿ قل : انظروا ماذا فى السماوات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ .
- ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور ﴾ .
- ﴿ وكأين من آية فى السماوات والأرض يمررون عليها وهم عنها معرضون ﴾ .

﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون .
وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين . وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله
إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له
بمخازنين . وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون ﴾ .

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ﴾ .

﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ .

﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين
كفروا برهيم يعدلون . هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم
تمترون ﴾ .

﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أم أمثالكم ﴾ .

﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما
جن عليه الليل رأى كوكبا . قال . هذا ربى . فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى
القمر بازغا قال : هذا ربى فلما أفل قال : لكن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين .
فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال : يا قوم إني برىء مما
تشركون . إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من
المشركين ﴾ .

﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى .
ذلكم الله فأتى توفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسباناً ذلك
تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر . قد
فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . قد
فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء
فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا . ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من
أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم
لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء
وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ .

﴿ وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا
أكليه والزيتون والرمان متشابها وغير متشابهه . كلوا من ثمره إذا أثمر وأنوا حقه يوم

حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . ومن الأنعام جمولة وفرشا . كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴿ .

﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ .

﴿ خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة . وأنزلنا من السماء ماء فأنبثنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين ﴾ .

﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة . ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ .

﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله . إن الله عزيز حكيم ﴾ .

﴿ ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى . وأن الله بما تعملون خبير . ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير . ألم تر أن الفلك تجرى في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته . إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

﴿ ويرى الذين أتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد ﴾ .

﴿ خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار . ويكور النهار على الليل . وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . ألا هو العزيز الغفار . خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج . يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث . ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون ﴾ .

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يبيح فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما إن في ذلك لذكرى لأولى الأبواب ﴾ .

﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل . له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون . قل أغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ .

- ﴿ هو الذى يرىكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من يئيب ﴾ .

- ﴿ الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا . إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون . كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون . الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات . ذلكم الله ربكم فبارك الله رب العالمين ﴾ .

- ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون . هو الذى يجيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ .

- ﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع وتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون . ويرىكم آياته فأى آيات الله تنكرون ﴾ .

- ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن . إن كنتم إياه تعبدون ﴾ .

- ﴿ سنرىم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ .

- ﴿ فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يدرؤكم فيه ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير ﴾ .

- ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة ﴾ .

- ﴿ ومن آياته الجوارى فى البحر كأعلام . إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره . إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

- ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض . ليقولن : خلقهن العزيز العليم . الذى جعل لكم الأرض مهذا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون . والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ .

- ﴿ إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين . وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ .

- ﴿ الله الذي سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره . ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

- ﴿ ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أُنذروا معرضون . قل : أرايتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ .

- ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

- ﴿ والسماء بينها بأيدٍ وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون . ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ .

- ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر ﴾ .

- ﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره : أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ﴾ .

- ﴿ قل : لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ﴾ .

- ﴿ خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم . والحيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴾ .

- ﴿ هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسميون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم

يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أأمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون . والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ﴿

﴾ - ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ .

﴾ - ﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون . وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين . ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ .

﴾ - ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون . ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون . والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم . ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالاً . وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم ﴾ .

﴾ - ﴿ وقد خلقكم أطواراً . ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجاً . والله أنبتكم من الأرض نباتاً . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً . والله جعل لكم الأرض بساطاً . لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ .

﴾ - ﴿ أفي الله شك فاطر السماوات والأرض ﴾ .

﴾ - ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها . ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ .

- ﴿ الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم . وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين . وسخر لكم الليل والنهار ﴾ .

- ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون . وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم . وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون . وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ﴾ ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لمتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون . ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين . وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون . وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين . وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون . وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ .

- ﴿ وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون . وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون . وهو الذى يحى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ﴾ .

- ﴿ الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ .

- ﴿ أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يصفرون ﴾ .

- ﴿ أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون . أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون ﴾ .

- ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سماوات طباقا ما ترى فى

خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴿ .

- ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ﴾ .
- ﴿ أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يسكنهن إلا الرحمن ﴾ .
- ﴿ قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ﴾ .
- ﴿ فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون ﴾ .
- ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ﴾ .
- ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سباعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حيا ونباتا وجنات ألفافا ﴾ .
- ﴿ أنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحaha أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها ﴾ .
- ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ .
- ﴿ أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ﴾ .
- ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون . يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله . إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحى به الأرض بعد موتها . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .
- ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .

﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين . فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها . إن ذلك لحى الموتى وهو على كل شىء قدير ﴾ .
﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أودى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ .

﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة . إن الله على كل شىء قدير ﴾ .

﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء وهو العزيز الحكيم . وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .
﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ .

﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن : الله . قل : الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ .

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ .

﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون . هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شىء عليم ﴾ .

﴿ بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ .

﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس . وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها . وبث فيها من كل دابة . وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ .

﴿ يسألونك عن الأهله . قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ .

﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم . هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا . وما يذكر إلا أولوا الأبواب ﴾ .

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ .

﴿ قل اللهم مالك الملك تولى الملك من تشاء . وتنزع الملك ممن تشاء . وتعز من تشاء . وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير . تولى الليل فى النهار . وتولى النهار فى الليل وتخرج الحمى من الميت . وتخرج الميت من الحمى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ .

﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبواب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ﴾ .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ﴾ .

﴿ يولى الليل فى النهار ويولى النهار فى الليل ﴾ .

﴿ اعلموا أن الله يحى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ .

﴿ الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا . ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . يغشى الليل والنهار . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

﴿ هو الذى يرىكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال ﴾ .

﴿ قل من رب السماوات والأرض . قل الله . قل : أفأخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . قل : هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تسترى

الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم . قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴿ .

﴿ الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان ﴾ .

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا . إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴾ .

﴿ قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾ .

﴿ ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء . يكاد سنا برفه يذهب بالأبصار . يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار . والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين . ومنهم من يمشي على أربع . يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ .

﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث إنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم . ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا . وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير ﴾ .

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ .

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ .

﴿ ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل . وأن الله سميع بصير . ذلك بأن الله هو الحق . وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير . ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة . إن الله هو الغني الحميد . ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه . إن الله بالناس لرؤوف رحيم . وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لَكفور ﴾ .

﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستقدوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز ﴾ .

﴿ خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير ﴾ .

يقول التلميذ بن الأضعف : ولما انتهيت من قراءة هذه الآيات قلت للشيخ المودون : جزاك الله عنى خيرا يا مولاي فقد ، والله قرأت الساعة آيات لا أتذكر أنها مرت على في كل ما اتبعت لي ، في عمري من التلاوات ، وأظن ذلك إلا من ترك التأمل والتدبر ، في التلاوة المعتادة للتبرك .

الشيخ : لا يكفي أن تقرأ هذه الآيات مرة أو مرتين - ولكن يجب أن تصنفها أصنافا ليجمع أمام عينيك في كل شئ من خلق الله الآيات المشيرة إليه وقد يكون بعضها شاملا لعدة أشياء ، فلا بأس من تكرار ذكرها .

الآن فانقلها إلى دفتر الأمل ، وعد إلى غدا ، لآتم لك الكلام .

(المرجع : قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن للشيخ نديم الجسر)

الفصل السابع

بيان الحق في عقيدة النبوة

وهنا نتحدث عن عقيدة المسلم الصحيحة فيما يتعلق بالأنبياء والمرسلين حتى تتضح الصورة وتتجلي العقيدة في ضوء كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

الرسول

أوجب الله على المسلم أن يؤمن بجميع رسل الله دون تفریق بينهم فقال سبحانه :

﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط . وما أوتي موسى وعيسى . وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

وبين أن هذا هو إيمان المؤمنين فقال سبحانه : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون . كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله . وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ . وأخبر أن البر في هذا الإيمان فقال : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ . وإذا آمن الإنسان ببعض الرسل ولم يؤمن ببعض الآخر وفرق بينهم في الإيمان فهو كافر . قال سبحانه : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا ﴾ .

وهؤلاء الرسل منهم من قصه الله علينا فذكرهم بأسمائهم ومنهم من لم يقصه علينا . قال سبحانه : ﴿ ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ﴾ أما الذين قصهم الله علينا فعددهم خمسة وعشرون وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل . ومن ذريته داود وسليمان وأيوب

ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجى المحسنين . وذكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ﴿ .

وقد جمعت هذه الآيات ثمانية عشر رسولا ويجب الإيمان بسبعة آخرين مذكورين في عدة آيات :

﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ .

﴿ وإلى عاد أخاهم هودا ﴾ .

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا ﴾ .

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ﴾ .

﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين . وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين ﴾ .

﴿ ما كان محمدا أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ .

وقد ورد أن عدد الأنبياء (١٢٤) .

وهؤلاء الرسل أرسلهم الله إلى الأمم في جميع العصور المتطاولة فلم تخل أمة من رسول يدعوها إلى الله ويرشدها إلى الحق . يقول الله سبحانه : ﴿ تا لله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ﴾ . ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ . ﴿ ولكل أمة رسول ﴾ . ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ .

والرسول بشر من نفس الأمة وإن كان من معدن كريم خصه الله بمواهب عقلية وروحية ليستعد لتلقى الوحي عن الله : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ . ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس . إن الله سميع بصير ﴾ . وإنما خص الله الرسول بمزايا وفضائل يقوى على الاضطلاع بأعباء الرسالة وليكون مثالا يقتدى به في أمور الدين والدنيا ولو لم يتميز رسول الله بهذه الخصائص العقلية والروحية بأن انحطت فطرهم أو ضعفت عقولهم لما كانوا أهلا لحمل هداية الله إلى الناس .

والرسول رجل يأكل الطعام ويمشى في الأسواق . يقول الله سبحانه : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ .

والرسول يتزوج ويولد له كغيره من البشر : ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ﴾ .

والرسول يتعرض لما يتعرض له غيره من الصحة والمرض والقوة والضعف واللذة والألم والحياة والموت إلا أن ما ينزل به لا يعرضه لتغيير الناس منه : ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ . ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ﴾ والرسول - أى رسول - لا يتصرف فى الكون ولا يملك النفع أو الضر ولا يؤثر فى إرادة الله ولا يعلم من الغيب إلا القدر الذى أراده الله له :

﴿ قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ .

﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴾ . ولا يكون الرسول إلا رجلا فلم يرسل الله ملكا ولا أنثى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ﴾ ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ .

الغرض من بعثة الرسل :

والغرض من بعثة الرسل هو الدعوة إلى عبادة الله وإقامة دينه : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ . ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ . ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ .

وإقامة الدين وعبادة الله تنتظم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كما تنتظم الأعمال الصالحة التى تركزى النفس الإنسانية وتطهرها وتغرس فيها الخير لتبلغ الكمال المادى والأدنى فى هذه الحياة ولتستعد لكمال أرقى وأبقى . وهذه التعاليم العالية لا يمكن للبشر أن يصلوا إليها بعقولهم وإنما يتعلمونها بوحى الله :

﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ وبهذا لا تنهض حجة من أغفل الله قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا . قال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى

وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل
ورسلاً لم نقصصهم عليك . وكلم الله موسى تكليماً رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون
للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴿ . وما كان الله ليضل قوماً
بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم ﴿ .

قال ابن كثير : يقول الله تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل : إنه لا يضل
قوماً إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة كما قال تعالى : ﴿ وأما
ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ والله سبحانه لا يعذب أحداً حتى يقيم عليهم
الحجة ويقطع عذره : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ .

عصمة الأنبياء :

الرسول اصطفاهم الله واختارهم : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم
وآل عمران على العالمين ﴾ . ونزههم عن السيئات وعصمهم من المعاصي صغیرها
وكبیرها : ﴿ وما كان لنبی أن یغل ﴾ . وحلّاهم بالأخلاق العظيمة من الصدق والأمانة
والتفاني في الحق وأداء الواجب فمنهم الصديق : ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان
صديقاً نبياً ﴾ .

ومنهم من اصطغه الله لنفسه : ﴿ وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني ﴾ .
﴿ فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسی ﴾ .
ومنهم من هو بعين الله : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ .

ومنهم من اجتياه الله وعلمه : ﴿ وكذلك يجيبك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث
ويعلم نعمته عليه وعلى آل يعقوب كما أمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك
حكيم عليم ﴾ .

وبعد أن ذكر الله جملة من الأنبياء في سورة مريم قال :

﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن
ذرية إبراهيم وإسرائيل . ومن هدينا واجتبتنا إذا تلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً
وبكياً ﴾ .

وهم وإن تفاوتوا في الفضل إلا أنهم بلغوا العناية من السمو الروحي والصلة بالله :

﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات
وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ . وهكذا نجد النصوص الكثيرة

الموارد في القرآن بشأن الأنبياء والرسل تضيء عليهم من الطهر والنزاهة والقداسة ما يجعل منهم النموذج الحى والصورة المثلى للكمال الإنسانى ومثل هؤلاء لا يمكن إلا أن يكونوا معصومين من التورط في الإثم ومنزهين عن الوقوع في المعاصى فلا يتركون واجبا ولا يفعلون محرما ولا يتصرفون إلا بالأخلاق العظيمة التى تجعل منهم القدوة الحسنة والمثل الأعلى الذى يتجه إليه الناس وهم يحاولون الوصول إلى كآلمهم المقدر لهم . والله سبحانه هو الذى تولى تأديبهم وتهذيبهم وتربيتهم وتعليمهم حتى كانوا قعما شامخة وأهلا للاضطقاء والاجتباء :

﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ .

﴿ وجعلناهم أمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ .

﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾
فهذه الآيات أدلة بيينة على مدى الكمال الإنسانى الذى أفاضه الله على أنبيائه ورسله ولو لم يكونوا كذلك لسقطت هيبتهم في القلوب ولصغر شأنهم في أعين الناس وبذلك تضيع الثقة بهم فلا يتقاد لهم أحد وتذهب الحكمة من إرسالهم ليكونوا قادة الخلق إلى الحق بل لو فعلوا شيئا مما يتنافى مع الكمال الإنسانى بأن يتركوا واجبا أو يفعلوا محرما أو يرتكبوا ما يتنافى مع الخلق الكريم لكانوا قدوة سيئة ولم يكونوا مثلا عليا ومناارات هدى .

إن رسل الله يدركون بحسبهم الذى تميزوا به على غيرهم من البشر أنهم دائما في حضرة القدس وأنهم يصيرون الله في كل شيء فيرون مظاهر جماله وجلاله ودلائل قدرته وعظمته وأثار حكمته ورحمته يرون ذلك في أنفسهم وفيمن حولهم : في الأرض وفي السماء وفي الليل والنهار وفي الحياة والموت فتمتلئ قلوبهم إجلالا لله ووقارا له فلا يبقى فيها مكان للشيطان ولا موضع لهوى ولا جنوح لشهوة ولا إرادة لشيء سوى إرادة الحق والتفانى فيه والاستشهاد من أجله . وما ورد في القرآن الكريم مما يوهم ظاهره بأنهم ارتكبوا ما يتنافى مع عصمتهم فهو ليس على ظاهره ويتجلى ذلك فيما نذكره بالنسبة لما نسب لكل نبي فيما يلى :

آدم عليه السلام :

يقول الله سبحانه : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ .

فظاهر هذه الآية أن آدم عصى ربه وغوى بمخالفة أمر الله واستجابته لدعوة الشيطان . وإن ذلك كان زلة وقع فيها : ﴿ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ ولكن إذا أمعنا النظر رأينا أن هذه المعصية إنما وقعت من آدم نسيانا منه لعهد الله ولم يصدر عنه هذا

الفعل عن إرادة وقصد والله سبحانه لا يؤاخذ على الخطأ ولا على النسيان لأن ذلك تكليف بما لا يطاق ، والله لا يكلف نفسا إلا وسعها والأصل في هذه القاعدة قول الله سبحانه ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم ﴾ .

وقوله : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ والدليل على أن ما وقع من آدم كان نسيانا وعن غير عمد قول الله سبحانه : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما ﴾ أى أن آدم نسى عهد الله الذى وصاه به حيث ارتكب ما نهاه عنه من الأكل من الشجرة ، ولم يوجد له عزم على فعل ما نهى عنه .. وحيث لم يوجد العزم على المعصية فلا توجد المؤاخذه وإنما اعتبر القرآن ذلك النسيان عسيانا نظرا لمقام آدم الذى خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه واسجد له ملائكته وأسكنه جنته وعلمه الأسماء كلها والذى شأنه هكذا يجب أن يكون يقظا كأقوى ما تكون اليقظة بحيث لا ينسى وصاية الله له وعهده إليه فهذا من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين .

نوح عليه السلام :

أما نوح عليه السلام فما وقع منه فهو أنه سأل الله عن هلاك ابنه مع من هلكوا في الطوفان مع وعد الله بنجاته ونجاة أهله فقال :

﴿ رب إن ابني من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال : يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين . قال : رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ﴾ .

فلم يكن لنوح عليه السلام علم بأن نسب ابنه إليه قد انتفى بكفره وإعراضه عن دعوة الله فسأل الله كيف هلك مع الوعد بنجاة أهله وابنه من أهله فعلمه الله أن الصلة الدينية والنسب الروحى أقوى من صلة الدم فإذا انقطعت هذه الصلة ذهبت بصلة النسب والدم فقال له معلما إياه : ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾ معللا ذلك بأن عمله عمل غير صالح وما دام ذلك كذلك فليس هناك صلة تشبيهه وبذلك ينتفى نسبه من أبيه فلا يكون من أهله الذين وعدوا بالنجاة .

وكان على نوح عليه السلام وهو الأب الثانى للبشر الذى بذل حياته لله وليث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعو الله ويجاهد فى سبيله كان عليه أن يفطن لهذا المعنى وأن يدرکه فلما لم ينتبه إليه وغلبت عليه عاطفة الأبوة اعتبر ذلك نقصاً بالنسبة لمقامه الرفيع ومنزلاته الكبرى التى حباه الله بها ومن ثم فقد لجأ إلى الله أن يغفر له هذه العثرة التى لم يقصد إليها . ولم

يكن له علم بها فقال : ﴿ رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمي أكن من الخاسرين ﴾ .

إبراهيم عليه السلام :

وجاء في دعاء إبراهيم عليه السلام قوله : ﴿ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ ونحن لا نعرف لإبراهيم خطيئة والذي نعلمه أن الله قد اتخذه خليلا واضفى عليه من صفات الكمال ما هو خليق به : ﴿ ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ .

﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه اجتنابه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ وطلبه من الله أن يغفر خطيئته ليست خطيئة بالمعنى الذى يتبادر إلى الذهن وإنما هى ما يستشعره في نفسه من قصور في تفانيه في الله وأداء رسالته نظرا لمكانته السامية ومنزلته الرفيعة .

يوسف عليه السلام :

والله يقول في يوسف عليه السلام : ﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾ وليس في هذا ما يدل أدنى دلالة على أن يوسف هم بالفاحشة لأن المقصود بالهم هنا الهم بالضرب والأذى وذلك أن امرأة العزيز راودته عن نفسه فغفلت الأبواب ودعته إلى نفسها فاستعصم وأنى وقال : ﴿ معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ﴾ .

وإزاء هذا الاستعصام والتأني والترفع من التسفل همت امرأة العزيز تضربه وإلحاق الأذى به بعد أن عجزت عن إغرائه بكل وسيلة ، فهم هو بأن يعاملها بالمثل دفاعا عن نفسه لولا أن رأى أن ذلك لا يليق بأمثاله من أصحاب النفوس الكبيرة ولا سيما أن هذا البيت أوامه وأكرمه فضلا عن أنها سيدته التى تبنته وأنها زوجة رجل عظيم في أمة عظيمة .

فلولا أن رأى ذلك كله وهو صاحب شعور نبيل وعاطفة جياشة لقابلها بالمثل ولأذاها بالضرب المبرح . ولكنه كذلك لا يرضى بالاستكانة ويقف ذليلا يتلقى الضربات من امرأة أصابها جنون الشهوة الحيوانية وهو من هو فآثر أن يفر منها تفاديا من الحرج الذى تعرض له ولكنها أبت إلا أن تتابعه لثأر لنفسها منه : ﴿ واستبقا الباب وقدرت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ فكان في ذلك خلاصه والذى يدل على هذا أبلغ دلالة :

أولا : أن الله أتاه العلم والحكمة : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين ﴾ .

ثانيا : أنه أجاب امرأة العزيز بعد المراودة بما يدل دلالة قاطعة على أن السوء لا يخطر على باله : ﴿ قال : معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ﴾ فالذى يقول هذا لا يتصور منه الهم بالفحش .

ثالثا : أن الله صرف عنه السوء والفحشاء وأخلصه لنفسه : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ ومن كان كذلك لا يمكن أن تتوجه نفسه مجرد توجه إلى سوء أو إلى فحش لا في القول ولا في العمل .

رابعا : أن كل هم في القرآن إنما يقصد به الهم بالأذى كالضرب والقتل : ﴿ وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ﴾ . ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ وهكذا لو تتبعنا جميع أسباب براءة يوسف عليه السلام من الهم بالفاحشة لوجدناها من الكثرة بحيث لا يتسع لها هذا المختصر .

موسى عليه السلام :

والله سبحانه يقول في موسى عليه السلام : ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه . قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال : رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر لى فففر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾ . فموسى عليه السلام دخل المدينة فوجد فيها مصريا وإسرائيليا من قومه وهما يتضاربان إلا أن الإسرائيلى الذى هو من شيعته وقومه ضعيف غير قادر على مقاومة المصرى فاستغاث بموسى لينقذه منه فحدث كما يحدث غالبا فى مثل هذه المواقف أن ضرب موسى المصرى بيده ضربة أصابت منه مقتلا ولم يقصد إلى قتله قط وإنما قصد أن يمنع عدوانه عن أخيه فحدث القتل الخطأ الذى لا مؤاخذه عليه إلا من حيث عدم التحرى والوعى الكامل ولا سيما لمن هم فى أعلى المستوى البشرى كموسى ونحوه من أولى العزم ولذلك رجع إلى ربه ذاكرا خطأه طالبا من الله العفو والغفران .

داود عليه السلام :

يقول الله سبحانه فى داود عليه السلام :

﴿ وهل أتاك نبال الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فأحكم بيننا بالحق ولا تشطط وأهدنا إلى سواء الصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيا وعزنى فى الخطاب . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخطأ لىبغى

بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأتاب ففقرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴿ . وهذه القصة ليس فيها ما يدل على أن داود عليه السلام قد عصى ربه بارتكاب ما ينافى العصمة . وكل ما يمكن أن يقال في هذا أنه قضى بين الخصمين بعد أن سمع من أحدهما وقبل أن يسمع من الآخر والتعجيل بالحكم قبل الاستماع إلى الطرفين يعتبر في نظر القضاء مخالفة ولا سيما إذا كان القاضي نبيا كداود عليه السلام ممن أوتوا الحكمة وفصل الخطاب . ويمكن أن يقال أيضا أنه خاف من تسور الخصمين المحراب ودخولهما عليه بغتة وهو بين يدي الله خاف أن يقتلاه كما كانت عادة بنى إسرائيل من قتلهم الأنبياء فكان هذا الخوف وهو في المحراب ومائل بين يدي الله مما لا يليق بمكانته وعظيم قدره وحسن صلته بالله مالك ناصية كل شيء .

وسواء أكان ما ينسب إلى داود عليه السلام من العجلة في الحكم أو من الخوف من القتل فقد ظن أنه محتبر بما وقع فاستغفر ربه وخر راكعا منيبا إلى الله راجعا إليه . ولا يمكن أن تتضمن القصة التي ذكرت في القرآن معنى آخر وراء ذلك مما ينتقص من قدر نبي عظيم . وما ذكر من أن المقصود بالنعمة هي المزاة وأن داود اغتصب زوجة أحد قواده بحيلة احتلالها عليه فهو من الإسرائيليات المكتوبة ومن الدخيل الذي يتنافى مع عظمة الرسالة وكال النبوة وشرف الدعوة التي انتدب الله لها خيار خلقه وصفوة عباده .

سليمان عليه السلام :

﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب . قال : رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ﴾ والابتلاء الذي تعرض له سليمان وهو المرض الشديد الذي جعل منه جسدا ملقى على الكرسي لا يستطيع معه الحركة كان سببا في ضعف نفسه وضعف مقاومته فتاب إلى الله من هذا الضعف الذي يعترى البشر عادة وكان الأجل به أن يتجمل بالصبر الجميل .

ويقال أن سليمان كان له ولد فاجر انتزع ملكه من أبيه فكان ذهاب ملك سليمان على يد ابنه الفاجر ابتلاء له ثم رد الله ملكه إليه بعد أن سلب منه فسأل الله عقب ذلك أن يغفر له ما يمكن أن يكون حدث من تقصير في شكر الله وسأله أن يهبه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده فاستجاب الله له .

محمد صلوات الله وسلامه عليه :

وجاء في القرآن الكريم : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ﴾ .
﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويم نعمته

عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا ﴿ . فظاهر الآية الأولى يوهم بأن للرسول ذنبا وأن عليه أن يستغفر الله . وظاهر الآية الثانية يفيد بأن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

والمعروف من سيرة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أنه معصوم قبل البعثة وبعدها فقد عصمه الله من عبث الطفولة وهو الشباب فلم يله كما كان يلهو غيره لأنه أعد لحمل رسالة الهدى والنور . وقد أشار إلى هذا فيما حدث به عن نفسه فقال : « ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملونه غير مرتين . كل ذلك يحول الله بيني وبينه ثم ما هممت به حتى أكرم من الله برسالته قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمي حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب ؟ فقال : افعل . فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : عرس فلان بفلانة فجلست أسمع فضرب الله على أذني فتمت فما أيقظني إلا حر الشمس فعدت إلى صاحبي فسألني فأخبرته ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابني مثل أول ليلة .. ثم ما هممت بسوء » .

وكذلك كان صلوات الله وسلامه عليه مدة حياته لا يخاطر بالسوء على قلبه وإذا كان ذلك كذلك فما معنى الذنب الذي أمر أن يستغفر منه والذي قد غفر له ما تقدم منه وما تأخر ؟ مما لا جدال فيه أن الرسول كانت تصدر عنه بعض التصرفات التي لم يوح إليه شيء بخصوصها بل كان أمرها متروكا إلى اجتهاده الخاص فكان في بعض الأحيان يؤديه اجتهاده إلى ما هو حسن متجاوزا ما هو أحسن منه فاعتبر وقوفه عند الرأي الحسن وعدم إصابته ما هو أحسن منه ذنبا بالنسبة إليه وبالإضافة إلى مكانته من العلم والعقل والفقه . وقد ذكر القرآن أمثلة لذلك :

فمنها اجتهاده في أسرى بدر وقبوله الفداء وقد عتب الله عليه عتبا أبكاه : ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴿ أى لولا أن كتاب الله وحكمه سبق بعدم مؤاخذه المجتهد على اجتهاده لعاقبكم بالعذاب العظيم على قبول الفداء وعدم الاتخان في الأرض .

ولما نزلت هذه الآية بكى رسول الله وبكى معه أبو بكر بكاء شديدا وقال : « لو نزل عذاب من السماء ما نجا غير عمر » ففى هذه الحادثة لم يكن من الرسول إلا الاجتهاد فى قضية لم يوح إليه فيها بشيء ولم يخطئ فى حكمه فيها لأن الرسول لا يقر على خطأ وإنما عدل

عما هو أحسن إلى ما هو حسن . ومنها أنه قبل أَعذار المتخلفين عن الغزو دون تمحيص هذه الأَعذار ليتبين له من هو صادق ممن هو كاذب : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾ .

ومن ذلك عتاب الله له في إخفائه أمر زواجه زينب بنت جحش بعد طلاق متبناه زيد ابن حارثة لها وكان الله قد أمره بذلك ليبطل تقليدا من تقاليد الجاهلية إذ كانت هذه التقاليد تقضى بتحريم زواج زوجة المتبنى مثل تحريم الزواج بزوجة الابن من النسب فكان الرسول يجد حرجا مثل أى إنسان عندما يتحرج من مخالفة التقاليد والخروج على العادات .

وقد رفع الله عنه الحرج بعد العتب اليسير : ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا . ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا ﴾ .

وما قيل غير ذلك فهو محض اختلاق ومما يدخل في هذا النطاق قول الله سبحانه :

﴿ عيسى وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتشغه الذكرى . أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى . وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ﴾ فهذا عتب من الله لرسوله حين طمع في إسلام بعض صناديد قريش فأقبل عليهم يدعوهم إلى الله وهم ينصتون له ويقبلون عليه .

وفي هذه الاثناء حضر عبد الله بن أم مكتوم وأخذ يقاطع الرسول ويقول له : علمنى مما علمك الله ويكرر ذلك فكان الرسول يضيق بهذه المقاطعة ويعبس من الضيق مع أن الرجل أعمى لا يبصر هذا العبوس ومع ذلك عاتبه الله فيه فكان كلما لقيه بعد يقول له : « أهلا بمن عاتبني فيه ربي » .

ومن هذا ما روى أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قرأ قول الله سبحانه : ﴿ أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ « تلك الغرانيق العلا وأن شفاعتهن لترتجى » فهذا كذب محض وافتراء أحقر من أن يناقش وليس فيه صلة بين هذه الأكذوبة وقول الله سبحانه : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ﴾ فإن الآية تقرر أن ما من نبى ولا رسول تمنى هداية قومه واستجابتهم دعوته إلا جاء الشيطان واضعا أمامه العقبات وميعسا له من الوصول إلى الهدف الذى يستهدفه إلا أن الله سبحانه يجعل بإزالة

ما يلقي الشيطان من وسوسة ويأس ويحى في نفسه الأمل والرجاء .

هذا هو ما نسب إلى رسل الله وأنبيائه وهو لم يخرج عن كونه هنات هنيات لا تصل إلى درجة المعصية ولا تتنافى مع العصمة ولا تنقص من أقدارهم السامية أو تنال من مكانتهم الرفيعة ويأى اليهود والنصارى إلا أن يخرجوا كثيرا من الأنبياء والرسل وينسبوا إليهم ما نزههم الله عنه وصانهم منه بل إن كتبهم ترمى بعض الأنبياء بكبائر الإثم والفواحش .

والنصارى تغالوا في هذا وبالغوا فيه ليجعلوا العصمة للمسيح وحده وهم يقصلون بهذا إقامة الأدلة على أن عيسى إله منزه عن الخطايا من جهة وأنه جاء ليخلص الإنسان من خطيئة أبيه آدم والتي ورثها عنه أبناؤه ويفدى البشر بنفسه من جهة أخرى . وعقيدة الفداء هذه هي أساس ديانة النصارى ولكن كتبهم مع اعتقادنا بتحريفها تكفى في الرد عليهم .

ففيها نصوصا قاطعة أن يوحنا أفضل من المسيح وأعظم منه وأنه هو الذى تولى تعميده وأنه معصوم من كل خطيئة وأنه لم يشرب خمرا قط بينما نسب إلى المسيح أنه شرب خمرا كما نسب إليه عدم استجابته لدعوة أمه حينما دعى إليها .

ففى إنجيل لوقا (١ - ٦٥) أنه يكون عظيما أمام الرب وخمرا ومسكرا لا يشرب ومن بطن أمه يمتلك بروح القدس . وفيه (٦٦) : كانت يد الرب معه . وقال المسيح فيه (متى ١١ : ١١) : الحق أقول لكم إنه لم يضم بين المولدين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان . وقال فيه (١٨) : جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب فيقولون : فيه شيطان وجاء ابن الإنسان يأكل ويشرب فيقولون هو ذا إنسان أكل وشرب فمحب للعشارين والخطاة . أما عيسى عليه السلام فقد شهدت الأناجيل بأنه أهان أمه وهى التى فضلها الله على نساء العالمين .

فقد جاء فى إنجيل لوقا (٨ : ٢) : فأخبروه قائلين : أمك وأخوتك واقفون خارجا يريدون أن يروك فأجاب وقال : أمى وأخوتى هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها .

أولو العزم من الرسل :

يقول الله سبحانه : ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾

قيل : إن أولى العزم هم كل الرسل وتكون من لبيان الجنس والمشهور من الأقوال أنهم : محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم صلوات الله وسلامه وقد نص الله على أسمائهم من بين الرسل فى آيتين الأولى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾ .

الثانية : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ .

أفضل الرسل :

أفضل الرسل على الإطلاق هو سيدنا محمد خاتم النبيين : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم اليينات وأيدناه بروح القدس ﴾ .

والذى رفعه الله درجات هو سيدنا محمد وأدل دليل على ذلك ما جاء فى سورة آل عمران من تبشير الأنبياء به وأخذ العهد والميثاق عليهم بالإيمان به ونصرته أن هم أدركوا بعته : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا : أقررنا . قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ .

وروى عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : « والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعن » . وأما منعه صلوات الله وسلامه عليه من التفضيل بين أنبياء الله وقوله : « لا تفضلوا بين أنبياء الله » فالقصد منه منع الغلو فى تعظيمهم من جهة وكف المسلمين عن تنقيص أحد من إخوانه الأنبياء من جهة أخرى .

ختم النبوة والرسالة :

الأنبياء جميعا صلوات الله وسلامه عليهم كانت مهمتهم أن ينقذوا الناس ويخرجوهم من الظلمات إلى النور فكانوا دائما دعاة الخير وأئمة الإصلاح وحملة المشاعل فى الدنيا المظلمة وكان كل واحد منهم يأتى عقب الآخر ليتم ما بناه من قبله فيزيد فى الإصلاح لبنة حتى استكمل البناء بخاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه فكان دينه خلاصة الأديان السابقة وكانت دعوته هى الدعوة الجديرة بالبقاء ففىها عناصر الحياة ودعائم الإصلاح :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾
وبإكمال دين الله الحق تمت نعمة الله على الناس بما أنزله إليهم من هداية فلا حاجة إلى هداية بعدها ولهذا انقطعت النبوة وختمت الرسالة : ﴿ ما كان محمداً أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ .

وإذا كانت النبوة قد انقطعت فقد انقطعت بالتالى الرسالة فلا نبوة ولا رسالة بعد نبوة محمد خاتم رسل الله . وفى ذلك يقول صلوات الله وسلامه عليه : « مثل ومثل الأنبياء كمثل

رجل بنى دارا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فكان من دخلها فنظر إليها قال :
ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة فأنا موضع اللبنة أحمى إلى الأنبياء عليهم الصلاة
والسلام .

الأعمال الكبرى التي تمثل نجاح سيدنا محمد ﷺ :

إن لرسولنا صلوات الله وسلامه عليه أعمالا كبرى يتمثل فيها نجاحه في دعوته وهذه
الأعمال يمكن تلخيصها فيما يلي :

العمل الأول : أنه قضى على الوثنية وأحل محلها الإيمان بالله واليوم الآخر .

العمل الثاني : أنه قضى على رذائل الجاهلية ونقائصها وأقام مقامها الفضائل والمكارم
والآداب .

العمل الثالث : أنه أقام الدين الحق الذي يصل بالإنسان إلى أقصى ما قدر له من
كمال .

العمل الرابع : أنه أحدث ثورة كبرى غيرت الأوضاع والعقول والقلوب ونظام
الحياة التي درج عليه أهل الجاهلية .

العمل الخامس : أنه ﷺ وحد الأمة العربية وأقام دولة كبرى تحت راية القرآن .

هذه هي الأعمال التي تمثل نجاح الرسول ﷺ في مهمته وهي كما تبدو كلها أمور
كبيرة وإقامتها بل إقامة واحد منها من الخطورة بمكان . وإنه لا يمكن أن يتأتى النجاح لفرد في
بعض هذه الأعمال فضلا عن توفر النجاح في كل ناحية من هذه النواحي .

إن القيام بهذه الأعمال والنجاح فيها على هذا النحو هو المعجزة الكبرى لحضرة رسول
الله صلوات الله وسلامه عليه . فإذا كان عيسى له معجزة إحياء الموتى ، وموسى له معجزة
العصا ، فإن هاتين المعجزتين في جانب هذه الانتصارات وإلى جانب هذه المعجزات لا
تساوى شيئا .

دلائل صدقه :

ومن دلائل الصدق على أن الرسول إنما هو مرسل من عند الله ما يأتي :

أولا : أنه كان زاهدا في الدنيا فلم يطلب على عمله أجرا فقد كان زاهدا في المال وفي
كل ما هو مادي كما كان زاهدا في الجاه والمنصب .

أما زهده في المال فإن طبيعة حياته تدل على ذلك أبلغ دلالة فهو لم يفرش الحرير ولم يلبس الديباج ولم يتزين بالذهب . كان بيته كأبسط بيوت الناس وكان يمر عليه الشهران ولا يوقد في بيته نار .

قال عروة - وهو يسمع خالته عائشة تتحدث بهذا إليه - : يا خالتي ما كان يعيشكم ؟ قالت : إنما هما الأسودان : التمر والماء .. وذات مرة رأى عمر بن الخطاب الرسول نائماً على حصير بالية وقد أثر في جسمه فبكى فقال له الرسول : « ما يبكيك ؟ » فقال : ما بال كسرى وقيصر ينامان على الديباج والحرير وأنت رسول الله يؤثر في جنبك الحصير ؟ فقال ﷺ : « يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ » . ولقد جاءت الغنائم إلى الرسول بعد انتصار المسلمين فرأى نساؤه أن يستمتعن بشيء من هذه الغنائم وطلبن منه أن يكون لمن نصيب فيها فإذا بالآية الكريمة ترد على سؤال هؤلاء النسوة : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فصالحين أصحكن وأسرحكن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكم أجرا عظيماً ﴾ . فجمع الرسول نساءه وقال لمن : « هل تردن الله ورسوله والدار الآخرة أم تردن الدنيا وشهواتها ؟ » فاختارت كل واحدة منهن الله ورسوله والدار الآخرة فمدحهن الله وأنزل في حقهن : ﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا ﴾ .

ولقد توفي رسول الله ودرعه مرهونة عند يهودى وقد عاش طول حياته وما شبع من خبز الشعير قط .

أما زهده في الجاه فهو يتمثل في كل حال من أحواله .

أراد الصحابة أن يمدحوه ويشنوا عليه فقال لهم ﷺ : « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم » وجاءه الوليد بن المغيرة مندوبا من المشركين ليفاوضه وعرض عليه من كل منع الحياة فكان جوابه أن قرأ عليه افتتاحية سورة : (حم . فصلت) .

هذا هو الزهد الذي كان طبيعة من طبائع الرسول ﷺ .

ومن دلائل نبوته عليه السلام أنه كان أميا وأقام هذه الأعمال الكبار وهو أمي لم يقرأ ولم يكتب ولم يدخل معهدا ولم يتلمذ على أستاذ ولكنه نجح وبلغ هذه المرتبة التي لم يبلغها أحد قبله ولا أحد بعده .

والقرآن يسجل هذه الحقيقة ليجعلها اشارة صدقه ودليل أمانته يقول الله سبحانه : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن

جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴿ وما كان الرسول يعلم شيئا من النبوة ولا ما يتصل بالذات العلية فجريان هذه الأعمال على يديه إنما هو دليل الإعجاز لأن المتعلمين الذين ينقطعون للعلم والبحث ليعجزون أن يصنعوا شيئا مما فعله الرسول ﷺ .

ولا ريب أن هذا تأييد وتوفيق من الله تبارك وتعالى والقرآن يقول :

﴿ وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبطلون ﴾ .

ولقد كان ذلك معروفا لدى خصومه وكان يواجههم به ولم يستطع أحد منهم أن يشكك فى هذه الحقيقة السافرة فيقول الله تعالى :

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن اتبع إلا ما يوحى إلى إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون ﴾ .

أما الناحية الثالثة فهى الصدق .

فلم يعلم عن الرسول ﷺ أنه كذب قط قبل البعثة ولا بعدها ولقد جاءه الوحي فذهب إلى خديجة وقال لها : لقد خشيت على نفسى . فقالت له : كلا والله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصدق الحديث وتصل الرحم وتحمل الكل وتقرى الضيف وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الدهر .

ولقد عرض الرسول ﷺ لأول عهده بالنبوة الإسلام على أنى بكر رضى الله عنه فصدقه لأول وهلة وما توقف عن المسارعة إلى الإيمان به لأنه كان يعلم صدقه وأمانته . ودخل أعرابى عليه فنظر إليه فوجد الصدق يحوطه فقال : والله ما هذا الوجه بوجه كذاب .

التبشير بظهور خاتم الرسل :

لم تخل الكتب الإلهية المتقدمة من التبشير بظهور محمد ﷺ ونبوته . ففى سفر تثنية الاشرع (التوراة) بشارة تقول : (أتى الرب من طور سيناء وارتفع من حبر إلهم وشع من فاران وتقدم إلى الآمام ومعه عشرة آلاف من الأبرار ومن يمينه خرج كتاب التقوى) فالآيتان من طور سيناء يشيران إلى ظهور الرب لموسى الكليم ، والارتفاع من حبر يشير إلى استيلاء داود على حبر ، وأما فاران فهو اسم أرض الحجاز القديم حيث ظهر محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من سلالة إسماعيل عليه السلام .

وأما التقديم إلى الأمام ومعه عشرة آلاف من الأبرار فهو إشارة إلى النبي محمد ﷺ فقد دخل مكة يصحبه عشرة آلاف من أنصاره يوم فتح مكة . ومن يمينه خرج كتاب التقوى يشير إلى الشريعة التي خرج بها محمد ﷺ على العالم والتي لا زال نورها يضيء كل ما له شأن بالدين والدنيا من حياة عامة وخلق اجتماعي .

وفي إنجيل يوحنا : الاصحاح الرابع عشر ١٣ ، ١٥٥ : (إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الآب أن يعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم) . [الآب : روح الحق] .

وهذا مثل ما جاء في القرآن الكريم : من أن رسول الله ﷺ خاتم النبيين .

وفي إنجيل يوحنا : اصحاح ١٤ - ٢٦ : (أما المعزى : الروح القدس الذي سيرسله الأب بأسمى فهو يعلمكم كل شيء) . وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ .

وفي يوحنا أيضاً : اصحاح ١٦ - ١٢ :

(إن لي أموراً كثيرة أيضاً لا أقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحملوها الآن ولكن متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من عنده بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بما يأتي) . وهذا يتفق مع قول الله سبحانه : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ .

محمد ﷺ ، دعوة إبراهيم وبشرى عيسى :

ولقد سجل القرآن الكريم أن محمداً رسول الله صلوات الله وسلامه عليه كان استجابة لدعوة إبراهيم ، كما كان بشرى بشرى بها عيسى عليه السلام .

ففي سورة البقرة يحكي القرآن الكريم أن إبراهيم وإسماعيل كانا يدعوان الله وهما يرفعان القواعد من البيت فيقولان :

﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

وفي سورة الصف يقول الله سبحانه :

﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ .

وروى الإمام أحمد بإسناد حسن عن أبي أمامة قال : قلت : يا نبي الله : ما كان أول بدء أمرك ؟ قال : « دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى » .

قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه أن هذه الآية التى فى القرآن : ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾ قال فى التوراة : (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا وحرزا للأمين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله فيفتح به أعينا عمياء وآذانا صماء وقلوبا غلفا) .

آيات الرسل

لم يرسل الله رسولا ليبلغ الناس الدين ، ويعلمهم الشريعة ، إلا وأيده بالآيات التى تقطع بأنه مرسل من عنده ، وأنه موصول بالملأ الأعلى يتلقى عنه ، ويأخذ تعاليمه منه .

وهذه الآيات التى يؤيد الله بها رسله لا بد وأن تكون فوق مقدور البشر وخارج نطاق طاقاتهم وعلومهم ومعارفهم ، كما يجب أن تكون مخالفة للسنن الخاصة بالمادة ، وخارقة للعادات المعروفة والقوانين الطبيعية المألوفة .

ولذلك سمي العلماء هذه الآيات بالمعجزات ، لأنها تعجز العقل عن تفسيرها كما تعجز القدر الإنسانية عن الاتيان بمثلها . وعرفوا المعجزة بأنها الأمر الخارق للعادة ، الذى يجريه الله على يدي نبي مرسل ، ليقيم به الدليل القاطع على صدق نبوته .

ومن ثم كانت المعجزة ضرورية ، وإظهارها واجبا ليم بها المقصود من تبليغ الرسالة ، وتقام بها حجة الله على الناس .

وهذه الآيات ممكنة فى ذاتها ، والعقل لا يمنعها ، والعلم لا ينفيها ، والواقع يؤيدها .

فقد قام رجال وادعوا أنهم رسل الله ، وتحلوا أممهم بما أظهروه من هذه الخوارق ، ورآها بنواميس أخرى أرق منها ، كما أثبت العلم أيضا أن معجزات الأنبياء كلها صحيحة .

والناظر فيما كتبه العلماء المحدثون عن عالم الأرواح ، وعجائب استحضارها وغرائب التنويم المغناطيسى ، وما إلى ذلك يدرك لا محالة أن هذه الخوارق أمور ممكنة ، وليس شئ منها بمنحال أصلا .

المؤمنون بالله لا يتوقفون في تصديق شيء ، متى ثبت بالدليل القاطع الذى لا يتطرق إليه الشك ، لأنهم يعلمون أنه سبحانه ، لا يتقيد بالسنن التى وضعها فهم يعلمون بأن الذى قدر على جعل النار محرقة قادر على سلبها خاصة الاحراق كما فعل مع إبراهيم حين ألقى في النار فلم يحترق : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا : يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ .

وهم يعلمون أن الذى قدر على خلق الإنسان من ذكر وأنثى وخلق آدم من تراب ، قادر على أن يخلق من السيدة مريم العذراء بدون لقاح طبيعى أو صناعى : ﴿ قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغيا . قال : كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا ﴾ .

﴿ والننى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ .
وهم يؤمنون بأن الذى أعطى المرأة الولود القدرة على الاخصاب قادر على أن يعطى العقيم هذه القدرة ، كما فعل ذلك لأم يحيى بن زكريا عليهما السلام :

﴿ هنالك دعا زكريا ربه . قال : رب هب لى من لادنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ، فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى الخراب أن الله يشرك يحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين . قال : رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامراتى عاقر . قال : كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ .

وهكذا يرى المؤمنون بالله أن الله خالق الكون ، ومدبر أمره ، وواضع سننه لا يتقيد بهذه السنن الظاهرة ، وأن وراء هذه السنن سننا أخرى فوق ما نعرف ، وأن الكون ليس كما يزعم السطحيون من الماديين ، ميكانيكيا يسير حسب ما يتصورون ، وأنه ليس له مدبر يدبر أمره ، وينظر شئونه . لا ، إن الكون أكبر مما يتصوره هؤلاء وأعظم ، وما عرفوا منه إلا الأسماء التى يسترون بها جهلهم وينفسون بها عن غرورهم .

إن الأمر كما قال القرآن الكريم : ﴿ وما أوتيم من العلم إلا قليلا ﴾ .

جاء فى كتاب (الإسلام مع الحياة) بعنوان : العلم الحديث وزد الشمس :

جاء فى قصص الأنبياء : أن يوشع بن نون كان فى معركة مع أعداء الله وكادت الشمس تغرب قبل أن ينتهى القتال فخشى أن يعجزوه إذا امتد القتال إلى اليوم التالى فقال للشمس : أنت فى طاعة الله ، وأنا فى طاعة الله ، فأسألك أن تقفى حتى ينتقم الله من أعدائه قبل الغروب ، فاستجاب الله الدعاء ، ووقفت الشمس وزيد فى النهار حتى تم النصر ليوشع .

وقال الله تعالى :

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ ، فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ ﴾ .

قال المفسرون : إن موسى عليه السلام ومن معه هربوا من فرعون خوف القتل ولما انتهوا إلى البحر ، ولم يجدوا سبيلا إلى ركوبه أوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه . وحينما امتثل ما أمر الله به تجمع الماء على الطرفين بعضه فوق بعض ، حتى صار كالجبل ، وخرج موسى وأنصاره ، وتبعهم فرعون وقومه في نفس الطريق ، فأغرقهم الله ، وكان البحر يبسا في طريق موسى ، وماء في طريق فرعون ، وكذب الكافرون كلا من المعجزتين أو الحادثتين .

أولا : لأنها خرق لقوانين الطبيعة .

ثانيا : لو صحت لجاء ذكرها في غير الكتب الدينية ، لأنها من الأحداث العالمية العجيبة .

وقرأت في جريدة الجمهورية عدد ١٩٥٧/١٢/١٣ أن كتابا في علوم الطبيعة ظهر حديثا ، وقد أثار ضجة كبرى في الأوساط العلمية ، ولدى المؤرخين ، حيث أثبت بالأرقام المحسوسة واقعة انشقاق البحر ، ووقوف الشمس في كبد السماء . أما المؤلف فهو عالم روسي من علماء الطبيعة اسمه ايمانويل فليكوفسكى درس العلوم الطبيعية في جامعة ادنبرج ، ودرس التاريخ والقانون والطب في جامعة موسكو ، ودرس علم الأحياء في برلين وفي زيورخ ، ودرس الطب النفسى في فيينا ، ولقد خرج المؤلف من أبحاثه التى استمرت أكثر من عشر سنوات إلى استنتاجات علمية تؤيد بدون قصد ما جاء في القرآن الكريم وسيرة الأنبياء عليهم السلام . وقد رأيت أن أنقل للقراء مقتطفات من الكتاب كما ترجمتها ، ونشرتها جريدة الجمهورية .

قالت الجريدة : يقول المؤلف : إن نيزكا هائلا مر إلى جوار الكرة الأرضية في عهد يوشع خليفة موسى عليهما السلام ثم عادت الظاهرة إلى الوجود بعد ذلك بسبعمائة عام .. وهذه الظاهرة الكونية الهائلة التى تسببها قوى خارقة غير مريية تفسر المعجزات التى جاء ذكرها في الكتب السماوية والتوراة والإنجيل والقرآن .

إن اقتراب كوكب أو نيزك كبير من الأرض يحدث ظواهر متعددة ، منها أن دوران الأرض حول نفسها يقل أو يقف حتى يخيل إلى الناس أن الشمس قد وقفت في كبد السماء ، ومنها انشقاق البحر وانعقاد أعمدة من الغمام في النهار والليل ، ولقد مر كوكب في عهد الفراعنة فأمطر الأرض سيلا أحمر طبع الأرض والنيل والبحر بلون الدم . وهذا يؤيد ما جاء في الآية الكريمة : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ﴾ وقد تساقط هذا التراب الأحمر في جهات متفرقة من الأرض .

إن المعجزة التي تخرق كل قوانين الفلك والطبيعة لا تصنعها سوى قدرة الخالق وحده .

لقد تمت المعجزة حين هرب موسى من اضطهاد فرعون مصر فتابعه فرعون بجيوشه ولكن انشق البحر ، فمر موسى ومن معه بسلام حتى إذا أتبعهم فرعون وجنوده عاد البحر إلى سيرته الأولى ، فانطبق على المطاردين ، وابتلع الرجال والفرسان ولم ينج منهم أحد .

ويقول المؤلف : إنه في العهد الذي يقابل عهد موسى ، يقول المؤرخون الصينيون : إن الشمس آنذاك لم تغرب حتى لقد حرقت الغابات ، وذاب الجليد . وهكذا لبثت الأرض ساكنة كأن قوة جبارة قد أمسكتها ، ولا يعرف على وجه التحديد كم استمر وقوفها قبل أن تتابع دورانها حول نفسها مرة أخرى .

ولكن هل تابعت الأرض دورانها في نفس الاتجاه ؟

إن الأرض الآن تدور من الغرب إلى الشرق ، فهل كانت هكذا دائما ؟ إذا رجعتنا في الاجابة على هذا السؤال إلى الخرائط القديمة فإن الاجابة هي لا لأن الخرائط التي رسمها قدماء المصريين في سقف أحد المعابد تدل على أن الأرض كانت تدور قبل وقوفها من الشرق إلى الغرب ، وهذا ما أكدته أفلاطون في حوارهِ عن السياسة حيث قال :

(إن الشمس من قبل كانت تغيب حيث نراها تشرق) ، وهذا يفسر الآية الكريمة : ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ .

الفرق بين آيات الرسل وغيرها من الخوارق : ولا تلتبس معجزات الرسل وآيات الأنبياء بما يحدث على يد غيرها من خوارق العادات ، فإن المعجزات تأتي مصحوبة بالتحدي ، وتصدر عن رجال عرفوا بالقوى والصلاح ، وأنهم بلغوا منها الذروة التي لا يتناول إليها أى إنسان وتأتى المعجزات بدون كسب لأحد من البشر ، فالله هو الذى يمد لهم بها آية من الله وحده ، ومعجزة لنبيه يتحدى بها معارضيه .

وأما ما يظهر على يد غير الرسل من خوارق العادات فهو كما قال الشيخ رشيد رضا :
منقول عن جميع الأمم في جميع العصور نقلا متواترا في جنسه دون أنواعه وليست كلها
حقيقية فإن منها ما له أسباب مجهولة للجمهور ، وإن منها لما هو صناعى يستفاد بتعليم
خاص ، وإن منها لمن خصائص قوى النفس في توجيهها إلى مطالها ، وفي تأثير أقوى الارادة
في ضعفائها .

ويدخل في هذين الأمرين المكاشفة في بعض الأمور ، والتنويم المغناطيسى وشفاء بعض
المرضى ، ولا سيما المصابين بالأمراض العصبية التى يؤثر فيها الاعتقاد والوهم ، ثم يقول :
ومنها انخداع البصر بالتخيل الذى يحترفه المشعوذون ومنه ما فعله سحرة فرعون المعنى بقوله
تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيْمٌ يَخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ ومنه انخداع السمع
كالذى يفعله الذين يدعون استخراج الجن إذ يتكلمون ليلا بأصوات غريبة عن أصواتهم
المعتادة فيظن مصدقهم ، أن ذلك صوت الجن ، وقد يتكلمون نهارا من بطونهم من غير أن
يحركوا شفاههم فلا ينبغي أن يوثق بشيء من أخبارهم ... الخ .

فأين هذا من معجزات الأنبياء وآيات الرسل . أين هذا من انشقاق البحر لموسى ،
وإحياء الموتى ليعسى ، وإخراج الناقة من الصخرة لصالح ، ونبع الماء من أصابع محمد صلوات
الله وسلامه عليه .

الفرق بين المعجزة والكرامة

والكرامة هى ما يكرم الله به أوليائه بما يظهره على أيديهم وليس من شرطها أن تكون
خارقة للعادة ، ولا خارجة عن مألوف الناس .

ومن الكرامة : الاستقامة ، والتوفيق إلى طاعة الله ، والزيادة فى العلم والعمل ، وهداية
الخلق إلى الحق .

وقد يحدث بعض الخوارق للعادات على أيدي بعض الصالحين فى بعض الأحوال
والمفرغين لعبادته ، والذين سلمت فطرهم وزكّت نفوسهم ، كما وقع للسيدة مريم ،
وقد حكى القرآن الكريم عنها أنه :

﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا . قال : يا مريم أنى لك هذا ؟
قالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

ولكن مع ذلك لا يتحدث بها ، بل الأصل فيها الاخفاء والكتمان .

قال الشيخ أحمد الرفاعي : إن الأولياء يستترون من الكرامة كما تستتر المرأة من دم الحيض . وهذا يخالف المعجزة لأن إظهارها واجب ليم بها تبليغ الرسالة .

معجزة خاتم الأنبياء ﷺ :

ما بعث الله رسولا إلا وقد أيده الله بالآيات الكونية والمعجزات المخالفة للسنن المعروفة للناس ، والخارجة عن مقدور البشر ، ليكون إظهارها على يديه مع بشرته دليلا على أنه مرسل من عند الله .

فعدم حرق النار لإبراهيم ، وناقاة صالح ، وعصا موسى ، وما ظهر على يدي عيسى من العجائب كلها من هذا القبيل . وكانت الآيات حسية يوم أن كان العقل الإنساني في الطور الذي لم يبلغ فيه الرشد بعد ، ويوم أن كانت هذه العجائب تبلغ من نفسية الجماهير مبلغا لا تملك معه إلا الأذعان والتسليم .

فلما بدأ النوع الإنساني يدخل في سن الرشد ، وبدأت الحياة العقلية تأخذ طريقها إلى الظهور والنماء ، لم تعد تلك العجائب هي الأدلة الوحيدة على صدق الرسالة .

ولم يعد من السهل على العقل أن يذعن لمجرد شيء رآه خارجا عن عرف الحياة أنه يريد شيئا جديدا ليتناسب والطور الذي وصل إليه . يريد الإيمان الذي لا تخالفه الشكوك واليقين الذي يبدد ظلام الشبهات .

وما كان الله يمد النوع الإنساني في طفولته بما يحفظ به حياته الروحية ، ثم يدعه بعد أن أخذ سبيله إلى النظر العقلي والاستقلال الفكري دون أن يقيم له من الأدلة ما يتناسب والارتقاء الذي انتهى إليه ، فكان أن بعث محمدا ﷺ ، وأيده بالمعجزة العلمية والحجة العقلية وهو القرآن الكريم :

﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ .

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

وهذا القرآن ليس من تأليف أحد ، إنما هو وحى الله أنزله على أكمل صورة من صور الوحي :

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب . أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه عليم حكيم ﴾ .

فآية تقرر أنواع الوحي الثلاثة :

(أ) وحيا : أى إلقاء المعنى فى القلب المعبر عنه بالنفث فى الروح . وفى الحديث : « إن روح القدس نفث فى روعى أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » .

(ب) الكلام من وراء حجاب : وهو أن يسمع الموحى إليه كلام الله من حيث لا يراه كما سمع موسى عليه الصلاة والسلام النداء من وراء الشجرة :

﴿ قال لأهله : امكثوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أتاها نودى من شاطئ الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴾ .

(ج) ما يلقى ملك الوحي المرسل من الله إلى رسوله فبإذنه يتمثل بصورة رجل أو غير متمثل .

روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : « أحيانا يأتينى وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا ، فيكلمنى فأعنى ما يقول » .

قالت عائشة رضى الله عنها : (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا) .

وأكمل هذه الأنواع هو إرسال الرسول بالوحي . وهذه الصورة هى التى نزل بها القرآن الكريم ، فقد نزل بواسطة جبريل عليه السلام :

﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ﴾ .

﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ .

جاء هذا الوحي ثورة على الباطل فى كل صورته ، على الفساد فى جميع مظاهره فثار على الخرافات التى لوثت العقول ، وعلى الانحراف الذى شوه الفطرة ، كما أثار على العرف الفاسد الذى عطل حرية الفكر واستقلال الإرادة .

ثار على هذا كله ثورة عاتية دمرت كل معالم النشر ، ومحت كل لون من ألوان الفساد واستبدل بها الحقائق التي تهدى العقل ، وتبر الضمير وتسمو بالنفس ، لتصل إلى أقصى ما قدر لها من الكمال الإنساني .

واستهدف تهذيب الفرد ، وتعاون الجماعة ، وإيجاد حكم أساسه الشورى وغايته حراسة دين الله ، وسياسة دنيا الناس ، والدعوة إلى هداية هذا الدين لتعم الأخوة الإنسانية ، مما يعجل بسلام عام يعيش الناس في ظله آمنين .

ولم تكن هذه الثورة تستهدف مصلحة ذاتية ولا منفعة وطنية ، ولا ترجيح كفة جماعة حاكمة على كفة جماعة أخرى ، ولا إثارة مذهب على مذهب ، وإنما كانت لخير العالم كله ومصلحة الناس جميعا .

جاء هذا الوحي ليحل المشكلات التي اعضلت الناس قديما وحديثا .

وليوجب على كل سؤال من هذه الأسئلة :

- ١ - ما هو الدين ومبادئه ؟
- ٢ - من هو الله ؟ وما صفاته ؟
- ٣ - ما هي الرسالة ؟ ومن هم الرسل ؟ وما وظائفهم ؟
- ٤ - ماهية الحياة بعد الموت ؟
- ٥ - ما هو الخير ؟ وما هو الشر ؟ وكيفية الجزاء عليهما ؟
- ٦ - لماذا خلق الإنسان ، وما مركزه في الكون ؟
- ٧ - ما علاقة الإنسان بغيره ؟ وما علاقة الأمم والشعوب ببعضها بعض ؟
- ٨ - ما علاقة الرجل بالمرأة ؟
- ٩ - ما هي الثروة ؟ وما مصدرها ؟ وما هي كيفية توزيعها ؟
- ١٠ - ما هي الحياة الطيبة ؟ وما السبيل إليها ؟

وهكذا يمضي القرآن يضع أمام العقل الإنساني مئات المسائل التي لا يستغنى عنها في دور العلم والفلسفة ، والتي تعجز جميع العقول الإنسانية عن الاحاطة بعشر معشارها فضلا عن الاحاطة بها كلها ، والتي يحتاج إليها في قطع مرحلة هذه الحياة لتكون أعلاما هادية ، تجنبه الضلال في شئون الدين والانحراف في تقلبات الدنيا :

﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله ﴾ .

كل هذه المسائل جاءت فى أسلوب بلاغى رائع يملك على المرء حسه ويستولى على مشاعره ، ويوقظ حواس الخير فيه ، مع بعده عن الاختلاف ، وسلامته عن التناقض :
﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ .

إنه لم يعرف لكتاب من الكتب مثل ما لهذا القرآن ، من سحر الموضوع ، وسحر البيان ، وقوة التأثير مما وجه عناية العلماء إلى الاهتمام بدراسته من حيث ألفاظه ، ومعانيه ، وعقائده ، وآدابه ، وأحكامه ، وتشريعاته . فخلقوا بهذه الدراسة ثروة ضخمة من العلم والأدب ، لا تزال ولن تزال المادة الصالحة لقيام حضارة إنسانية ينعم فيها البشر بحياة أفضل وعيش أرغد :

﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ هذه هى المعجزة التى أيد الله بها نبيه الأسمى ، والتى عبر بها نفوسا وأحيا قلوبا وأنار بصائر ، ورعى أمة ، وكون دولة فى سنى تعدى على الأصابع .

إذا كان قلب العصا حية معجزة فإن تغيير العقول والقلوب أبلغ فى الإعجاز .

وإذا كان إحياء الميت من الخوارق التى أيد الله بها بعض أنبيائه فإن إحياء أمة أمية من الجهل والرذيلة ، وجعلها مصدر إشعاع وهداية ، هو الخارق الذى تتضاءل فى جوانبه جميع المعجزات :

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قولا
لا تذكر الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفأ القنديلا

الفصل الثامن الرد التفصيلي

وهنا نرد على ما جاء في تلك الرواية من (أولاد حارتنا) ردا تفصيليا مع إحاطة القارئ علما بأن ردنا سيكون خاصا بما يخالف العقيدة الإسلامية .

قال الكاتب : (هذه حكاية حارتنا أو حكايات حارتنا لم أشهد أنا من واقعها إلا طوره الأخير ولكني سجلتها جميعا كما يرويها الرواة وما أكثرهم وكما نقلتها الأجيال وهذه حكايات تروى في ألف مناسبة ومناسبة فكلما ضاق بأحد حاله أو ناء بظلم سوء معاملة أشار إلى البيت الكبير على رأس الحارة من ناحيتها المتصلة بالصحراء وقال في حسرة : هذا بيت جدنا جميعنا من صلبه ونحن مستحقو أوقافه فلماذا نجوع وكيف نضام ؟

ثم تقص هذه الحكايات قصص أبطال حارتنا العظام : أدهم وجبل ورفاعة وقاسم جدنا هنا لغز من الألغاز وفوق ما يطمع إنسان أو يتصور حتى ضرب المثل بطول عمره واعتزل في بيته لكبره منذ عهد بعيد فلم يره منذ اعتزاله أحد) .

تعليق

(الجبلاوى بداية تقديم الشخصية التي ترمز الله تعالى)

ثم يقول الكاتب عن الله سبحانه وتعالى .. (وباسمه سميت حارتنا وهو صاحب أوقافها وكل قائم فوق أرضها والأقطار المحيطة بها في الخلاء ثم جاء زمان فتناولته قلة من الناس بكلام لا يليق بقدره ومكانته وكم دفعنى ذلك إلى الطواف ببيته الكبير لعلى أفوز بنظرة منه دون جدوى . أليس من المحزن أن يكون لنا جد مثل هذا الجددون أن نراه أو يرانا) [المنطق المادى هو الذى يتحدث وهو يصر على أن يرى الخالق العظيم بعينه لكى يؤمن به] .

اعرف الله قدره

أرأيت كيف عبر الكاتب فيما مضى كيف عبر عن الذات الإلهية بهذا الأسلوب فهو لغز وهو لا يرى وهو قد حرم الناس من خيراته ثم أرأيت إلى قوله : أليس من المحزن أن يكون لنا جد مثل هذا الجد دون أن نراه أو يرانا - وهنا يذكرنا بقول بنى إسرائيل لموسى : أرنا الله . جهرة وجعلوا أنه سبحانه وتعالى لا تتركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

قيل للإمام على رضى الله عنه : هل رأيت ربك يا إمام ؟ قال : وكيف اعبد ما لا أرى . قيل : وكيف رأيته ؟ قال : إن كانت العيون لا تراه بمشاهدة العيان فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان .

قال أحد الماديين للإمام أبى حنيفة رضى الله عنه : يا إمام هل رأيت ربك ؟ قال الإمام : سبحان ربي لا تتركه الأبصار . قال : هل أحسسته بسمع أو لمس أو شم ؟ قال : سبحان ربي لا تتركه الحواس ولا يقاس بالناس . قال المادئ الملحد : فإذا لم تكن رأيته ولا أحسسته فكيف تثبت أنه موجود ؟ قال الإمام للملحد : يا هذا هل رأيت عقلك ؟ قال : لا . قال : هل أحسسته ؟ قال : لا . قال الإمام له : هل أنت عاقل أم مجنون ؟ قال : عاقل . قال له الإمام : فأين عقلك ؟ قال : موجود . قال الإمام : كذلك الله جل جلاله موجود .. وإذا كان كثير من مخلوقات الله لا يقع تحت رؤية البصر فما هو ذا الأثير نرى آثاره ولا نعرف حقيقته ، وها هي ذى الروح وكذلك الأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء . بل إننا عاجزون عن معرفة حقيقة المادة فإذا كانت هذه حال بعض المخلوقات فكيف بمن خلقها ، أيجزع للحس إنه لمنطق عجيب وغريب . لقد عرفوا الأثير بقولهم : هو وسط غير مادي افترض وجوده تتخلله موجات كهرومغناطيسية فكيف ندرك حقيقة من خلق الأثير بعقولنا القاصرة وحواسنا المحدودة . سبحانك ربي يا من وسعت كل شيء علما وأحصيت كل شيء علما :

﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم . لا تأخذه سنة ولا نوم . له ما فى السموات وما فى الأرض . من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾ .

إنه ليعز على نفسى أن أترك هذه السطور التى كتبها صاحب هذه الرواية دون أن أفصل القول فى الرد عليها تفصيلا يأخذ بيد العائر ، ويرشد الحائر ، ويهدى إلى صراط الله المستقيم . وحسى هنا أن أذكر له قضية الألوهية وما يليق بذات الله فى إحدى سور القرآن الكريم وهى سورة النحل .

إقرأ أيها الكاتب سورة النحل

إذا أيقن العبد بربه وعرف حقه من الوجدانية الخالصة استقرت نفسه وثبتت تجاه تيارات الحياة وعواصفها بكل بروقها وروعدها ورياحها ورمالها ومن ثم فإن القرآن الكريم يفتح مدارسه المباركة ليوجه إلى القلوب أضواء الوجدانية ودلائل القدرة حتى يبني النفوس بناء سليما ويشيدها على تقوى من الله ورضوان . وسوف نعرض الآن لبعض هذه المدارس في سورة (النحل) لنرى كيف قامت الأدلة القاطعة والحجج الساطعة على وحدانية الله وعظيم قدرته ... ففي سورة (النحل) نطقت الأدلة بوحدانية الله وقدرته في شتى المجالات الكونية والآفاقية والأنفسية شواخ راسيات ورواسي ثابتات لا تحركها العواصف ولا تؤثر فيها الرياح القواصف . اسمع إلى القرآن وهو يبدأ هذه السورة بهذا الأنداز الذى يدعو كل عبد للاستعداد إلى لقاء الله .. فلقاء الله حق واقع ... ولتوكيد وقوعه عبر عنه بلفظ الماضى كأنه قد وقع لأن الله لا يخلف وعده : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ثم يذكر بعد هذه الآية طريق الوحي الذى تنزل به الملائكة وأنه كالروح يحى الموت وينزل غضبا نديا يتقاطر نورا ورحمة ليعلم البشرية جمعاء أنه لا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى :

﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ .

ولقد صدقت يا سيدي يا رسول الله حيث أعلنت قولك : ﴿ أفضل ما قلته أنا والنيبون قبلى لا إله إلا الله ﴾ وبعد ذلك تأخذ السورة الكريمة طريقها في ذكر حشد من الأدلة المتنوعة والناطقة بالوجدانية والقدرة فيقول سبحانه : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ﴾ .

ففى هذه الآية المباركة يذكر أن العالم من عرشه إلى فرشه ومن سنامه إلى أرضه مخلوق بالحق لا هوا ولا باطلا ولا عبثا ولا لعبا وإنما بالحق قامت السموات والأرض : ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ وتعالى الله وجل جناب الحق أن يكون له شريك يناقشه الحساب فهو الواحد العادل الحكيم المريد وبعد ذكر العالمين : العلوى والسفلى ينتقل إلى خلق الإنسان فيقول سبحانه : ﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ .

فالإنسان سر الله فى أرضه : ومعجزته التى حارت الأفكار فيها ولذا يقول أحد الحكماء عن الإنسان :

دواؤك فيك وما تبصر دواؤك منك وما تشعر
وأنت الكتاب المبين الذي بأحرفه يظهر المضرر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

﴿ فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق ﴾ فماذا كان من الإنسان بعد ذلك ؟ قف يا أخى وقفة تدبر وإعمال فكر في هذا النص المبين : ﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ .

يقول علماء اللغة : أن (إذا) حرف يفيد المفاجأة فهو بذلك يدل على أن خروج الإنسان عن أصله اللائق به نحو الله : يعتبر أمرا غير مألوف فما كان ينبغي من الذى تُخلق من نطفة مهينة أن يفاجيء بالخصومة المبينة والخصومة لمن ؟ لخالقه ورازقه ومنشئه :

يا مدى الكبير اعجابا بصورته انظر خلاك فإن التتن تثيرب
لو فكر الناس ماذا ما بطونهم ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا بن التراب ومأكول التراب غدا أقصر فإنك مأكول ومشروب

يقول تقي الدين الحسن البصرى : عجبت لابن آدم يتكبر على الأرض وهى التى تناديه بلسان حالها : يا ابن آدم لا تتكبر على ظهري لأننى غدا سأضمك فى بطنى . كيف يتكبر بن آدم وهو الذى أوله نطفه قذرة وآخره جيفة قذرة وهو ما بين هذا وذاك فى بطنه العذرة ؟ تؤذيه بقعة وتنته عرقة وتميته شرقة ؟ كيف تعلن الخصومة على الله يا ابن آدم وأنت الذى نزلت من مجرى البول مرتين مرة وأنت ماء مهين من أهلك وأخرى وأنت طفل من رحم أمك عليك أن تذكر هذا ولا تنسين أنك حفنة من التراب فى البداية والنهاية : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ .

ولقد قلت لنفسى وأنا بين المقابر : هل رأيت الأمن والراحة إلا فى الحفائر ؟

فأشارت : فإذا للدود عبث فى المهاجر ثم قالت : أيها السائل : إني لست أدرى ؟

انظري : كيف تساوى الكل فى هذا المكان .. وتلاشى فى بقايا العبد رب الصولجان والتقى العاشق والقال . فما يفترقان .. أبهذا ينتهى الأمر ؟

فقلت : لست أدرى .. أيها القبر : تكلم وأخبرينى يا رمام .. هل طوى أحلامك

الموت ؟ وهل مات الغرام .. من هو الميت من عام ومن مليون عام .. أتمنى أننى أدرى .. ولكن لست أدرى .

عالم الحيوان

وتنتقل بنا الأدلة من عالم الإنسان إلى عالم الحيوان المسخر له بإذن الله فيقول جل شأنه : ﴿ والأنتعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حيث تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس . إن ربكم لرؤوف رحيم . والحيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴾ .

هذه أنواع من المخلوقات : اشتملت على فوائد عديدة لها جليل الأثر في حياة الإنسان حتى أن القرآن الكريم لكثرة ما فيها من فوائد أشار إلى بعضها : ففيها دفء في أصوافها وأوبارها وأشعارها وفيها اللحوم التي تؤكل وفيها الركوب على ظهورها وخمل الأثقال التي لا طاقة لنا بحملها ، وفيها الفوائد المعنوية وهو ذلك الجمال في رواحها وسروحها ، وفيها الزينة إذا وقعت العين على رؤيتها واستمعت الأذن إلى أصواتها من رغاء وثغاء .. وغير ذلك .

ولما كانت فوائدها لا تحصى ولا تستقصى فقد أوجملها القرآن في قوله : ﴿ ومنافع ﴾ ولك بعد ذلك أن تقول في هذه العبارة ما شئت من ذكر تلك الفوائد مما يطول شرحه ويكثر ذكره .. سبحانه ربي :

عجز اللسان عن الثناء فإنه تتصاغر الأفكار دون مداه
من كان يعرف أنك الحق الذي بهر العقول فحسبه وكفاه

عالم الفلك

وينتقل بنا النظم الكريم إلى عالم الفلك فيقول جل شأنه : ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ وفي لفظ (التسخير) ما يدل على منتهى التذليل والتطويع دون ما مخالفة أو انحراف أو عصيان لأمر الله .. وفي قوله تعالى : ﴿ والنجوم مسخرات بأمره ﴾ إشارة عجيبة فإنها جملة اسمية مكونة من مبتدأ وخبر وأن مجيئها بهذه الصيغة لدليل على عظم عالم النجوم وما يحتويه من ثبات واستقرار في النظام والابداع ...

فماذا يقول علماء الفلك في هذه العوالم الضخمة ؟ ماذا يقولون في هذا الوجود الذي نعيش فيه ؟

أى حكمة تنطق بها كلماته وأى حقيقة تشير إليها آياته ؟ إن كلمات الوجود وآياته إنما تؤكد الحقيقة الكبرى ولم يصل العلم بعد إلى معرفة عدد وحدات هذا الوجود بل ما وصل إليه العلماء هو التأكد بأنه مهما تقدمت العلوم ومهما استحدثت وسائل البحث وأجهزة الكشف فإن العلم لن يصل إلى ذلك على سبيل القطع . فعدد النجوم والكواكب أمر مستحيل على العلماء أن يصلوا إلى حقيقته لأن ذلك فوق الإدراك وأكثر ما يتخيله العقل . ففى كل مرة يصل العلم عن طريق أجهزة أكثر دقة وأشد حساسية وأبعد رسدا إلى عدد يفوق سابقه زيادة لم تكن متوقعة . وما زال العلم يواصل أبحاثه فى استحداث وسائل جديدة للرصد .

إن دراسة اشعاعات النجوم قد ألفت بعض الضوء على بعض وحدات هذا الكون ومركزها فى الوجود ، فقد توصل العالم إلى معرفة أن الضوء يسير بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية ، وقد اختار الفلكيون السنة الضوئية التى تتكون من ٣٦٥ يوما وفى كل يوم ٢٤ ساعة ، وفى كل ساعة ٦٠ دقيقة ، وفى الدقيقة ٦٠ ثانية لقياس أبعاد النجوم ، فإذا وصل إلينا ضوء نجم بعد ثانية واحدة كان بعده عنا ١٨٦ ألف ميل ، وقد وجد أن السرعة التى ترصد أضواؤها على الأرض تنطوى معها حقيقة ! هى أنها تبتعد عن الأرض بسرعات تتناسب مع أبعاد المسافات التى بينها وبين الأرض ، وأن آخر ما رصد من السرعة : وجد أنه يبتعد عن الأرض بسرعة هائلة تبلغ ١٥ ألف ميل فى الثانية ، فمتى بدأ فى حركته ؟ ومتى يقف ؟ وإلى أين ينتهى ؟

وإن أقرب سديم إلى الأرض يصل إلينا ضوءه بعد ٨٥ ألف سنة ضوئية فعلى أى بعد يقع ؟ وأين أصبح الآن ؟ وتعتبر هذه الأرقام الوحدات فى بداية الكون ... فقد أظهرت بحوث العلماء من السرعة ما لم تستطع المجاهر القوية الكبيرة أن تتبين إشعاعها ، وأمر هذا الوجود ليس عجبا فى عدد النجوم والكواكب والمسافات التى تفصل بينها فقط ، وإنما العجب والحيرة الذى ظل العلماء فى عجب وحيرة منه هو أمر إشراق النجوم .. إذ كيف يمكن أن تظل هذه النجوم ملايين السنين مشرقة ولا ينتهى إشراقها ؟ هل يرجع ذلك إلى الحرارة الشديدة الموجودة داخل النجوم ، والتى يرجع العلماء أنها تصل إلى عشرات الملايين من الدرجات الحرارية التى نعرفها ؟ ولكن كيف لا تحمد ، حتى لو فرضنا أنها تفقد من حرارتها كل يوم درجة واحدة ، لكان يكفى ملايين السنين التى مرت منذ القدم أن تصبح

النجوم باردة ، ولكن ظلت حرارتها كما كانت : ملايين الدرجات ، الأمر الذى بسببه حاول العلماء وضع نظريات تفسر ذلك ، فقليل إن السبب هو وجود عناصر مشعة فى النجوم ، ولكن لم يدم هذا الرأى كثيرا ثم استبدلت هذه النظرية بالانفجار الذرى ، ثم بالانفجار الأيدروجينى فى تبريد حرارة الشمس . وعدم تغيرها ، وما زال العلماء فى أبحاثهم بسبيل إيجاد سبب أو آخر لإشراق النجوم .

ثم إننا نوجه السؤال إى علماء الطبيعة ، وهو : كيف لا تفتنى كتلة النجم ؟ إى المعروف أن كل مادة ملتهبة تفقد من كتلتها بسبب الحرارة ..

سبحانك رى ! يا من قلت :

﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ .

يا من يحار الفهم فى قدرتك ، وتطلب النفس حمى طاعتك تخفى عن الناس سنا طلعتك ، وكل ما فى الكون من صنعتك ! يا مبدع الكائنات : يا من كل فعلك حكمة بالغة يا من قلت وقولك الحق : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾ .

ويا من قلت :

﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

عالم النبات

ثم تنتقل بنا الآيات الكريمة بعد ذلك إلى الأرض وما بها من نبات وزروع ، وما احتوته فى بطنها من معادن مختلفات ، فيقول سبحانه : ﴿ وما ذرا لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ .

ولقد جاء الأسلوب فى هذه الآية الكريمة بلفظ (ما) الذى يدل على العموم والشمول ، للإشارة إلى ما فى الأرض من المعادن وأنواع النبات والذهب الأسود السائل .. وكل أولئك ملك لله تبارك وتعالى : ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾ .

سبحانك ربى :

يا من تفرد بالبهاء وبالسناء في عزه وله البقاء السرمدا
يا من له وجب الكمال لذاته فلذلك ترفع من تشاء وتسعد

﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمون . ينبئ
لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم
يفكرون ﴾ .

ما فى الوجود سواك رب يعبد كلا ، ولا مولى سواك فيقصد
يا من له عنت الوجوه بأسرها ذلا ، وكل الكائنات توحد
أنت الإله الواحد الفرد الذى كل القلوب له تفر وتشهد

سبحانك يا من قلت :

﴿ الذى جعل لكم الأرض مهذا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء
فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم . إن فى ذلك لآيات لأولى
النهى ﴾ .

ويا من قلت :

﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شققا فأنبثنا فيها
حبا . وعنبا وقصبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم
ولأنعامكم ﴾ .

الحث على العمل وزيادة الانتاج :

ولقد صدقت يا سيدى يا رسول الله وأنت الصادق الأمين عندما تحث البشرية أن
تضرب فى مناكب الأرض تطلب الرزق ، فقلت : « اتمسوا الرزق فى خبايا الأرض » .
ولئن كان علماء الاقتصاد قد أفاضوا فى الكلام عن الانتاج والاستهلاك فإن القرآن
العظيم أشار إليهما فى آية كريمة حيث قال :

﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ﴾ .

فمصدر الانتاج قوله جل شأنه :

﴿ الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا ﴾ .

ومبدأ (الاستهلاك) تشير إليه الآية في هذه العبارة : ﴿ فممنه يأكلون ﴾ .

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأبصار هي الذهب التسيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

وفي العالم أسرار عجيبة وحقائق علمية ، تجعل المتمعن فيها يحس الله ساجدا .

ثم ينتقل بنا النظم الكريم بعد ذلك إلى عالم البحار .. ذلك الخلق العظيم الذى جاء في وصفه قول القائل : (هو خلق عظيم : الداخلى فيه مفقود ، والخارج منه مولود ، والناس فيه دور على عود . إذا هاج هز القلوب وأفرع النفوس) .

وبين القرآن الكريم حال الناس فى البحر فيقول سبحانه : ﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم برىح طيبة وفرحوا بها جاءتها رىح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنحيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ .

هذا الخلق العظيم مسخر ومذل ومنقاد ومدعن لخالقه الذى سخره .. يقول جل شأنه : ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .

سبحانك ربى :

لما علمت بأن قلبى فارغ من سواك ملأته بهداك
وملأت كل منك حتى لم ادع منى مكانا خاليا لسواك !!

فتأمل معى هذه العظمة الإلهية التى دبرت الأمور بإحكام ونظمت الكون بإتقان ، كيف استطاع الحيوان أن يعيش فى الماء ، وكيف تغذى على النباتات ، وماذا يقول العلم فى شرح العناية الإلهية فى عالم البحار ؟

إن من الحقائق العلمية التى أوضحتها التجارب العلمية : أن جميع المواد إذا ما تجمعت زادت كثافتها ، فيما عدا الماء فإنه المادة الوحيدة التى تناقض هذه الحقيقة ، إذ تقل كثافتها عند التجمد .. لذلك فإن أى كمية من الماء تتجمد فى البحار عندما يشتد البرد فإنها تطفئ

على السطح ، مخالفة بذلك القوانين العلمية التى تحكم المواد الأخرى ، وقد لا يتصور الإنسان - لأول وهلة - إذا كان شأن الماء كالمواد الأخرى كيف يكون الأمر ؟ فعندما يغوص الجليد فى البحار فإنه لا سبيل إلى إذابته كما تنخفض درجة حرارة المياه المحيطة به فتتجمد بالتالى فكيف تعيش الأسماك وتحيا النباتات التى فى البحار ؟ لذلك فإن الجليد عندما يطفو على الماء تتوافر له فرص النوبان ، كما أنه يكون طبقة عازلة تحفظ درجة حرارة الماء الذى تحته فلا تصل البرودة الشديدة إلى الأسماك .

وهكذا تختلف القوانين العلمية ، وتتناقض الحقائق المرئية وليس من هدف إلا قيام الحياة وتدير أمورها وتيسر سبلها : أليس فى ذلك الرد - أبلغ الرد - على من يقول بميكانيكية الحياة ؟

فوا عجبا : كيف يعصى الإله بل كيف يجحده الجاحد ؟
وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد ؟

ماذا يقول المكابرون فى هذه الآيات الناطقة بالتدبير الشامل والنظام المحكم ؟ من الذى دبر وأنشأ ؟ ومن الذى خلق وأوجد ؟

إنه الله القائل : ﴿ وخلق كل شىء فقدره تقديرا ﴾ .

والقائل : ﴿ وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ .

والقائل : ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ .

هل تستطيع الطبيعة الصماء ، وهل تقدر الصدفة العمياء أن توجد وأن تدبر وأن تحكم الخلق أو تنظم ؟

﴿ سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ .

يا من قلت وقولك الحق :

﴿ وغرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا . الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴾ .

ويا من قلت : ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ .

ويا من قلت : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ .

إن الوجود كله صفحة متقنة الابداع ، وتقر وتشهد بالحق أن لها خالقا مبدعا حكيما مدبرا : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير . قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ .

وبعد أن أخبر القرآن الحكيم عن عالم البحار : انتقل بنا بعد ذلك إلى عالم الجبال ، وما في الأرض من أنهارٍ وسبلٍ وعلاماتٍ للاهتداء في متاهات الرحاب الواسعة .

قال جل جلاله : ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بكم وأنهارا ونسلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾ .

إنها عمارة الكون .. تنطق بالقول السديد ، والبرهان الرشيد :

سبحان من أحيا قلوب عباده بلوائح من فيض نور هداه
فالعارفون مشاهدون لفضله مستأنسون بذكرهم إياه

من الذى أودع هذه العلامات للارشاد في الصحارى الشاسعة والوهاد المترامية ؟ إنه الله ، جل في علاه !

وبعد سبق هذه الأدلة ، ووضوحها ونظمها في هذا المسلك الرائع والاتقان البديع ، يسوق القرآن هذا السؤال لكل عاقل بصير وليس المقصود بالسؤال استفهاما .. فإن الاستفهام محال في حق الله إذ هو طلب الفهم . وهو يفيد الجهل بالشيء المستفهم عنه ! وجل جلال الحق أن يعزب عنه شيء في الوجود كله إنما المقصود بالاستفهام هنا في قوله تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق . أفلا تذكرون ﴾ .

هو الانكار الذى يفيد النفي : أى ليس من يخلق كمن لا يخلق فهذا مجرد التذكرة ، وعلى كل عاقل أن يفهم ذلك ويتدبره فإن ذلك من الأمور البديهية ومن الشئون الواضحة الجليلة ، كالشمس في ضحاها وهى تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية .

جلت حكمتك يا حكيم ، أنت الخالق المبدع المصور ، لا شريك لك في ملكك :

يا حبيب القلوب : هب لى رضاك وارحم اليوم مذنبا قد آتاك
ويا إلهى وخالقى ومرادى قد أى القلب أن يحب سواك

أخى القارىء الكريم :

وهكذا طفت بعقلك وفكرك ، ووجدانك وقلبك في هذه الرياض الباسمة :
الكتاب العزيز .

انتقلت من عالم السموات والأرض إلى عالم الإنسان . ومن عالم الإنسان إلى عالم
الحيوان . ثم إلى عالم النبات ، ثم إلى عالم الفلك ، ومنه إلى ما في الأرض من مكنون الخزائن ،
ثم إلى عالم البحار ، ومنه إلى عالم الجبال والأنهار ووسائل الارشاد في المتاهات ..

نعم الله على خلقه !!

ولما طال تعداد النعم وذكر هذه المخلوقات .. قال القرآن الكريم بعد ذلك :

﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لَغفور رحيم ﴾ .

إن الذى أوجد هذه الكائنات العظمى ، لا يد أن يكون متصفا بالعلم الشامل الكامل ،
ولذا جاء بعد هذه الآية قوله جل شأنه : ﴿ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ .

ولقد بلغ من جهل الكافرين أن قال بعضهم لبعض : من أراد أن يتكلم في شأن محمد
ﷺ فليكن ذلك سرا حتى لا يسمع إله محمد ما يقول فيخبره به !! فماذا كان الموقف
لقد هبط سفير الأنبياء جبريل عليه السلام بقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وأسروا قولكم ، أو أجهروا به . إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق
وهو اللطيف الخبير ﴾ .

أخا الإسلام :

الله يرى كل ما تضرر يعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

وحيث قد ثبت أن الله هو الخالق وحده ، العالم بكل شيء ، فإن غير الله لا يخلق ،
لأنه لا يملك الابداع من العلم ... ومن هنا فقد عقب الكتاب الكريم على ذلك بقوله :

﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيا ن يعثون ﴾ .

الكون ، وقدرة الله

الكون قسمان :

كون زمانى وكون مكاني ..

فالكون الزمانى : هو الدنيا والآخرة .

والكون المكاني : هو السموات والأرض .

وإذا كان الله تعالى قد تحدى العالم أن يأتي بسورة من مثل القرآن الكريم فقد تحداهم بالكون المكاني أن يخلقوا ذبابة حيث يقول سبحانه :

﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له . وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ .

العلم الحديث ووحداية الله تعالى

يا من يرى مد البعوض جناحه في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها في نحرها والمخ في تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها في قاع بحر ذاخر متجنسدل

لقد كنت أعجب وأنا أقرأ تلك الآيات للإمام الزمخشري وهو يناجى ربه فأقول :
سبحان الله ! ما هي تلك البعوضة التي لها عروق ، ونحر ، ومخ ، وعظام إلى أن قرأت هذا
البحث العلمى الذى قام به البروفيسور أردين ليا الأستاذ بجامعة جورجيا الأمريكية .. فاسمع
إليه يقول الخبر بالحرف الواحد :

يقوم الدكتور أردين ليا من جامعة جورجيا بتجارب جراحية على مخ البعوضة تحت
الميكروسكوب ، مستخدما أدوات دقيقة ، مثل التي يستعملها صانعو المجوهرات ، وذلك
لمساعدة العلماء فى السيطرة على أخطار هذه الحشرات ، ولا تستغرق الجراحة التي يقوم بها
الدكتور (ليا) أكثر من ٥ دقائق ، وبمجرد انتهاء أثر البنج يستطيع (المرضى) من البعوض
الطيران .

ويقوم الدكتور (ليا) أستاذ علم الحشرات وطبائعها بدراسة نظام المورمونات والتكاثر لدى إناث البعوض الذى ينتشر في المستنقعات .. وبمعرفة الطريقة التى تعمل بها الغدد الصماء فى البعوض يمكن أن تكون عاملا هاما فى مساعدة العلماء الذين يؤمنون بأن منع تكاثر الحشرات هو أفضل السبل للسيطرة عليها . وأثناء العملية يقوم الدكتور (ليا) بإزالة الخلايا التى تعرف باسم خلايا (افرازات الأعضاب) من مخ البعوضة وكذلك بعض الغدد من الرقبة ، وقد وجد الدكتور (ليا) أن البعوضة لا يمكنها بعد ذلك وضع البيضة .

فإذا كان هذا شأن البعوضة التى ضرب القرآن بها مثلا فقال: ﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها﴾ . فما بالك بهذه الخليقة وما فيها من أسرار حارت فيها عقول الباحثين ووقفت حيالها - واجمة - عبقریات العباقرة والمفكرين؟؟

وهكذا أخذت الأدلة تتجلى فى تودة وثبات كأنها الجبال الشم والرواسى الشامخات ، إلى أن وصلت إلى حقيقة الحقائق وسر الأسرار .. ألا وهى قضية التوحيد ، فقال سبحانه بعد ذلك : ﴿إلهكم إله واحد﴾ .

فهذه القضية مركز الدائرة الذى تسنح حوله الأدلة الباهرة والبراهين الباهرة .. إنها قضية لا إله إلا الله .. فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله : دخل الجنة .

لا إله إلا الله أحلو بها وحدى . لا إله إلا الله أفنى بها عمرى .

لا إله إلا الله يغفر بها ذنبى . لا إله إلا الله أدخل بها قبرى .

لا إله إلا الله ألقى بها رنى .

خطوات فى الحب الإلهى

الكل فى بحر حبه تاهوا	وقد تفانوا فى سر معناه
وصححووا العقيد مخلصين له	بقولهم : لا إله إلا هو
يا معشر الذاكرين كلكم	قولوا معى : لا إله إلا هو
وراقبوا من يعمكم كرمًا	بفضله : لا إله إلا هو
فالكون قد فاح بشره عبقا	بذكره : لا إله إلا هو
والعرش تسيحه له أبدا	سبحان من : لا إله إلا هو
وكل ما فى السماء من فلك	تسيحه : لا إله إلا هو
وكل ما فى الجبال من عظم	تسيحه : لا إله إلا هو
وكل ما فى الرياض من شجر	تسيحه : لا إله إلا هو

كل ما في البحار من خلق	تسبيحه : لا إله إلا هو
وكل ما في الزمان من عجب	أعجبه : لا إله إلا هو
وكل شيء تراه من حسن	أحسنه : لا إله إلا هو
وكل شيء يلوح من صور	فزيته : لا إله إلا هو
وكل أهل العلوم قد علموا	بأنه : لا إله إلا هو
وكل أهل العقول قد فهموا	بأنه : لا إله إلا هو
والإنس والجن كلهم شهدوا	بأنه : لا إله إلا هو
والرعد والبرق إذ بسبحه	بقوله : لا إله إلا هو
وكل من ضل عن طريق هدى	دليله : لا إله إلا هو
وكل من يشتكى أذى سقم	شفاؤه : لا إله إلا هو
ومن أتاه بالذل مفتقرا	غناؤه : لا إله إلا هو
ومن أتى بائساً ومفكرا	فجيره : لا إله إلا هو
يا غارقا في بحار غفلته	انهض وقل : لا إله إلا هو
يا قوم لا تغفلوا عن ذكره	بلا إله إلا هو
كيف تمام العيون عن ملك	سبحانه : لا إله إلا هو
هو الإله العظيم قدرته	سبحانه : لا إله إلا هو
يا فوز من مات وهو معتقد	يشهد أن لا إله إلا هو
سبحانه ما أعم رحمته	بمذنب تاب من خطايا

وقفة تأمل

اقرأ يا أخى القضية مرة ومرة : ﴿ إلهكم إله واحد ﴾ .

ثم اقرأ تعقيب الكتاب العزيز عليها حيث يقول جل شأنه :

﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين ﴾ .

يقول العلامة ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة : يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك ، كما أخبر عنهم متمجين من ذلك : ﴿ أجعل الآلهة لها واحدا إن هذا لشيء عجاب ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وإذا ذكر الله وحده احمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ .

﴿ وقوله : وهم مستكبرون ﴾ .

أى عن عبادة الله ، مع إنكار قلوبهم لتوحيده ، كما قال : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ .

ولهذا قال ههنا : ﴿ لا جرم ﴾ .

أى حقا ﴿ أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ أى سيجزيهم على ذلك أتم الجزاء : ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾

وبنظرة فاحصة يتبين لنا أن الأدلة على وحدانية الله واضحة لا غموض فيها ، جليلة لا غبار عليها ، وأن الذين يقفون منها موقف الإنكار أو التشكك إنما ذلك راجع لمرض فى قلوبهم . قلوبهم منكرة جاحدة ، مظلمة عابسة :

ما ضر شمس الضحى فى الأفق ساطعة ألا يرى نورها من ليس ذا بصر
وقد قيل :

وما ضر الورود وما عليها إذا المزكوم لم يطعم شذاها
وقيل أيضا :

ما يضر البحر أمسى زاخرا أن رمى فيه غلام بحجر ؟
فاللهم أزل عن القلوب حجب الغفلة ، وبصرها بأمر دينها ودنياها . وإن من أمراض هذه القلوب المنكرة : أنها تجحد حقائق الأشياء دون أن تبحث وتفكر وتمحص وتدبر .

قال سبحانه : ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين ﴾ بكل هذه السهولة ، وبمتهى التبجح : تنكر الحقائق :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم
حقا ...

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

ولا يظلم ربك أحدا

ما عاقبة هؤلاء في الدنيا والآخرة ؟

أما في الآخرة : فكما قال مولانا : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة . ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم . ألا ساء ما يزرون ﴾ .

وأما عاقبتهم في الدنيا ، فإنها كعاقبة الذين من قبلهم : تدمير وحسف ، قال سبحانه : ﴿ قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ .

وهذه عاقبة التكذيب والخيانة ، والكفر والجحود :

﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ .

﴿ ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون . فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم تعبدون ﴾ .

وموف هؤلاء المنكرين في الآخرة أيضا : خزي وتأنيب .

قال جل شأنه : ﴿ ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول : أين شركائ الذين كنتم تشاقون فيهم ﴾ .

عندئذ لا يستطيعون جوابا ولا تفسيرا .

فمن الذين يقولون كلمة الحق الفاصلة ؟ إنهم أهل العلم .

قال جل شأنه : ﴿ قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء . بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ .

وبعد كل هذا : فإلى أين ينتهى المطاف وأين المستقر ؟ قال سبحانه : ﴿ فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين ﴾ .

وبعد هذا المشهد من مشاهد القيامة ، وبعد أن تقرأه بخشية وخشوع : قارن بين أصحاب القلوب المنكرة ، وبين أهل التقوى .

فأصحاب القلوب المنكرة إذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين .
وأصحاب التقوى : موقفهم على النقيض من ذلك .

قال تبارك اسمه وتعالى جده : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ﴾ .
شтан ثم شتان ، وهيات بين القولين : بين (أساطير الأولين وبين كلمة خيرا) إنه
شتان بين العاقبتين .

فعاقة المتكبرين : ﴿ فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ .

هذا في الآخرة وفي الدنيا : ﴿ فأق الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من
فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ .

وأما عاقبة المتقين في الدنيا والآخرة ، فكما قال سبحانه وتعالى : ﴿ للذين أحسنوا في
هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين . جنات عدن يدخلونها تجري من
تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون . كذلك يجزي الله المتقين ﴾ .

فضل الله على عباده

ومن المواقف الطيبة التي يقف عندها العقل عاجبا في هذه السورة (سورة النحل) أن
الله سبحانه شاء بتمنه وفضله أن يعطى الجزاء للمؤمنين في الدنيا والآخرة ، وقد جاء ذكر
ذلك في هذه السورة في أربعة مواضع : هذا الموضع السابق أولها ، الموضع الثاني : قوله جل
شأنه : ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوتهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة
أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ .

والموضع الثالث : قوله جل جلاله : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن
فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

والموضع الرابع : قوله تعالى في حق الخليل إبراهيم : ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ولإنه في
الآخرة لمن الصالحين ﴾ .

سبحانك اللهم : أنت ولي المتقين ، وناصر المؤمنين .

ثم قارن بعد ذلك يا أخى بين حالتى الوفاة التى يصفها الكتاب العزيز .

فيقول في حق المنكرين : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فأنفوا السلم
ما كنا نعمل من سوء ﴾ .

- ويقول في حق المتقين : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ .

نظرات ... وعبر

وبعد هذه المقارنات بين المنكرين والمتقين ، نواصل هذه النظرات في سورة (النحل) لنسجل الأدلة الباهرة والبراهين الباصرة على وحدانية الله تعالى ، حيث ينتقل بنا النظم الكريم بعد ذلك إلى موقفين من أعظم المواقف الشاهدة على الوحدانية والقدرة .

يقول سبحانه : ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾ .

والمراد بالأنعام هنا : الإبل ، والبقر ، والغنم .

وقوله : ﴿ من بين فرث ودم لبنا خالصا ﴾ أى يتخلص اللبن : بياضه ، وطعمه ، وحلاوته ، من بين فرث ودم في باطن الحيوان ، فيسرى كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته فيصرف منه دم يجرى في العروق ، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه : لا في لونه ، ولا طعمه ولا ريحه :

فمن الذى ميز بين هذه الأشياء الأربعة : الدم ، اللبن ، البول ، والروث . وجعل لكل منها مسلكا خاصا : أمى الطبيعة الصماء ، أم الصدفة العمياء ؟؟ كلا !! إنها مصانع الألبان من طراز : ﴿ كن فيكون ﴾ .

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ .

وقوله : ﴿ لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾ .

أى لا يخص به أحد مع اشتاله على عناصر غذائية . ولذا كان رسول الله ﷺ إذا أكل طعاما يدعو فيقول : « اللهم بارك فيما رزقنا وزدنا خيرا منه » . أما إذا شرب اللبن فكان يقول : « اللهم بارك لنا فيما رزقنا وزدنا منه » .

من أجل ذلك كانت الهدية التى قدمها الأمين جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج هى اللبن وعندما شربه قال له الأمين عليه السلام : « لقد اخجرت الفطرة » أى الصفاء الذى لا تشوبه كثرة .

وينتقل بنا النظم الكريم من (مصانع الألبان) إلى (مصانع العسل) الذى يخرج من بطون النحل .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ .

ونحن هنا نجمل القول فى هاتين الآيتين الكريمتين فى أربعة مباحث :

المبحث الأول :

كلام المفسرين عنهما .

المبحث الثانى :

ذكر الحقائق العلمية فى كيفية بناء النحل لبيوته .

المبحث الثالث :

تقرير الطب الحديث فى الشفاء الذى أودعه الله فى شراب النحل .

المبحث الرابع :

الرد على أعداء الإسلام الذين وقفوا من آية الشفاء موقف المعاند المكابر .

فنقول ، وبالله التوفيق :

المبحث الأول كلام المفسرين عنهما

قال علماء التفسير في هاتين الآيتين كلاما له وزنه وقيمه العلمية .

قالوا : المراد بالوحى هنا : الإلهام والهداية والارشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتا تأوى إليها ، ومن الشجر وما يعرشون .

ثم إن هذه البيوت محكمة في غاية الاتقان ، حيث بنيت على نظام المسدسات ، وهى أشكال هندسية بدیعة ، بحيث لا يكون فى بنائها خلل ، ثم أذن لها تعالى إذنا قديرا تسخيريا أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التى جعلها الله تعالى مذلة لها ، أى مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم ، والبرارى الشاسعة والأودية ، والجبال الشاهقة ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها ، لا تحيد عنه بمئة ولا يسرة بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل فتبنى الشمع من أجنحتها ، وتخرج العسل من بطونها ، وتبيض الفراخ من أديارها ، ثم تصبح إلى مراعيها .

وقوله تعالى : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر ، وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكليها منها .

وقوله : ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ أى من العسل شفاء للناس . أى من داءات يتعرضون لها .

قال بعض من تكلم عن الطب النبوى : لو قال : فيه الشفاء للناس لكان دواء بارد لأنه حار ، والشئ يداوى بضده .

وقد ثبت فى الصحيح أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال : (إن أخى استطلق بطنه فقال : « اسقه العسل » فذهب فسقاه عسلا ، ثم جاء فقال : يا رسول الله : سقته عسلا فما زاده إلا استطلاقا ، قال : « اذهب فاسقه عسلا » فذهب فسقاه عسلا ، ثم جاء فقال : يا رسول الله : ما زاده إلا استطلاقا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلا !! » فذهب فسقاه عسلا ، فبرىء .

قال بعض العلماء في الطب تعليقا على هذا الحديث الشريف : كان هذا الرجل عنده فضلات ، فلما سقاه عسلا وهو حار تحللت ، فأسرعت في الاندفاع ، فزاده اسهالا ، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره ، وهو مصلحة لأخيه ، ثم سقاه ، فازداد التحليل والدفع ، ثم سقاه ، كذلك ، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرّة بالبدن استمسك بطنه ، وصلح مزاجه ، واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته ﷺ .

وقد روى البخارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل ، وفي هذا إشارة إلى ما في العسل من القيمة الغذائية الكاملة ، كما ورد عنه ﷺ فيما رواه الإمام ابن ماجه في سننه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « عليكم بالشفائين : العسل والقرآن » .

وآية الشفاء في العسل قوله تعالى : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ .

وآيات الشفاء بالقرآن قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ .

وقوله جل شأنه : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾ .

وروى ابن ماجه أيضا أن النبي ﷺ قال : « من لعق العسل ثلاث غدوات في كل شهر لم يصبه عظيم من البلاء » .

ثم يقول المفسرون في ختام هذه الآية :

﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ أى أن في الهام الله لهذه اللواتب الضعيفة الحلقة إلى السلوك في هذه الشواهد من الجبال ، والباسقات من الأشجار والاجتاء من سائر الثمار ، ثم جمعها للشمع والعسل وهو من أطيب الأشياء لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها ، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر ، الحكيم العليم ، الكريم الرحيم .

المبحث الثاني

ذكر الحقائق العلمية في كيفية بناء النحل لبيوته

إن مملكة النحل عجيبة الصنع ، محكمة الاتقان .. ولقد أراد الله سبحانه وتعالى توجيه نظر العباد إلى بيوت النحل التي تعتبر أحسن مثل لهندسة المباني وتعاون أفراد النحل .. فيقول عز من قال في سورة (النحل) :

﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ .

وقد أثبت التاريخ أن النحل اتخذ بيوته في الجبال أولا ، ثم في الأشجار ثانيا ، ثم في الأعراش والخلايا بعد ذلك .

ويقول العالم موريس متر لنك في كتابه (حياة النحلة) : إنه سواء أذهب النحل إلى حيث شاء أم وضعه النحال في مكان جديد فإن العدد الأكبر منه يؤلف من نفسه - وهو متلاحق متماسك ستارا مثلثا كثيفا أشبه بمخروط مقلوب رأسه ، ويظل مده من الزمن تتراوح بين ١٨ ، ٢٤ ساعة على هذا الحال تظهر بعدها طبقات بيضاء شفافة تحت معدة كل نحلة ، وتكون جماهير غيرها قد تولت كنس الأرض وإزالة القش وكافة المواد الغريبة ثم مسحها وسد الشقوق .. وفجأة نرى نحلة من المخروط المقلوب وقد انفصلت عن البقية وصعدت إلى أعلى موضع من البيت تنزع بفمها إحدى طبقات الشمع المتدللية من بطنها ، وبأرجلها تدحوها وتنشرها وتلصقها بأعلى نقطة في البيت وبهذا تضع حجر الزاوية في مدينة النحل ، ثم تغادر المكان حيث تحمل غيرها مكانها لتضيف إلى حجر الزاوية قطعة من الشمع ، ومتى بلغت سمك هذه القطع الشمعية حد الكفاية ، خرجت نحلة من الجماعة تختلف عنها شكلا وتدل هيبتها على أنها مهندس قدير وهي لا تنتج شمعا ، فتأخذ في الطيران والوقوف ، ثم الطيران والوقوف ، فتحدد في ذلك مواقع الغرف التي يقوم ببنائها العمال .

وينشئ النحل أربعة أنواع من الغرف : هي الغرف الملكية ، وغرف الذكور ومخازن الطعام ، والغرف الصغيرة التي هي مهد للعمال والمخازن العادية وهي تشغل أربعة أحماس

الخلية وغرف الانتقال للوصول بين الغرف وبعضها ، وكل غرفة عبارة عن أنبوبة مسددة الأضلاع على قاعدة هرمية .

ويقول الدكتور (ريد) أنه لا يوجد سوى ثلاثة أشكال ممكنة للغرف تجعلها كلها متساوية ومتشاكلة دون أن تكون هناك مسافات بينها لا فائدة منها ، وهذه الأشكال هي : المثلث المتساوي الأضلاع ، والمربع ، والمسدس المنتظم . والمسدس أصلحها ، وهو ما يعمله النحل .

وقد عين رماك لورين الزاوية التي تلتقى عندها السطوح للحصول على أعظم اقتصاد فوجد أنها هي نفس الزاوية التي يلتقى عندها فعلا سطح أرض غرفة النحل .

ويقول مترلنك : ونحن إذ نتأمل أسرار الخلية لا يسعنا إلا أن نظل على ذكر آية من آياتها ، هي الحجرة المسددة التي تكاد تبلغ درجة الكمال المطلق ، فلا تستطيع أن تزيد عليه كل عبقریات البشر مجتمعة أية تحسينات : (لو أن أحدا من عالم آخر هبط إلى الأرض وسأل عن أكمل ما أبدعه منطلق الحياة ، لما وسعنا إلا أن نعرض عليه مشط الشمع المتواضع) !!

خبرني بربك في أي الجامعات تخرجت هذه المخلوقات العجيبة ؟ وفي أي أقسام المعمار تخرج عباقرة المهندسين في النحل ؟

وعلى أي الأساتذة درسوا علم التفاضل والتكامل ، ليخرجوا لنا أعظم إنتاج بأقل تكاليف لازمة ؟ ومن الذي ألهمهم إلهام الغريزة أن يشيدوا تلك البيوت العجيبة ! أهي الطبيعة الصماء ، أم الصدفة العمياء ؟

والله ما هذا ولا ذاك وإنما هو العزيز الحكيم : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ .

يقولون : أين الله ، أين عجائبه ؟ وذا الكون سفر ناطق وهو كاتبه يشكون والإيمان ملء قلوبهم ويبسبون ما كل العقول تكذبه عجائب ربي في الأنعام كثيرة ولكن جهل المرء لا شك غالبه

إن بيوت النحل إنما هي مصانع من طراز ﴿ كن فيكون ﴾ أبدعتها يد القدرة لتكون آية لقوم يتفكرون .

المبحث الثالث

ما يقرره الطب الحديث في الشفاء بعسل النحل

يقول عز من قائل :

﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ .

أعلم يا أخا الإسلام أن هذا المشهد القرآني الذي نحن بصده من أول قوله تعالى :
﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف
ألوانه ﴾ قد أشتمل على ثلاثة أنواع من الأغذية :

أولها : غذاء حيواني ، وهو اللبن .

ثانيها : غذاء نباتي ، وهو المتمثل في قوله تعالى : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب
تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ، إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ .

وليس المراد (بالسكر) هنا المادة المحرمة ، كما ذهب البعض إلى ذلك لأن هناك فرق
بين السكر (بضم السين وسكون الكاف) وبين السكر (بفتح السين والكاف)
والذين ذهبوا إلى أن المراد (بالسكر) في الآية الكريمة هي المادة المسكرة ذهبوا إلى أن هذه
الآية قد نسخت بتحريم الخمر ، ولكن النظرة الثاقبة تفيد أنها آية امتنان وتفضل من الله لا
دخل لها بالسكر الذي يذهب بالعقول وبدليل أن الله جل شأنه عطف عليها بقوله : ﴿ ورزقا
حسنا ﴾ . وبدليل أن ختام الآية جاءت : ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ فكيف يكون
في السكر آية للعقلاء ؟

وبدليل أن الآية توسطت آيتين اشتملتا على أعظم النعم ، هما اللبن ، والعسل ، فلو لم
تشمل على نعمة مماثلة في الغذاء الحلال : ما توسطت هذا العقد الفريد .

وأخيرا : فهناك فرق بعيد بين السكر والسكر ، فلا داعي لأن نقول : إن الآية قد
نسخت وأن المراد (بالسكر) هو (السكر) إذ أن الفرق بينهما بعيد ، حيث إن المراد
بالسكر (بفتح السين والكاف) هو المادة السكرية العظيمة الموجودة في ثمرات النخيل
والأعناب .

ثالثها : أنواع من الأغذية : غذاء حشرى ، وهو عسل النحل ، فماذا يقول الطب في هذا الآخر ؟

- إن عسل النحل فوق كونه غذاء ، فإنه أيضا فيه شفاء .
- وفي قوله تعالى : ﴿ **مختلف ألوانه** ﴾ فإن هناك عسلا أصفر ، وآخر أحمر ، وثالث غامق : كعسل مدغشقر . ثم إن العسل يحتوى على :
- ١ - نوعين من السكر الجلوكوز والليفيلوز .
 - ٢ - أصماغ طبيعية ، وأصماغ النشا .
 - ٣ - فيتامينات أ ، ب ، والفيتامين ج موجود ، ومركز بكمية كبيرة .
 - ٤ - بعض المعادن : كالكالسيوم ، والبوتاسيوم ، ثم حامض النحل .
 - ٥ - بيض النحل ، الذى يكاد لا يرى من صغر حجمه .

عسل النحل وفوائده

١ - المواد السكرية

العسل كغذاء :

أهم ما فى العسل : نوعا السكر المذكوران ، وهذان النوعان لا يحتاجان لهضم ، كسكر القصب ، بل يمران من القناة الهضمية إلى الدم بدون تغير وهذه ميزة كبرى لعسل النحل .

والسكر من ضروريات الحركة : كضربات القلب ، والتنفس ، والحركة العادية ، ويمكن للإنسان أن يقوى بطريقة أسرع لو غذى بهما : سواء بالقم ، أو حقنا فى الوريد ... فى الحميات - مثلا - يصبح غذاء المريض سهل الامتصاص إذا حلى شراب الليمون بالعسل ، أو اللين بالعسل ، لأن الجهاز الهضمى يتلبك أثناء الحميات فلا داعى لاشغاله بتحليل سكر القصب إلى جلوكوز أو ليفيلوز .

وفي حالات المرض بالبول السكرى ، فإن تحلية السوائل بالعسل أقل ضررا من تحليتها بسكر القصب أو النشويات ، وذلك لأن الليفيلوز لا ينقلب إلى سكر بول .

العسل كملين :

يعطى للأطفال (العسل) كملين ، ويدخل في صفات المليينات كالسنا (سلمكة)
فيمزج مسحوق (السنا) مع العسل فيزيد قوة تليينها . ويعمل العسل حقنة شرجية بمقدار
فنجان قهوة كبيرة على كوب ماء دافئ ، فيأتى بلين أكثر ، وأقل ضررا ، وهو أحسن من
الجلسرين في هذه الوصفة .

العسل كدواء للأمعاء :

إذا كانت الأمعاء تخمر النشويات ، وسكر القصب ينتج من التخمر ثاني أكسيد
الكربون - أى غازات بدون رائحة - ويحدث انتفاخه بالبطن ، فإن العسل أقل ضررا في
هذه الحالة من سكر القصب لأن سرعة امتصاصه تعيق تخميره .

٢ - الأصماغ

الأصماغ والعسل يلينان البلغم ، ويسهلان خروجه ، فيفيدان في أمراض الجهاز
التنفسى العادية .

٣ - فيتامين ج

موجود بكثرة في العسل وهو أهم فيتامين يحتاج له الجسم ، فيساعده على الحركة ،
ومقاومة الأمراض ، ويقوى أسنانه وعظامه اللينة . ويظهر سببان لاستعمال العسل في
الحميات ، وهى إيجاد غذاء لا يحتاج لهضم ، وفيتامين ج لمقاومة المرض ، أما الفيتامين
(أ ، ب) فإنها نافعة إلا أن كميتها ضئيلة .

٤ ، ٥ المعادن وبيض النحل

موجودة بكمية صغيرة تزيد في التغذية كذا حامض النحل كمقو للعضلات ،
أما بيض النحل ففيه مواد زلالية نافعة ومغذية .

إن العسل مفيد في كل زمان :

١ - في تغذية الأطفال والمرضى .

٢ - في علاج تخمرات الأمعاء من تناول النشويات .

- ٣ - فى تحلوة سواقل مرضى البول السكرى .
 ٤ - كملن للأطفال .
 ٥ - ومسهل بمقنة شرجية .
 ٦ - ثم مفيد فى حالات السعال مع بلغم بالجهاز التنفسى .

حقائق علمية

ولكى نزيد هذا الأمر وضوحا ، ونفصله تفصيلا يليق بإعجاز القرآن الذى يثبت نبوة محمد ﷺ ننقل هذه الحقائق العلمية عن فريق من الأطباء الباحثين الذين قالوا فى قوله تعالى : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ .

استعمالات عسل النحل

لم يعرف قدر هذه الآية العلمية الطيبة - التى تعتبر دليلا ما بعده دليل على معجزة القرآن العلمى - إلا فى الستين الأخيرة من القرن الحالى ، فإن عسل النحل هو سلاح الطبيب فى أغلب الأمراض واستعماله فى ازدياد مستمر بتقدم الطب ، فهو يعطى بالفم ، وبالحقن الشرجية ، وتحت الجلد ، وفى الوريد ، ويعطى بصفته مقويا ومغذيا وضد التسمم الناشئ عن مواد خارجية مثل الزرنيخ ، والزرنيق ، والكلور ، وفورم ، كذلك ضد التسمم الناشئ من أمراض فى أعضاء الجسم مثل التسمم البولى ، الناتج من أمراض الكبد والمعدة والأمعاء . وفى الحميات ، والحصبة ، والالتهاب الرئوى ، والسحائى . وفى حالات الذبحة الصدرية ، وبصفة خاصة فى الارتشاحات العمومية الناشئة عن التهاب الكلى الحاد ، وفى احتقان المخ والأورام المخية .

إذا علمنا أن الجلوكوز يستعمل مع الأنسولين - حتى فى حالة التسمم الناشئ من مرض البول السكرى - علمنا مقدار فوائده وأن القرآن الكريم لم يذكره مصادفة ، ولكنه تنزيل من حكيم حميد .

وتفيد الأخبار الطيبة أن الباحثة الأمريكية جوليا تشرسن قد توصلت - بعد تجارب متعددة - إلى أنه توجد مادة مجهولة فى عسل النحل وشمعه لها القدرة على شفاء تصلب المفاصل ووجدت أن العسل المستخرج من القرص مباشرة - دون أن يسخن أو يتعرض لأى معاملة صناعية - يقضى على تصلب الرسغين الذى يصيب بنى الإنسان .

هذا ، وقد انجهدت الأبحاث العلمية التي تجرى على النحل وعسله إلى دراسة سم النحل : إذ تقوم حاليا بعض المؤسسات الطبية باستخراج سم النحل الذى يفرزه عن طريق آلة اللسع ، لاستعماله فى معالجة بعض الأمراض المستعصية ، وفى أمريكا وانجلترا حاليا (مناحل) لا غرض لها إلا تربية النحل لاستخراج مصله ، وعمل حقن منها لعلاج كثير من الأمراض الروماتيزمية ، وعرق النساء ، والرمد الحبيبي .

ومازال العلم يحمل إلينا كل يوم فائدة طبية ، إلى جانب الفوائد التى ذكرناها فيما يخرج من بطون النحل .

وقد ذكرت الصحف اللندنية أنه توجد فى لندن امرأة نمساوية مسنة (أوين) تداوى المرضى الذين يئس الأطباء من شفائهم بقرص النحل وقد أثار خير هذه السيدة اهتماما كبيرا فى أوساط لندن لا سيما وأن نتائج معالجتها قد أدت إلى الشفاء .

ومن الأخبار العلمية التى نشرت فى صحف ٦ مارس ١٩٥٦ أن أحد كبار الجراحين فى مستشفى (نور فولك) الانجليزى استخدم عسل النحل لتغطية آثار الجروح الناتجة عن العمليات الجراحية التى يجريها وذلك بعد أن ثبت له أنه يساعد على سرعة الشفاء هذه الجروح وإزالة آثارها ، فلا تترك تشوهات بعد العملية . كما تبين له من التجارب التى أجراها أن طبيعة العسل وما يحويه من مواد تساعد على نمو الأنسجة البشرية من جديد فتلتئم الجروح بطريقة مستوية ، ويقوم المذكور برش العسل على موضع الجرح بصورة سائلة أو على هيئة حبيبات . وقد أعلن البروفيسور كلود هيليو من علماء فرنسا أن هناك نوعا من النحل يسمى (النحل الملكى) له قدرة على افناء جميع أنواع الجراثيم وأنه سيحقق للإنسانية فوائد عظيمة : ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ .

إلهى .. ما أعظمك

خيرنى بربك يا أبا الإسلام فى أى الجامعات تخرج محمد بن عبد الله ؟ وعلى أى الأساتذة تلقى العلوم ؟ من الذى علم محمدا منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ما أذهل العقول وحرر الأفكار إنه الله الذى قال له : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ فبينما العلماء المحدثون يجهلون أبحاثهم وتتوارد الأنبياء عن جهودهم ، نرى ونقرأ القرآن الكريم منذ الأمد البعيدة فى إيجازه المعجز : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ .

ويقول خاتم الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليه : « عليك بالشفاءين : العسل والقرآن » . هل دخل محمد ﷺ المعامل التحليلية واستعمل الأجهزة الدقيقة ؟ هل ذهب إلى أستاذ في الطب ووظائف الأعضاء وتلقى على يديه العلوم الكونية ؟ إن العالم يشهد أن رسول الله ﷺ لم يذهب إلى جامعة من جامعات العالم ولم يتلمذ على أستاذ من الأساتذة وإنما أوحى الله إليه بكتاب حكيم : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ وقال له : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

الرد على أعداء الإسلام في (آية النحل)

يحاول المستشرقون ومن على شاكلتهم من المبشرين والمستغربين أن يثيروا الغبار على كل قضية من قضايا الإسلام بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وهم في الحقيقة أقزام يمشون الهواء ويحاولون أن يفتلوا من الرمال حبالا وأن يطالوا السماء ويمدوا إلى الشمس يدا شلاء .

(العقاد) والرد على المبشرين

وفي كتاب (ما يقال عن الإسلام) للكاتب الكبير المرحوم الأستاذ العقاد وقفت على مقال في هذا الصدد رأيت أن أسجله على هذه الصفحات لما يحويه من فوائد جلية .

يقول الأستاذ العقاد رحمه الله : إن العقل السليم لا يتقبل الحكم على الشيء بالعبادة والقداسة لعله واحدة في وقت واحد فإن تقبل العقل ذلك السبب وخاصة أمراض الجنون أو هوى دفيناً يحمله على المغالطة ويعجزه عن مقاومتها أو خداعاً مقصوداً يعرفه العاقل بينه وبين نفسه ويصطنعه مع غيره لغشه والاحتيال عليه .

ولسنا نخطئ القول في أن جماعة المبشرين المتخصصين في نقد القرآن وعقائد الإسلام آفة من هذه الآفات فليس فيمن عرفناه منهم واحد يسلم من التخبط في التفكير كما يتخبط المصابون بالعلل العقلية أو يملكه التعصب الذمير فيقوده إلى المغالطة ويسول له أن يحجب الحقيقة عن عينيه بيديه أو يعمل عمل المحترف الذى يحتال لصناعته بما وسعه من وسائل الترويج والتضليل ويعينه أن يعرض بضاعته ويهيب لها أسباب النفاق في السوق وربما اكتفى من النفاق باقتناع صاحب البضاعة بصدق الخدمة في العرض والترويج .

وبعد هذه المقدمة عرض الأستاذ العقاد قضية من القضايا العاجلة الباطلة التى أثارها المبشر (صمويل زويمر) في كتابه (بلاد العرب مهد الإسلام) في فصل عن (العلوم

والمفنون العربية) قال صمويل زويمر في هذا الفصل أن (الشهد) لم يزل معدودا كالترياق في بلاد العرب استنادا إلى القرآن والحديث وقد كانت الإشارة الوحيدة إلى الطب في وحى محمد ﷺ هذه الكلمة (الغيبة) التي يقول فيها عن النحل أنه : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ وقد كان هذا هو العلاج الوحيد الذى وصفه الله في كتابه .. ثم يرد الأستاذ العقاد على هذه الفرية التي افتراها ذلك المبشر فيقول : إن الدجل المتعمد ظاهر في قول هذا العلامة (الغيبى) أن القرآن حصر الطب كله في دواء واحد هو (الشهد) فإن المعنى الذى تفيده الآية - بغير لبس ولا محاولة - أن الشهد (شفاء) ولم تقل أنه كل الشفاء ولا أنه شفاء من جميع الأمراض فإن وصف (الشهد) بهذه الصفة لا يزيد على أنه دواء من الأدوية كما يوصف أى عقار من العقاقير في الصيدليات .

ومثل هذا الادعاء (التبشيري) لا يعتسف اعتسافا بهذه الصورة إلا للافتراء المتعمد طمسا للحقيقة مع سوء النية ، أما حكم العلامة (بالغبوة) على وصف (الشهد) بالشفاء فليس له معنى غير غباوة مطبقة في القائل إن كان مصدقا لما قال .. لم لا يكون (الشهد دواء من الأدوية) وهو خلاصة أعشاب وأزهار ؟

إن علاج الأمراض بالأعشاب والأزهار قديم جدا في كل أمة وهو قوام للعلاج إلى اليوم في أكثر الأدوية التي يصفها الأطباء المصريون لضروب شتى من الأمراض وتستحضرها معامل الكيمياء في بلاد الحضارة ، وهذا قبل شيوع الكلام عن (الفيتامينات) وتقرير العلاج بها للأمراض الباطنية وأمراض الأعصاب وعلل الضعف والاعياء على اختلافها .. فلماذا يتمتع على العقل كل الامتناع أن يصف دواء (الشهد) بوصف غير الغباوة ؟

لماذا يرفض العقل أن تكون خلاصة الزهر ومستودع الفيتامينات والحيوانات دواء ينتفع به الضعيف أو المريض ؟ إن (الغباوة) هي عجز العقل عن فهم هذه الحقيقة أو عجزه عن فتح الباب لتصورها عن كل احتمال . وإلى هنا قد تكون (الغباوة) مفهومة إذا هي تشابهت في سوء الفهم ولم تخصص للشهد دون غيره ولكنها (غباوة) تنزل إلى ما دون مستوى الفهم إذا كان صاحبها يرفض (الشهد) علاجاً ثم يتقبل تطهير الأمراض الجلدية بدماء العصافير ويتقبل أن تكون رائحة الشواء سرورا للإله .. ثم يستطرد الأستاذ العقاد قائلاً : بعد وفاة (زويمر) ببضع سنوات ظهر باللغة الإنجليزية كتاب عن الطب الطبيعى يقول مؤلفه عن (الشهد) ما كان (زويمر) يدعيه على القرآن الكريم ، ويعقد المؤلف لخصائص (الشهد) الطبية فصلا مستقلا يوشك أن يجمعه (صيدلية) وافية تغنى عن عشرات من العقاقير وليس المؤلف واحدا من أولئك المتطبين الجهلاء بل هو الدكتور

(جارفيس) الطبيب المتخرج من مدارس الطب الحديث وصاحب المباحث العلمية العديدة وهو لا يعطل فائدة (الشهد) في العلاج (بالبركة) ولا بالتأثير النفساني المستمد من العادة ولا بالتغذية الصالحة التي تعمل عمل الدواء وإن لم يحسبها الأطباء من الأدوية وتقسيمها على حسب الجراثيم التي تحدث الأمراض أو تضاعف أضرارها . ويقول في تمهيدات فصل مطول كتبه عن (الشهد) خاصة : أنه لا يتكلم عن نظرية معروضة للامتحان بل يقرر التجربة المحققة التي أثبتت أن (البكتريا) لا تعيش في (الشهد) لاحتوائه على مادة (البوتاس) وهي تحرم (البكتريا) تلك الرطوبة التي هي مادة حياتها .

قال : أن الدكتور (ساكيت) أستاذ البكتريا بكلية الزراعة في (فورت كولتد) وضع أنواعا من جراثيم الأمراض في (قوارير) مملوءة بالعسل الصريف فماتت جراثيم (التيفود) بعد ثمان وأربعين ساعة ... وماتت جراثيم (النزلات الصدرية) في اليوم الرابع ... وماتت جراثيم (الدوستتاريا) بعد عشر ساعات ... وماتت جراثيم أخرى بعد خمس ساعات .

ثم استطرد المؤلف إلى بيان المواد الغذائية الموفرة في (الشهد) فذكر منها الأغذية المعدنية وعد أكثر من عشرة معادن غذائية تدخل في تركيبه ، ونقل تقرير الأستاذ (شويت) العالم الكيماوى الذى يقول فيه : أن الأغذية المعدنية تختلف باختلاف ألوان (الشهد) : فالنحاس والحديد والمنجنيز أوفر في (الشهد) الضارب إلى السواد ... والحديد ضرورى لاتصاله بالمادة الملونة للدم أو الهيموجلوبين وبلى ذلك كلام عن المعادن الغذائية وعلاقتها بألوان هذا الشراب كما جاء في القرآن الكريم وهو يشير إلى اختلاف ألوانه وما احتوته من أسباب الشفاء ، ثم أجمل الطبيب مزايا المادة السكرية في (الشهد) فعدد منها :

- ١ - أنها لا تهيج جدران القنوات الهضمية .
- ٢ - أنها سريعة التمثيل في البنية .
- ٣ - أنها تتحول سريعا إلى طاقة بنية .
- ٤ - أنها مناسبة للمشتغلين بالألعاب الرياضية لتعويض الطاقة .
- ٥ - أنها بين أنواع السكريات أوفقها للكليتين .
- ٦ - أنها مهدئة ملطفة .
- ٧ - أنها مساعدة طبيعية لعملية الهضم فضلا عن سهولة الحصول عليها .

ومضى الطبيب في خصائص (الشهد) النافعة للعلاج وغذاء الكبار والصغار ولم يذكر في سائر الفصول دواء (طبيا) آخر له مثل هذه الخصائص أو لخصائصه مثل هذا الثبوت بالتجارب الواقعة وتجارب المعامل .

تصفحت هذا الكتاب عن الطب الطبيعي تذكرت كلمة (زويمر) عن الآية القرآنية ووجدتها مثالا أصح من كل مثال لابرار (عقلية المبشر) بما طوته من عيوب الزيف والتعصب والمغالطة مع عيوب الغباوة والغنى في كثير من الأحيان ولاح لي أن نصيب (زويمر) من هذه العدة المعكوسة على قدر مكانته في ميدان التبشير إلا أنها عدة لا ترشحه لرد المسلمين عما اعتقدوه بل لعله لا يتطلب لرسالته عدة أوفى منها لو أنه أراد تثبيت المسلمين على عقائد الإسلام . (انتهى كلامه)

ولا يسعنا بعد الكلام عن هذه المشاهد القرآنية الكريمة إلا أن نجمع هذه الآيات التي سبق الكلام عنها الآن لتكون صورة متكاملة أمام القارئ .

قال جل شأنه : ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين . ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون .. ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ .

لقد أفضنا في الحديث عن هذه الآيات لما اشتملت عليه من أدلة قطعية تخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد وتقطع الطريق على كل ﴿ أفاك أئيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ﴾ .

فليسأل الإنسان نفسه هناك نظام يقوم بلا منظم أو تدبير ينشأ عن غير عناية ؟ وهل تستطيع الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء أن توجد نظاما أو تشيد كونا متكاملا منسقا كل ما فيه ينطق بالحكمة وينفى العبث ؟

سبحانك ربى أنت خالق كل شيء وأنت على كل شيء قدير :

يا من لا تدركه الأبصار ولا تحويه الأقطار ولا يؤثر فيه الليل والنهار وهو الواحد القهار .

الايجاد والمدم

وتنتقل بنا الآيات الكريمة بعد هذا إلى النهاية المحتومة والمصير المكتوب على كل إنسان فيقول تعالى : ﴿ وَاللّٰهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُمْ مَنْ يَرْدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعَمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ . فهذا النص الكريم ينبه ويرشد بعد آيات النعم إلى أنه لا بد من المصير المحتوم للقاء الله رب العالمين لذلك فإننا نرى الكتاب العزيز في مواضع عديدة يؤكد هذا المعنى ...

اسمع هذا المشهد القرآني الذي يقول الله عز وجل فيه :

﴿ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمَ السَّمَاءِ بَنَاهَا . رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا . وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضَحَاهَا . وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا . وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ .

وبعد هذا إلى المصير المحتوم الذي لا بد من أن نلاقه جميعا فقال عز شأنه :

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَىٰ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ﴾ ثم انتقل معي إلى مشهد قرآني آخر يزيد المعنى توكيدا حيث يقول الله جل شأنه :

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ .. أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا .. ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شِقَاقًا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعَبْأًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدائقَ غَلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ .

ثم ينبه بعد ذلك إلى ما سنلاقه جميعا فيقول جل شأنه :

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعِقَةُ ، يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ .

وهكذا أيها القارئ الكريم يتجلى أمامك أن الدنيا مهما أقبلت فهي مولية وأن الحياة مهما طالت فإنها منتهية . فالليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر :

﴿ وَاللّٰهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُمْ مَنْ يَرْدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعَمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ .

فإنه تعالى يخبر في هذه الآية الكريمة عن تصرفه في عباده وأنه هو الذى أنشأهم من العدم ثم بعد ذلك يتوفاهم ومنهم من يعيش حتى يدركه الهرم وهو الضعف فى الخلقة كما قال تبارك وتعالى : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ .

وقد روى عن الإمام على كرم الله وجهه أن أُرذل العمر خمس وسبعون سنة وفى هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم ولهذا قال : ﴿ لكى لا يعلم من بعد علم شيئا ﴾ أى بعدما كان عالما أصبح لا يدري شيئا .

روى البخارى فى تفسير هذه الآية الكريمة عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدعو فيقول : « أعوذ بك من البخل والكسل والهرم وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة الغيا والممات » .

عود إلى أدلة التوحيد

بعدها قامت الأدلة الكونية تؤكد وحدانية الخالق جاءت الأدلة السابقة : ﴿ والله خلقكم ثم يتوفاكم ﴾ لتبين أن المصير فى النهاية إلى الله الخالق العظيم ، ثم عاد النظم الكريم يحدثنا عن القضية الأصلية الأساسية التى تدور حولها الأدلة ، وهى قضية التوحيد ، فجاء القرآن بدليل يخاطب العقل خطابا منطقيًا سديدا .

يخاطب الذين زعموا أن الله شركاء : ﴿ سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ﴾ فقال جل شأنه : ﴿ والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون ﴾ .

يخبر مولانا تبارك وتعالى فى هذه الآية عن جهل الضالين المضلين المشركين المارقين ويبين لهم بشاعة كفرهم فيما زعموه له من الشركاء وهم يعترفون أنهم عبيدله كما كانوا يقولون فى تلييتهم فى حجهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك فقال تعالى منكرا عليهم : أنتم لا ترضون أن تتساووا مع عبيدكم فيما رزقناكم . وكلمة (الرزق) هنا كلمة شاملة كاملة تشتمل على كل ما يجدد الله به على الإنسان وما يهبه إياه من مطعم ومشرب وزوجة ومال ومسكن فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له فى الألوهية والتعظيم كما قال فى الآية الأخرى التى تطابق هذا المعنى فى إيضاح قضية الوحدانية توضيحا لا لبس فيه ولا غموض . وهذه الآية فى سورة (الروم) حيث يقول جل شأنه :

﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء . تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ .

وقد بلغ من روعة القرآن وعلو طبقة أن آية (الروم) هذه جاءت عقيب عقد فريد انتظم عديدا من الأدلة على الوجدانية مثله في ذلك كمثل آية (النحل) التي نحن بصدد الحديث عنها .

لقد سبق آية (الروم) - السالفة الذكر - قوله تعالى :

﴿ يخرج الحمى من الميت ويخرج الميت من الحمى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة . إن في ذلك لآيات لقوم يفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله ، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من في السموات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ثم بعد بيان هذا الأدلة المضيئة بنور الوجدانية تأتي الآية الكريمة لتخاطب كل من له عقل وإدراك فيقول : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء ﴾ .

إذا كنت أيها العبد المخلوق لا ترضى لعبد تملكه يمينك أن يتسارى معك في رزقك فكيف ترضى ذلك للمخلوق البارىء المصور ، وكيف تدعى زورا وبهتاناً أن معه من عباده من يساويه في الألوهية والعظمة .

سبحانك ربى : يا من تقول في الحديث الجليل : « الكبرياء رداً في العظمة إزارى فمن نازعنى فيما أدخلته نارى » نعم يارب العزة : ﴿ فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيانهم فهم فيه سواء ﴾ .

يقول ابن عباس رضى الله عنه في هذه الآية الكريمة : لم يكونوا يشركوا عبيدهم في أموالهم فكيف يشركون عبيدى معى في سلطانى فذلك قوله تعالى : ﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾ .

ويقول ابن عباس أيضا : فكيف ترضون لى ما لا ترضونه لأنفسكم ؟ وقوله تعالى : ﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾ أى أنهم جحدوا نعمة الله فأشركوا معه غيره وكان الأجدر بهم أن يشكروا هذه النعمة بعقيدة التوحيد .

ويواصل النظم الكريم سيره المبارك فيذكر لنا نعمة هى من جليل النعم التى امتن الله بها على عباده فيقول جل شأنه : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ .

أى منطق وأى عقل سليم يمعن النظر في هذه الآية ثم لا يلقي باللوم الشديد على كل من يؤمن بالباطل ويكفر بنعمة الله ؟ فالله جل شأنه يخبر في هذه الآية الكريمة أن من نعمه على عباده أن جعل لهم من أنفسهم أزواجا من جنسهم وأشكالهم ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته أن خلق من بنى آدم ذكورا وإناثا وجعل الاناث أزواجا للذكور . ثم ذكر جل جلاله أنه جعل من الأزواج : البنين والحفدة وهم أولاد البنين ، قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد .

قال شعبة : عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : (بنين وحفدة) ، وهم الولد وولد الولد . وفي قوله تعالى : ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ إنجاز بليغ وكلمة جامعة فالطيبات : كل ما تطيب به النفس من النعم فهذه الكلمة الكريمة شاملة للمواهب الإلهية التى ينعم بها الإنسان وواجبة شكر المنعم عليها :

إذا كنت فى - نعمة فارعها فإن المعاصى تزيل النعم
يحافظ عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم

يا ابن آدم :

يا من بدنياه اشتغل و غره طول الأمل
الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل

وبعد هذه النعم كلها يأتي الاستفهام الإنكارى : ﴿ أقبال باطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ بل ويأتي عقيب ذلك قوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون ﴾ .

وقد جاء في الحديث الصحيح : « إن الله يقول للعبد يوم القيامة ممتا عليه : ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل ؟ » .

وأما قوله تعالى : ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ فقد جاء نتيجة لمقدمات صحيحة : إذ قد ثبت أن الله واحد أحد فلا يليق بعائل أن يضرب له الأمثال ويجعل له الأشباه والأنداد لأن ما سوى الله تعالى إنما هو مخلوق له فكيف يكون المخلوق شبيها بالخالق ؟

الضلال كله أن يجب الناس خمسا وينسون خمسا : يحبون المخلوق وينسون الخالق .
ويحبون المال وينسون الحساب . ويحبون القصور وينسون القبور . ويحبون الدنيا وينسون الآخرة . ويحبون الذنوب وينسون التوبة .

ابن آدم :

أنت الذى ولدتك أمك باكيا والناس حولك يضحكون سرورا
فاعمد إلى عمل تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكا مسرورا
﴿ إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

إيضاح وتبيين

لما كانت قضية الألوهية من أعظم القضايا بل هي أعظمها جميعا فإن القرآن الكريم أورد كما كبيرا من الأدلة وأراد أن يزيد بها إيضاحا وتقريراً فضرب مثلين إذ بالمثل يتضح المقال .

قال جل شأنه : ﴿ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهوى ينفق منه سرا وجهرا هل يستونون . الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه

لايات بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم . والله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب . إن الله على كل شيء قدير والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون . ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴿

معنى المثل :

ضرب الله مثلا لكل ما يعبدون من دون الله في أى زمان أو مكان : (والله تعالى هو الواحد الخالق البارئ فاطر السموات والأرض واهب الوجود والمنعم بكل شيء موجود) ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لملكه وهو لا يقدر على شيء أبدا فلا ينفع نفسه ولا غيره وحرا رزقناه منا رزقا حسنا وأعطيناه مالا وفيرا فهو ينفق من المال سرا وجهرا في جهات الخير والبر : هل يستوى هذا العبد الذى لا خير فيه مع هذا الحر الغنى المنفق في وجوه البر والخير وهل يستوى الضار والنافع .

لا يستوى هذا وذاك أبدا ومن ذا الذى يسوى بين غير الله من المخلوقات وبين الله القدير جل جلاله وتباركت أسماؤه صاحب النعم وله ملك السماوات والأرض يده مبسوطان ينفق كيف يشاء الحمد لله والثناء الجميل والشكر الجزيل لله الواحد القهار المنعم بملائل النعم والمتفضل بدقائقها لا مانع لما أعلى ولا معطى لما منع .. هو المستحق وحده الحمد والثناء لا إله إلا هو : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى لا يعلمون الحق فيتبعوه ويعرفوا المنعم عليهم بالنعم الجليلة فيخصوه وحده بالتقديس والتنزيه .

ومعنى المثل الثانى : ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلا ثانيا لنفسه ولما يفيض على عباده من النعم الدينية والدنيوية وللمعبودات التى لم تسبق لها الحياة وهى لا تضر ولا تنفع فقال : ﴿ وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم ﴾ أى عوى مفحم مقطوع اللسان أخرس لا يقدر على شيء أبدا لعدم فهمه وعدم قدرته على النطق : ﴿ كل على مولاه ﴾ أى يقوم بحاجته ولا يؤدى عمله لنفسه فهو ثقل على قرابته هذا الأبكم الذى لا يقدر على تحصيل شيء أبدا وهو كل على مولاه أينما يوجهه إلى أى جهة أخرى لا يأت بخير قط لأنه لا يفهم ولا يعقل ما يقال له .. هل يستوى هذا الذى وصفناه بهذه الأوصاف والذى يأمر بالعدل ويسير بالعدل ويحكم بالعدل ، ويأمر بالعدل وينطق ويفهم ويتصرف على أتم وجه وأكمله وهو على صراط مستقيم ودين قويم وسيرة صالحة لا افراط فيها ولا تفريط .

والنتيجة :

نستطيع أن نستنتج من هذين المثالين السابقين أن غير الله لا يمكن بحال من الأحوال أن يتساوى مع الله فالله واجب الوجود لذاته وغير الله حادث بعد العدم ، والله واجب له كل كمال يليق بذاته وغير الله لا يخلو من نقص ، والله تعالى واجب له القدم فاستحال عليه الحدوث ، وواجب له الوجدانية فاستحال في حقه الشرك والتعدد ووجبت له القدرة فاستحال عليه العجز ووجبت له الإرادة فاستحال في حقه القهر والجبر ، ووجب له العلم فاستحال في حقه الجهل ، ووجبت له الحياة فاستحال في حقه الموت ، ووجب له السمع والبصر فاستحال في حقه الصم والعمى ، ووجب له الكلام النفسى فاستحال في حقه البكم وغاية الأمر أن كالات الله لا تنتهى لا يحصرها عد ولا يحيط بها حد : ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحداً ﴾ .

مع القدرة الباهرة والعلم المحيظ

وبعد الحديث عن الوجدانية ينتقل بنا النظم الكريم إلى الحديث عن العلم المحيظ والقدرة الباهرة فيقول جل شأنه : ﴿ والله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير ﴾ .

يخبر مولانا تبارك وتعالى في هذا النص الكريم عن كمال علمه وعظيم قدرته على الأشياء فهو تعالى يعلم غيب السموات والأرض وأنه مختص بعلم الغيب لا شريك له فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلع الله من يشاء على ما يشاء قال جل شأنه : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾ .

أما عن القدرة : فأمره تعالى بالكاف والنون : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ أى فيكون ما يريد سبحانه كطرف العين . وهكذا قال ههنا :

﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير ﴾ .
وكما قال : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ .

هذا خلق الله

عالم الأجنة من أكبر الأدلة على صدق القرآن الكريم وقدرة الله الذي أنزل القرآن وعلى صدق سيدنا محمد ﷺ الذي بعث بالقرآن ، فإن الأطوار التي يمر الإنسان بها في الرحم عديدة ومختلفة . يقول سبحانه :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا المعلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

فيم خلقنا ؟ خلقنا في أرحام يغير عنها مولانا فيقول : ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ فما هو الرحم .

يقول عنه علماء الحياة ووظائف الأعضاء : أنه كيس عضلي كثري الشكل يقع خلف المثانة أمام المستقيم ثم يذكرون أبعاده فيقولون أن طوله يبلغ حوالي سبعة من السنتيمترات ، وعرضه يبلغ حوالي خمسة من السنتيمترات وسمكه يبلغ حوالي اثنين من السنتيمترات ، والقرآن الكريم يسمى هذا الرحم قرارا مكينا حيث يقول جل شأنه :

﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا نعمم القادرون ﴾ هل خلقنا وصورنا في أضواء أو أشعة ؟ كلا بل إن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ﴾ .

فلينظر الإنسان مم خلق ؟

مم خلقنا ؟

من كائن منوى مفرطح الرأس طويل الذنب لا يزيد طوله عن أربعة وخمسين على ألف من المليمتر وتبلغ سرعته في الطريق إلى الرحم : نصف مليمتر في الثانية الواحدة اتصل هذا الكائن المنوى بيويضة الأم عندما شاء الله أن يخلق الإنسان .

فكيف حالنا في عالم الأرحام ؟

كنا نتغذى بغذاء الأم ونتنفس بتنفسها وقد أمدنا الله بالأوكسجين اللازم وجعل درجة الحرارة في الرحم ثابتة لا تتغير صيفا ولا شتاء وكان وزن الإنسان عندما بلغ سبعة أشهر وهو في الأرحام خمسة أرتال وعندما بلغ تسعة أشهر كان وزنه سبعة أرتال أو ثمانية ..

فكيف اجتاز الطريق من الرحم إلى عالم الدنيا وهو طريق ضيق دقيق ؟

ذلك أنه لما أراد الله للإنسان الخروج أمر الرحم أن تقلص عضلاته حيث أصبح الإنسان ضعيفا ثقيلًا عليه فتقلصت العضلات فعبّر الإنسان هذا المضيق الدقيق ، والقرآن يجمع تلك الحقائق في آيات معجزة فيقول : ﴿ من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السيل يسره ﴾ .

فكيف كان حالنا عند الخروج من بطون أمهاتنا ؟

يقول عز وجل : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ وبنظرة فاحصة في قوله تعالى : ﴿ لا تعلمون شيئا ﴾ تفيد نفى العلم بالكلية إذ يقول علماء اللغة أن النكرة في سياق النفي : تفيد العموم ثم بعد ذلك زدنا الله بالعلم والمعرفة ليكون ذلك دليل انعامه وتفضله ولتقابل هذا بالشكر والشكر لله : أن تسخر نعم الله في طاعته وأن لا تستعملها في معصيته .

قال موسى عليه السلام لربه : (يا رب كيف أشكرك ؟ قال : يا موسى تذكرني ولا تنساني : إنك إن ذكرتني شكرتني وإن نسيتني كفرتني) وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ .

وقد مر أحد الناس برجل من الصالحين ابتلاه الله بفقد بصره وعجز في يديه وهو يردد بلسانه قائلا : (الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرا من خلقه) فقال له الرجل : فمن أى شيء عافاك ؟ قال له : (وهب لي قلبا ذاكرا ولسانا شاكرا) ثم أنشد يقول :

وحمدت الله ربي إذ هداني إلى الإسلام والدين الخفيف
فيذكره لساني كل وقت ويعرفه فؤادي باللطيف

عالم الطير

ويثقل بنا النظم الكريم بعد ذلك إلى آية المشاهدة لتدل على عظمة الإله الخالق المهيمن من أن تلك الآية هي عالم الطير حيث يقول جل شأنه : ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

يقول المفسرون في هذه الآية الكريمة : بينه الله سبحانه وتعالى عباده للنظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض كيف جعله يطير بجناحين في جو السماء ما يمسكه فيه إلا الله بقدرته تعالى وجعل فيها قوى تفعل ذلك وسخر لها الهواء يحملها ويسيرها كما قال تعالى في

سورة الملك : ﴿ أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير ﴾ .

وأعلم يا أحمى أن عالم الطير فيه من حقائق الأسرار ودقائق الأخبار ما ينبىء عن عظمة الخالق الكبير فقد نطق العلم مخبرا عن هذه الأسرار : كيف جهز الله الطير بها لتلائم حياته ، هذه الدنيا التى يعيش فيها ويطير فى أجوائها ؟

يقول علماء الكون أن الجهاز الهضمى للطيور يختلف اختلافا كبيرا عن الجهاز الهضمى فى الحيوانات مما يؤكد دقة المرمى ، ويظهر حسن القصد ويوضح جميل الصنع إذ تميد من رأس كل طائر جزء صلب خال من الأسنان عظمى التركيب هو المنقار الذى يستخدم فى التغذية بدلا من الفم ، والشفيتين والأسنان عند سائر الحيوان إذ يتلع الطير غذاءه بلا مضغ وتختلف مناقير الطيور باختلاف أنواع غذائها : فالطيور الجارحة كالبيوم والحدأة ذات منقار قوى مقوى حاد على شكل خطاف وذلك تمزيق اللحوم . بينما الأوز والبط لها مناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالمغرفة لتلائم البحث عن الغذاء فى الطين تحت الماء . وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالأسنان لتساعد على قطع الحشائش .

أما الدجاج والحمام وباقي الطيور التى تلتقط الحب من الأرض فمناقيرها صغيرة مدببة لتؤدى هذا لغرض . بينما منقار البجعة مثلا طويل طولا ملحوظا ويمتد من أسفله كيس كبير يشبه الجراب ليكون كشبكة الصياد إذ أن السمك هو غذاء البجعة الأساسى .

ومنقار الهدهد وأبى قردان طويل مدبب أعد باتقان للبحث عن الحشرات والديدان والتى غالبا ما تكون تحت سطح الأرض .

ويقول العلم أنه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء أى طير من النظرة العابرة إلى منقاره .

أما باقى الجهاز الهضمى للطير فهو غريب عجيب فلما لم يعط أسنانا فقد خلقت له حويصلة مقانصة تهضم الطعام .

ويلتقط الطير موادا صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام .

تأمل معى من الذى هيا لعالم الطير هذا النظام وأرشده إلى أن يسلك سبيل الحياة كما قال سيد المرسلين ﷺ : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خصا وتروح بطانا » هل تستطيع الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء أن توجد هذا النظام البديع والاتقان الحكيم ؟

﴿ قال فمن ربكم يا موسى؟ قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى
قال : فما بال القرون الأولى؟ قال : علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى
الذى جعل لكم الأرض مهذا وسلك لكم فيها سبلا . وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به
أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ .

الفصل التاسع

القول الحق

ما زال الحديث يدور حول الرد التفصيلي على ما جاء في تلك الرواية (أولاد حارتنا) .

قال كاتب الرواية : كان مكان حارتنا خلاء فهو امتداد لصحراء المقطم الذى يربض فى الأفق ولم يكن فى الخلاء من قائم إلا البيت الكبير الذى شيده الجبلاوى كأنما يتحدى الخوف والوحشة وقطاع الطريق . وذات يوم استدعى سيد البيت أبناءه إلى حجرة الجلوس بالطابق السفلى وجاء أبناؤه جميعا : إدريس وعباس ورضوان وجيليل وأدهم مرتدين حللهم الحريرية ويخبرهم أنه رأى من الأفضل أن يعهد بإدارة الأوقاف إلى شخص آخر غيره وظن الجميع أنه سيعهد بها إلى إدريس ابنه الأكبر ولم يشك أحد فى ذلك . .

لكن المفاجأة أن الجبلاوى يختار أدهم بدلا من إدريس ﴿ إني جاعل فى الأرض خليفة ﴾ . ويثور إدريس ويحتج بأنه أكبرهم ولكن الأب يؤكد له أن اختياره لصالح الجميع : ﴿ قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ .

ويقول إدريس : (إني واخوتى أبناء هاتم خيرة النساء ، أما هذا فابن جارية سوداء) ﴿ أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ . ويرد الجبلاوى بعد أن يأمر إدريس بالتزام الأدب بأن أدهم يعرف المستأجرين ومعظم أسمائهم وعلى علم بالكتابة والحساب ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ﴾ .

وتثور ثائرة إدريس وينفجر قائلا : أى نوع من الآباء أنت ؟ خلقت فتوة جبارا فلم تعرف إلا أن تكون فتوة جبارا ونحن ابناؤك تعاملنا كما تعامل ضحاياك العديدين .

والحق أنه لم يبد من الأب قبل هذا اليوم ما ينم عن التحيز فى معاملته لأبنائه حتى إدريس على قوته وجماله وإسرافه أحيانا فى اللهو لم يسء قبل ذلك اليوم إلى أحد من أخوته كان شابا كريما حلو المعشر (هنيئا لإبليس دفاع الأستاذ عنه) .

ويتهى الموقف بطرد إبليس من البيت بينما يتولى أدهم إدارة الوقف : فكان أدهم يذهب كل صباح إلى مكتب الوقف في الحديقة المجاورة للبيت الكبير يعمل بجد واجتهاد يجمع الايجار من المساكن ويوزع الأسهم على المنتفعين ثم يعرض الحسابات على أبيه . ويتعلق قلب أدهم بفتاة في البيت الكبير هي أميمة ويتم زواجهما . أما إدريس فيدخل في حالة شبه دائمة من السكر والعريضة على مقربة من البيت الكبير ويرسل لعناته في الهواء ويفاجيء إدريس أدهم بزيارة أثناء عمله ويطلب منه أن يسدى إليه معروفا هو أن يطلع على ما دون الأب (الجبلاوى) في الكتاب السرى ثم يخبر إدريس إن كان له نصيب في الوصية أم لا حتى يعرف مستقبله . ويظل إدريس يغرى أدهم مظهرا له الود وصدق النية والاخلاص ويستعطفه ولكن أدهم يستنكر أن يقوم بعمل مثل ذلك لأن الجبلاوى حرم على الجميع أن يقتربوا من الحجرة الصغيرة التي تحتوى على الكتاب السرى والملحقة بغرفة نومه ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ ولكن أميمة تعلم بالأمر وتظل تحرض زوجها على أن يفعل ذلك وتزينه له باعتباره لن يضر أحدا بينما سينتفع به إدريس فيعلم ماذا ينتظره وسيعلم كذلك أدهم وأميمة ماذا سيكون نصيبهما .

ويظل أدهم فريسة للتردد إلى أن يقدم على هذا الأمر ويتنزه فرصة عدم وجود أبيه ويتسلل إلى الحجرة الصغيرة الداخلية بينما تنتظره أميمة بالمصباح في الخارج .

وقبل أن يتمكن أدهم من قراءة محتوى الكتاب السرى يفاجئه أبوه ويمسك به متلبسا ويعرف منه أن إدريس هو الذى أغراه بارتكاب هذا الخطأ .

وينفتح باب البيت الكبير ولكن هذه المرة لكى يكون الطرد من النعيم إلى الشقاء الخارجى من نصيب أدهم وأميمة (إخراج آدم وحواء من الجنة بعد المعصية) .

ويقيم أدهم وأميمة في كوخ صغير خارج البيت الكبير وإلى جواره كوخ مائل شيدته إدريس لنفسه عند طرده وعاش فيه مع زوجته . ويفطن أدهم إلى أن إغراء إدريس له كان مكيدة لكى يطرد هو الآخر من البيت ويكونا سواء بعد أن فضله الجبلاوى عليه .

ويسعى أدهم لكسب قوته وقوت أسرته على عربة يد يبيع فيها الخيار وأصبح له ابنان : قدرى وهمام . ولأن قدرى ورث عن عمه إدريس صفاته الذميمة بينما يتصف همام بالصفات الطيبة .

وتتكرر المأساة حينما يرسل الجبلاوى أحد خدمه إلى بيت أدهم يخبرهم فيه أنه قرر أن يعيش همام مع جده وينعم بالسعادة في قصره .

وتدب الفتنة حينما يرفض قدرى تمييز جده لأخيه همام واختياره وحده لهذا النعيم ويحرض إدريس قدرى على هذا التمرد .

وتصل الغيرة والنزاع بين قدرى الشرير ومام الطيب ذروتها عندما يقتل قدرى أخاه ويدفنه في الصحراء : ﴿ فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ .

ويفر قدرى بعد ذلك مع هند ابنة إدريس ثم يعودان بعد زمان إلى الحارة ومعهما أولاد كثيرون من نسلهم جاءت الأجيال التالية .

حقيقة استخلاف آدم

الكاتب في السطور الماضية يتحدث عن استخلاف الله تعالى آدم في الأرض ونراه قد افترى على الله كذبا بل افترى على إبليس نفسه عندما ذكر أنه قد تجرأ على الذات الإلهية ، وفي نفس الوقت أثنى على إبليس الذى رمز له بإدريس ثناء جميلا فنهينا لإبليس بهذا الثناء ثم افترى على آدم كذبا بأن جعل منه بائعا متجولا يبيع الخيار ، ثم تحدث عن قصة ابنى آدم الذى رمز لهما بهمام وقدرى إلى غير ذلك من الافتراءات التى تناقض ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . ولكي نبين وجه الحق وأصل الحقيقة فلا بد أن نعرض ما جاء في كتاب الله تعالى عن قصة استخلاف آدم وموقف إبليس منه ثم نتبع ذلك بقصة ابنى آدم قابيل وهابيل .

قصة استخلاف آدم

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة . قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال : إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .

للقصة في القرآن العظيم أهداف عليا وأغراض عظمى ، ففيها إثبات النبوة للنبي الأمي صلوات ربي وسلامه عليه . وفيها وسيلة من وسائل التربية الناجحة . وفيها كما قال مولانا لحبيبه ومصطفاه : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ فإذا ما أردنا تفصيل ما أوجزنا ألفينا أن في القصة ما يدل دلالة قاطعة ساطعة على أن هذا النبي صادق كل الصدق مؤيد كل التأيد في نبوته . فمن الذى أخبره بقصص الأولين ولم يكن معهم في

أوطانهم ولم يعاصرهم في أزمانهم ، ولم يذهب إلى معلم ولم يختلف إلى معهد ؟

ومن ثم فإننا نرى كثيرا من القصص القرآني يختم بما يدل على هذا فبعد الفراغ من قصة نوح نقرأ قوله تعالى : ﴿ قيل : يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب ألیم ﴾ يتوجه الخطاب بعد ذلك من رب العزة إلى صاحب الرسالة العصماء فيقول له مولانا : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ .

فإذا ما انتقلنا إلى قصة يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وتحركنا مع أهدافها من بلد إلى بلد ومن حدث إلى حدث ، وواكبنا وقائعها ألفتنا أن الله تعالى وجه الخطاب أيضا لحبيبه ومصطفاه بعدما ختم القصة بقوله جل شأنه حكاية عن يوسف : ﴿ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض ، أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين ﴾ .

توجه الخطاب الرباني إلى النبي الأمي قال تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ ثم يختم السورة الكريمة بما يفيد إثبات نبوة المصطفى فيقول سبحانه : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ .

فإذا ما انتقلنا إلى قصة موسى المذكورة في سورة طه نرى أن الله تعالى بعد ختامها وجه خطابه إلى حبيبه ومصطفاه فيقول له : ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا ﴾ .

وإذا ما انتقلنا إلى قصة موسى في سورة القصص وجدنا أن الله جلت قدرته وعظمت حكمته يوجه الخطاب في نهايتها إلى مبعوث العناية الإلهية فيقول له : ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ولكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر . وما كنت ثاويًا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين . وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾ .

فإذا ما انتقلت إلى قصة آل عمران وجدنا أن الله تعالى يوجه الخطاب إلى رسوله فيقول له : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم . وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ فمن الذي أوحى إلى نبيه بأنباء الغيب ، إنه العليم

الخبير ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ﴾ . والوحي دليل النبوة : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا ﴾ .

قال تعالى مخاطبا شمس الهداية الربانية: ﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ﴾ ولحكمة ما أرادها الله أنه تعالى جعل الأمية آية وكالا لرسوله الكريم . قال تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ حتى لا يقول جاحد كنود أو كافر عنيد أو معتد أنهم أن محمدا قرأ الكتب السابقة ووعى ما فيها ثم أداها كما قرأها . والتاريخ يشهد والحقائق تؤكد وعقول الراشدين تثبت والتواتر يروى أن محمد ﷺ قضى حياته بينهم في مكة قبل البعثة أربعين عاما وقد جاء ذلك صريحا في كتاب الله : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله . قل : ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن اتبع إلا ما يوحى إلى إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل : لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون . فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون ﴾ .

إذا ما انتقلنا إلى الغرض الثاني من القصة القرآنية وهو الجانب التربوي وهو الذى عبر عنه القرآن الكريم في قول الله تعالى : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾ فالقصة القرآنية مدرسة لتخريج الدعاة إلى الله ، فالدعوة إلى الله تعالى قد تكون بالقوة الصالحة والتي بينها القرآن الكريم بيانا كافيا شافيا وحذر الدعاة أن تحالف أقوالهم أفعالهم . قال تعالى : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ .

وقال تعالى حكاية عن نبيه شعيب يقول لقومه : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ . وقال جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ .

وكما أن التربية تكون بالقوة كذلك بالموعظة الحسنة ، ولا بد من متابعة النفس بالموعظة ، إذ أن النفس كزجاجة الدواء إن لم ترج قبل استعمالها ترسبت فيها العقاقير ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ، وإن لم يملأها شيء مملأها الهواء .

قال تعالى : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ كذلك تكون التربية بالقصة ، ويكفيك أن تأخذ مثلا على هذا قصة يوسف وما احتوته من عبرة وحكم بالغة .

فقد انتقل يوسف من بين أحضان أبيه عندما انتزعتة أيدي إخوته وألقى في غيابة الحب ثم انتقل إلى قصر العزيز واستعصم بالله واجتاز محنة المرادة ، ولم تنسه شدة السجن أن يدعو إلى ربه . وانتقل بعد ذلك إلى ملك مصر فكان على خزائن الأرض وجمعه الله بإخوته ، وكانت هناك أحداث ومباحثات إلى أن جمع الله شمل الأسرة ورفع أبويه على العرش وخرخوا له سجدا . وهكذا تكون التربية باستنباط العبر وتكون الدعوة باستخلاص الدروس . نعم لقد كان في قصصهم عبرة .

كذلك تكون التربية والدعوة بالتعليق على الأحداث الجارية على وجه الأرض أولا بأول بحيث يضرب الداعية والحديد ساخن . كذلك تكون التربية بتطبيق العقوبات على الذين لا تردعهم الحجج الساطعة ولا البراهين القاطعة وقد جمع الله الفريقين في قوله : ﴿ لقد أرسلنا رسلا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس . وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾ . فالناس قسمان : قسم تكفيه الحجة والبرهان ، وقسم : ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعهما كأن في أذنيه وقرا ﴾ . ﴿ يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ هذا القسم يردع بالعقوبة حتى لا تنتقل عدواه المدمرة إلى غيره من أصحاب العقول الرشيدة .

أما الغرض الثالث من أغراض القصة القرآنية فهو تثبيت النبي وتصبيره على ما يلاقه من أذى قومه . وقد جاء مصداق ذلك في سورة هود ، فبعد ما قص الله عليه قصة نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى ، قال الله له في نهاية السورة : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون . والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ .

وفي هذا المجال يقول سبحانه لصفوة خلقه : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين . وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ . ويقول جل شأنه : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي كانت تنزل على قلب رسول الله ﷺ بردا وسلاما

تحفف عنه ما يلاقيه من أذى قومه وعنادهم وحرصه على هدايتهم . قال تعالى :
﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾ .

ولنأخذ الآن في تفسير قصة آدم : فإنه تعالى لما امتن على عباده بنعمة الخلق والابحادي في قوله جل شأنه : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ﴾ بين لهم بعد ذلك تشریفه لأبيهم الذين جاءوا من صلبه وكيف ذكره في العالم العلوى والملائكى ، وأنه تعالى لما خلق لنا ما فى الأرض جميعا وسخر لنا ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه امتن على أينا آدم بالخلافة ليقم العدالة على وجه الأرض ويطبق أحكام الله بدقة . وليس ثمة أدنى شك فى أن تشریف الآباء تشریف للأبناء ، وأن التنويه بشرف الأجداد فيه شرف للأحفاد فكان بين الآيات تمام ارتباط وقوة صلة : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة ﴾ تقديره : اذكر لقومك يا محمد ما قاله ربك صاحب الإنعام والإكرام المرئى عباده على كرمه ورزقه . ماذا قال ؟

إنه قرار إلهى لا يقبل النقض : ﴿ إني جاعل فى الأرض خليفة ﴾ أى يقوم بتطبيق أحكام الله ونشر الهدى والرحمة والعدل بين أهل الأرض . أو إني جاعل فى الأرض أقواما يخلف بعضهم بعضا . فالعنى الأول من باب قوله جل شأنه : ﴿ يا داود : إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهدى فيضلك عن سبيل الله ﴾ .

والعنى الثانى من باب قوله تعالى : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ورفع بعضهم فوق بعض درجات ليلوكم فيما آتاكم ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إني جاعل فى الأرض ﴾ يفيد أنه خلق لعمارة الأرض ولو دخل الجنة فإنما يدخلها بحكمة بل لحكم . من تلك الحكم أنه سىأكل من الشجرة ثم يتوب فيتوب الله عليه كذلك أبناؤهم يخالفون ثم يتوبون . ففعل الله منزه عن العيب ثم يعود هذا المخلوق إلى الأرض فيعمرها وتعمرها أبناؤه من بعده . قال : ﴿ فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ .

قال الحسن البصرى رضى الله عنه : عجبت لابن آدم يتكبر على وجه الأرض وهو حفنة من ترابها وكيف يتكبر وهو الذى تنته عرقه وتؤذيه بقره وتقتله شرقة ؟ أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قنرة ، وهو بين هذا وذاك يحمل فى جوفه العذرة :

يا مدعى الكبر اعجابا بصورته انظر خلالك إن النتن تهريب
لو فكر الناس فيما فى بطونهم ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا ابن التراب ومأكول التراب غدا أكثر فإنك مأكول ومشروب

كيف تتكبر يا ابن آدم والقبر يناديك كل يوم : يا ابن آدم لا تتكبر على ظهري
لأننى غدا سأضمك فى بطنى .

أتيت القبور فناديتها فأين العظيم والمحتمر
 وأين المذل بسلطانه وأين المباهى إذا ما افتخر
 تساوروا جميعا في مخر وماتوا جميعا ومات الخبر
 تروح وتغدو بنات الثرى فتمحو محاسن تلك الصور
 فيا سائلي عن أناس مضوا أما لك فيما مضى معتبر؟

فماذا قالت الملائكة في هذه الحضرة الإلهية المقدسة؟ ﴿ قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ .

إن هذا الاستفهام أرادت به الملائكة أن تعرف من الله تعالى الحكمة من خلق آدم ، وهو استفهام خال من الاعتراض ، لأن الملائكة معصومون من مثل هذا . قال تعالى في حقهم : ﴿ بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ . وقال في شأنهم : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ . وإنما قالت الملائكة : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ لأنها رأت ما كان يفعله الجن قبل خلق آدم من وجوه الفساد والافساد .

وقد نطق القرآن الكريم بأن الجن خلقت قبل آدم . قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ (من قبل آدم) . فقااست الملائكة هؤلاء الذين سيخلقون على الذين خلقوا من قبل . قالت الملائكة لرب العزة : ﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ التسييح هنا المراد به التنزيه .. ومعنى التسييح بالحمد أى نسيح تسييحا مقترنا بالحمد فنقول : (سبحان الله وبحمده) . والتقديس هو التعظيم والتطهير . ولتسييح الله فضل عظيم عند الله ، قال النبي ﷺ : « الحمد لله تملأ الميزان . وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض » .

ولذا جاء التسييح في القرآن الكريم بصيغ مختلفة : جاء بصيغة الماضي : ﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ . وجاء بصيغة الأمر : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ . وجاء بصيغة المصدر : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ . وجاء بصيغة الصفة : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ .

قال لهم مولانا جل جلاله : ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ أى إن في علمي من الحكم البالغة ما لا تعلمون أنتم ، فإن في ذرية هذا المخلوق خلقا لو علمتموهم لعلمتم أن فعلى كله خير ، فإن منهم النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين . إن الملائكة دائما مطبوعة ومجولة على طاعة الله . قال النبي ﷺ : « أطت السماء أظأ وحق لها أن تسط . ما من موضع قدم في السماء إلا وفيه ملك قائم أو راكم ، أو ساجد لله ثم يقولون : وعزتك وجلالك

ما عبدناك حق عبادتك ، والتسبيح عندهم كالتفلس عندنا» . ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ .

وقد استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ويقطع تنازعهم ويتنصر لمظلومهم من ظالمهم ويقيم الحدود ويزجر عن تعاطي الفواحش إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا تمكن إقامتها إلا بالإمام ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة في أبي بكر أو بالإيمان إليه كما يقول آخرون منهم ، أو باستخلاف خليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب ، أو بتركة شورى في جماعة صالحين كذلك كما فعل عمر ، أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته أو بمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور . ويجب أن يكون الخليفة ذكرا حرا بالغا عاقلا مسلما عدلا مجتهدا بصيرا سليم الأعضاء خبيرا بالحروب والآراء . ولما كان آدم عليه السلام جديرا بالاستخلاف في الأرض وتعميرها فقد أراد ربك أن يظهر فضل آدم وبين شرف آدم واستحقاقه بالخلافة قال تعالى : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ . ومعرفة الأسماء لها من الغايات السامية والأهداف العالية ما لها . فلولا أن الله تعالى سمى الأسماء بأسمائها وجعل الأسماء علامة عليها لتوقفت مصالح البشر وما استطاعوا أن يتعاملوا فيما بينهم . فخبرني بربك لو لم نعلم أسماء الأشياء كيف كنا نتعامل ؟ فإذا كنت تريد مثلا أن تبيع فرسا وأنت لا تعرف اسمه أو تريد التنزه على شاطئ النهر ، فهل كنت ستأخذ صاحبك حتى تربه الفرس وتقول له : أريد بيع هذا ؟! وإن كنت تريد رغيف عيش وأردت ابنتك أن يشتريه فماذا كنت تقول ؟ أو كنت تريد السفر إلى بلد ما مع أحد الأصدقاء وسألك أين تريد الرحيل وأنت لا تعرف اسم البلد فماذا كنت تقول له ؟ أعلمت لماذا علم الله آدم الأسماء كلها ؟ وعلمت قيمة العلم ومكانته ؟ العلم نور ، والعلم أفضل من المال لأنه يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلماء ورثة الأنبياء : ﴿ فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما . قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . قال : إنك لن تستطيع معي صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خيرا . قال : ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ﴾ . إن الملائكة وهم عباد مكرمون ، لا يستطيعون عمارة الأرض . أليست عمارتها قائمة على الزراعة والتجارة والصناعة والأسفار والتزواج والتكاثر والمأكل والمشرب والملبس والتقيب عما في باطن الأرض ؟ وليست كل هذه الأشياء من خصائص الملائكة ، فإنهم لا يأكلون ، ولا يشربون ، ولا ينامون ، ولا يتزوجون ، ولا يتصفون بذكورة ولا أنوثة بل يسبحون الليل والنهار لا يفترون . شهيقهم وزفيرهم : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله

والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله . ومن ثم فإن المكلف بمعرفة الأسماء هو آدم لأنه سيتعامل معها . وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يعرض الله المسميات على الملائكة . ويقول لهم : انبؤني بأسماء هذه المسميات ولا يسع الملائكة إلا أن تعترف بالعلم كله لله ففتز به الله التنزيه الذى يليق بذاته قائلة : ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ وحدك الذى أحاط علمك بكل شيء فقد وسعت كل شيء رحمة وعلما ، وأنت (الحكيم) الذى تضع الأشياء فى نصابها والنقاط على حروفها وتسمى الأشياء بأسمائها . فالعبث عليك محال يا صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة . وهنا قال الله تعالى : ﴿ يا آدم أنبئهم بأسمائهم ﴾ أى أخبرهم بها فأنبأهم بها آدم كما علمه الله تعالى . فقال لهم المولى جل جلاله : ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض ﴾ أى ما غاب عنكم فى السماوات والأرض فهو سبحانه وتعالى علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون : ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ بل إنه تعالى يعلم القول : ﴿ قال ربي يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ أى أعلم ما تظهرونه بقولكم : ﴿ اتعمل فيها من يفسد فيها ﴾ وما كنتم تكتمونه فى أنفسكم من أن الله لا يخلق خلقا أفضل منكم فقد شاءت الحكمة الإلهية أن يخلق آدم ويجعله خليفة فى الأرض ينشر العدل ويقم أسس الحق . أما قوله تعالى : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أى فى قولكم : إن الله لن يخلق أعلم منا ، فقد كان آدم أعلم عندما أنبأكم بأسماء المسميات . وجلت حكمة الله فبدأ عمارة الأرض بآدم ثم خلق حواء فأصبحت زوجين وأنجبا من الذرية ما بلغ اليوم أربعة آلاف مليون من البشر ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ .

آدم وزوجه والملائكة وإبليس

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا : اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى

فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿

ولنأخذ الآن في المعنى الذى تدور حوله الآيات . قال تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ المعروف أن آدم خلق من طين وأن الملائكة أجسام نورانية تتشكل بالأشكال الحسنة وقد أقسم الله بهم في بعض الآيات كما في قوله جل شأنه : ﴿ والصافات صفا . فالزاجرات زجرا . فالتاليات ذكرا ﴾ . وفي قوله جل شأنه : ﴿ والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا . فالفارقات فرقا فالملقيات ذكرا . عذرا أو نذرا ﴾ .

وفي قوله جل شأنه : ﴿ والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والساجحات سبحا . فالسابقات سبقا ﴾ وقد جبلت الملائكة على الطاعة كما وصفهم الله جل شأنه في قوله : ﴿ بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى . وهم من خشية مشفقون ﴾ . والتسبيح عندهم كالنفس عندنا : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ أى لا يضعفون ولا يملون ولا يسأمون . قال تعالى : ﴿ فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ . وأما إبليس فقد خلق من نار وهو أصل الجن وقد صرح بذلك الكتاب الكريم في قوله جل شأنه : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾ وليس إبليس ملكا لأن الملائكة لا تتزوج ولا تناسل ولا يوصفون بذكورة أو أنوثة . أما إبليس فله ذرية لأنه متزوج . قال تعالى : ﴿ أفستخونونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ﴾ والملائكة لا تعصى الله تعالى لأنهم فطروا على الطاعة وإبليس قد أبى وعصى واستكبر وكان من الكافرين . والآية التى بين أيدينا قد جمعت ثلاثة نماذج من المخلوقات : آدم والملائكة وإبليس . وقد أخبر الصادق المعصوم عن الملائكة بأنهم يأمرون بالخير . أما الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر .

روى الترمذى بسنده إلى رسول الله ﷺ : « أن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاز بالشر وتكذيب بالحق . وأما لمة الملك فإيعاز بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك ومن وجد الآخر فليتعوذ الله من الشيطان ثم قرأ : ﴿ الشيطان يعدم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾ » . واللمة : اللام والاصابة .

أما السجود فقد يراد به التحية ويراد به العبادة وقد يكون من العقلاء وغير العقلاء من مخلوقات الله . وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في

السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴿

ولقد كان السجود لآدم سجود تحية وإكرام لا سجود عبادة وتقديس . قال معاذ : قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلماهم فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك فقال : « لو كنت أمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله عليهن من الحق » .

أما الملائكة فقد أطاعت ربها وسجدت سجود التحية لآدم تلبية لأمر الله . أما إبليس فقد استكبر على أمر الله وأبى أن يطيعه وركب رأسه عنادا وجحودا فصار بذلك من الكافرين واستعمل القياس الفاسد فقال : أنا خير منه ثم أراد أن يستدل على تلك الخيرية فجمع به خياله العقيم حيث قاس عنصرا على عنصر وظن أن الخلق يتفاضلون بالعناصر ونسى أن الميزان العادل الذى توزن به كرامات الخلق التقوى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وفى الخبر عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ : « أن الله تعالى يقول يوم القيامة : إني جعلت نسا وجعلتم نسا فجعلت أكرمكم أتقاكم وأيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وأنا اليوم أرفع نسى وأضع أنسابكم . أين المتقون . أين المتقون » .

لقد غفل إبليس عن حقيقة المعصية فلا تنظر إلى المعصية من حيث أنها معصية ، فحسب إنما انظر إليها من حيث من تعصيه . لقد أمرك الله أن تسجد فكيف تتصرف من طاعة الأمر إلى البحث فى العناصر . قال ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه حبة من خردل من كبر » .

قيل لبلال بن رباح : يا بلال ابن من أنت ؟ فقال : أنا ابن من أسجد الله له الملائكة . وقيل لسلمان الفارسى : يا سلمان من أبوك ؟ فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : أنا ابن الإسلام ، فلما بلغ ذلك القول أمير المؤمنين عمر صاح قائلا : وأنا ابن الإسلام وأنا ابن الإسلام .

وهكذا كرم الله آدم بسجود الملائكة له كما كرمه من قبل بجعله خليفة فى الأرض وتعليمه الأسماء كلها وسيكرمه بعد ذلك بسكنائه الجنة فإلى هناك :

﴿ وقلنا : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فكونا من الظالمين ﴾ وهذا تكريم وتعظيم لآدم وذريته . قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ . وجلت حكمة الله أن يقول لآدم اسكن ولم يقل له خالدين فيها لأن آدم خلق للأرض وتعميرها فلا مفر من عيشه على ظهرها وقال له : أنت وزوجك وهذا دليل على

أن صلة الرجل بالمرأة لا سبيل لها إلا الزواج وليس هناك من سبيل آخر إذا لم تكن محرماً له .

والجنس في الإسلام قد أحاطه الله بالرعاية والعناية والصيانة حيث قال جل شأنه في وصف المؤمنين : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾ ثم أغلق الباب أمام أى طريق آخر فقال : ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ وليس في الإسلام ما يسمى عشق أو عشيقة . قال تعالى في صفة المؤمنين : ﴿ محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ﴾ . وقال في وصف المؤمنات : ﴿ محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ﴾ ومن ثم فإن الخطاب الذى وجه إلى آدم بالسكن له دلالة إذ أن الخطاب لم يأت بضمير التثنية فلم يقل مولانا : ويا هذان اسكنا الجنة إنما جاء موجهها إلى آدم أصلاً ثم عطف عليه زوجه تبعاً بمعنى أن المرأة مسؤولة من زوجها وأن زوجها مسئول عنها من حيث الرعاية والنفقة وحقوق الزوجية . وقد جاءت الحكمة واضحة في قوله جل شأنه : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ فتأمل قوله جل شأنه : ﴿ فتشقى ﴾ ولم يقل فتشقى بعدما قال : ﴿ يخرجنكما ﴾ فقد تنبى الضمير في النبى عن الاخراج وأفرده حيث وقوع الشقاء ، لأن الشقاء في الدنيا سيكون على رأس الرجل أما المرأة فهي مستقرة في بيت زوجها . أما الرجل فهو الذى سيضرب في مناكب الأرض سعياً وراء القوت لا سيما إذا غدا القوت في يد الناس كالياقوت . وجاء بعد ذلك الضمير مفرداً كذلك في قوله جل شأنه : ﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تصحى ﴾ وتأمل حكمة العليم الحكيم حيث جمع بين الجوع والعرى وبين الظمأ والحر وقد يبدو الأمر لأول وهلة في صورة أخرى فللسائل أن يقول : لماذا لم يجمع بين الجوع والظمأ وبين العرى وحر الشمس ؟ لكن حكمة الحكيم اقتضت أن يكون هناك جمع بين الجوع والعرى لأن الجوع يفقد الجسم حرارته حيث تكون طاقة الطعام قد تبددت والعرى يزيد الإنسان جوعاً فناسب أن تكون الصورة على هذه الكيفية من شدة المعاناة جوعاً يمس به عرى وعرى يسبب شدة البرد وجوع يفقد الجسم طاقته فتأتى الصورة في أشد معانها كذلك الجمع بين الظمأ وشدة الحر فشدة الحر تزيد الظمأ لهيباً وتزيد الكبد ظمأً فناسب أن يجمع بينهما في آية واحدة وصدق من قال عن كتابه : ﴿ الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ فالقرآن لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط بينهما ناظم .

والزواج سنة الأنبياء والمرسلين من لدن آدم . قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾ وبعد ذلك قال الله لهما : ﴿ وكلا منها رغداً حيث شئتما ﴾ أى أكلا هنيئاً ذا سعة . وهذه منحة من الله وقد جرت سنة المولى جل ذكره أن يقرن المنحة بالحنّة ليكون العبد بين الترغيب والترهيب والخوف والرجاء فتستقيم حاله وتتظم

خطاه . ورحم الله أصحاب رسول الله ﷺ نظر الله إليهم في جوف الليل وأصلاهم منحنية على أجزاء القرآن إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقا إليها ، فإذا مر بآية تنذر بعذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه .

وهل سلم الأنبياء من الابتلاء ؟ كلا لقد ابتلى نوح في ابنه ألم يقل له : ﴿ يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال : سأوى إلى جبل يعصمني من الماء . قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المفرقين ﴾ . ألم تتلعج لواعج الشوق في قلب نوح فقال لربه : ﴿ رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ﴾ . ألم يقل له ربه : ﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ . ألم يبئلى إبراهيم في ابنه بعدما من الله عليه به ؟ ألم ير في المنام أنه يذبحه ورؤيا الأنبياء وحى . ألم يذهب بابنه لينفذ فيه أمر الله . وفي هذا يقول العلي الأعلى : ﴿ فبشرناه بغلام حلیم فلما بلغ معه السمي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى . قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ . ثم ماذا ؟ لقد أسلم الوالد وولده الأمر لله . قال تعالى : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا هو البلاء المبين ﴾ . ويعقوب عليه السلام ألم يبئلى بفقد يوسف ؟ ألم يسلم الأمر لله ويقول لأولاده : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ . ثم ألم يبئلى يوسف بمراودة امرأة العزيز له وهو ابتلاء من أشد أنواع ما يبئلى به المرء ، ألم يقل لها يوسف : ﴿ معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ﴾ . ومن السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : « رجل دعت امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله » . ألم يقل يوسف لربه : ﴿ السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ . ألم يبئلى أيوب في نفسه وماله وأهله ؟ ألم يقل لربه : ﴿ مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ . ألم يبئلى يونس ببطن الحوت ؟ ألم يقل مولانا العظيم : ﴿ فنأدى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فنأدى في الظلمات هنا النداء الكريم : ظلمة الليل وظلمة بطن الحوت ، وظلمة في قاع بحر زاخر متجندل : ﴿ فاستجبنا له فنجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ . ألم يقل في شأنه رب العزة : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ ولولا أن يطول الكلام ولا يتسع له المقام لقلنا في الأنبياء جميعا ما قلناه في هذه الكوكبة الطاهرة ويكفى أن تعلم أن سيدنا الأعظم وإمامهم الأكرم قد لاقى من البلاء ما تزول من هولاء الجبال الشامخات . ألم يرم بالحجارة يوم الطائف حتى دميت قدماه . ألم يرسل برقية عاجلة إلى رافع السماء بلا عمد يطلب النجدة والمدد : « اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس . يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين

وأنت ربي إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك . لك العتيى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله » . ألم يميت أولاده في حياته عدا فاطمة ؟ ألم يتجرأ المنافقون عليه حتى بلغ من سوء فعلهم أنهم رموا أم المؤمنين عائشة الناسكة المحصنة العفيفة رموها بالإفك وظلت المدينة شهرا تغلي غليان المرجل حتى قال الرسول لعمر : ما تقول في عائشة يا عمر ؟ وكان عمر معروفا بالصرامة في الحق ، قال : يا رسول الله من الذى زوجها لك ؟ فقال الرسول الكريم : الله . قال عمر بصراحتة المعهودة وهو الرجل الذى ضرب الله الحق على قلبه ولسانه : يا رسول الله أترى أن الله دلس عليك في زواجها ؟ وظلت المدينة في فزع طيلة شهر . لو وضعت نفسك في هذه المحنة ساعة لتصدع فؤادك تصدع الزجاج فما بالك بمبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية والدنيا كلها تشهد من هي عائشة والعالم أجمع يعرف من أبوها إنها الصديقة بنت الصديق أنصح من ماء الغمام وأطهر من السحابة في سماءها بهذا شهد الله من فوق سبع سموات : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ ثم لمن تقال هذه الأقوال الخبيثة إنها لا تقال إلا للخبيث . أما الأقوال الطيبة فإنها تقال للطيبين ومن أطيب من أم المؤمنين ؟ إن الطيبين مبرأون مما يقول عنهم مرضى القلوب ، قال جل شأنه : ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرأون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ صلى عليك الله يا علم الهدى ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمام .

فلا عجب أن يتلى آدم بالنهى عن قرب الشجرة لأن الابتلاء سنة الله لمن يعش على ظهر الأرض ولن قدر له أن يعيش عليها : ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ .

أما الشجرة التى نهى آدم من قربها فإنها شجرة لم يرد تعيينها في الكتاب أو السنة وإنما على ما ورد فيها أقوال لم تثبت أمام البحث فمن قائل أنها شجرة الكرم أى العنب ومن قائل أنها شجرة الحنطة ، ومن قائل أنها شجرة التين ولو كان في تعيينها فائدة لعينها الله كما عين النخلة التى أمرت مريم بهزها والله حكمة في عدم تعيينها حتى لا يشتم العباد من الأكل منها فالشجرة لا ذنب لها ولا حيلة إنما كانت إرادة اختبار . وليس بصحيح ما قاله بعض الذين تعثرت أقدامهم وزلت أقلامهم وانفلت خيالهم فقال : إن المراد بها شجرة الجنس أو المقصود

بها الشر لأن اللغة لا تساعد على ذلك . فالأصل في الألفاظ حقائقها لا مجازاتها وإنما يلجأ إلى المجاز إذا تعذرت الحقيقة بشرط أن تكون هناك قرينة مانعة من إيراد المعنى الأصلي كقولهم سمعت بحرا يخطب ويراد به العالم ذا المعرفة الواسعة فأى مجاز في قوله تعالى : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ وقد قال الله تعالى : ﴿ فأكلوا منها ﴾ فهل يؤكل الجنس ؟ سبحانه هذا بهتان عظيم اما الجنة التي كان فيها آدم فقد صال فيها العالمون وجالوا . فمن قائل أنها كانت في السماء وأنها جنة الخلد ومن قائل أنها بستان في ربوة عالية كذلك اختلفوا في مكانها من الأرض ولما بحثت هذه الأقوال كلها رأيت أن القوم يضربون في حديد بارد وسألت نفسي ما ثمرة هذا الخلاف ؟ إن الجنة التي دخلها آدم وصفها الله تعالى بقوله : ﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحي ﴾ فلنقف عند قول الله سبحانه وليس لنا أن نتجاوز الحدود . إنها جنة دخلها آدم وكلف فيها ألا يقرب الشجرة ووصفها الله بأوصاف خاصة . فلنؤمن بها كما وردت ولنأخذ العبرة مما حدث فيها وهذا القدر يكفيننا قوله تعالى : ﴿ فتكونا من الظالمين ﴾ أى آدم وحواء أى من الظالمين لأنفسكما وذلك بإخراجكما من الجنة فماذا حدث ؟.

﴿ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ والزلل معناه السقوط وذلك عن طريق الوسوس الشيطانية . قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وبأدم أسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخضفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ .

فأنت ترى في هذه الآيات أن إبليس أقسم لآدم وقال أنى لكما من الناصحين ولم يكن آدم يتوقع أن هناك من يقسم بالله كذبا فهذا أمر عزيز على نفس آدم ، وهذا يذكرنا بما دار بين المسيح بن مريم وبين أحد اللصوص فقد رأى المسيح لصا يسرق فقال له المسيح : لماذا سرقت ؟ قال اللص : والله ما سرقت . فقال المسيح : صدق الله وكذبت عيناي قالها تمجيديا وتقديسا وتعظيما لاسم الله . وهكذا ما كان يدور بخلد آدم أن هناك من يتعرض ليمين الله بالكذب في قراءة (فأزلهما) أى أبعدهما عن الجنة وترتب على ذلك إخراجهما منها . قال تعالى : ﴿ فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ وهو تعبير موجز عن معنى كثير أى ما كانا فيه من

راحة وهناء وأكل رغد ولكنها سنة الله . وهكذا كما قال جل شأنه : ﴿ وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ﴾ والهبوط قد يكون من مكان أعلى إلى مكان أسفل وهذا هو الهبوط الحسى ، وقد يكون هبوطا معنويا كما قال موسى لقومه وقد قالوا له : ﴿ لن نصير على طعام واحد ﴾ قال لهم : ﴿ اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ﴾ فهذا هبوط من المن والسلوى إلى القشاء والقوم والبقل والعدس والبصل نعم إنه هبوط كما قال جل شأنه : ﴿ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ﴾ والمراد بمصر أى مكان ينبت هذه الأشياء أى غير هذا المكان الذى ينزل فيه المن والسلوى . قوله تعالى : ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ المقصود بين آدم وحواء وبين إبليس وذريته : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ .

وقال جل شأنه : ﴿ يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريبهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقييله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ وليس بلازم أن يكون إبليس قد دخل الجنة التى كان فيها آدم وحواء فقد وسوس لهما من خارج الجنة . قال تعالى : ﴿ فوسوس لهما الشيطان ﴾ وقد ذكرت فى هذا المقام أقوال من الإسرائيليات كقوفهم إنه دخل فى فم الحية إلى غير ذلك مما تنفر منه العقول السليمة . ولا بد لنا هنا من سؤال : كيف يقع آدم فى المخالفة ؟ وقد قال أبو ذر : أرأيت آدم أنبى كان ؟ قال : « نعم نيبا ورسولا يكلمه الله قبيلا » يعنى عيانا وللإجابة عن هذا السؤال أن آدم أصاب وكان وقتها ناسيا قال تعالى فى سورة طه : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما ﴾ أى قصدا وإنما سماها الله معصية فى قوله : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ ذلك لما كان لآدم من مكانة عظيمة فحسنت الأبرار سيئات المقرين :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم
لقد بلغ من مكانة آدم عند الله أن يوم الجمعة نال الكرامات لأن الله خلق آدم فيه .
عن أنى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة
فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها » .

قوله تعالى : ﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ المراد بمستقر : الاستقرار
والعيش فيها . وهذا مقتضى الأمر الإلهى : ﴿ إني جاعل فى الأرض خليفة ﴾ ، ﴿ قال فيها
نحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ والحين زمان غير محدود المقدار وهكذا نحن فى الدنيا :

﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ فما الإنسان في جيل إلا ذرة في فضاء وما الجيل في زمان الألبنة في بناء وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء . فالليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ . وجل جلال الحق إذ يقول : ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فيها ﴾ .

تالله لو عاش الفتى في دهره ألفا من الأعوام مالك أمره
متلذذا فيها بكل نفيسة متنعما فيها بنعمى عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة كلا ولا ترد الهموم بياله
ما كان هذا كله في أن يفى بميت أول ليلة في قبره

يا ابن آدم اغتنم محمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ،
وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك .

يا ناظراً يرنو بعينى راقدا ومشاهدا للأمر غير مشاهد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى درج الجنان ونيل فوز العابد
أنسيت ربك حين أخرج آدم منها إلى الدنيا بذنب واحد

قال تعالى : ﴿ فلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾
سبحانك ربى يا كاشف الضر والبلوى يا عالم السر والنجوى يا من يجيب المضطر إذا دعاه
ويكشف السوء عن ناداه :

أنت الذى تهب الكثر وتجير القلب الكسير وتغفر الزلات

وتقول هل من تائب مستغفر أو سائل أقضى له الحاجات

لقد تاب آدم لتوب ذريته وقبل الله التوبة حتى لا يبأس العباد من رحمة الله . قال
أبو بكر الصديق رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ قل
كل يعمل على شاكلته ﴾ شاكلة العبد : المعصية ، وشاكلة الرب : المغفرة والرحمة . وقال
عمر رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ غافر الذنب
وقابل التوب ﴾ . وقال عثمان رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله
تعالى : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر
الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ . قال العلماء : إن الكلمات التى تلقاها آدم مفسرة
بقوله تعالى : ﴿ قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ .

وقال ابن عباس : قال آدم يا رب ألم تخلقني بيدك ؟ قيل له : بلى . ونفخت في من روحك ؟ قيل له : بلى عطست فقلت : يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك . قيل له : بلى وكتبت على أن أعمل هذا . قيل له : بلى قال : أرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة ؟

وقال بعض العلماء : الكلمات هي : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فارحمي إنك خير الراحمين . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فب على إنك أنت التواب الرحيم .

قوله تعالى : ﴿ إنه هو التواب الرحيم ﴾ أى أنه يتوب على من تاب إليه وأتاب كقوله تعالى : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ﴾ . وقوله : ﴿ ومن تاب وعمل صالحا ﴾ وغير ذلك من الآيات وبعدما أمر الله تعالى آدم وحواء وإبليس بالهبوط إلى الأرض مقترنا بقوله تعالى : ﴿ بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ أعاد الأمر بالهبوط مقترنا بقوله تعالى : ﴿ فإما يأتيكم مني هدى ﴾ . قال سبحانه : ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ هذا الأمر بالهبوط اقرب بالحكم الإلهى النافذ : ﴿ إما يأتينكم مني هدى ﴾ وإن هنا شرطية مقترنة (بما) تطلب تأكيد الفعل بعدها كما في قوله تعالى : ﴿ فإما ترين من البشر أحدا فقولى إني نذرت للرحمن صوما ﴾ وأما هنا جيء بها بين إن والفعل لافادة توكيد الإتيان كأنه تعالى قال : سيأتكم مني هدى وسوف يترتب على هذا الهدى الذى قد يراد به الارشاد إلى طريق الحق من باب قوله تعالى : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ . وقوله جل شأنه : ﴿ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ . والرسل داخلون فى هذا الباب دخولا أوليا . قال تبارك اسمه : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ . كذلك قد يراد بالهدى الكتب المنزلة على الرسل وعلى رأسها وفى قمة رفعتها القرآن العظيم : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ فما الذى ترتب على إتيان الهدى ؟ قال جل شأنه : ﴿ فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

تباركت ربنا وتعاليت فقد أرسلت إلينا رسلا وأنزلت عليهم كتبنا وخلقت لنا عقلا ذلك كله من باب رحمتك وبرك ولطفك وأرشدتنا إلى الطريق فظهر الأمر جليا فمن تبع

هداك واتبع رسلك عاش آمننا من خوف مطمئنا لا يمسهم السوء ولا هم يمزنون لا يخاف مما سيأتى ولا يبحزن على ما فات : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم ﴾ .

إن نفى الخوف والحزن نعمة لا تدانها نعمة وطمأنينة القلب بقاء الله هى أعظم مملكة يتربع المؤمن على عرشها ولذلك أدرك الصالحون هذا :

قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : لتقى الدين الحسن البصرى رضى الله عنه : عظنا يا تقى الدين ؟ قال الحسن : يا أمير المؤمنين : صم عن الدنيا ، وافطر على الموت ، وأعد الزاد لليلة صباحها يوم القيامة . ولما حضرت محمد بن كعب القرظى الوفاة قيل له : ماذا تركت لأولادك من المال ؟ فقال : ادخرت مالى لنفسى عند رنى وادخرت رنى لأولادى . إن ابن آدم يوم يموت يصاب بمصيبتين لم يصب بهما أحد غيره . الأولى : أنه يترك ماله كله ، والثانية : أنه يسأل عن ماله كله . ومن هنا فإن التأمين الحقيقى على الحياة لا يكون بإيداع الأموال فى شركات التأمين التجارية الربوية إنما هو كما قال تعالى :

﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم ﴾ ماذا يفعلون يارب ؟ قال : ﴿ فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ﴾ فتقوى الله والقول السديد خير ثمرة فى خير شجرة تظل على أبنائك بعد موتك . فصاحب المعروف لا يقع وإذا وقع وجد متكأ . البر يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت أعمل ما شئت كما تدين تدان .

ومن أجل ذلك فإن الله يطمئن أهل الصلاح ألا تخافوا ما سيأتى ولا تحزنوا على ما فات .

أما الفريق الثانى فقوم كفروا وكذبوا بالآيات جحدوها ولم يصدقوا بها فجمعوا بين أكبر جريمتين : الكفر والتكذيب : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ . ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً وكذبوا بآياتنا كذاباً وكل شئ أحصيناه كتاباً فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ . ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

ما أقمى النار ولكن الأقمى منها هو الخلود فيها فالكرب كلما اشتد انتظر الإنسان الفرج ، واللليل إذا اشتد ظلامه قرب فجره ولكن تنخلع القلوب لوعة وتسيل الكبد مرارة إذا فقد الإنسان الأمل إنهم قوم قال الله فيهم : ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾ . وقد جاء فى سورة طه قوله جل

شأنه : ﴿ قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فيما يأتيكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ .

فانظر معى كيف جمع الله للذين اتبعوا هداه وسلكوا سبيل مرضاته جمع لهم بين سعادة الدارين : لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة وليست السعادة فى الانتشاء بالكوس المترعة أو بالاستمتاع بالغيد الأماليد إنما السعادة فى رضا الله . ولقد كان قوم من الصالحين يبيتون على الطوى ويقولون : نحن فى سعادة لو علمت بها الملوك لجالدتنا عليها بالسيوف . وفى سورة النحل ما يجمع للمؤمنين بين خيرى الدنيا والآخرة قال تعالى : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئتهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾ . وقال تبارك اسمه : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ . وقال تبارك وتعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتياه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ .

وهكذا لا يضل من اتبع هدى الله فى الدنيا ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ولا يشقى فى الآخرة . قال تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتبهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾ . أما الفريق الثانى وهو الذى أعرض عن ذكر الله فقد حقت عليه الشقاوة فى الدنيا والآخرة فاللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك :

يا بارى الكون فى عز وتمكين وكل أمر جرى بالكساف والنون
يا من لطفت بحالى قبل تكوينى لا تجعل النار يوم الحشر تكوينى

﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾ أى يعيش فى ضيق ولو كان يملك من الأموال جبالا ومن الذهب والفضة القناطير المقنطرة ، ومن الخيل المسومة ما تضيق به أودية مكة ، ومن النساء والجوارى ما يفوق جملهن ملكات الجمال . سوف تضيق عليه الأرض بما رحبت لأنه مثل الذى يشرب الماء المالح ولا يزيده إلا ظمأ على ظمأ تراه دائما فى

كرب إن أقبلت عليه الدنيا طلب المزيد وإن أعرضت عنه تقلب في فراشه ليلا أو نهارا لا يطمئن جبينه في المضاجع ولا يذوق للراحة طعما .

إن الصادق المعصوم عليه السلام قال لابن عمر : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور » . وقال لأبي ذر : ﴿ جدد السفينة فإن البحر عميق وأكثر الزاد فإن السفر طويل وأخلص العمل فإن الناقد بصير وخفف الحمل فإن العقبة كود ﴾ ولذا كان أحدهم يقول : (حفر بئرين بابتين ونزح بجرين بغيرالين وغسل عبيدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين وهش أرض الحجاز في يوم شديد الهواء بريشتين خير لي أن أقف على باب لئيم يضيع فيه ماء عيني) . ولت العذاب قد اقتصر على دار الدنيا إنما هو ممتد إلى دار الآخرة ﴿ ونحشرهم يوم القيامة أعمى ﴾ ، وما أدراك ما العمى في الآخرة ؟ إنه الحيرة كلها والشقاء كله ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ماوأهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا ﴾ حتى يقول العبد : ﴿ رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ﴾ فيأتيه الجواب الصادق : ﴿ كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ .

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا أخذ مضجعه لينام يقول لنفسه : ماذا تقول لربك غدا يا عمر لقد كنت ضالا فهداك الله وكنت ذليلا فأعزك الله وكنت ضيعا فرفحك الله . وكان يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا فإن مما يهون عليكم الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم وتزينوا للعرض الأكبر : ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ وكان يقول : « لو نادى مناد يوم القيامة كل الناس يدخلون الجنة إلا واحدا لخشيت أن أكون أنا ذلك الواحد » .

فمن يبارى أبا حفص وسيرته أو من يحاول للفاروق تشبيها
يوم اشتتت زوجه الحلوى فقال لها من أين لي ثمن الحلوى فأشربها
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به أولى فقسومي لبيت المال رديها

وكان على كرم الله وجهه إذا أرخى الليل سدوله يتمثل في محرابه قابضا على لحيته يتململ تملل اللديغ أى الذى لدغته حية ويكي بكاء اليتيم ويقول : يا دنيا غرى غبرى ألى تعرضت أم إلى تشوقت ههات ههيات لقد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها فعمرك قصير وخطرك حقير آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق .

ترود من التقوى فإنك لا تدرى إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكا وقد نسجت أكفانه وهو لا يسدرى

وكم من غروس زينوها لزوجها وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من صحيح مات من غير علة وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

تباركت ربنا وتعاليت حكمت لمن اتبع هداك بأنه لا يخاف ولا يحزن ولا يعتل ولا يشقى ، وحكمت على من كذب بآياتك وكفر بها بأنه مخلد في النار وبأن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى . سبحانه أنت الحق وقولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والساعة حق ، والجنة حق ، والنار حق . اللهم عليك توكلت وإليك أنبت ولك حاكمت ، وبك خاصمت فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت . أنت إلهى لا إله إلا أنت :

يا من يجيب العبد قبل سؤاله ويجود على العصاة بالغفران
وإذا أتاه الطالبون لعفوه ستر القبيح وجاد بالإحسان
استحى أن أسألك وأنا أنا ، وكيف لا أسألك وأنت أنت ؟ إن كانت ذنوبى لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية .

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن فبمن يلوذ ويستجير الأثم
ادعوك ربى كما أمرت تضرعا فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم
مالى إليك وسيلة إلا الرضا وعظيم عفوك ثم أنى مسلم
فاللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك ونؤمن بك ، ونتوكل عليك ونثنى عليك الخير كله .

تأمل يا أخى النص القرآنى الكريم الذى سقناه آنفا هل ترى فيه جرأة من إبليس على الذات الإلهية كما زعم الكاتب فى قوله : (وتثور نائرة إدريس وينفجر قائلا : أى نوع من الآباء أنت خلقت فتوة جبارا فلم تعرف إلا أن تكون فتوة جبارا ونحن أبناؤك تعاملنا كما تعامل ضحاياك العديدين) . سبحانه هذا بهتان عظيم وسوف نسوق بعض النصوص القرآنية التى تصور المشهد الذى ذكر الله فيه آدم والملائكة وإبليس حتى ترجع البصر كرتين هل ترى من جرأة من إبليس للذات الإلهية . إليك ما جاء فى سورة الأعراف لهذا الصدد :

﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال : ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من المنكذبين ﴾

الصاغرين . قال : انظرنى إلى يوم يبعثون . قال : إنك من المنظرين . قال : فيها اغويتى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال أخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ويا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور فلماذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين قالآ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴿

وإليك هذا النص الكريم من سورة الحجر :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم . وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصل من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أى أن يكون من الساجدين . قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون . قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين . قال : رب فانظرنى إلى يوم يبعثون . قال : فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما اغويتى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراط على مستقيم إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ .

وإليك هذا النص من سورة ﴿ طه ﴾ :

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أى قلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى فوسوس إليه الشيطان . قال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخلصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإذا ما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم

القيامة أعمى . قال : رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا
ففسيتها وكذلك اليوم تمسى وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة
أشد وأبقى ﴿ .

وإليك هذا النص من سورة (الإسراء) :

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت
طينا . قال رأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لاحتكن ذريته
إلا قليلا . قال : اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا واستفزز من
استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد
وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك
وكيلا ﴿ .

وإليك هذا النص من سورة (ص) :

﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من
روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من
الكافرين . قال : يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من
العالين . قال : أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال : فأخرج منها فإنك
رجيم وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين . قال : رب فأنظرنى إلى يوم يعثون . قال : فإنك
من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم . قال : فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم
المخلصين . قال : فالحق وألحق أقول لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين . قل
ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد
حين ﴿ .

ارجع البصر فى هذه النصوص فهل ترى ما يشير إلى المعنى الذى ذكره الكاتب على
لسان إبليس وما فيه من جرأة على الذات الإلهية سبحانه اللهم هذا افتراء على الله وجرأة على
الله فمن أصدق من الله حديثا ؟ لا أحد ومن أصدق من الله قيلا ؟ ﴿ قل أنتم أعلم أم الله ﴿
﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿ ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير
علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴿ .

الفصل العاشر

قدرى وهمام

وقد رمز بهما إلى ابني آدم قابيل وهابيل فماذا قال عنهما :

(ويسمى أدهم [آدم] لكسب قوته وقوت أسرته على عربة يد يبيع فيها الخيار وأصبح له ابنان قدرى وهمام وكان قدرى ورث عن عمه إدريس صفاته الذميمة بينما يتصف همم بالصفات الطيبة وتكرر المأساة حينما يرسل الجبلأوى أحد خدمه إلى بيت أدهم يخبرهم فيه أنه قرر أن يعيش همم مع جده وينعم بالسعادة في قصره وتدب الفتنة حينما يرفض قدرى تمييز جده لأخيه همم واختياره وحده لهذا النعيم ويحرض إدريس قدرى على هذا التمرد .

وتصل الغيرة والنزاع بين قدرى الشرير وهمام الطيب ذروتها عندما يقتل قدرى أخاه ويدفنه في الصحراء . ويفر قدرى بعد ذلك مع هند ابنة إدريس ثم يعودان بعد زمان إلى الحارة ومعهما أولاد كثيرون من نسلهم جاءت الأجيال التالية) .

القول الحق

أرأيت كيف زلت القدم وتعثر القلم وانفلت خيال الكاتب فقال على ابني آدم كلاما ما أنزل الله به من سلطان وما ليس له به علم وقد نهانا الله تبارك اسمه عن أن نقول كذبا أو نقف موقف اختلاق الأشياء . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ . ولقد جاءت قصة ابني آدم في كتاب الله تعالى كما نزل بها الروح الأمين على قلب رسول الله ﷺ تنطق صدقا وتقول حقا . استمع إلى ما قاله المولى جل شأنه في هذه القصة :

﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك ؟ قال : إنما يتقبل الله من المتقين . لكن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من

الخاسرين فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال : يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين ﴿﴾ .

أرأيت كيف قص الله علينا قصة ابني آدم وقرنها بالحق وكيف تجلت فيها الوقائع صادقة عن طريق الوحي المعصوم ﴿﴾ وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿﴾ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴿﴾ . ثم هل أتاك حديث ما ذكره الكاتب عن ابني آدم ؟ قارن بين ما كتبه وبين كلام الله يتبين لك الحق من الباطل والصدق من الكذب والافتراء : ﴿﴾ قل أنتم أعلم أم الله ﴿﴾ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿﴾ .

الفصل الحادى عشر

ردود علمية موجزة

ويجمل بنا قبل أن نتقل للرد على كاتب تلك الرواية فى شأن الأنبياء المكرمين موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام وقبل أن نرد على ما ذكره فى شأنهم مما لا يليق بهم يجمل بنا قبل ذلك أن نسجل هنا ما نشرته جريدة (النور) بتاريخ ٢٢ ربيع الأول ١٤٠٩ هـ - ٢٢ نوفمبر ١٩٨٨ من ردود علمية بقلم الأستاذ مصطفى عدنان وهذه الردود وإن كانت موجزة المعنى إلا أنها فى إيجازها وسرعتها فيها ما يشفى الصدر من علم وفهم . وإليك ما قاله الأستاذ مصطفى عدنان .

كتب تحت عنوان (قبل فوات الأوان لكى تصير نجيبا محفوظا) ونحن ننقل ما كتبه الأستاذ مصطفى عدنان دون أن نزيد حرفا أو نقص حرفا وذلك بمقتضى الأمانة العلمية .
كتب يقول - ولكن المنطلق الذى اخترته لحديث اليوم معكم - بل بالأدق مع الأستاذ الكبير نجيب محفوظ يتأسس على المحاور التالية :

المحور الأول :

إن البحث عن استراتيجية إسلامية منقذة ، بدلا من الفوضى والتشرذم والعار ، يتطلب أول ما يتطلب أن تتعرف جماهير المسلمين الآن بالذات فى مشارق الأرض ومغاربها على الفكر الذى يجب أو الذى لا يجب أن يقودها .. وعلى أولويات القضايا التى يجب أن تشغلها وعلى المثل العليا التى يجب أن تحتذى بها فى سائر الساحات .

وإذا كان الدكتور عبد الحليم مندور المحامى ، قد أرسل البرقية المنشورة التالية على صدر جريدة الحقيقة إلى كاتبنا الفائز فى السباق فنحن نتحفظ عليها .. وهذا هو نصها :

الكاتب الكبير نجيب محفوظ : كتبت للعالم فوجدت وفزت بأكبر جائزة فيها ، رصدتها يهودى ، وقررتها لجنة من اليهود فاكتب فى الإسلاميات فإن أصحاب اللجنة هم الفائزون . أما التحفظ ، فنحن لا نعلم أن من رصد الجائزة يهودى (نوبل) وأن كل أعضاء اللجنة التى قررتها (قد تكون التى رشحت) يهود وليس المهم فى رأينا إذا كانوا يهودا ، أو مسيحيين ، أم خليط من الأديان الثلاثة ومعهم الملحنون فالمهم الآن هل القرار صائب أم لا ؟

ولهذا نعود إلى النص الرسمي الكامل للحيثيات منح جائزة نوبل فلعله يعطينا من الخلاف حول : هل هذه الرواية تناولت الله ورسله وأنبيائه ومثلتهم بأشخاص في الحارة أم لا في رأي من منحوا هذه الجائزة .

تقول الحيثيات الرسمية :

موضوع هذه الرواية غير العادية (أولاد حارتنا) هو البحث الأزلى للإنسان عن القيم الروحية فآدم وحواء وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الأنبياء والرسل بالإضافة إلى العالم المحدث يظهر في [تحف طفيف] (لاحظ دقة العبارة .. في تحف طفيف .. طفيف) .

إذن : دعونا نعد قراءة أولاد حارتنا .. كى نكتشف هل وراء حيثيات جائزة نوبل والاشارة التي جاءت فيها إلى هذه الرواية المصادرة تحديدا بل والتركيز عليها بعد الثلاثية وحدهما عندما خرج ممثل نوبل ليعلن الفوز العظيم نوايا بريئة أم العكس .. هناك نوايا خبيثة .. أن تفجر في طول العالم الإسلامى والمسيحى وعرضه (قضية مستفزة) لجماهير المسلمين والمسيحيين ، كى يتعامل معها الذين يزودون عن عقائدهم ، وعن الأدب في التحدث عن الله عز وجل ، وأنبيائه ورسله وآل بيتهم وفي تصويرهم بغير تشويه .

هل وراء هذه الحيثيات أصابع تحاول وضع (البترول) على (النار) الخاملة في مصر ؟ أو أن ذلك تزيد وتجاوز في التحليل يصدر عن حساسية مفرطة ، وعن تشكيك غير لائق بلجان الجائزة التي انصفت الأدباء العرب في شخص أحب أدبائهم إلى الجماهير .. بالرغم من التسليم بأن مردود الاشارة والاشادة بأولاد حارتنا الممنوع طبعها في كتاب قد يعكر (الأمن الروحي) للعالم الإسلامى .. ولمصر بالذات في هذه الأوقات العصيبة وبينما الدولة لا يسعها إلا أن تكرم من كرمه أكبر منابر التكريم في العالم .

وفي وقت تصيدت فيه (دول الرفض) الرفضى - الفوز المصرى لتهاجمه كرمز الأدباء الذين تعاونوا مع الجانب اليهودى الذى أسرع بعد كامب ديفيد يقدم أعمال نجيب محفوظ على مسارحه .. ويترجمه إلى جماهيره ويحاوره في أجهزه إعلامه ، ويطلب اللقاء معه أبو فوده .. الخ .. الخ .

إن القراءة التي قمت بها - بالنيابة عنكم - لهذه الرواية التي فجرت وجددت الهجوم على متخلفى الأزهر الشريف توضح أنه منذ السطور الأولى أسرع الكاتب بقوله : (كل ما سياتى بين القوسين على طول المقال هو من عندنا ويخرج عن النص : (هذه حكاية حارتنا) سنرى بعد ذلك أنه يرمز إلى الدنيا : لم أشهد من واقعها إلا طوره الأخير (القرن العشرين) ولكنى سجلتها جميعا كما يروها الرواة ، وما أكثرهم وكما نقلتها الأجيال ؟

كلما ضاق أحد بحاله أو ناء بظلم سوء معاملة اشار إلى البيت الكبير على رأس الحارة (يرمز إلى الكعبة إلى بيت الله) من ناحيتها المتصلة بالصحراء (صحراء مكة) وقال في حسرة : هذا بيت جدنا ، جميعنا من صلبه (فكر غير إسلامي .. أننا أبناء الله) ونحن مستحقوا أوقافه (لاحظ التعبير الأوقاف) فلماذا نجوع وكيف نضام .

ثم يستطرد : جدنا (الله) هذا اللغز من الألغاز . عمر فوق ما يطمع إنسان أو يتصور .. حتى ضرب المثل بطول عمره واعتزل في بيته لكبره منذ عهد بعيد فلم يره منذ اعتزاله أحد - وكان يدعى الجيلاوى .. وباسمه سميت حارتنا (ملكوت الله) وهو صاحب أوقافها .. وكل قائم فوق أرضها والأقطار المحيطة بها في الخلاء (الفضاء) .. وحارتنا أصل مصر أم الدنيا (لاحظ) .. ثم جاء زمان فتناوله قلة من الناس بكلام لا يليق بقدره ومكانته .. ولم دفعنى ذلك إلى الطواف ببيته الكبير لعل أفوز بنظرة منه دون جدوى . أليس من المحزن أن يكون لنا جد مثل هذا الجد دون أن نراه أو يرانا .

ملاحظة من عندى : يقول الله عز وجل في القرآن الكريم : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ فكيف يقول الكاتب أن الله لا يرانا .. لأن هذا النص جاء بلسان الراوى : المؤلف .

ثم يستطرد المؤلف : أليس من الغريب أن يختفى هو (الله) في هذا البيت الكبير المغلق . وأن نعيش نحن في التراب ؟

فلماذا الاستغراب يا أستاذ محفوظ .. هل من المنطقي أن نساوى المخلوقات البائدة بالخالق الصانع .. الباقى .

ملاحظة أخرى : هل من حق شخوص رواياتك التى خلقها مثلا أن تتساءل : لماذا فزت أنت دونها بجائزة نوبل ؟

ثم يستطرد نجيب محفوظ : (وإذا تساءلت عما صار به وبننا إلى هذا الحال سمعت من فورك القصص . ثم يقول : (إن أحدا لم يره منذ اعتزاله) .

ملاحظة : من قال : أن هناك زمن اعتزل فيه ربنا وزمن لم يعتزل فيه ؟

ثم يقول : ولم يكن ذلك بذى بال عند أكثر الناس ، فلم يهتموا إلا بأوقافه (ترمز إلى الرزق أو الدنيا) .

وبشروطه العشرة (ترمز إلى الوصايا العشرة التي نزلت على سيدنا موسى عليه السلام) لم تسمها الوصايا العشرة بل بالشروط . ونحن لا نتحفظ على هذه التسمية ولكن على قولك في شأنها بالنص : (ومن هنا نشب النزاع في حارتنا منذ ولدت ومضى خطره يستفحل بتعاقب الأجيال حتى اليوم والغد فقد اعتبرت الوصايا العشرة هي سبب النزاع وأنه لم يكن قبلها يوجد أى نزاع بين البشر .. بالرغم من أنك تعرضت في قصتك إلى قيام قابيل بقتل أخيه هايل .. وما تلا ذلك من نزاعات قبل موسى عليه السلام) .

فهل هذا كلام يا أستاذنا .

ثم يبدأ حامل جائزة نوبل يتحدث عن :

بدء الخلق :

كان مكان حارتنا خلاء .. فهو امتداد لصحراء المقطم الذى يربض في الأفق .. ولم يكن بالخلاء من قائم إلا البيت الكبير الذى شيده الجبلاوى (الله) كأنما ليتحدى به الخوف والوحشة وقطاع الطرق (حاشا لله .. الله يتحدى الخوف .. ممن ؟ أى قطاع طرق ؟) . ثم يبدأ الأستاذ نجيب محفوظ يرمز إلى سيدنا آدم باسم أدهم وإلى إبليس اللعين باسم إدريس فيقول : اختار الجبلاوى أدهم دون إدريس ليدير أوقافه (أى أن يكون خليفة في الأرض) .

واعترض إدريس (إبليس) .. وانتفخ كالديك المزهو قائلا : إننى وإخوانى أبناء هام حرة النساء (النار) .. أما هذا فابن جارية سوداء (الطين الصلصال) .

فرد الجبلاوى على الاعتراض : أدهم على دراية ويعرف أكثرهم بأسمائهم وعلى علم بالكتابة والحساب .

إبليس (إدريس) يقول للجبلاوى (لله) ما لم يرد في أى كتاب منزل : (خلقت فتوة جبارا .. فلم تعرف إلا أن تكون فتوة جبارا .. ونحن أبناؤك تعاملنا كما تعامل ضحاياك العديدين !!

فهل هذا رأى إبليس في هذا الموقف .. أم أن الكاتب يستنطقه من الخيال ما يطرح هذه القضية دون أن يرد عليها ؟ ألم تراجع الكتب المنزلة .

ثم يقول نجيب محفوظ : وأعجب شئ ان الناس يجسدوننا (حفاة حارة الجبلاوى) ولكنهم لا يعلمون أننا بتنا في الفقر كالمسولين نعيش في القاذورات بين الذباب والقمل ،

ونقنع بالفتات ، ونسعى بأجساد عارية .. ولا عزاء لنا إلا أن نتطلع إلى البيت الكبير (الكعبة) . ويقول في حزن وحسرة : هنا يقيم الجبلاوى صاحب الأوقاف هو الجد ونحن الأحفاد .

ويعترض الجبلاوى على تسمية إبليس آدم بابن الجارية (يرمز إلى الصلصال) فيقول الله عز وجل : إنها زوجتى اعتبر الأستاذ نجيب نفخنا فيه من روحنا (بأنه زواج بالصلصال) التى يسعى إليها البعض فى شأن بنوة المسيح لله . بسبب النفخ من روحنا . ويؤكد نجيب محفوظ هذا المعنى فى هذه العبارة بلسان أن جارية استطاعت أن تعبت بك - بالله ..

بينما القرآن يقول ما معناه على لسان إبليس عكس ذلك يا أستاذ نجيب : خلقتنى من نار وخلقته من طين .. إلا إذا كانت مصادرك أوثق . إن ما أمامى من الأمثلة كالسيل المنهر ما يفزع حقا الحليم . منها مثلا ما يتعرض لعدالة الله .

مأساة جديدة من المأسى التى يشهدها هذا البيت (بيت الله) كم من سيده مصونة تحولت بكلمة منه إلى متسولة تعيسة .. وكم من رجل غادره بعد خدمة طويلة يحمل على ظهره العارى سياط . والدم يطفح من فمه وأنفه لم توضح أنها عقوبات .. وكأنها أحكام غير عادية : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة .. ومنهم من خسفنا به الأرض .. ومنهم من أغرقنا .. وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (صدق الله العظيم) .

وفى موضع آخر يقول الجبلاوى (الله) لإدريس (إبليس) لا أنت ابنى ولا أنا أبوك .

ثم رفع الجبلاوى (الله) رأسه صوب نوافذ الحرم (حريم الله) طالقة ثلاثا من تسمح له بالعودة . وهكذا بدأ الفن ينساق بك يا سيدى إلى انشاء وأوصاف وعلاقات لله غير صحيحة بل تحريفية .. وفى رأى أنك تجاوزت إلى مدارك لم تجرؤ عليها الأساطير الوثنية ، ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ فأسرع وتب إلى الله .

ثم يمهد الكاتب للطعن فى عدالة الخالق بقوله : والحق أنه لم يبد من الأب قبل هذا اليوم ما ينم عن التحيز فى معاملته لأبنائه .

وعاش الأخوة فى وئام بفضل مهابة الأب وعدالته حتى إدريس [إبليس] (على قوته وجماله وإسرافه أحيانا فى الله) لم يسء قبل ذلك اليوم إلى أحد من أخواته ، كان شابا كريما

حلو المعشر . ثم يبدى نجيب محفوظ رأيه في رب العزة مباشرة بقوله : (على جيروته كل يستخفه ضرب أثناء - هكذا - . إن كلمة يستخفه وحدها يجب أن تتوقف عندها مستغفرين . جميعا من كتبها ومن أعاد نشرها ومن قراها فورا .

ثم يصور الأستاذ نجيب محفوظ الملائكة :

عباس (عزرائيل) ورضوان (خازن الجنة) وجيليل (جبريل) وهم يقامرون فوق سطح البيت (السماء) (هكذا الملائكة المقربين يلعبون القمار) .

ثم يأتي الكاتب على سيدتنا حواء فيرمز لها بأميمة ، بأنها قريبة لأمه (الصلصال) قبل أن يتزوج بها أبوه الجبلاوى (الله) فيقول بلسان سيدنا آدم عليه السلام : ظلها جزء من جسدى المضطرب بالرغبات . ولن يسخر أئى من اختياري فكيف جاز له أن يتزوج من أمى : ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ (صدق الله العظيم) . ثم يقول بلسان إبليس : إننى عدت قاطع طريق كما كان (الجبلاوى) تصوروا الله كان قاطع طريق وعرييد اثيما معتديا كى يكون .

ثم فى موضع آخر يقول : وفجأة تفجر الأب عن ثورة جديدة كانت ضحيته هذه المرة امرأة .

ويقول إبليس معترضا : يا أندال (لبنى آدم) تدافعون عمن تكرهون خوفا على الطعام والشراب . ثم يصف سيدنا آدم بقوله أنه هتف بلسان مخمور : إن الملائكة تندروا من صلوات آدم التى كان يحتتمها هاتفا الحمد لصاحب المنن على رضا أئى .. الخ . فهل هذا معقول الملائكة تتندر من صلوات آدم لأنه يحمد الله .

ثم يصور الأستاذ نجيب خطيئة أمننا سيدتنا حواء عليها السلام (الأكل من الشجرة المحرمة كما ورد فى القرآن الكريم) بأنها خانت أئينا سيدنا آدم مع إبليس بالزنا (!!!) مع أن المعروف - قرآنيا وتوراتيا وإنجيليا - أن آدم وحواء سويا أكلا من الشجرة المحرمة فما دخل الزنا من طرف واحد - حواء - مع إبليس - هنا ... يمهد الكاتب بعد ذلك بهذه المقولة إلى شئ مخيف أن إبليس على حق عندما أخذ يسب ابن سيدنا آدم بأنه ابن الزانية .

وبدلا من أن يسلم نجيب محفوظ لقوله تعالى بأنه علم آدم كلمت فتاب عليه كما ورد فى القرآن الكريم يقول نجيب محفوظ أن آدم قال لله : لماذا كان غضبك كالنار تحرق بلا رحمة ؟ لماذا كان كبرياؤك أحب إليك من لحمك ودمك ؟ وكيف تنعم بالحياة الرغيدة وأنت تعلم أننا نداس بالأقدام كالحشرات ؟ واللين والتساعح ما شأنهما فى بيتك الكبير أيها الجبار ؟

من قال إن هذا الحوار جرى ؟

أما هايل (ممام) الطيب فيقول أيضا : أما هو (الله) فقابع وراء الأسوار بلا قلب متمتعا بنعيم لا يخطر على بال بالمقارنة بـ أبانا الذى يكدح وراء عربته .. وأما التى تكذب طول النهار وشطرا من الليل ونحن نعاشر الأغنام حفاة شبه عراة .

أما قايل (قدرى) فيقول عن الله : أنه كان يخرج كثيرا فى الماضى فيمر بهم فى ذهابه وإيابه أما اليوم فلا يراه أحد . وكأننا يخاف على نفسه .

ثم يقول : أصبح للجبالوى العظيم (الله) حفيدة عاهرة وحفيد قاتل لم يفهم أن أول بنات سيدنا آدم تزوجت شقيقها الذى لم يولد معها فى حمل واحد حتى يعمر الكون فيسميها عاهرة بلا نفى من غير الذى سماها .

ثم نسر مع الرواية على هذا المنوال المخيف حتى نلتقى بالبلقيطى (سيدنا شعيب عليه السلام) فيصوره ومعه جوزة ولفة ويقول : خير الليل ما مضى بين هذا وذاك .

ويصور سيدنا شعيب بأنه حاوى .

وفى حديث سيدنا شعيب مع سيدنا موسى عليه السلام يقول سيدنا شعيب : أصارحك بأنى أحبك أكثر من أى ثعبان عندى . فضحك جبل (سيدنا موسى عليه السلام) فى نشوة طفل .

وكان الكاتب قد وصف لقاء سيدنا موسى عليه السلام مع الله بأنه التقى بشبح هائل .. حيث قال له : أنا جدك الجبالوى فيسألونه ألم تكن مسطولا فورد : إن السطل لم يذهب بعقل قط . ونلاحظ هنا أن على طول الرواية يتضح أن عمودها الفقرى يذكركنا بمقولة نبي الشيوعية لينين : أن الدين أفيون الشعوب ، الدين مخدر لا تمضى صفحة إلا ويرمز للدين بالحشيش . ففى الموضع الذى يشتم فرعون سيدنا موسى عليه السلام نراه يقول له : أخرس يا محتال يا حشاش .

ثم يصف الكاتب أفراس انتصار المؤمنين بموسى على فرعون : جرت البوظة أنهارا .. وانعقدت فى سماء الحجرات سحب الحشيش (لاحظ) .. ورقصت تمر حنة حتى انحل وسطها . وصور لقاء الجبالوى (الله) بجبل (موسى عليه السلام) فى حالات من نور الخيال .

وكانت تلك الأيام بالنسبة لجبل وشقيقه (سيدنا هارون عليه السلام) أطيب الأيام .

وفي موضع آخر يصف سيدنا موسى عليه السلام بقوله : وانقض عليه جيل (سيدنا موسى عليه السلام) كالثور الهائج - هكذا - وتهاشم الناس بقسوته وظلمه . ولكن وجد هؤلاء من يرد عليهم قولهم يذكرهم بالوجه الآخر لقسوته وهو الرحمة بالمعتدى عليه والرغبة في إقامة نظام يضمن العدل والاخاء ووجد هذا الرأي الأخير كل تأييد حتى أنس إليه الناس . وبالرغم من أن سيدنا موسى دعا فرعون وقومه إلى عبادة الواحد الأحد وكانت المواجهات التي نعلمها جميعا والنوازل والمعجزات فإن رواية الأستاذ نجيب محفوظ تصور بلسانه كراوى سيدنا موسى أنه لم يدع غير اليهود إلى عبادة الله الواحد الأحد . والواقع أن هذا خلط كبير بين احتكار أخبار اليهود للشريعة وبين قيام سيدنا موسى وسيدنا هارون (شقيقه الأكبر) عليهما السلام بالرسالة .

وكان سياق الرواية قد اضطر الكاتب إلى أن يقول عن الله : الجبلاوى مات تنتظرون تدخل المسيح (الله) فإن الله قد صلب ومات . كما قال الفيلسوف نيتشه الذى قامت فلسفته لحماية الألمان من الفرنسيين فإذا كنتم تؤمنون بأن المسيح صلب فإن الله مات لأنه كان يجسد الله فاعتمدوا على أنفسكم . وهكذا أخذت شطحات أغبياء الفلاسفة من شياطين الإنس تقود الكاتب على هواها .

وفي آخر الرواية يقول الكاتب أن (الجبلاوى) بعد أن مات قد جاء في المنام بكراسة السحر (يرمز هنا للكتاب المقدس) وأنه بدأ البحث عنها في زباله الحارة التى أودعها عرفة أسرار فنونه وأسلحته حيث لم يبق لخادم الجبلاوى رجل الدين هنا من أمل في الحياة إلا تلك الكراسة ثم يتحدث نجيب محفوظ بلسان أحد شخوصه بهذه العبارة : لا شأن لنا بالماضى ولا أمل إلا في سحر عرفه .. ولو خيرنا بين الجبلاوى والسحر لاخترنا السحر .. وفي موضع آخر يقول ساخرا : من خير الناس أن سيد الناس يضرب الناس ويظلم الناس ويغتال الناس أنت مؤمن من هو سيد الناس ؟

ويرمز إلى الذين يحملون الله على كل حال بالحمدان والحمدانيون كما هو معروف هم أتباع محمد . فيصنفهم بأنهم تمرغوا في تراب القذارة والبؤس .. لم يظهر منهم فتوة واحد (الفتوة هو الحاكم) .

بل هو يتزيد في اعتبار معجزات الأنبياء ألأعيب حواه .. ففراه يقول بلسان سيدنا شعيب (البلطيقى) لسيدنا موسى عليه السلام (جيل) أنت تصلح حاويا ماهرا إلى أحبك أكثر من أى ثعبان عندى وسأعلمك كيف تخفى بيضة في جيب متفرج وتخرجها من جيب آخر في المصاف الذى يقابله ... هكذا .

ثم يصف جلسة سيدنا شعيب مع سيدنا موسى عليه السلام : وسهر الليالي (سيدنا موسى) يتجاذب على البلطيقى سيدنا شعيب الجوزة الدين هنا يرمز له بالجوزة .
 أرأيت لماذا يتحمس الشيوعيون لهذه الرواية يا أستاذ محفوظ ؟ لأنهم أول من قالوا :
 الدين أفيون الشعوب .

ثم أيليق بكم - أستاذنا - أن تصف السيدة مريم العنراء بهذا الوصف . وضعت المرأة البقعجة على الأرض وجلست عليها مفرجة ما بين فخذيها .. التريح بطنها المنداحة .. أيليق بك وأنت رجل مسلم مؤمن أن تردد ما يقوله اليهود (ضد المسيح عليه السلام) أنه كان ابن يوسف النجار من السيدة مريم العنراء سيدة نساء العالمين كما جاء في القرآن الكريم والإنجيل .

ففى لقاء شافعى النجار (بجواز الشاعر) يسأله الأخير عن زوجك ثم يقول : وها هو ابننا رفاعة (المسيح) اختار له نجيب محفوظ اسم رفاعة لأنه رفع إلى السماء .
 وفى وصف لقاء المسيح عليه السلام بمريم المجدلية يقول :

فوجد نهضة النهدين وحافية وعارية الساقين وليت هامته . ثم يقول نجيب محفوظ :
 وما لبث أن تناول عم شافعى (سيدنا يوسف النجار) الجوزة .. ويحدثنا عن روائح المعسل من حوله ويختتم بأغنية لها رمزية هامة :

يا ولاد حارتنا	توت توت
انتوا نصارة	ولا يهود
تاكلوا أيه	ناكل عجوة
تشربووا ايه	نشرب قهوة

ثم يشكك الكاتب بهذه العبارة فى وجود الله - وتوقفوا عندها - وأى دليل على حياة الجبلاوى إلا الأشجار والحكايات وفى جملة اعتراضية يقول عن الجبلاوى (الله) أنه ينعم بالسلام وحده. (!) .

ثم يبدأ فى حديثه عن المسيح عليه السلام بأن حارتنا تعيرنا بركته (!) ويسخر بعبارات على لسان شخوصه منها - مثلا - هل تخاف الزواج هل أدركه البلوغ اليوم ؟ إنه رقيق أكثر من اللازم ويظنه الناس كودية زار .. شاعراً لتعلقه بالحكايات وأن كل مهمة رفاعة (المسيح عليه السلام) أن يزور المساكين ليطرد عنهم العفاريث .. وبزواجه بياسمينه (أظن يقصد مريم المجدلية) يتزوجها . ويصف الكاتب الرفاف الذى لم يحدث (خلافا للواقع وتزايداً للتشهير كما

فعلت بالمسيح اليهودية) فقد رفع المسيح في سن ٣٣ سنة بعد ٣ سنوات فقط من بدء رسالته ولكن الأستاذ نجيب محفوظ يقول أنهم غنوا له - أى للمسيح - في زفافه (يا سمينة) (يا رفاعة يا وش القملة من قال لك تعمل دى العملة) .

ثم يصف من حضروا العرس بأنهم ختموه بالتهليل (لاحظ) والعريضة وتدعو : يا سمينة رفاعة (المسيح) عندى شراب .. عندى حشيش طيب (تانى) وتقول له : أبوك حشاش قارح رأيتك مرة خارجا من غرزة شلضم وهو لا يميز بين الليل والنهار . أهذا هو المؤمن يا أستاذ نجيب على سيدة نساء العالمين التى قال فيها ربنا : ﴿ يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ .

وفي هذه الليلة تصف الزفاف . شق ثوبها الرقيق عن جسدها البارح وجلست تنظر في عينيه الهادئتين (للمسيح) حتى داخلها اليأس ، أخاف أن تزورنا أمك غدا (يقصد السيدة العذراء تزور ابنا السيد المسيح عليه السلام) لتحذرك من الافراط فى المعاشرة (سخرية) .
وفي قول آخر : دع أعمال النساء للنساء .. وفي قول آخر رفاعة (بن شافعى - المسيح عليه السلام) : خف عقله ... (!) .

إن الأمثلة لا حصر لها لما أريد أن أتوقف عنده ويجب أن أتوقف عنده .

ثم تصور الرواية زوجة المسيح عليه السلام تتسلل لتخونه عند يومى حيث تشاركه فى تدخين الجوزة وشرب البوظة أيضا وهو يفضل أن يسكر ويمحشش لأنه لا يليق به الشم كالأتباع ويقرصها فى صدرها ويمطرها بالقبيلات وهما يتحدثان عن المسيح ككودية زار من جنس الرجال - هكذا - وأنها تصير على حياتها الزوجية المعطلة معه لأننى مدينة له بحياتى .. ولا ضرر منه فما أيسر من خداعه فيرد : اتركينه يعبث بك عبث الأطفال فهز منكبيها هازقة قائلة : لا عمل لزوجى (المسيح) فى هذه الدنيا إلا تخليص الفقراء من العفارىت وأنه مشغول عن زوجته بعفارىت الناس ، فشخر الفتوة هازئا قائلا : لعل الجبلاوى (الله) عفريتا ولعله سبت ومدت زوجة المسيح يدها إلى فستانها لتزرعه رويدا .. و... مع عشيقها .

وبعد كل هذا الهراء تقول لها العذراء مريم بكل مقامها عندما يفر المسيح : من أدعت الرواية أنها زوجته . رفاعة (أى المسيح) فى عهدتك عهدة زوجة زانية .

ولكنها- زوجة المسيح عليه السلام تعود إلى عشيقها لأنها لا تجد الاطمئنان إلا بين يديه .. وتبوح له بسر زوجها المسيح وأنه يهرب وأتباعه .. وتدافع أمامه عن المسيح بقولها : إنه ينكر الحياة ولكنه لا يستحق الموت . إنه انقذنى يوما من الهلاك فيرد عليها عشيقها ساخرا : وما أنت تسلمينه للهلاك واحدة بواحدة والبادى أظلم .

من أين جاء الكاتب بأن نبي الله المسيح ابن مريم عليهما السلام تزوج أو أنه مستغفل؟ من أى كتاب إلا كتب كهنة اليهود .. الذين أنكروه وكى يؤكد الكاتب قول المسيح : (من يصفعك على خدك الأيمن أدر له الأيسر) يصور لنا نفس المشهد باعتداء (بطيخة) على رفاعة (المسيح عليه السلام) ثم تصور لنا الرواية العشاء الأخير .. وياسمينة تقول له : ستخلصني غدا من عفريتى إن مد الله في العمر .. وهكذا صورت الرواية أنها وإن كانت زوجته فإنه لم يخلصها من عفريتها .. الذى يخلص منه الفقراء .

الخطبة :

ثم يصور الكاتب مقتل المسيح (رفاعة) وكيف أنهم وجدوا آثار دمائه ولم يجدوا جثته بينما زوجته ياسمينة في بيت عشيقها حيث قتلها أحد الحواريين بعد ذلك . أحداث لم ترد . مختلفة . ثم أعطى المسيحيون (خلفاء رفاعة - المسيح عليه السلام) كما أعطى اليهود من قبل (خلفاء جيل - موسى عليه السلام) وقفا لهم وأصبح لهم أيضا رئيس .

ولكن مع ذلك لم يتغير شيء في حال البشر . الذباب ما زال يلهو بين الرزالة والأعين .. والثياب مرقعة .. والشثائم تتبادل كالتحايا .. والبيت الكبير رمز الله ، لا يزال قابعا وراء أسواره غارقا في الصمت والذكريات (!) .

ثم يظهر الكاتب سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام باسم قاسم (معروف أن من أسمائه أبو القاسم) لأنه أنجب سيدنا القاسم ، ويناكى محمد (قاسم) نفسه فيتساءل عن جدنا العظيم الله (الجبلاوى) ويقول : هل ما يزال بعقله أم خرف ؟ هل يذهب ويحيى أم أقعدته الكبر . هل يدري بما يقع حوله أم عن كل شيء ذهل . هل يذكر أحفاده أم نسى نفسه؟؟ هكذا .

ثم يعرض لست قمر (السيدة خديجة أم المؤمنين) ويصفها هذه السيدة الأربعينية . ويردد أن الزواج بها تم بعد أن كان سيدنا محمد ﷺ لظرف ما يتردد على بيتها قالها بلسان زوجة كبير الحارة مشهرا بالسيدة خديجة أم المؤمنين ومن قبل هذا دار حديث آخر مع قاسم (سيدنا محمد ﷺ) على الناس برأى يفض نزاعتهم (يستر فيه على السارق !!!) رمزا لقصة وضع الحجر الأسود في الكعبة . سرت في القوم همهمة ارتياح (اقتراحه فاشدت خفقان قلبه ﷺ) لأن ذلك جرى على مشهد من دار قمر (السيدة خديجة) وهو موقن أن عينها السوداوين ترقبانه فداخله زهو سعيد وشعر بلذة فوز كبير (إذ هو مزهو بإنجازته من أجل قمر) .

ويسجل الكاتب كيف أن الجارية كما حدث في الواقع هي التي اقترحت على قاسم (محمد) زواجه من السيدة خديجة .

وعندما وصف عرسه ﷺ قال : دارت أفراح البوطة وعشرون جوزة وغنى المطرب : زمان الوصل قرب بالتهاني .

وازداد قاسم (محمد عليه الصلاة والسلام) اضطرابا ففطن صادق (أبو بكر الصديق) إلى حالة كشافه دائما فقدم إليه قدحا جديدا من الشراب وما زال به حتى أفرغه في جوفه حتى الثالة . وكانت الجوزة ما تزال في يده وجلس قاسم بين حسن وابن عمه سيدنا على كرم الله وجهه أبو الحسن وصادق فحياهم قائلا لصبيه : باليلة الهنا جوزة دنجل .. يا وله للجدعان ، أما صادق (سيدنا أبو بكر) فأخرج من صدره بلبوعة في حجم البلية أدارها بين أصبعيه تحت ضوء الكبوب وقال في أذن قاسم : معجونة بالهريسة ولها مفعول يا سلام . فتناولها قاسم وادعها فاه باسمها وقد أحمرت عيناه السوداوان من الشراب فعاد صادق يقول : امضع ثم استحلب .

وراح المنشد يغنى الأوله آه عيني دى الثانية آه من أيدي دى الثالثة آه من رجلي دى .. اصل اللي شبكتني مع المحبوب عيني دى لما سلمت عليه سلمت بايدي دى .. وإن اللي ودتني للمحبيب رجلي دى .. وتعال الآهات من الأفواه المخمورة المخدرة وبلغ الضرب منتهاه فتناول أحدهم (زكريا) عصاه وراح يرقص كما هز الوسط .. وصور بحركاته المرنة هيئة القتال .. وهيئة الوصال ثم دار حول نفسه مؤذنا بحسن الختام .. بين التهليل والتصفيق عند ذلك انتقل قاسم إلى الحرم رأى قمر جالسة فاتجه نحوها يخوض أمواجا من الزغاريد تتقدمها راقصة كأنما تلقى عليها الدرس الأخير حتى احتوتها حجرة العرس وباغلاق باب الحجرة انفصل انفصالا كلياً عن العالم الخارجي .. ومرت عين قاسم بالفراش الوردى .. وأشياء لم تقع له في خيال .. ثم استقر بصره على المرأة التي جلست تنزع الزينة عن رأسها .. بدت فخيمة مليئة بضة ذات بهاء .. هكلنا .

ثم يقتحم الكاتب بقلمه بيت النبوة ويصف رضاعة السيدة فاطمة الزهراء (إحصان) الثدي .. الخ عندما جاء قاسم (محمد عليه الصلاة والسلام) بعد لقائه بجبريل (قنديل) في الليل والخلاء تحت الصخرة ويمضي إلى أن يعكس الثابت تاريخيا فيصور أن السيدة خديجة اعترضت على الرسالة المحمدية ومن ذلك مثلا قولها : ما جدوى الانفراد كأنك تأمل في لقياء الخادم (سيدنا جبريل عليه السلام) مرة أخرى ولكن أى جديد عنده ترتقب . سيطاردك اسؤال عن الله تقول له لا شخصه رأيت . ولا صوته سمعت ولا شخصه رجع .. تقصد الله .

إلى أن تقول : قد تهمل طفلتك الجميلة تبكى فلا ترحمها (الذى سماه ربه رحمة للعالمين) وتلعب فلا تلاعبها .

يقول الكاتب : هذا إنكار أن السيدة خديجة هي التي قالت للرسول عندما نزلت عنده الرسالة : والله لن يبخزك الله أبدا .

وأما سر إنصاف الإسلام للنساء فهو قرار من سيدنا محمد (قاسم) ليس من عند الله بالرغم من قوله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ﴾ بدليل أن الرواية ذكرت حديثا كاذبا على لسان قاسم (محمد ﷺ) ينذر فيه الله ننرا إذا نصرنى المولى فلن أحرم النساء من ريع الوقف (الارث) وكأنه بدأ يشكل الشريعة من وحى نفسه لا من ربه .

رغم قوله تعالى عن نبيه الصادق : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ الوتين : عرق الحياة يعنى ذبحه .. لو تقول وذهب مع صادق (أبو بكر) وحسن (سيدنا على) ودارت الجوزة دورة مليحة وتوهجت جمرات الموقد فى ظلمة الدهليز وأخلى الصمت لقرقرة الجوزة .

وتطوع (سيدنا على) لخدمة الجوزة وبدأ نقد محمد عليه الصلاة والسلام : لا عيب فيك إلا اهتمامك بالوقف (الدنيا) سوف يسوقك ذلك إلى متاعب لا حصر لها ..

ويقال لمحمد عليه الصلاة والسلام : ماذا أبقيت لمن يجيء بعدك ؟ فيرد : إذا نصرنى المولى فلن تجد الحارة حاجة إلى أحد بعدى .

وهكذا تصور الرواية أن ختام النبوة هو قرار من محمد عليه الصلاة والسلام وليس قرارا من عند الله . وفى السياق قرب ختام الرواية بعد ذلك ينفى أن هذا حدث : أصبحت كلمات موسى والمسيح ومحمد ﷺ أحلاما ضائعة قد تصلح ألحانا للرباب لا للمعاملة .

وتصف الرواية جلسة الرسول مع صحابته بالقول ودارت الجوزة كمالك فى الحلم .. وغنى الماء فى القنينة .

ثم يقول نجيب محفوظ : واختلط ذهول الكيف بوجوم الفكر . ثم تصور لنا الرواية يوم العيد فتصفه ﷺ بقوله : وهو رجل يحب الغناء والطرب وذلك تعليقا على سماعه أغنية (أصل اللى شبكتنى مع المحبوب عيني دى) .

وتمر عربة تنشُد تحت شباك النبي ﷺ الفاتحة وابتسم قاسم (النبي) متذكرا المعلم وهو يعنى هذه الأنشودة وهو في تمام السطل .

ثم يوصى قاسم (النبي) أتباعه في حى الجرايع (الاسم الذى اختارته الرواية) :
تجنبوا الظهور وأنتم سكارى ثم شاع أن الجرايع يهاجرون .

وعلى لسان النبي (قاسم) تأتي الرواية بهذه الجملة (بدلا من أننى سأهاجر) :
سوف أهرب بدورى . ثم يوضح لسيدنا على (جسن) سأهرب بالخيلة لا بالقوة .

وبينا يقرأ سيدنا محمد ﷺ على من حاصروه ليلة الهجرة : ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ . ويعر بسلام دون أن يرونه تصوره الرواية بأنه ارتقى السطح ومضى إلى السور الفاصل بين سطحه والسطح الملاصق وهم بالجرى فإذا بشبح يعترضه قائلا : (قف فأدرك أن الأسطح محتلة بالقتلة وأن حصاره أحكم مما قدر واستدار ليرجع ولكن الآخر وثب حوله وأحاطه بذراعين قويتين راستدعى (النبي) قوته التى ضاعفها الخوف . فاجأه بضربة في بطنه ففك حصار ذراعيه وكذا بركله في بطنه أيضا فسقط .. إلى أن يقول : ولح خارج الدار شبحا يتحرك فانقض عليه قابضا على عنقه ثم نطحه برأسه ويعنى بالروسية وطعن بطنه بركبته (...) حتى أطلق قاسم (النبي) ساقيه ولكن شبحا اعترضه وقال له : (قف يا ابن اللثيمة) .. وانطلق (النبي) وسيدنا على يجرىان إلى أن يقول لصداق (سيدنا أبو بكر) : أحسنم التنظيم والتدبير .

ولما وصلا إلى الحارة الجديدة (المدينة المنورة) أطلت رؤوس رجال ونساء وتعالى الهتاف والزغاريد وانطلقت الحناجر تنشُد : يا محنى ديل العصفورة (بدلا من طلع البدر علينا من ثنيات الوداع) .

ويقول الكاتب : فاستخف قاسم (النبي) الابتهاج استخف . وبالرغم من الحديث الشريف أن الرسول ﷺ لم يتزوج إلا بأمر ربه في جميع المرات وأن سيدنا جبريل عليه السلام جاءه يحمل السيدة عائشة بنت أبو بكر الصديق ومعه أمر الله تعالى بأن يتزوجها فإن الرواية تذكر أن الجارية التى زوجته السيدة خديجة هى التى أغرته على الزواج بقولها : ما انضجها وهى تقدم الطعام أو القهوة !! فتحول عنها قاسم (النبي) وهو يقول : يا شيطانة لعنة الله على سلاتك : هكذا .

ويصف الزفاف كاد صادق (سيدنا أبو بكر الصديق) أن يرقص .. وزغردت أمه حتى سمعت الخلاء ورقصت نساء من بينهن أم بدرية أم السيدة عائشة رضی الله عنها وغنى أبو فصادة : أنا كنت صياد سمك ..

ثم تصف الرواية بعد ذلك الغزل .. وتصور الغزوات بأنها تتم في ليالي زفاف فتوة الأعداء : سنهاجم الزفة كما يفعل الفتوات - هكذا - ويتبادل الصحابة مع الأعداء خلال المعركة السباب ..

العلو : يا ابن النجسة ..

سيدنا علي : يا ابن الزانية .

وتصور الرواية أن السبايا - النساء - أصبحن حلالا للمسلمين لقاء ما نهب الأعداء من أموالهم خلافا لحكمة الإسلام من أن فك أسر النساء لضمهن إلى عقيدة الحق لا تعويضا عن المال .

وتختتم الرواية كعادتها رحلة كل نبي بتقييم لمرحلته بلسان الراوى - الأستاذ نجيب محفوظ - على سبيل المثال في نهاية مرحلة النبي موسى عليه السلام قالت الرواية كما ذكرنا من قبل أنه أول من ثار على الظلم وهذا ليس صحيحا فكل نبي سبقه كان ثائرا على الظلم .. وقالت الرواية أنه لم يهتم بالآخرين (اهتم باليهود فقط) ولعله كان يضمر لهم احتقارا وازدراء كسائر أهله .

وهذا ليس صحيحا أيضا . يقول الله عز وجل : ﴿ اذها إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ حتى سحرة فرعون آمنوا برب موسى حتى زوجة فرعون آمنت برب موسى وكثيرون آخرون .. لا اليهود فقط .

أما أن (أحبار اليهود) كما ذكرنا من قبل لم يسيروا على نهج سيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام بدعوة الأمم الأخرى إلى دينهم وانغلقوا على أحفاد الأسباط الأثني عشر فهذا ليس مبررا لادانة نجيب محفوظ لسيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام بأنهما لم يهتما بالآخرين بالبشرية .

كذلك فقد ذكرت الرواية في ختام مرحلة سيدنا المسيح عليه السلام ما معناه أن الله رفع جسد المسيح بعد قتله (صلبه) ودفنه في الجنة .

وهذا ليس صحيحا بل رفعه إليه ربه قبل صلبه لأنه شبه لهم كما ورد في القرآن الكريم وهو لا يزال حيا وسوف يموت قبل يوم القيامة بعد معجزة ظهوره من جديد طبقا لما ورد في الأحاديث الصحيحة .

وفي ختام مرحلة سيدنا محمد ﷺ تقول الرواية أن الجرايع (الاسم الذي اختارته الرواية للمؤمنين بسيدنا محمد ﷺ) رأوا فيه طرازاً من الرجل لم يوجد مثله من قبل ولن يوجد مثله من بعد وبعد عدة أوصاف طيبة تقول الرواية بالنص :

(وإلى ذلك كله كان ظريفاً بشوشاً أنيقاً وحشاشاً يلذ مجلسه) . ثم تتحول الرواية : (اللهم إلا أنه توسع في حياته الزوجية) فعلى حبه بدرية (السيدة عائشة) تزوج حسناء من آل جبل (اليهود) يقصد (السيدة صفية) إذ أن أبوها من سادة اليهود وأخرى من آل رفاعة (المسيحيون) يقصد (السيدة مارية القبطية) وتعشقه (لاحظ اللفظ الذي اختاره المؤلف) امرأة من الجرايع ثم تزوج بها أيضاً وقال أناس في ذلك أنه يبحث عن شيء افتقله منذ فقد زوجته الأولى قمر (السيدة خديجة) وهكذا أصبح فرويد اليهودي هادياً لتحليل شخصيات الأنبياء المعصومين . تقول الرواية : وقال عمه (عم النبي) أنه يريد أن يوثق أسبابه بأحياء الحارة جميعاً (القبائل) لكنهم أى الناس لم يكونوا بحاجة إلى تفسير أو تحليل لما حدث بل الحق أنها إذا كانت قد أعجبت به لأخلاقه مرة فقد أعجبت به لحيويته وحبه النسوان مرات . إن حب النسوان في حارتنا مقدرته يتيه بها الرجال ويزدهون ومنزلة تعدل في درجتها درجة الفتوات في زمانها أو تزيد . هكذا يتحدث عن النبي ﷺ كما تحدث عنه أعداء الإسلام ثم تأتي السيدة سكينه فؤاد وبقية الشلة لتقول لنا : (عار علينا) أن نمنع طبع هذه الرواية في كتاب .

ثم تسير الرواية قدماً إلى المرحلة الراهنة إلى (شاعر المدح النبوي) (آل قاسم) الذي تصفه الرواية بأنه أراد بفكرة الأوقاف أن يجد حاجته فيستغنى عن العمل ويفرغ للسعادة الغناء التي حلم بها آدم وتقول الرواية : ذلك قول قاسم (النبي) تصور أن يمضى العمر في فراغ وغناء (يقصد في الجنة حيث التسييح) ويعلق المؤلف على هذا المصير الذي اختاره رب العزة بقوله بلسان أحد شخوصه : هو حلم جميل لكنه مضحك يا حنش .. الأجل حقا أن نستغنى عن العمل لنصنع الأعاجيب (وكأن الجنة في حاجة إلى مخلوق يصنع فيها الأعاجيب) وفي حديث بين حسناء (السيدة صفية) وفتوة مسلم (ملحد) أصبح لا يبالي بالذكريات عن الله (الجبلاوى) ويؤمن بأن إصلاح الأمور لن يتأتى بالرجوع إلى الماضي ثم تبدأ السخرية بالقول عن أحد الشخوص أنه زوج لأربع فغاص قلبه في أعماقه وتساءل : وإذا كان عنده تسع يقصد أنه كان للنبي تسع زوجات مات عنهم جاهلاً أنه كان من حق المسلمين استبدال من يشاءون من زوجاتهم الأربعة إلى أى عدد إلا النبي الذي لم يعد يحل له كما كان من حق جميع الأنبياء من قبله أن يستبدل أزواجه أو يتزوج بعد وفاتهم من أخرى .

يقول له ربه : ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن ﴾ .

ثم تبدأ الرواية تصور حال شكرون (الذين يحملون الله على أى حال) وهو يصيح : يا جبلاوى (يا الله) إلى متى تلازم الصمت والاختفاء وصاياك مهملة وأمواك مضيعة أنت في الواقع تسرق كما يسرق أحفادك وقهقهه كثيرون : يا جبلاوى (يا الله) ألا تدرى بما حل بنا لماذا عاقبت إدريس (إبليس) وكان خيرا ألف مرة من فتوات حارتنا .. ثم نلاحظ التشبيهات الغريبة للأستاذ نجيب محفوظ ومنها : فهبطت النبايت التي يستخدمها البلطجية كرؤوس المصلين . وعن سيدنا رسول الله : وهكذا كان قاسم الماكر الداهية . وعن الله : وهل سمعت عن واقف (الله) يعبث العابثون بوقفه على هذا النحو وهو لا يحرك ساكنا وما السبيل إلى تنفيذ شروطه (وصاياها) وجدنا قعيد الفراش ويبدو أنه ما عاد بوسعه أن يكلف أحدا من أحفاده بعمل .

ملاحظة : يقول الله عز وجل : ﴿ والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إنه هو السميع البصير ﴾ وعندما يقال في الرواية يوجد رجل جاوز المائة والخمسين من العمر يرد المتحدث على قائله : (ربك قادر على كل شيء) .. فيغمغم كذلك السحر فهو قادر على كل شيء بالرغم من قول ربنا : ﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ وفي موضوع آخر مثلا من الرواية أنه كان في وسع موسى عليه السلام (جبل) أن يبقى في وظيفته (لدى الفرعون) وكان بوسع المسيح (رفاعة) أن يصير النجار الأول وكان في وسع محمد ﷺ (قاسم) أن يهنا بقمر (السيدة خديجة) وأملاكها وأن يعيش عيشة الأعيان ولكنهم اختاروا الطريق الآخر .

فيعلق حنش : ما أكثر الذين يجرون نحو الهلاك بأرجلهم - وكان رفاعة يقف في مكاننا عندما ترامي إليه صوت الله (الجبلاوى) وفي هذا الخلاء كلم بنفسه موسى (جبل) وأرسل خادمه إلى محمد (قاسم) وفيه أيضا قتل رفاعة (المسيح) واغتصبت أمنا (يصر أن أمنا حواء اغتصبت) ولم يحرك الجبلاوى (الله) ساكنا وهذه هى شخصية عرفة التي أبرزها نجيب محفوظ لنا (أى الذى يعرف كل شيء) أظهره مثلا وهو يفكر عندما سوف يسير في (بيت الله) لكى يلقى الله (الجبلاوى) لعله يستوضحه عن شروطه وسر كتابه ذلك الحلم الذى لا يتحقق إلا بين سحابات الدخان الذى تنفثه الجوز (هكذا) ثم يقول : فربما وجده وقد كبر وخرف وقد ذاكرته أو مات من زمن بعيد دون أن يدري أحد إلا الناظر (الحاكم) .

ملاحظة : الله هو : ﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ و ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ وإنكاره له (الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم) لن ينجينا من وعيده لقوله تعالى : ﴿ قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار ﴾ لأن

﴿ الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا ﴾ (صدق الله العظيم) .

ثم تمضى الرواية مع عرفة وتوقع أن يغمر الظلماء نور وأن يرى الله (الجبلاوى) واقفاً حياله سيسجد عند قدميه مستعظفاً . ولكنه يجد فراشا فخماً ويجده نائماً هناك غير دار بجريمته . واقتنع بأنه من الجنون أن يتصل بجده ولكن حسب الكتاب الخطير بما يتضمنه من شروط وآيات السحر التى سيطر بها جده على الخلاء والناس في زمانه الأول (يعنى الله سيطر على الكون بالسحر) أن أحداً قبله لم يتصور أن الكتاب (الكتاب المقدس) كتاب سحر لأن أحداً قبل الله لم يمارس السحر .

ويتساءل : لماذا ضن الله على أبنائه بسر كتابه حتى ضن به على أحبهم إلى قلبه آدم واشعل الشيعى شعبة فرأى عينين تنظران إليه ورغم ذهوله ورعبه تبين له أن العجوز يجاهد للخروج من الغيبوبة الفاصلة بين النوم واليقظة وانقض على رقبتة وضربه فى بطنه وسقطت الشمعة وساد الظلام وتحرك العجوز حركة أخيرة ثم همد ولكنه لم يستطع أن يتخطى الجنة إلى الكتاب الأثرى كانت جريمة أدهم (آدم) هى العصيان أما جريمته هو فالقتل .

ويعود ويشعر بأن النوم بات ابعده عنه من الجبلاوى (الله) ويعترف عرفة : قتلت عجوزاً أو من يدري فلعله الخادم الذى أرسله الجبلاوى (الله) إلى قاسم (محمد) .. يا لها من رحلة شاقة وخاسرة ولكنها علمتني أنه لا ينبغي أن تعتمد على أى شيء سوى السحر فالسحر لا نهاية له حتى حل بها أكبر قاطع طريق رهيب وهو جدكم (الجبلاوى - الله) فيقول عرفة : أنا عندي ما ليس عند أحد ولا الجبلاوى نفسه عندي السحر (أو العلم) . وتسير الأحداث حتى تأتية من عند (الله) خادمتة وتعترف له أن الذى قتله هو جبريل وليس الجبلاوى ثم تعترف له أن الله مات بين يديها لأنه اشتد به التأثير عقب اكتشاف جنة خادمه (جبريل) بغتة أصفر وقال لها : اذهبي إلى غرفة الساحر (الشيعى) وأبلغيه أن جده مات وهو راض عنه (هكذا) ويسألون عرفة : أى شيء سوف تفعله لو نجحت (الشيعى) فقال : سأرد الحياة إلى الجبلاوى . ويقول له صاحبه : كان (سيدنا آدم) أدهم يجب الأحلام ولا يعرف منها إلا ما أدخله الجبلاوى (الله) فى رأسه .. الله الذى أرحته أنت من عذاب الكبير .

ويغنى عرفة مع صاحبه قدرى (القدر) : يا عود قرنفل فى الجنة منع يعجب الجدى من الحشاشة المجدع . واقترح آل جبيل (اليهود) أن يدفن الجبلاوى (الله) فى مقبرتهم لأنهم أقرب نسباً إليه من الآخرين ولأنهم كرهوا أن يدفن فى المقبرة التى تضم إبليس (إدريس) ، وطالب آل رفاعة (المسيح) أن يدفن فى القبر الذى دُفن فيه المسيح بيديه ،

وطلب آل قاسم (محمد) أن يدفن مع قاسم وتم دفن الله ولم يشهد الدفن إلا خدمه المقربون .. ولم يكن للناس من حديث إلا أمجاد قاهر الخلاء وسيد الرجال وصاحب كل شيء والأب الأول للأجيال المتعاقبة ، وبدا عرفة حزينا ذلك الذى اقتحم البيت بجلاله الذى لم يتأكد من وجود الله إلا عند موته شيء واحد يكفيه الآن أن يبلغ من السحر الدرجة التى تمكنه من إعادة الحياة إلى الجبالوى الذى قتله أسهل من رؤيته . وهكذا تتحدث الرواية (التى ترى السيدة سكيبة وكل من لم نذكرهم أو ذكرناهم أن من العار منع تداولها) .

وبعد

عزيزى الأستاذ الروائى الكبير نجيب محفوظ :

لست أدرى هل تتفق مع علماء الإسلام وأوليائه فى سائر العصور أنه لا يجوز تخرج الأنبياء والرسل أو الحط من قيمهم وهم المعصومون الذين رباهم الله وجعلهم أئمة المتقين والصالحين ، وهل توافقنى أن الله هو المتصرف بكل كمال المنزلة عن كل نقص وأنه تعالى لا يشبهه أحد من خلقه فى ذاته أو صفاته أو أفعاله وصدق الله العظيم القائل : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب ﴾ . وهل توافقنى والدكتور محمد البطاوى العلامة الإسلامى الكبير الذى يلفت أنظارنا إلى ما قاله الراغب الأصفهاني وهو يحدثنا فى كتابه (الذريعة إلى مكارم الشريعة) عن مسائل أتمنى لو فحصناها سويا الآن ومنها : أن الارتداد عن المكارم له ثلاث مراحل : الكسل عن تحرى الخيرات .. ويورث ذلك الزيغ الذى يحدثنا عنه ربنا بقوله : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ .

وثانها : الغباوة .. وهى ترك النظر إلى حقيقة ملكوت الله وهو المعنى بقوله تعالى :

﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ .

وثالثها : الوقاحة وهى أن يرتكب الإنسان منا الباطل ويراه فى صورة الحق ويذب عنه

(يدافع) فيورثه ذلك تساوة القلب كما قال تعالى : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ ولا شك أنكم تؤمنون بقوله تعالى فى وصفه لهؤلاء بأن : ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها وهم أعين لا يبصرون بها وهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ .

ووصفه أن ﴿ شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ﴾ وأنهم ﴿ لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئا أولئك هم وقود النار ﴾ كما أنك لا شك تؤمن بالعقاب الذى ينزله الله بعباده لقوله تعالى : ﴿ ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ لأنه ﴿ ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغفركم فى البلاد ﴾

ولا شك أنك توافقنى على قوله تعالى مشهرا بمن قالوا : ﴿ ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم ﴾ .

ولا شك أنك تؤمن بأن ﴿ الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكهم وهم عذاب أليم . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ﴾ .

إننى أربأ بخيال الروائى فيك أن يفخر بأولاد حارتنا التى رقت - كقول الدكتور البطاوى - بحق بوثنيات اليونان وإباحيات الرومان وخبث الماسون وإلحاد إخوان ماركس إننى أربأ بمداد قلمك فيها أن يدنس عقيدة أهل التوحيد وأقداس الحق فى سائر عقائد السماء حتى لا نكون ممن (يعبدون) من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم بهم علم وما للظالمين من نصير فإن شخوصك (والراوى معهم فى هذه الرواية) هم ممن تتحدث عنهم هذه الآيات الكريمة : ﴿ يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾ .

لأنه يا سيدى الله الذى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ولأنه عندما قال اليهود مثل قول أولاد حارتنا : ﴿ أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ﴾ . لقد تحدثنا من قبل عن المأزق الذى كان يواجه الأستاذ ومفتاح الاعلام بين يدى رئيس تحرير الأهرام يوم نشرت الرواية ومفتاح النقد بين يدى اليسار يوم صعدت به هذه الرواية بالذات إلى سماء الشهرة .

لهذا يمكننا أن نطرح هذا السؤال التاريخى الآن بلا تعسف : هل إصرار أهرام عام ١٩٥٩ على نشر هذه الرواية لمدة ٣ أشهر كان نابعا من أنها تعبر عن فكر كاتبها وحده أم ناشرها أيضا ؟ هل التقى فكر الأستاذ نجيب محفوظ مع هدى وفكر الأستاذ هيكل رئيس تحرير الأهرام يومها بالصدفة ، أم أن الأستاذ محفوظ كصديق للأستاذ هيكل نبتت إليه فكرتها من الحوار الذى كان يدور بينهما كثيرا ؟ ولن نجيب على السؤال لأننا لا نعرف فالأستاذ نجيب أو الأستاذ هيكل هو المطالب بالاجابة عليه .

ولكن السبب الذى جعلنا نطرح هذا السؤال عليهما سويا هو ما ورد فى كتاب هيكل (فى الطريق إلى رمضان) ص ٩٧ حيث يذكر لنا الحوار التالى الذى دار بين الأستاذ هيكل والرئيس الأسبق جمال عبد الناصر .

عبد الناصر : ماذا بعد الموت ؟

هيكل : هذا السؤال بالغ الصعوبة وأعتقد أن الجنة والنار هي هنا فوق هذه الأرض وربما كان القصد من ذكرهما الرمز للخير والشر وفي إمكاننا نحن أنفسنا أن نجعل من حياتنا جنة أو نارا بعد الموت فرميا كانت النهاية .

عبد الناصر : اتعنى أن من يفعل خيرا على هذه الأرض لا يدخل الجنة ؟

هيكل : لا أدري وإنما أظن أن الجنة والنار رموز .

عبد الناصر : ذلك يعنى أننا بالموت ننتهى وهذا كل شيء ؟

هيكل : هذا كل شيء .

عبد الناصر : هذا ليس مطمئنا .

وبعد هذا الحديث بثلاثة أيام كان عبد الناصر قد مات (هذا ما ورد في كتاب الأستاذ هيكل) . وقد ذهب المعلقون وآخريهم منذ يومين الأستاذ كمال المليجي إلى أن عبد الناصر عندما استهل هذا الحديث بسؤال هيكل : هل أنت مؤمن وإنما كان يشك في إيمان صاحبه وإلا لما سأله هذا السؤال .. لأنه ليس من المعتاد أن يسأل الصديق صديقه بعد كل هذه السنوات : هل أنت مؤمن أم لا ؟ وأن عبد الناصر عندما يطرح هذه الأسئلة أيضا كان يعبر عن شكوكه هو أيضا .. فقد سأل عبد الناصر هيكل : ثم ماذا بعد الموت ؟ وكان الأعجب من هذا السؤال رد هيكل عليه : حيث أن القرآن الكريم لم يقرر أن الجنة والنار مجرد رمز ولا يوافق القرآن الكريم على قول هيكل بأن في إمكان الفرد منا أن يجعل من حياته جنة أو نارا .

بل لقد سبق القرآن الكريم إلى وصف هذا الرأى في الآية الشريفة : ﴿ وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين ﴾ (صدق الله العظيم) .

لهذا يرى الأستاذ المليجي وكثيرون آخرون أن هذا الحوار يعتبر إنكارا لما هو معلوم من الدين بالضرورة وهكذا يخرج المرء من دين الإسلام لأن رد الأستاذ هيكل ينفي وجود القيامة والبعث .

ردود أخرى

وما زال الحديث للأستاذ (مصطفى عدنان) وقد نشرت جريدة النور ردودا أخرى له في عددها الصادر ٢٤ جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ - ١ فبراير ١٩٨٩ م . وقد كتبها تحت عنوان (القرآن الكريم هو الذى يرد على سفسطائية محفوظ) وها نحن أولاء نسجل تلك

الردود كما جاءت لا تنقص حرفا ولا تزيد كما تقتضى الأمانة العلمية .

قال : يسمى نجيب محفوظ سيدنا آدم عليه السلام باسم أدهم أى زاد على اسمه حرفا واحدا فقط الهاء .. ويسمى نجيب محفوظ إبليس باسم إدريس غير الباء واللام بالدال والراء ويشرح كيف أن الله اختاره دون إبليس ليدير أوقافه (ليكون خليفة الله فى الأرض) تماما كما جاء فى القرآن : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة ﴾ (البقرة : ٢ - ٣٠) ويعترض إبليس فى الرواية كما اعترض فى القرآن : إننى وأخوتى أبناء هانم خيرة النساء (النار) أما آدم (فابن جارية سوداء) [الصلصال - الطين] نص كلام نجيب محفوظ أى كما جاء فى القرآن الكريم . ومن ذلك سورة الأعراف ١١/٧ - ٢٥ بلسان إبليس : ﴿ قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ ويرد الجبلاوى (الله) فى الرواية على اعتراض إبليس (أدهم على دراية ويعرف أكثرهم بأسمائهم وعلى علم بالكتابة والحساب) أى كما جاء فى البقرة ٣٠/٢ - ٣٩ : ﴿ قال يا آدم انبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم ... ﴾ الخ .

وبعد هذا الحوار المنقول بمعناه من القرآن الكريم يبدأ الكاتب فى طعن ذات الله عز وجل بلسان إبليس وهو يرد على الله بما لم يرد فى أى كتاب منزل : (خلقت فتوة جبارا فلم تعرف إلا أن تكون فتوة جبارا ونحن ابناؤك تعاملنا كما تعامل ضحاياك العديدين) نص كلام الرواية .

وهكذا حول نجيب محفوظ (الخالق) عز وجل بكلمة منه وهى (خلقت) بضم الخاء من خالق إلى مخلوق فحاشا لله ، ولو رد علينا نجيب محفوظ بقوله : أن المراد بكلمة (خلقت) هنا هو جبلت أى كنت بطبيعتك فتوة جبارا .. لزادت الطينة به لأنه يستهزئ باسم الله (الجبار) إذ قرنه بلقب الفتوات الذين يعاملون أنبائهم كما يعاملون ضحاياهم الذين بنص قوله فى أولاد حارتنا .

ولم يفهم نجيب محفوظ أن اسم الله (الجبار) لا يمت بصلة للبلطجة ، والبلطجية كما كتب وكما صور لنا ذات الله وإنما معناه أن الله (يجبر) الخلق وينفذ مشيئته على من أراد (من أمر ونهى) ولكن بعد أن كتب الله على نفسه الرحمة والعدل وحرم على نفسه الظلم « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى فلا تظالموا » وهكذا لا تنفذ مشيئة أحد من المخلوقات على الله فهو المنفرد بعلو مرتبته ويخضع لعظمته كل شئ . قال تعالى : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ﴾ (الحشر : ٣) . وقال عز من قائل : ﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ (فصلت : ١١) وذلك تنبيها لعباده بأنه قد عنت له الوجوه وخضعت له

الرقاب .. وفي القرآن الكريم آيات بينات توضح لك يا أستاذ نجيب صفة الجبار عندما تطلق على المخلوقين من الخلق والفرق بينها وبين اسمه الجبار الذى شرحناه آنفا قال تعالى : ﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾ (هود : ٥٩) . وقال تعالى : ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ (غافر : ٣٥) .

إذن جلت قدرته هو القاهر فوق عباده له الخلق والأمر فعال لما يريد .. وعندما ينعم الله يحفظ هذا العبد من الظلم والبغي من كل جبار عنيد . أفهمت ؟

فالجبار فى اللغة يا أستاذ نجيب اسم على وزن فعال من (الجبر) الذى يحجر الشيء فيغنى الفقير ويصلح الكسير - أى المصلح - أحوال عباده .. والجبار يا أستاذ نجيب هو (العالى) الذى لا ينال ويطال (بضم الياء) فسبحان الجبار الذى لا تصل العقول إلى الاحاطة بجلاله . ثم يقول نجيب محفوظ بلسانه فى روايته أهل الله (أحفاد الله كما يسميهم) .

أكل من يتبع دين الله

يعيش مع القمل فى القاذورات ؟

وأعجب شيء أن الناس يحسدوننا ولكنهم لا يعلمون أننا بتنا من الفقر كالمتسولين نعيش فى القاذورات بين الذباب والقمل .. ونقنع بالفتات ونسعى بأجساد عارية ولا عزاء لنا إلا أن نتطلع إلى البيت الكبير (بيت الله الحرام) ونقول فى حزن وحسرة هنا يقيم الجبلاوى .. وتعجب نجيب محفوظ هنا بقوله : واعجب شيء و(أن الذين يحسدوننا لا يعلمون) هو إنكار لصرح القرآن الكريم إنكار لقوله تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ (النحل : ١٨) وإنكار لقوله تعالى مثلا : ﴿ أفبئس نعمة الله يحسدون ﴾ ولقوله : ﴿ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ (النحل : ٧٣) .. ولقوله : ﴿ واسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة ﴾ (لقمان : ٣١) .. ويحمل الكاتب رب العزة - بزعم أن مخلوقاته هم ضحاياه - بحمله وزر حياة المؤمنين به فى القاذورات بين الذباب والقمل بأجساد عارية .. الخ .. الخ .. لأنهم رغم ذلك كما يقول النص : (ولا عزاء لنا إلا أن نتطلع إلى البيت) (الكعبة) .

أليس هذا الهراء والكفر إنكارا لقانون القرآن الكريم الذى تنبىء عنه هذه الآيات الكريمة على سبيل المثال : ﴿ ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ (يونس : ١٤) . ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ (الإسراء : ٨٤) .

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ (الزلزلة : ٧ ، ٨)
 إن هذا الترويح يتحدى قوله تعالى : ﴿ إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر
 أو أنثى ﴾ (آل عمران : ١٩٥) وقوله : ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾
 (يونس : ٦١) .. وقوله : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾
 (الفرقان : ٢٣) .. وقوله : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن
 عملا ﴾ (الكهف : ٧) .. وقوله : ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ (الكهف :
 ٣٠) .. وقوله : ﴿ وقل اعملوا فسرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ (التوبة :
 ١٣٥) .. وقوله : ﴿ كذلك زينا لكل أمة عملهم ﴾ (الأنعام : ١٠٨) .. وقوله :
 ﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ﴾ (البقرة : ١٦٧) .

ومع ذلك رغم وضوح الآيات يلصق نجيب محفوظ الراوى القذارة والقمل الخ
 بالمؤمنين بالله (أهل الله) .. ألم تراهم يا أستاذ نجيب على حقيقتهم حتى بعد أن بلغت من
 العمر أركله .. أولئك الذين وصفهم رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يبيت على طهر يتعار
 من الليل فيذكر الله خيرا من خير الدنيا والآخرة إلا أتاه الله إياه » جرب ولسوف تمزق
 أولاد حارتنا بكل ما جاء فيها أم أنك من المصريين ؟

ألم تسمع قوله تعالى ألم تر حال وطهارة الذين أطاعوه من حولك حيث يأمرهم
 قرآنهم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق
 وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا ﴾ عن أى قمل
 وقاذورات تتحدث أيها المؤمن ؟

ألم تعلم بما ورد عن رسول الله ﷺ عندما قال لبلال رضى الله عنه : « أخبرني بأرجي
 عمل عملته منذ دخلت الإسلام ؟ » فقال بلال : لماذا يا رسول الله . قال : « لأنى سمعت
 دق نعليك بين يدي فى الجنة » . قال يا رسول الله : ما أحدثت حدثا إلا وتظهرت وصليت
 بذلك الطهور ما شاء الله أن أصلى .. ثم تصف أهل الله والمؤمنين بأنهم مع القاذورات
 لا يعملون كالتسولين .

إذن أنت لم تقرأ قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ﴾ ألم
 تر بعد من لبوا نداءه تعالى : ﴿ فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ أو قوله ﷺ :
 « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهمة فى طلب المعيشة » أكل هذه الشعوب الإسلامية
 والمسيحية واليهودية الكادحة أصبحوا مصدر تحقيرك لأنهم آمنوا بالله وأن من كفر به وآمن
 بالشيوعية هو الذى حقق الرخاء والتقدم .. وهم الذين يتبعون وصيته ﷺ : « إن الله يحب
 العبد يتخذ المهنة ليستغنى بها عن الناس » فكيف تصف من لم يعمل بأن ذلك مرجعه إلى

إيمانه بالله أليس هذا نقص في دينه الدين منه براء؟ فكيف تعزو هذا إلى الله وإلى الدين؟

أستاذ نجيب .. أنت تصف الله بأنه يتزوج فإبليس يتهم رب العزة في روايتك في حوار لم يرد في أى كتاب منزل كنص قولك : (جارية استطاعت أن تعبت بك أى بالله) .

إذن أنت تكذب ما أورده الله عن هذا الحوار : ﴿ قال رب فانظري إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتى لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ (الحجر : ٢٦) . ويرد إبليس : ﴿ قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لاحتكن ذريته إلا قليلا ﴾ فيرد عليه رب العزة : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ . توقف يا أستاذ محفوظ طويلا إذا سمحت لك الفتن التى أحاطت بك وبحواريك الذين يتقاتلون على الظهور فى البرامج المحشودة من أجلك توقف عند لفظ (عبادى) : [عبادى ليس لك عليهم سلطان] إنك تصف أن الله زوجات (حريم) وبنين (الملائكة تارة كما تقول على طول روايتك وبنى آدم تارة أخرى كما تقول على طولها وعرضها أيضا) بل أنت تقول بلسان رب العزة فى حديثه ردا على قول إبليس أن جارية (أم آدم) عبثت بالله فيرد الله دافعا عن ذاته (إنها زوجتى) ألم تسمع قوله تعالى يرد عليك من فوق سبع سموات : ﴿ فاستفتهم أربك البنات وهم البنون ﴾ (الصافات : ١٤٩) .

أهذا تحديا من حضرة (الفائز) بجائزة نوبل لقوله تعالى : ﴿ ويجعلون الله البنات سيجانه وهم ما يشتهون ﴾ (النحل : ٥٧) . ولقوله تعالى : ﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ﴾ (الزخرف : ١٦) . أو قوله : ﴿ أم له البنات ولكم البنون ﴾ (الطور : ٣٩) . أو قوله : ﴿ لو أردنا أن نتخذ لها لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾ اسمعت .. فكيف استباح لك علمك وفنك أن تقول عن ذات الله الواحد الأحد الفرد الصمد : (ثم رفع رأسه صوب نوافذ الحرم) ليهدهن بقوله : طالقة ثلاثا من تسمح له (لإدريس - إبليس) بالعودة .

يمين الطلاق تلقية روايتك على حريم الله وكم مرة ثلاثا إذن أنت تنفى الألوهية عن ربنا بصفات بشرية تسبغها عليه من قبل أن نخبرنا أن الشيعى (عرفة) قد تسبب كما جرى فى نهاية روايتك فى موت الله حزنا لأن الشيعى قتل الأمين جبريل وهو يظن أنه يقتل الله عندما بلغ الله من العمر عتيا وأصبح لا حول ولا قوة لله : ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾ .

وتدافع عن إبليس حيث تقول بلسانك بصفتك الراوى قدحا منك فى الله ومدحا منك فى الملعون الشيطان الرجيم .. تقول حتى إدريس (إبليس) : على قوته وجماله وإسرافه أحيانا فى الله لم يسء لأخوته الملائكة قبل أن (يتحيز) الله لآدم ضد إبليس .

تصف بقلمك قرار الله عز وجل يجعل آدم خليفته في الأرض بأنه قرار (متحيز) هذا كلامك فأنا لك هذا العلم بالغيب وأنا لك هذا المقام لمحاكمة قرارات الله عز وجل أيها الفرحان بفوز أولاد حارتنا أنا لك أن إبليس كان يتميز بالقوة والجمال فلمن الصفات الأخرى كالقيح والضعف هل هي للملائكة أم لآدم عليه السلام ؟

تقول هذا وربك هو القاتل للشيطان الرجيم في القرآن الكريم : ﴿ اخرج منها (أى من الجنة) مذبذوما مدحورا (اخرج منها فإنك رجيم) ﴾ تقول هذا الذى قلته بالرغم من أن القرآن الكريم (وهو أمامك إن شئت اقرأه قبل أن تكتب) أن إبليس أصبح بعد ثورة الله عليه (قاطع طريق) كما كان من قبله الله قاطع طريق هكذا .. وأنه صار بعد الثورة عليه عرييد أئيم يعتدى (ثورة من إبليس ضد ما سميته بتحيز الله ضد إبليس لحساب آدم) .

تخريف مخيف .. الله الموصوف في قرآنه بأنه ﴿ على كل شيء قدير ﴾ .. وأنه بكل شيء عليم والذى يسألنا تنبيها لنا : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ وأنه (الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم) الله الذى أمته في نهاية روايتك بيدى بطلك الشيوعى ورضيت أن توصف روايتك في ترجماتها في الخارج بصفة (موت الإله) الله (المبدى المعيد الفعال لما يريد .. السميع البصير الذى لا يعزب عن رؤيته حتى دبيب النمل في حفراته تقول عنه بنص كلامك : لا يرانا ولا نراه . الله الذى بين أيدينا كلامه الذى يتحدى الزمن والبشر بآياته التى لا تعد ولا تحصى . الله الأول بلا بداية الآخر بلا نهاية . بعلمه القديم وإرادته التى لا مرد لها . الله الحى ، الله الغنى ، الله الرزاق الذى تصف أهله بالمتسولين وهو القائل : ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ .. الله العزيز الذى علمنا العزة في الطلب كما بينها رسول الله ﷺ : « اطلبوا الحوائج بعزة النفس فإن الأمور تجري بمقادير » . الله الذى يقسم لنا بقوله عز وجل بذاته : ﴿ فو رب السماء والأرض ﴾ رب كل شيء مؤكدا لنا أن تقدير الرزق وتحديد في السماء : ﴿ فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ (الذاريات : ٢٣) فكيف تروج في أولاد حارتنا أن الله ليس كما وصف نفسه بالصمد الذى يقصد لقضاء كل الحوائج والذى بيده الخير كله والذى يستطيع أن يعطى كل إنسان حاجته دون أن ينقص ذلك مما عند الله شيئا وهو في قوته لا يستعصى عليه أحد مهما بلغ جاهه أو سلطانه ..

وإنه الأحد الذى ليس كمثلته شيء .. الذى لا شريك له ولا أحد يعلو إليه أو عليه ليكون ندا أو غالبا له .. تصفه بأنه قاطع طريق منحاز بلغت به الشيخوخة مبلغ العزلة والعجز .. تاركا ملكوته يسير على هوى غيره .. ويظلم عباده وله ضحاياهم من المؤمنين به

والله هو القائل : « وسعت رحمتي كل شيء » . وهو القائل : ﴿ إن الله يحب التوابين ﴾ .
وهو القائل : ﴿ إن الله يَغْفِر الذنوب جميعا ﴾ إلا أن يشرك به فما البال بإنكارك أصلا
لألوهيته بأنه لا يرى ولا يسمع ويموت وكل أنبيائه ورسله فسقة يتعاطون المخدرات
والمسكرات وجواربهم وأتباعهم (جرابيع) .
أهذا هو الله الذى اعتزل حتى مات .

أم تسمع قول الرسول ﷺ وهو يتلو قول الله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى
وزيادة ﴾ ويفسرها بقوله : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناديا : يا
أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون : وما هو ؟ ألم يبض
وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجبرنا من النار » قال الرسول ﷺ : « فيكشف لهم الحجاب
فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب لهم من النظر ولا أقر لأعينهم منه » .

أستاذ نجيب : ثم أراك تجعل لله عز وجل مكانا - كالبر - في بيته الكبير والله هو
الموجود في كل مكان الذى لا يحده المقدار . ولا تحويه الأقطار ولا تحيط به الجهات
ولا تكتنفه الأرض والسموات . المستو على العرش على الوجه الذى قاله وبالمعنى الذى أراده
استواء منزها عن المحاسة والاستقراء والتمكن والحلول . لا يحمله العرش بل العرش وحملته من
الملائكة محمولون بقدرته وهم معهودون في قبضته .

تقول أن الله اعتزل لا يدري عنا شيئا .. وهو الله القريب من كل موجود أقرب إلى
عباده من جبل الوريد .. وهو على كل شيء شهيد فتعالى الله عن أن يحويه مكان في حارتك .
كما تقدر الله عن أن يحده زمان كما وصفته في حارتك بل كان الله يا رجل قبل أن يخلق الزمان
والمكان وهو الآن على ما عليه كان .

ثم تصف الله بالعجز (راجع في مقالنا الأول) بنص كلماتك وهو الله الحى القادر
الجبار القهار الذى لا يعتره قصور ولا عجز ولا تأخذه سنة ولا نوم ولا يعارضه فناء
ولا يعتره موت ، فهو ذو الملك والملكوت والقوة والجبروت وصاحب الأمر في السموات
والأرضين وأنه تعالى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء . بل يعلم ديب
التملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ألم تعرف .

الله أول موجود لذاته وكل ما سواه لولاه معلوما ومفقودا حتى أنت . هذا هو الله
الذى تجرأت عليه جرأة وصفها غلاف كتابك بالانجليزية بأنها غير مسبوقة في تاريخ الأدب كله ..
ولكن الأوركسترا المعادى للأديان . أو المدمن للظهور فتنك .. وساقك وسقته للحديث عن
أى شيء يتيح لهم الظهور على هواك وهوى من السيد الأستاذ نجيب محفوظ (وصفت نفسك

يخط يديك بلقب شيوعى ، وهو لقب الرفيق) - راجع رسائلك التى نقلناها عنك فى مقالنا الأخير - . فى أيها الرفيق - لغيرنا - أراك تصف الملائكة عباس كما اسميت عزرائيل ورضوان (خازن الجنة) وجيليل (كما اسميت جبريل) بأنهم يقضون وقتهم فوق السطح (السماء) يقامرون .

الملائكة يلعبون القمار :

ألم تعلم أنها أجسام نورانية لطيفة قادرة على التشكل عظيمة القدرة على الأفعال الشاقة . يعبدون الله آناء الليل وأطراف النهار ولا يعصون الله ويفعلون ما يؤمرون .. فكيف يسمح لهم ربهم بلعب القمار وكيف يستقيم ذلك مع نصوص القرآن الكريم التى تحرم هذا القمار ويعاقب ربنا من يمارسه .

ألم تسمع قوله تعالى : ﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ﴾ .

إذن فقد طرد الله إبليس من الجنة ومع ذلك أنت تراه تركه يغوى الملائكة لممارسة هذا الرجس . يقول الله عز وجل فى شأن الميسر : ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء ﴾ (المائدة : ٩٠) أم أن الملائكة يعصون الله ومع ذلك يصفهم فى قرآنه : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ ويستغفرون لمن فى الأرض ويسبحون لا يفترون (الخ) .. لا أظنهم والله يستغفرون لأولاد حارتنا . بل أراهم لا يفترون عن لعنها ..

كيف يا ترى تكون ممن ذقت حلاوة الإيمان يوم سطرت أولاد حارتك أو يوم فزت بسببها .. ويوم مجدك من مجدك بعدها . كيف يا ترى تكون ممن ذقت طمأنينة اليقين وعز الخشوع ثم تشهر بالمؤمنين وتصفهم فى الرواية دون أن يبرئهم أى من شخوصها بأنهم الأندال (نص كلامك) . وأن كل علاقتهم بالله هى من أجل الطعام والشراب .

ويتم ذلك بلسان من يحظى فى روايتك بإعجابك وهو الملعون ودون أن تفند رأيه هذا بل تتركه كنار السموم يعصف بضحاياك من الكتاب الصغار والقراء المساكين الذين يسبحون بمجدك ليل نهار .. لا يفترون .

كيف تكون من هؤلاء الذين ذاقوا حلاوة الإيمان ثم تقذف أم البشر عليها السلام زوج أينا آدم أبو البشر عليه السلام بأنها زنت مع إبليس .. وأتانا نحن أبناء الزانية .

ألم تسمع قول الله عز وجل فى قرآنه الكريم يسأل من على شاكلتك ممن يتحدثون عن اتخاذ الله إناثا أو ممن خلق آدم وحواء وذريته والسماء والأرض بما لم يشهد به الله وينبئنا به :

﴿ اشهدوا خلقهم . ستكتب شهداتهم ويسألون ﴾ (الزخرف : ١٩) .

وعن من اتخذوا الشيطان وذريته أولياء كما فعلت أولاد حارتك يسأهم القرآن الكريم ﴿ أفتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا . ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾ (الكهف : ٥٠) .

ثم تناقش ما تروجه روايتك - دون دحض منك - من أننا أولا زانية فنسألك : أكنت أحد أربعة شهداء في هذا اليوم الأول ؟

ثم : ألم تعلم بعد أن عقوبة القاذف للبريء بالزنا هي ثمانين جلدة : ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ﴾ (النور : ٤) .

ألم تعلم أن هذه هي عقوبة من يتهم المحصنات . فما البال .. بمن يتهم أم البشر بالزنا .. إن الذى يتهم المحصنات فاسق .. فما حكم الشرع أى أنه فسق عن الإسلام .. كما يفسق البلح بإزالة القشرة على الثمرة فالإسلام برىء منه تماما .

فهل أنت من أولاد أمنا حواء كسائر البشر من أمثالنا .. أم أنك ونحن جننا بمقتضى نظرية دارون من نسل القروود .. رغم ثبوت بطلان هذه النظرية .. أم أن لك نظرية أخرى لم تعلن عنها بعد عن نشأتك ونشأتنا .

إنك تجبرنا جبرا أن نسألك عن أصولك وفروعك إن كنت حقا من بنى آدم وحواء مثلنا . فإن لم تكن فنحن مضطرون لسؤالك عن نظريتك التى شيدت عليها أولاد حارتك ؟ لأن إنكار الله (والحكم عليه بالموت بيدي أحد مخلوقاته بعد فشل الله وعجزه وكبر سنه .. يدفع بك إلى هوة سحيقة من الأسئلة : كيف خلقنا .. ألم تعلم بعد ؟

ومن منا تناسل بالحلل ، ومن منا تناسل بالحرام ؟

أم أنه فى يقينك واعتقادك أن الحلل والحرام قيم (أفيونية) (أى دينية) باعتبار الدين هو أفيون الشعوب كما تعلمنا روايتك ؟

تقول فى روايتك : كم من سيدة مصونة تحولت بكلمة من الله (الجبلاوى كما تسميه) إلى متسولة تعيش .. وكم من رجل غادره بعد خدمة طويلة يحمل على ظهره العارى سياط .. والدم يطفح من فمه وأنفه .

وهكذا تؤكد المرة بعد الأخرى أن التسول والعوز مصير كل عابد مخلص وأن الله كما ذكرت : قابع وراء الأسوار بلا قلب .. متمتعا بنعيم لا يخطر على بال بالمقارنة بأبانا الذى

يكدح .. وأما التي تكذب طول النهار وشطرا من الليل . ونحن حفاة شبه عراه - نص
تعبيراتك - وتصف حفيدة الله (أخت سيدنا هايل) بأنها عاهرة . وحفيد الله - كما
تصفه - (قايل) بأنه قاتل ، هكذا قلت : حفيدة وحفيدا .

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو ﴾ .. وهو الله : ﴿ الذى لم يلد ولم يولد ﴾ وبالرغم من
أنه ﴿ لله ميراث السموات والأرض ﴾ .. وأنه ﴿ له الخلق والأمر تبارك الله رب
العالمين ﴾ .. وأنه ﴿ عنيت الوجوه للحى القيوم ﴾ .. لأن ﴿ لله مقاليد السموات
والأرض ﴾ .. ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات والأرض ﴾ .. ﴿ والله
خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾ .. ﴿ ذلكم الله خالق كل شيء لا إله
إلا هو ﴾ أتريد المزيد من آيات القرآن التي ترد عليك أم هذه الآيات التسع تكفيك ؟

أم أن كل آيات القرآن الكريم والكتب المنزلة من قبله لم تكفك والقول أننا أولاد زنا
لأن إبليس زنا بجواء . فيه جهل وعدوان شديد بل مريع .. لأنك لم تعلم أن إبليس يطوف
بكل امرأة أو رجل يتلاقيان كزوجين لا يستعيذان بالله .. ولا توصف المرأة هنا بالزانية لأن
الطواف هنا يقصد به (مس الجنين) كى لا يعيش أو كى لا يكون مباركا .. أو كى تمرض
المرأة أو الرجل لأن الشيطان يسرى فى الإنسان مسرى الدم إن لم يتحصن منه فهل نسعى
تمكن الشيطان من ذلك قبل الاستعاذة منه زنا . أرايت هول وخطورة فكرك وهو يلوث
لا العقول والعقائد بل طهارة الكون كله .

وهذا المنطق - أن هناك عاهرة وأولاد زنا - أثبتت يا أستاذنا - عدم علمك بعد بأنه لما
أراد الله تعمير الأرض بنى آدم كخلفاء فى الأرض أذن لسيدنا آدم عليه السلام أن يزوج ذكر
كل بطن (من أمنا حواء) بأثنى البطن الأخرى فأراد هايل أن يتزوج بأخت قايل (توأمه)
وكان قايل أكبر من هايل وأخت هايل أحسن .

وهذا حق هايل طبقا لما علمهما آدم بإذن ربه .. ولكن قايل أراد أن يستأثر بتوأمه -
أخته بولادة واحدة - على أخيه هايل فأنى سيدنا آدم عليه السلام وأمرهما أن يقربا قربانا
وذهب آدم ليحجج إلى مكة وقرب قايل حزمة من ردىء زرعه وقرب هايل وتركت قربان
قايل علامة عدم قبول الله فغضب قايل وقال لاقتلنك قال : إنما يتقبل الله من المتقين . فقال
هايل التقى لأخيه الفاسق : ﴿ لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بياسط يدي إليك
لأقتلك . إني أخاف الله رب العالمين . إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب
النار وذلك جزاء الظالمين ﴾ .

وبعد .. إن هناك (خلل) فظيع في هذه الرواية .. إنها لم تر عظمة الكون والملكوت بينا (قليل من الفلك) كان كفيلا بإتارة العقل وبايقاظ هذه الحارة بأولادها من غفلتها وسقطتها المرعبة مما يدعوننا إلى أن ننصت سويا إلى هذه الأنباء الهامة . فلعل الكاتب الكبير لم يعرفها لانشغاله بتخصصات أخرى عندما كتبها (مما كشفت رسائله إلى لندن عنها) أو انشغاله بالعرس الكبير الذى أقيم له وكأن معجزة من السماء قد حدثت بيديه .. هذا العرس الاعلامى الذى لم يسبق له مثيل في طوله الذى بدأ قبل خمسة أشهر لم تتوقف الأفراح فيها لا بالنهار ولا بالليل يوما واحدا حتى أصبح الوضع مريبا جدا .. فلا هو حدث لانتصارات أكتوبر .. ولا للجلاء .. ولا لأى مناسبة أخرى .. خمسة أشهر ليل نهار .

قلت لك قليل من الفلك يصلح أحوال أولاد حارتك .

لقد تم هذا العام اكتشاف مجرة جديدة (٤ س ٤١) تعتبر أبعد تكتل من الكواكب عن الأرض . أمكن اكتشافه حتى الآن وهى على مسافة ١٥ ألف مليون سنة ضوئية (السرعة ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية الواحدة) وهى تزيد عن تسعة أعشار المسافة التى تمتد من كوكب الأرض إلى حدود الكون المعروفة وكنا قبلها نعتقد أن أكبر مجرة في الكون (واسمها ماركرينان) ١١٤٨ حجمها أكبر من مجرتنا ب ١٣ مرة وأنها ولدت منذ ١٢ مليار سنة ضوئية .. فهل في ظل هذا (الغيب) من المعرفة يمكن وصف الله كما فعلت ؟

وقد يقرب الصورة لنا ولك عن عظمة الخالق يا أستاذ نجيب أن تعلم أن النجوم والكواكب كائنات حية لها أعمار زمنية محددة ، تنفجر بعدها وتموت هذه الفجوات السوداء التى يراها الفلكيون عبارة عن (قبور النجوم التى توفت) ، أما الفجوة السوداء المركزية فى الفضاء فهى التى تهدد بابتلاع كافة نجوم وكواكب الفضاء .. ولو اقترب القمر ٣٠ كيلو متر فقط ناحية الأرض لانشق وتلك من علامات يوم القيامة كما يذكر لنا القرآن الكريم .. ألم تقرأ هذه السورة ؟

والمعرفة بعلم الفلك سوف تؤكد لنا أن هذا العلم لا يتعارض مع الحقائق الدينية بل يتطابق معها .. وبصورة شبه حرفية .. فعلم الفلك يقول أن ولادة الكون قد حدثت منذ خمسة عشر مليار عام حيث كانت هناك نقطة سوداء عملاقة انفجرت ذلك الانفجار الرهيب الذى ولدت منه الكواكب والحياة وولد الكون (المسافة من الأرض إلى الشمس ١٥٠ مليون كيلو متر .. وهناك نجم أبعد عنا ١٢ بليون مرة بعد الأرض عن الشمس) .

أما المجموعة حديثة الولادة فهى تبعد عنها ١٢ مليار سنة ضوئية (أى حوالى مائة وأربعة عشر تريليون كيلو متر) . أما مجرتنا فقطرها ١٠٠ ألف سنة ضوئية فقط .

هذا الكون يا أستاذ نجيب عجز أمامه جهاز مزود بسبعة وعشرين تليسكوبيا لاسلكيا قطر كل واحد منها ٢٥ مترا وضعوه فوق الأراضي المرتفعة بولاية نيو مكسيكو وبه تمكنوا من اقتفاء أثر بعض النجوم الخفية ، أكد أن هناك عشرات الآلاف من الكواكب لم نكتشفها بعد .

هناك يا أستاذ نجيب نجم أكبر من الشمس عشرات المرات يلف ٦٠٠ مرة حول نفسه في الثانية الواحدة .. أى أنه يدور حول نفسه ٥١ مليون و٨٤٢ ألف دورة في اليوم .. وهو يندفع خارج المجرة بسرعة ١٣٠٠ كيلو متر في الثانية .. محاولا الخروج إلى الكون الشاسع خارج المجرة التي تجمعها مع الأرض . أرأيت أن حارتك تدعى ادعاءات باطلة عن أنها هي الكون .

أما النجم الغامض (اس / س ٤٣٣) فيلف دورة واحدة حول نفسه كل ١٦٠ يوما .. ولكنه يتحرك بسرعة جنوبية أيضا تبلغ ٣٠ ألف ميل في الثانية .. وحارتك لم تراه فهو على مبعده منا بعشرة آلاف سنة ضوئية وهو يتجه إلينا الآن .

والنجم عندما يشهق شهقة واحدة ينفجر .. انفجار يساوي ملايين القنابل الهيدروجينية وعشرة نجوم تنفجر كما نكتشف سنويا ، وفوق كل ذى علم علم لهذا فإن الله أكبر يا أستاذ نجيب .

وقيل أن ننتقل إلى ردود القرآن الكريم على ما قاله نجيب محفوظ عن الرسل والأنبياء نتوقف عند قول نجيب محفوظ الذى يكرره في كل مناسبة أن العالم الإسلامى كله يقرأ هذه الرواية إلا مصر وهذه أكذوبة كبرى فالرواية مطاردة من جميع الدول المؤمنة برها ولقد أراد نجيب محفوظ أن يغرر بالصحافة السعودية فأرسل إلى (أخبار العالم الإسلامى) وهى مجلة أسبوعية تصدرها رابطة العالم الإسلامى فى مكة المكرمة برسالة يقول فيها أن حلمي زيارة الأراضى المقدسة (ملحوظة : طبعا سيادتكم تعلمون أن أفضل الحج هو ما يتم على نفقة الحاج إن استطاع إليه سبيلا وإن كنت أوقن أن دخلك من هذه الرواية أو من جائزة نوبل التى منحتها بسبب هذه الرواية لا يصلح للاتفاق منه على الحج) . ثم تقول يا أستاذ نجيب أنه ليس فى رواية أولاد حارتنا ما يدعوك للتبرؤ منها ردا على النداء الذى وجهته إليك رابطة العالم الإسلامى فى هذا الشأن .

لذا فقد أفردت هذه الرابطة الكبرى التى تقف فى المرتبة التالية للأزهر الشريف علميا فى المجلة التى توزع فى العالم أجمع صفحة كاملة للرد عليك بقلم ممثلها فضيلة الأستاذ محمد حسانين لكن قاصمة الظهر هى رواية أولاد حارتنا والتى هى فى واقع الأمر أشد الروايات خطورة وهرطقة والمصيبة أنه أعلن بعد الفوز أنها من أحب الأعمال إلى قلبه كما أنى قرأت

حيثيات الفوز بالجائزة ووجدت إشادة من اللجنة بهذه الرواية على أنها تمثل بحث الإنسان الدائم في جانب الروحانيات وتعجبت وأكاد أقول الآن أن ذلك كان حاجة في نفس يعقوب .

ثم يقول : ما زالت رواية (أولاد حارتنا) لم تصدر في مصر حتى كتابة هذه السطور وقد قرأتها أول ما قرأتها باللغة الانجليزية لكن الدولة في عهود ثلاثة من رؤسائها عاصروهم نجيب محفوظ هم جمال عبد الناصر - أنور السادات - محمد حسنى مبارك .. رفضت أن تصدر في مصر وإن كان الأمر بعد نشرها في الأهرام غير مفهوم خاصة وأن (الأزهر) المعمور .. حين ثار .. صدر قرار (تطوير الأزهر) كما يقول العالمون ببواطن الأمور .

وقد كان نجيب محفوظ غير موفق حتى في اختيار الأسماء والدلالات الرمزية الوقحة وهو يصف المولى عز وجل بصفات ليست من صفاته فهو يمرضه ويشفيه ويشكك في وجوده وهو يقصد بالحارة هذه الدنيا الواسعة وتصل هرتقطته إلى أنه يصور الله كأى شخصية روائية يبتكرها خيال روائى أو قصاص ﴿ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ﴾ .

إنها زلة كبيرة وكفر يعلم الله بواح .. لأن هذه الرمزيات الواضحة تضع الكاتب ما لم يتب بين صفوف الملحدين وعندئذ إذا لم يسارع بالتوبة أو نفى التهمة فلا فرح به أوله .. لأن زلة الكاتب الذى نتاح كتبه للناس لقراءتها تقرأها الأجيال المتعاقبة غير زلة الإنسان العادى الذى لا يؤثر إلا على نفسه أو على من حوله (على أقصى تقدير) . أما زلة الكاتب فتمتد آثارها وآثاره إلى أناس لا يعرفهم ولم يلتقوا به بل وربما عاشوا في زمان غير زمانه ومن هنا يصبح تأثير الكاتب - أى كاتب - غير محدود الزمن والمكان .. لا تكتب بخطك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه ولذلك فإنه إذا زل أحد العلماء أو الكتاب قد يزل بزله خلق كثير وعالم واسع في أزمان وأماكن مختلفة .

وما أن فاز محفوظ بجائزة نوبل حتى تعالت أصوات (الشيوعيين) تطالب (بطبع) وإصدار الرواية بدعوى أنه من (العار) أن تكون كتب الرجل تقرأ في كل أنحاء العالم مترجمة بكل اللغات بينما إحدى روايته مصادرة ومنوعة في مصر ، وقال البعض أنه لا يوجد (حكم قضائى) بالمصادرة و(حرية النشر) في مصر تحتم نشرها متناسين دستور البلد الذى ينص على (الشريعة الإسلامية) وأن هذه الرواية لا تسمى حتى للمسلمين فحسب بل لأنبياء الله جميعا ومنهم (موسى) و(عيسى) و(محمد) (جيل) و(رافع) و(قاسم) كما يسميهم محفوظ في أولاد حارتنا .

ويتبجح البعض قائلان المصادرة تمت بناء على طلب هيئة غير رسمية (يعنى الأزهر) .. مما يجعلنا لا نملك إلا أن نتوجه بهذا النداء العاجل ، نقول للأزهر ومفكرى عالمنا

الإسلامى وقياداتنا : لا تستسلموا لأن الرجل فاز بجائزة نوبل وليكن الأزهر أزهرا لا نخنوا رؤوسكم للعواصف ، ثقوا بالله ثم بالمسلمين يسمعونكم فلا تنهوا .. ونقول للمستولين بمصر : أليس جديرا بنا مع توالى المحن أن نتقى في فكرنا وكتاباتنا كل ما يغضب الله علينا ؟ رواية ظلت ممنوعة عشرات السنين تطبع الآن والآن بالذات ولماذا ؟ لمجرد فوز محفوظ بالجائزة أم ماذا ؟

انتهى ما نقلناه من نص هذا البيان فى الخارج بمناسبة إنكار الأستاذ نجيب والاوركسترا الذى يعزف له وجود أى من منظمة فى العالم الإسلامى غير الأزهر ثارت عليه .

وبعد ...

لقد صورت سيدنا شعيب عليه السلام عند لقائه بسيدنا موسى عليه السلام بأنه يقضى وقته مع الجوزة واللغة ويقول بالنص لسيدنا موسى : (خير الليل ما مضى بين هذا وذاك) وأن موسى عليه السلام كان يضحك (فى نشوة طفل) لأن سيدنا شعيب قال له : (إني أحبك أكثر من أى شعبان عندى) وأن فرعون كان يسب موسى بأنه محتال وحشاش وتصف احتفال المؤمنين بسيدنا موسى وانتصاره على فرعون بأن (البوظة جرت أنهارا) .

وانعقدت فى سماء الحجرات سحب الحشيش ورقصت تمر حنة حتى اغل وسطها وكانت تلك الأيام بالنسبة لجبل (سيدنا موسى الذى كلمه الله على جبل الطور) وشقيق سيدنا موسى - سيدنا هارون عليهما السلام - هى (أطيب الأيام) - نص كلامك - .

ثم قولك أن كل قوة الله هى فى كتاب السحر الذى أودعه أسراره وفنونه والذى ألقى به فى زباله الحارة وأن المؤمنين قالوا لو خيرنا بين الله والسحر لاخترنا السحر .

وأن معجزات الأنبياء هى الاعيب حواه .. يقول سيدنا شعيب (أو البلطيقى) لسيدنا موسى (أو جبل) عليه السلام : (سأعلمك كيف تخفى بيض فى جيب متفرج وتخرجها من جيب آخر) أرايتم تلميذ وهو كليم الله تلميذ محتال .. حاوى .. تكذيبا لقوله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألقى ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ .

﴿ وألقى ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ﴾ .. ﴿ ما جئتم به السحر إن الله سيبيطه إن الله لا يصلح عمل المفسدين . ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ .

﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل
أما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب
موسى وهارون ﴾ ولكنك تقول أن موسى عليه السلام تعلم على يدي حاوي وأنها كانا
يسهران يتجاذبان الجوزة .. ونقص عليك هذه الحكاية كما وقعت لا كما شئت تشويهها على
أطراف الشام ناحية الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط كان هناك مدينة اسمها مدين على اسم
قبيلة تسكنها وهم من أولاد مديان بن سيدنا إبراهيم عليه السلام وكان بينهم في أرجح
الأحوال سيدنا شعيب قد عاش عمرا طويلا بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام
وتزوج بابنته ولهذا دليل من القرآن إذ شكى إلى سيدنا شعيب سيدنا موسى عليهما السلام
عندما فر موسى خائفا من مصر فقال له هذا الذى يعلم بعلم الله : ﴿ لا تخف نجوت من
القوم الظالمين ﴾ . إذن كيف وصف القرآن الكريم سيدنا شعيب هل وصفه كما وصفته أنت
حشاشا حاويا يغرر بالناس بشعائنه ويتعاطى مع سيدنا موسى عليه السلام المخدرات
والخمر .. الخ .

انصت إلى قول الله عز وجل : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما
لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس
أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ولا تقعدوا
بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبعونها عوجا واذكروا إذ كنتم
قليلًا فكثرتكم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وإن كانت طائفة منكم آمنوا بالذى
أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . قال الملأ الذين
استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا .
قال أولو كنا كارهين . قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما
يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا . ربنا
افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه
لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين . الذين
كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها . الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين فتولى عنهم وقال
يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ .

أبعد أن تليت عليك هذه الآيات التى تقص علينا ما جرى لازلت مصرا على ألا
تعترف وتوب وأرأيت كيف تجرد في روايتك وتزيف التاريخ .

الفصل الثاني عشر ماذا قال عن أنبياء الله تعالى (جبل)

وقد رمز بهذا الاسم لكليم الله موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام فماذا قال عنه ؟
قال الكاتب :

مات أبناء الجبلاوى صغارا والوحيد الذى بقى من نسلهم وعاش طيلة حياته فى البيت الكبير كان (الأندى) وهو ناظر الوقف . أما أهل الحارة فكانوا بين باعة جائلين وأصحاب دكاكين أو مقاه و عدد كبير من الشحاذين وقد استقر النظام على أن يسيطر ناظر الوقف على الحارة ومن فيها مستعينا بالفتوات فلكل حى فى الحارة فتوة يحمى أهله ويقهر من يعارضه ويدفع له الناس الأتاوات ، ثم للحارة كلها فتوة رئيس يساعد ناظر الوقف وكان فتوة الأندى هو (زقلط) الذى كان يعيش فى بيت مواجه لبيت الأندى .

وكان أفقر الناس وأكثرهم تعرضا للذل والهوان مع كونهم أيضا ينحدرون من نسل الجبلاوى هم آل حمدان . وفى بيت الأندى وتحت كنفه وكنف زوجته السيدة (هدى) نشأ (جبل) وهو أصلا من آل حمدان ولكن أهله ماتوا فتبنته السيدة هدى والأندى لأنها لا ينجبان .

وينشأ جبل موزع النفس والضمير بين ولائه للبيت الذى ترى فيه واثائه لآل حمدان المستضعفين .

ويثور آل حمدان ويذهبون يتقدمهم حمدان إلى بيت الأندى طالين العدل والانصاف لكنه يردهم خائنين ويُعمل فيهم فتوته البطش والتكيل ويحاول جبل أن يتدخل لوقف أو على الأقل تخفيف العقاب على آل حمدان ولكن موقفه يواجه رد فعل عنيفا من الأندى وزقلط الفتوة ، ويتساءل جبل : (أيعجبك هذا الطغيان يا جبلاوى ؟) .. (هذه النغمة سائدة عبر

القصة كلها تقريبا نعمة التمرد والدهشة والحنق إزاء صمت الجبلاوى وإزاء ما يحدث في حارته من ظلم وعسف وطغيان .

ويستمر (قدرة) فتوة آل حمدان في اضطهادهم وسومهم صنوف العذاب ويطارد ذات ليلة (دعبس) أحد أبناء الحى متوعدا إياه إلى أن يمسك به وينهال عليه بنبوته الغليظ بلا رحمة ، ويرى (جبل) هذا المشهد فيحاول إثناء الفتوة عن بغيه بلا طائل فلا يملك إلا أن يبطش به ليوقفه عن قتل دعبس المسكين وينطرح (قدرة) أرضا بلا حراك ويعلم أنه مات مع أنه لم يقصد قتله ويهرب (جبل) من الحارة بأكملها قاصدا الصحراء ، بينما تنور نائرة الفتوات وينزلون بالأهالى أشد ألوان الاضطهاد والعذاب .

ويسير (جبل) مبتعدا إلى أن يرى على البعد في سوق المقطم منزلا منعزلا ينبعث منه نور فيقصده ويرحب به صاحبه (البلقيطى) مروض الحيات الذى يقيم في الدار مع ابنته (شفيقة) (و سيدة) وكان (جبل) قد أسدى إلى الفتاتين معروفا عندما سقى لهما الماء وكانتا غير قادرتين على ذلك وسط الجموع الكثيرة وأخيرا (جبل) أن أباهما رجل كبير ومتفرغ لعمله لا يستطيع أن يذهب معهما لحمل الماء : ﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تزودان ... ﴾ .

ويقيم (جبل) مع (البلقيطى) الذى يعرف منه قصته ويتفق معه على أن يعلمه مهنة السحر وترويض الثعابين ويتبادل جبل وشفيقة الاعجاب ويتم زواجهما .

ويتقن (جبل) المهنة ويقضى زمنا مع (البلقيطى) يكتسب عيشه معه ثم يعود خفية إلى الحارة ومعه زوجته ويقصد بيت حمدان كبير قومه فيرحب به ويدرس الجميع كيف يمكن أن ينتقموا من الفتوات وينهوا حياة الذل والاضطهاد .

ويقص عليهم (جبل) حادثة غريبة وقعت له وهى أن شخصا هائلا كالجيل استوقفه في الظلام الخالك وهو يتجول في الصحراء وقال له بصوت غريب : (لا تخف أنا جدك الجبلاوى) وقال له : (أنا هنا) فحدق (جبل) بصره في الظلام لكى يرى وجهه ولكنه لم ير شيئا . فقال له الجبلاوى : لن تستطيع أن ترى وجهى في الظلام (إشارة إلى تكليم الله تعالى لموسى في طور سيناء) وإلى طلب موسى لربه : ﴿ أرأيت أنظر إليك قال لن ترانى ﴾ .

وبينا استمع آل حمدان إلى (جبل) وهو يقص عليهم القصة وهم مشدوهون متشككون . أكمل (جبل) قائلا : أن الجبلاوى قال له إنك رجل يعتمد عليك يا جبل ولكنك نبذت حياتك المريحة حزنا على ما أصاب قومك من اضطهاد ولكن قومك هم قومى ولهم حقوقى ووقفى لابد أن يحصلوا عليها . ولما سأله (جبل) : وكيف السبيل إلى ذلك ؟

قال : بالقوة سوف تحطمون الظلم وتناولون حقوقكم وتحيون حياة كريمة . فصاح (جبل) سنكون أقوياء ، وباركه الجبلاوى وانصرف .

ويعلم (الأفندى) وفتواته بعودة (جبل) وينتشر سر مقابله للجبلاوى وتثور نائرة (الأفندى) لأنه يحس في ذلك تهديدا لسلطته ونظارته للوقف إذا وقف الجميع خلف (جبل) مطالبين بحقوقهم .

وفجأة تنتشر في بيوت الناس وبالذات (الأفندى) والفتوات ثعابين مخيفة ويسود الذعر بين الناس للدرجة أنهم يغادرون بيوتهم ويبقون في الخلاء من الذعر ثم يرجون (جبل) أن يتدخل لانقاذهم من الحيات مستخدما مهنته التي تعلمها ويقبل (جبل) بشرط أن يكون الثمن هو كلمة شرف من (الأفندى) أن يحترم آل حمدان ويحفظ لهم كرامتهم وحقهم في الوقف ، ويوافق (الأفندى) تحت ضغط الموقف وسرعان ما يخلصهم (جبل) من كل الثعابين السامة والخطيرة التي تملأ بيوتهم (دعاء موسى لله تعالى أن يكشف عن آل فرعون الرجز الذى حل بهم مقابل تعهدهم بأن يؤمنوا . والثعابين فيها إشارة إلى تفوق موسى على سحرة فرعون يوم الزينة) .

ويقرر (الأفندى) و (زقلط) التخلص من كل آل حمدان حتى لا يطالبوا بحقهم في الوقف بينما يكون (جبل) وأهله قد دبروا خطة مضادة للقضاء على الفتوات قضاء مبرما فقد صنعوا لهم كميناً في دار حمدان حيث تركوا الباب مفتوحاً وحفروا حفرة عميقة في المدخل غطوها من الخارج بحيث ينخدع الفتوات ويسقطون فيها . وهذا ما حدث فعلاً فقد سقطوا جميعاً وعندئذ القوا عليهم المياه ليغرقهم والتراب ليخنقهم وانهاروا كذلك عليهم بالهراوات ضرباً عنيفاً حتى يستأصلوا شأفتهم تماماً (غرق فرعون وآله ونجاة موسى وبنى إسرائيل) ويستعطف (الأفندى) (جبل) حتى لا يلحقه أذى هو الآخر ويتفق الجميع على أن يحصل آل حمدان على حقهم في الوقف بالانصاف .

ويقضى (جبل) على (دعيس) بخلع إحدى عينيه قصاصاً منه لأنه فقاً عين شخص آخر (إشارة إلى القصاص الوارد في التوراة : « وكتبنا عليهم أن النفس بالنفس ... » وهكذا يسود العدل والمساواة بين الناس زمن (جبل) وتنتهى قصته عند هذا الحد .

القول الحق

لعلك أيها القارئ قد علمت علم اليقين أن ما رمز به الكاتب إلى رب العزة وموسى و شيوخ مدين والأفندى الذى قصد به فرعون وهدى زوج فرعون والرجل الذى وكره موسى

فقضى عليه والذي جاء من أقصى المدينة يسعى وما رمز به إلى ابنتى شعيب وإلى مناجاة الله لموسى عند جبل الطور . لعلك لمست في كل هذا أن الرمز هنا كان قد أغنى عن العبارة وأن التلميح قد أغنى عن التصريح فمن أنكر ذلك فقد أنكر ضوء الشمس في وضوح النهار وهي تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية وقد سال منها لعاب كالمهل يشوى الوجوه . ومن أدعى أنه لا يقصد بتلك الرموز ما وضحتنا سابقا فمثله كمثل ذلك الذى سأل أبناءه فقال لهم : هناك حيوان أليف يمشى على أربع وله ذيل وصوته (مواء) وأول حرف من اسمه قط فخبروني ما هو ؟ هل يعقل أن يقولوا أنه كلب مهما كانوا أغبياء ؟ ذلك شيء بعيد . فالرموز فيما ذكره الكاتب في روايته تكاد تنطق بمدلولاتها الدينية وبأسماء الأنبياء وذلك فضلا عما أطلقه على الذات الإلهية من اسم الجبلاوى : ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ .. ﴿ والله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسماءه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾ . وفي الفقرة السابقة من كلامه هنات ليست بهنات فما كان يليق به أن يحدثنا عن الله بتلك العبارة وما جرى بين موسى وابنتى شعيب لم يكن استلطافا ولا يليق أن يقال هذا عن نبي قال عنه رب العزة : ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ﴾ . وقال في شأنه : ﴿ وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ﴾ .. وقال : ﴿ وألقيت عليك محبة منى ﴾ .. وقال : ﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾ .. وقال : ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ .. وقال : ﴿ يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾ كما أن موسى عليه السلام لم يكن ساحرا وأن شيخ مدين لم يعلمه السحر ويديره على استعمال الحيات . ومن قال هذا فقد ردد قول فرعون عدو الله عندما قال للملأ حوله : إن هذا لساحر عليم . كل هذا تحدث به الكاتب عن نبي جعله الله من أول العزم الخمسة . قال سبحانه : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾ . وقال في شأنهم : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ ولا أجد دفاغا عن كليم الله موسى أبلغ من قول الله تعالى ردا على مثل هذا الكاتب في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله بما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾ .

القرآن الكريم يرد على أمثال هؤلاء

ولا يسعنا هنا إلا أن نأق بما قاله الله تعالى بالحق المبين عن موسى وقصته في حدود ما ذكره الكاتب عن بعض أحداث القصة ونبدأ بسورة القصص :

قال تعالى : ﴿ طسم . تلك آيات الكتاب المبين نلتوا عليك من نأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون . وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين وقالت امرأت فرعون قرت عيني لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون . وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون وحررنا عليه المراضع من قبل فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون . ولما بلغ أشده واستوى آتيته حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين . فأصبح في المدينة خائفا يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين . فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين . وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فأخرج إني لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقب . قال : رب نجني من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل . ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان . قال ما خطبكما ؟ قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير . فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا . فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين . قالت إحداهما : يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين . قال : إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن اتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن اشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين . قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل . فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور

نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بخير أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما آتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب . يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين . اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذائك برهانا من ربك إلى فرعون وملاه إتهم كانوا قوما فاسقين ﴿ .

تأمل :

أخى القارىء ارجع البصر في النص القرآن السابق هل ترى شيئا مما قاله الكاتب عن نبي الله موسى ثم ارجع البصر كرتين هل ترى استلطافا دار بين موسى وبنت شعيب .

إن الله تعالى قد وصف حياءها بقوله : ﴿ فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ﴾ كأن الأرض نسجت بساطا من الحياء تحت قدمها فالخطا قصيرة والحياء يرفرف عليها بأجنحة الإيمان والسكينة لم تغل له كلمة واحدة فيها غزل أو كلام مريض إنما قالت له مباشرة : ﴿ إن أرى يدعوك ﴾ ولم تنتظر منه أن يقول لها : لماذا ؟ فتبادره قائلة : ﴿ ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ حتى ذكر أصحاب القصص أن موسى عليه السلام أمرها أن تسير خلفه خشية أن يعث الهواء بثوبها وقال لها : إذا رأيتني ضللت الطريق فاقدني بحصاة تشير إلى الطريق حتى لا يكون هناك صوت ولا صورة فلا العين تراها ولا الأذن تسمعها ثم تأمل النص الكريم : هل تجد موسى تلقى سحرا أو تدريبا على الحيات على يدي شيخ مدين .

ما كان موسى ساحرا إنما كان صاحب معجزات أجراها الله على يديه والفرق بين المعجزة والسحر شاسع والبون بعيد فشتان بين الثرى والثريا وهبته هبته بين التراب والسحاب وما أبعد ما بين مسابح الأسماك ومدار الأفلاك المعجزة . أمر خارق للعادة يظهره الله على أيدي الأنبياء تصديقا لهم في دعواهم مع عجز جميع الخلق عن الاتيان بمثله .

أما السحر فأمر عادى عبارة عن تخيلات في الحس وأوهام في العقل ويجرى هذا الأمر على أيدي الفساق بتريدي بعض التعاويذ والسحر أحد السبع الموبقات وهو كبيرة من الكبائر . أما المعجزة فإنها حقيقة واقعة لا تخييل فيها ولا وهم وهي أى المعجزة ثلاثة أنواع : قد تكون معجزة فعل كما حدث لسفينة نوح ومن فيها من المؤمنين وكعصا موسى ويده ، وانفلاق البحر وتفجير الماء من الحجر ، وكإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لعيسى بإذن الله ، وكانشق القمر والإسراء والمعراج ونبع الماء من بين الأصابع الشريفة وأنين الجذع إلى غير ذلك من المعجزات التي أظهرها الله على يدي مبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية

محمد ﷺ . وقد تكون المعجزة تركا كترك احراق النار لإبراهيم مع وجود الأسباب وإزالة
الموانع وكنك الزبح من السكين لإسماعيل مع توافر الأسباب وزوال الموانع . وقد تكون المعجزة

قولا كالقرآن الكريم الذى أنزله الله على رسوله ﷺ : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن
على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ ومن ثم فإن
الله تبارك اسمه يلقى باللوم على هؤلاء الذين يلقون التهم جزافا على أنبيائه فيقول : ﴿ كذلك
ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ ثم يأتي الاستفهام الذى تسيل
له الكبد مرارة ويفتت له الفؤاد أسمى : ﴿ أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ .

وإليك يا أخى هذا النص من سورة (الأعراف) والذى يحدثنا فيه الله جل جلاله عن
موسى وبعض معجزاته مع فرعون وقومه .

قال تعالى : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملأه فظلموا بها فانظر
كيف كان عاقبة المفسدين . وقال موسى : يا فرعون إني رسول من رب العالمين حقيق على
أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل . قال :
إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين
ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين . قال الملأ من قوم فرعون : إن هذا لساحر عليم يريد
أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون . قالوا : أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين
يأتوك بكل ساحر عليم . وجاء السحرة فرعون قالوا : إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين .
قال : نعم وإنكم لمن المقربين . قالوا : يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين .
قال : ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . وأوحينا
إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون
فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقى السحرة ساجدين . قالوا : آمنا برب العالمين رب
موسى وهارون ﴾ .

وإليك هذا النص الكريم من سورة (طه) هل ترى فيه أن المعجزة كانت سحرا :
﴿ وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها
بقيس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى يا موسى إني أنا ربك فاخضع لتعليك إنك
بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم
الصلاة لذكرى . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها
من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى . وما تلك يمينك يا موسى ؟ قال : هى عصاى أتوكأ
عليها واهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى . قال : ألقها يا موسى فألقاها فإذا هى
حية تسعى . قال : خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى . واضم يدك إلى جناحك

تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى لترك من آياتنا الكبرى اذهب إلى فرعون إنه طفى ﴿ .

ثم إليك هذا النص التفصيلي من سورة (الشعراء) لتقف فيه على حقيقة الأمر في قصة موسى :

قال تعالى : ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون . قال : رب إنى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون . وهم على ذنب فأخاف أن يقتلون . قال : كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بنى إسرائيل . قال : ألم نترك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين . قال : فعلتها إذا وأنا من الصالحين ففرت منكم لما خفتكم فوهب لى ربي حكما وجعلنى من المرسلين وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل . قال فرعون : وما رب العالمين ؟ قال : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟ قال : ربكم ورب آبائكم الأولين . قال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال : لن اتخذت لها غيرى لأجعلنك من المسجونين . قال : أولو جنتك بشيء مبين . قال : فأت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين . قال للملأ حوله : إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ؟ قالوا : أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم فجمع السحرة لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين . فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أتئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين . قال : نعم وإنكم إذا لمن المقربين . قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون فألقوا حياهم وعصيهم وقالوا : بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون فألقى السحرة ساجدين قالوا : آمنا برب العالمين رب موسى وهارون . قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين . قالوا : لا ضمير إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين . وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين إن هؤلاء لشردمة قليلون وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع حاذرون فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بنى إسرائيل فأتبعوهم مشرقين فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون . قال : كلا إن معى ربي سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم

الآخرين وأنحينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿

هذه نصوص قرآنية كريمة تعبر عن شأن موسى كما جاء في القرآن الكريم وتنفي كل شبهة كما أنها تدحض كل افتراء عن كليم الله الكريم عرضناها ليكون فيها القول الفصل والحكم العدل فمن أصدق من الله قبيلا ؟ لا أحد . ومن أصدق من الله حديثا ؟ لا أحد : ﴿ قل أنتم أعلم أم الله ؟ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

الفصل الثالث عشر

ماذا قال عن نبي الله عيسى (رفاعة)

ذهب (جيل) وأيامه السعيدة وعاد عصر الفتوات والقهر من جديد متمثلا في (زنفل) هكذا تحدث شافعي النجار إلى زوجته عبده وهما يفران من الحارة إلى مكان بعيد لكي تضع طفلها حيث أن زنفل الطاغية يقتل كل رضيع في قوم (جيل) ..

ويعود شافعي وعبده إلى الحارة بعد سنوات وقد هدأت الحال فيها ومعهما ابنا (رفاعة) شابا يافعا ويشغف رفاعة بالقصص التي تزوي على الرابة في المقاهي عن الجبلاوى وأبنائه ويتحسس شاعر ضيرير ملامح وجهه وكتفيه ويوميء ويقول : مدهش أن له جمالا مثل جمال الجبلاوى نفسه (الأيحاء بنوة السيد المسيح لله لأنه الوحيد الذي يشبهه) .

ويحاول شافعي أن يجعل ابنه يعمل معه في دكان النجارة الذي افتتحه في الحارة ولكن (رفاعة) لا يركز في هذا العمل فهو مشغول بقصة الجبلاوى وما يرويه شاعر الرابة وعلى مقربة من مسكن شافعي وعبده تسكن بغى اسمها ياسمين تشرع في مغازلة وإغراء (رفاعة) الذي لا يستجيب لها وفي زيارة للراوى في منزله يلفت نظر (رفاعة) رسم بالزيت على الحائط (شىء غير معروف ولا شائع في البيوت المصرية باستثناء رسوم الزينة الشعبية على جدران البيوت بمناسبة الحج مثلا) وهذا الرسم على الحائط داخل البيت هنا ليقدم غرضا فنيا هو نقل جو الكنائس بصورها الداخلية التي تمثل الأقانيم المسيحية والملائكة والعنراء والطفل والقديسين وما إلى ذلك .

وتمثل الصورة شخصا هائلا تبدو بجانبه بيوت الحارة مثل لعب الأطفال ويسأل (رفاعة) : صورة من هذه ؟ فيأتيه الجواب : الجبلاوى . فيسأل : وهل رآه من أحد ؟ فيجيبه (جواد) الراوى أو الشاعر : لا لم يره أحد من جيلنا وحتى (جيل) نفسه لم يستطع أن يتبين ملامحه في الظلام عندما قابله في الصحراء ولكن الفنان رسمه حسب أوصافه في

الحكايات . ويتساءل (رفاعه) فى أسى : لماذا أوصد بابه فى وجه أبنائه ؟ وينصحه الشاعر بقوله : إنه ما دام الجبلاوى لا يفكر فىنا فىجب ألا نفكر نحن فىه أيضا . ويعلم رفاعه أن زوجة الراوى (أم بخاطرها) تعمل فى السحر وطرده الأرواح الشريرة وتقول له : أن كل إنسان له روح خاصة تحركه وأن كل روح تتطلب معاملة خاصة وأن الإنسان يشبه روحه المسيطرة ، فالأرواح الشريرة تتطلب بخورا خاصا وبنعمات خاصة لطردها فىهم (رفاعه) بذلك اهتماما شديدا ويطلب منها أن تعلمه كل ما تعرفه من ذلك وتوافق على أن يوافقها كلما استطاع لكى تلقنه مهنتها على شرط ألا يغضب أبوه من ذلك .

ويطلب رفاعه من أبيه أن يحضر من يرسم لهم صورة زيتية للجبلاوى على الخائط فى منزلهم كتلك التى شاهدها عند (جواد) فىقول له أبوه : إنهم أحوج إلى المال الذى سيفقه على هذه الصورة ثم أنها أوهاى وخيالات .

وكم شهد (رفاعه) لىالى مع (أم بخاطرها) يتابع ويراقب دق الطبول واخضاع الأرواح الشريرة وكان المرضى يساقون إلى بيتها ضعافا وفى حالة فقدان وعى وبعضهم كان يُحمل حملا أو يقيد ويوضع فى الأصفاى نظرا لتوحشه ، وكان لكل حالة ما يناسبها من البخور حيث يحرق البخور وتضرب الايقاعات المطلوبة . وينحس (رفاعه) أن هذا هو العلم الذى يريده لكى يخلص الحارة من ناظر الوقف والفتوات وأمثالهم ولا سيما بعد أن اكتشف أنه يمكن اخضاع وتطهير النفوس الشريرة عن طريق أشياء طاهرة ونقية وطيبة مثل الروائح المعطرة والنعمات الجميلة . وصعد (رفاعه) إلى أعلى السطح وتأمل البيت الكبير قرب الفجر وراودته الخواطر أين أنت يا جبلاوى ؟ لماذا لا تظهر ولو للحظة واحدة ؟ ألم تعلم أن كلمة واحدة منك تغير حال الحارة بأكملها وأبوه يعنفه كلما سمع منه هذه الخواطر ويحثه على أن يعمل عملا جادا بدلا من تضييع وقته هكذا .

وتزور الست زكية زوجة (خنفس) الفتوة عبده أم رفاعه وتقدم لها ابنتها (عائشة) وتفتاح عبده وشافعى ابنيها بشأن هذا الشرف الكبير .. ويحاولان اقناعه بأن هذه فرصة عظيمة للوصول بعد ذلك إلى منزل الناظر الوصى على تركة بنى جبل ومن يدرى لعله يرث هذا المنصب يوما ما ..

ويحتج رفاعه : كيف أصاهر هذا الشيطان فى الوقت الذى ينصب فىه كل اهتمامى على طرد الشياطين .

ويجن جنون أبيه ويتهمه بأنه يريد أن يتحول إلى ساحر وبأنه كالبنات وبأن الحارة كلها لاحظت نعمته وطرارته (هكذا) ويعجب شافعى من رفض ابنه لفكرة الزواج ويحاول

إثناؤه عن أفكاره باللين وبالشدّة ، بينما يقرر (رفاعّة) في نفسه أن هذا البيت ليس هو المكان الذي يبحث عنه .. إنه أصبح كالسجن ولا بد له من مكان آخر .

ويفتقد شافعي ابنه في دكان النجارة بعد ذلك فلا يجده ويسأل عنه جواد في قهوة تنصم فيخبره بأنّه لم يره .. ويستبد القلق بعبدّه عندما يعود شافعي وليس معه رفاعّة وتنصحه أن يبحث عنه عند ياسمين - البغي - وتفاجأ ياسمين بشافعي ويسألها عن رفاعّة فتندّش وتقول له : لماذا يأتي هنا ؟ وينصرف ويسمع عند انصرافه حديثاً من داخل المسكن تقول فيه ياسمين لرفيقها إنهم يقلقون عليه كما لو كان بنتاً .

ويذهب شافعي وعبدّه إلى سوق المقطم حيث كانوا يعيشون لمدة ٢٠ سنة عندما هربوا من الحارة قبيل ولادة رفاعّة ويسألون جيرانهم القدامى ومعارفهم عنه ولكن بلا طائل .

ويظهر (رفاعّة) فجأة بعد فترة وقد أصابه الضعف والهزال .. ويخبر الجميع أنه كان في الصحراء لأنه أحس أنه يريد أن يخلو إلى نفسه وأنه لم يخرج من الصحراء إلا البحث عن طعام (حسب العقيدة المسيحية لم يكن المسيح قد أكل شيئاً مدة ال ٤٠ يوماً والليله التي قضاه في البرية والتي تسمى [خلوة البرية] التي رمز لها الكاتب هنا بخلوة رفاعّة في الصحراء) وتخبرهم (أم بخاطرهما) أن (رفاعّة) نمط مختلف عن باقي الناس وليس هناك من يماثله في الحارة كلها وأنه لم يكن من الحكمة محاولة إجباره على شيء لا يريده .

(لا يفوتنا كذلك ملاحظة كون رفاعّة ينتسب إلى هذه الحارة التي يفرق فيها أهلها في الشرور والآثام والظلم والمادية وهو ما يشير إلى مجيء المسيح عليه السلام من الناصرة) : [لم يصدق نشأته هذا الخير فقد ظن أن المسيح لا يمكن أن يجيء من الناصرة إما لحقارتها أو أن صيتها كان رديها بسبب شرور أهلها] (سيرة المسيح ص ٩٦) .

وعاد (رفاعّة) للعمل في دكان والده شافعي النجار وكان يهاجم العنف في كل مناقشاته مع زبائن المحل ويقول لهم أن (العنف) لا يحل أي مشكلة وأن (جبل) لم يلجأ للعنف إلا للدفاع عن النفس .

وذات يوم يقول (رفاعّة) لوالده أن هناك شيئاً حدث ولا يستطيع كتابته أكثر من ذلك ويخبره أنه كان في الصحراء بالقرب من البيت الكبير وسمع في الظلام صوت الجبلاوي يقول له أن (جبل) أدى رسالته وفعل ما عليه ولكن الأمور عادت لتصبح أسوأ مما كانت فنادى (رفاعّة) : جدى .. لقد مات جبل .. وحن آخرون محله .. فامد يدك إلينا وساعدنا فجاءه الرد من الجبلاوي : كيف يطلب الحفيد من الجد أن يعمل إنما يعمل الابن

المحبوب (بنوة رفاة للجبلأوى هنا ليست كالأخرين) لأنه ابنه (المحبوب) وهى تقابل العقيدة النصرانية ابنه المولود له .

زلاحظ أيضا مما سبق من أنه قيل عند قدومه للحارة أنه يشبه الجبلأوى كما لم يشبهه أحد آخر وهو إجماع بنفس المعنى . قارن (لأن المسيح هو كلمة الله المتجسد المولود الوحيد الذى لا يكون إلا على صورة المولود منه الذى وصفه الإنجيل بأنه [محبة]) .

ويقلق شافعى وعبد ما قاله ابنهما (رفاة) ويخشيان أن يبلغ الأمر لسكان الحارة وتحدث ضجة ذات يوم عندما يتجمع الأهالى ويطالبون بطرد ياسمين البغى من الحارة فيدافع (رفاة) عنها ويقول أن المسئول هو (ييومى) الفتوة الذى أغواها ويطلب منهم أن يرحموا ضعفها : [من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر] ثم يعرض أن يتزوجها انقاذا لها من بين أيديهم . ويصرح رفاة ليلة زفافه بأنه شرب بعض الخمر وأنه جرب الحشيش ولكنه لم يجد لديه ميلا إلى شربه (هكذا يصور السيد المسيح عليه السلام) .

ويدور حوار بينهما ليلة العرس يتضح منه أن رفاة زاهد فى متاع الدنيا ، وأنه لم يقرب عروسه ، مما أثار غيظها وحتقها وكان كل حديثه معها عن وجوب تطهير نفس الإنسان من الأرواح الشريرة حتى يحصل على السعادة الحقيقية (اجماع بالعجز الجنسي للسيد المسيح مما يعنى أن زهده تحصيل حاصل) ، وهذا - فضلا عن أنه سوء أدب فى حق نبي كريم - هو قلب أيضا للحقائق التاريخية وطبيعة الأشياء لأن المسيح لو تزوج لكان كأى رجل ، ولكنه لأنه لم يتزوج لم يمارس هذه الأمور ، أما تصويره هكذا وهو متزوج معناه أنه عاجز من هذه الناحية ، وبالتالي يكون كل ما دعا إليه من العفة والفضيلة ليس إلا ضعفا من جانبه أضف إلى ذلك اتهام الكثيرين له فى سياق الرواية بأنه كالنساء وأن فيه نعومة وطرارة ، والايحاء بأن تصرفه هنا يبرر ما حدث بعد ذلك من خيانة زوجته له وذهابها إلى فراش غيره .

ويتخذ (رفاة) له بيتا فى حى آخر ويأتيه الناس - ولا سيما الفقراء - طلبا للعلاج والهداية ، ويتوب الكثيرون على يديه من غواياتهم وضلالاتهم .. ويصبح العصى هادى الطباع ، وهكذا .

ويتخذ من مرضاه أربعة يعتبرهم أصدقاءه (لعلهم يرمزون إلى الحوارين الأربعة أصحاب الأناجيل فى العهد الجديد) بعد أن تحولوا إلى أناس أسوياء ذوى خلق حسن وطبيعة طيبة ، وكانوا من قبل ذلك أشرارا فقد كان (زكى) متشردا صعلوكا و (جسين) حشاشا مدمنا ، و (على) بلطجى قاسى القلب و (كريم) قوادا ، وتمنون ياسمين زوجها رفاة مع

(بيومي) الفتوة بينا ينهك رفاعة في علاج الناس وتخليصهم من أرواحهم الشريرة ويطلب من تلاميذه الأربعة أن يمارسوا نفس العمل ويبلغوا هذه الرسالة لكل الناس لأنه لا يستطيع ذلك وحده .

وفي لقائهما سرا في بيته يتحدث بيومي مع ياسمين عن دعوة (رفاعة) ويخشى بيومي أن يكون هدف رفاعة استعادة الوقف وتسليمه من جديد إلى قوم جبل .. ويسخر من احتمال ادعاء (رفاعة) أنه سمع ذلك من الجبلاوى نفسه .. ويعلن في نهاية الحوار مؤكداً أن الجبلاوى مات .. أو هو كالميت .

وتحدث مواجهة بين رفاعة وكل من خنفس وبيومي بعد أن يستبد القلق بإيهاب - ناظر الوقف - وينذرانه بالكف عما يفعله من استقبال الناس وعلاجهم وإلا فالويل له . وينصح الجميع (عبده وشافعي وياسمين والأصدقاء الأربعة) رفاعة بأن يهرب من الحارة كلها لأن الفتوات يترصبون به ليقتلوه . وتخونه ياسمين وتبلغ بيومي بخطة الهرب ، وفي اللحظة المقدرة يهجم عليهم الفتوات فيهرب أصدقاء رفاعة (خيانة ياسمين لرفاعة) بسبب ارتباطها العاطفي والجسدي ببيومي الفتوة مما لا تطيق الاستغناء عنه (يرمز لخيانة يهوذا الاسخريوطى للسيد المسيح مقابل المال [يهوذا]) الذي باع نفسه كما باع سيده بثلاثين من الفضة مع أن المسيح جاهد ليريه في الصلاح ويقوده إلى الخلاص (سيرة المسيح ص ٤٧٢) .

وفيما هو يتكلم إذا بهونا أحد الأثنى عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلا : الذي أقبله هو هو .. أمسكوه متى . ثم يسوقه الفتوات عبر الحارة ويمرون على البيت الكبير ، ويفكر رفاعة : هل يحس الجبلاوى بمعاناته الآن ؟ وينادى جبلاوى ولا يرد عليه أحد ثم يقتلونه بهراواتهم (قارن : في العقيدة المسيحية أن المسيح استنقذ الله قبل صلبه (في الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا : إلهي .. إلهي .. لماذا تركتني) (إنجيل مرقس : ١٥) .

ويستخرج أصدقاءه جثته من المكان الذي دفنها فيه الفتوات ليدفنها في إحدى المقابر ثم يقتلون ياسمين لخيانتها ويشرعون في مواصلة رسالة رفاعة بتعليم الناس أسرار مهنته وتناقل الناس قصة رفاعة . وزعم بعضهم أن الجبلاوى نفسه هو الذي استخرجه وحمله بعيدا إلى حيث قصره ووضع تحت ثرى حديقته الغناء (إشارة إلى رفع السيد المسيح إلى السماء) ويرى بعض تلاميذ رفاعة ضرورة الانتقام من الفتوات الجبابرة ، ويرى آخرون أن في ذلك مخالفة لتعاليم رفاعة التي تنبذ العنف . ثم تبدأ موجة من الانتقام ضد كل الفتوات حيث يجد الناس جثتهم واحدا وراء الآخر أمام منازلهم وتحدث مواجهة بين الفتوات وأنصار رفاعة وتنتهي بانتصار (الرفاعيين) ويتم اتفاق بين (على) زعيمهم وناظر الوقف بمقتضاه يتم

الاعتراف بهم وبأن لهم نصيبا من التركة مثل قوم جبل .

ويعود كل الذين فروا من الحارة في فترة الارهاب والاضطهاد ومنهم شافعي وعبد ،
بينما يختلف أتباع رفاة (اختلاف فرق المسيحية) فمنهم من يرى أن رسالته مداواة المرضى
والرحمة ، ومنهم من يرى غير ذلك ويتطرف بعضهم فيمتنع عن الزواج اقتداء برفاة (فكرة
الرهينة) ومع ذلك فلنا هنا تعليق صغير : من الذى قال إن رفاة امتنع عن الزواج ؟ لو كان
الموقف قدمه عازبا طوال حياته لما كان هناك خلاف ولكنه قدمه في أسوأ صورة يمكن أن
يوضع فيها رجل : صورة الديوث أو العنين الذى يدفع امرأته إلى أحضان غيره ولا يكثر
بذلك وحاشا لله أن يكون السيد المسيح عليه السلام كذلك إنه الرسول الكريم الذى قال الله
تعالى في حقه : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن
مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن
الصالحين ﴾ (صدق الله العظيم) .

والسلام على عيسى يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا .

القول الحق

المسيح بن مريم عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه بهذا نطق القرآن
الكريم : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح
عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا
ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في
الأرض وكفى بالله وكيفا . لن يستكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون
ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا ﴾ .

وحقيقة المسيح لخصها القرآن الكريم في آية واحدة : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه
وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل ﴾ ومريم البتول لم تتزوج بيوسف النجار لأنها كانت عذراء وظلت
كذلك حتى لقيت ربها . قال تعالى : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا
وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ بل إن يوسف النجار عندما رأى مريم تحمل وليدها قال لها في
أدب وحياء : يا مريم إن في النفس شيئا ؟ قالت : وما هو يا يوسف ؟ قال لها على استحياء :
ابنت نبت بدون ماء ؟ قالت مريم بلسان اليقين ومنطق الحق المبين أن الذى خلق الزرع
والماء وجعل الزرع في حاجة إلى ماء قادر على أن يخلقه بلا ماء . ففطن يوسف لما تقول
واقتنع بقولها ولم يكن المسيح شبيها بأبيه لأنه ليس له أب . فآله تعالى خلق الناس على أربعة
أقسام : القسم الأول : لا أب له ولا أم وهو آدم . والقسم الثانى : من ضلع آدم وهى

حواء . والقسم الثالث : من أم وليس له أب وهو المسيح . والقسم الرابع : من أبوين وهم بقية الخلق . قال تعالى اثباتا لقدرته على خلق الأشياء : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾ ولقد طهر الله مريم واصطفاها على نساء العالمين اقرأ ذلك في سورة (آل عمران) :

﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم . إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فقبلها ربها بقبول حسن وأنبأها نباتا حسنا وكفلها زكريا . كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا . قال : يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

واقرا قوله تعالى : ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقتنى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين . ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيمهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون . إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين . قالت : رب أنى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر . قال : كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جنتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله . وأبرئ الأكمه والأبرص وأحى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ومصداقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجنتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون إن الله رفى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ .

والمسيح عليه السلام لم يتزوج بمریم المجدلية التى سماها الكاتب (ياسمين) التى نسج حولها خيوطا كثيفة مظلمة وقال عنها أنها كانت على صلة خبيثة بمن سماه بيومى واتهم السيد المسيح بأنه كان طريا . ولو تزوج السيد المسيح لكان مثله وشأنه كشأن بقية أنبياء الله سليمان معافى من العيوب الخلقية والخلقية والعقلية . ومما هو معلوم من الدين بالضرورة أن أزواج الأنبياء طاهرات . قال ﷺ : « ما بغت امرأة نبي قط ولم تكن خيانة امرأة نوح وامرأة لوط خيانة فى الفراش إنما كانت فى إذاعة أسرار الدعوة للقوم الكافرين » ثم أن

المسيح عليه السلام لم يتردد على (أم بخاطرها) ليتعلم منها الشعوذة وإطلاق البخور إنما كان تعليمه عن طريق الوحي المعصوم . قال جل شأنه : ﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بني إسرائيل أتى قد جنتكم بآية من ربكم ﴾ .

﴿ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذا علمت الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذا تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتفخ فيها فتكون طيرا بإذنى ، وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى وإذا تخرج الموتى بإذنى وإذا كفت بني إسرائيل عنك إذ جنتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين . وإذا أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا : آمنا واشهد بأننا مسلمون . إذ قال الحواريون : يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا : نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى بن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين . وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله . قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنتم عليهم شهيذا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم . قال الله هذا يوم يتفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم . لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير ﴾ .

إن التأمّل فى الفقرة السابقة للكاتب والتي ساقها وجعلها خاصة بالسيدة مريم وابنها يلمح أن الكاتب قد جعل السيدة مريم زوجة لىوسف النجار وليست خطيبة له ولا شك أن هذا أمر مقصود ومفهوم أيضا فى إطار (السيناريو) الجديد الذى وضعه لتاريخ البشرية واستبعد فيه تماما كل أثر للمعجزات والخوارق لأنه لو جعلها بلا زوج أو مجرد خطيبة لن تستطيع تبرير حملها وولادتها إلا إذا أوحى بخطبتها فيقع بذلك فى مطب لعله لا يريده ولكن ما الحيلة وقد وقع فى المطب على كل حال فنحن لا نعتقد أن السبب وراء ذلك سبب فنى بحث لأن المؤلف كان بمقدوره أن يتجاوز هذه النقطة بأن يقدم شخصية مريم بعد وضعها للطفل صامتا عن أى شىء آخر أو حتى لا يقدمها فى سيرة رفاة . أما جعل يوسف النجار بالذات زوجا لها وأنه الذى أنجب منها عيسى فقد ضرب به المؤلف أكثر من عصفور بحجر

واحد : فقد أنكروا عذرية السيدة مريم وأنكر الميلاذ المعجز للسيد المسيح وتبنى أقاويل اليهود في طعن وشرف السيدة مريم ورميها بالزنا والغى من شخصية مريم الجانب الروحي العظيم الخاص بها هي حتى قبل ولادة المسيح من حيث أنها كانت عابدة صديقة مطهرة على نساء العالمين ومصطفاة عليهم ونزل بها إلى شخصية امرأة عادية وسمح لنفسه أن يصفها وصفا لا يليق في أحد المشاهد حيث قال : (وضعت المرأة البقجة على الأرض وجلست عليها مفرجة ما بين فخذيها لترج بطنها المتناحاة) .

الحكمة وفصل الخطاب

ومن أراد الجواب الشافي والدواء الكافي فليلجأ إلى كتاب الله تبارك وتعالى ماذا قال عن مريم البتول وابنها ؟ اقرأ ذلك في سورة من سور الكتاب الكريم أطلق عليها القرآن سورة (مريم) وذلك أمر يسترعى النظر والفكر فالسورة حافلة بقصص الأنبياء : زكريا ويحيى وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس وآدم وإسرائيل ونوح . فما الحكمة في أنها سميت باسم مريم ؟ ذلك لأنها تعالج قضية هي أساس عقيدة الألوهية فالله جل ذكره لم يصرح باسم امرأة في القرآن العظيم إلا باسم مريم ليرد على الذين قالوا أن المسيح ابن الله فيقول لهم بل إنه ابن مريم أمة الله البتول الناسكة الحصان أطهر من السحابة في سماءها وأنصع من ماء الغمام ، وفي ذلك رد على اليهود الذين قالوا أنه ابن زنا . قال تعالى : ﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾ وقد ختم القرآن هذه السورة بهذا المشهد الرهيب المهيب : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً . لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتية يوم القيامة فردا ﴾ . وقال جل شأنه في سورة (الأنعام) : ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ .

واقرا القصة كاملة في سورة (مريم) ففيها شفاء للنفوس وحجة ساطعة وبراهين قاطعة ودواء ناجع للقلوب :

﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فانخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرًا سويا قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . قالت : أنى يكون لى غلام ولم

يمسني بشر ولم أك بغيا . قال : كذلك قال ربك هو على هين وانجعله آية للناس ورحمة
منا وكان أمرا مقضيا فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة
قالت : يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك
تحتك سريرا . وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشرنى وقرى عينا .
فإنما ترين من البشر أحدا فقولى إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا . فأتت به
قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جننت شيئا فريا . يا أخت هارون ما كان أبوك أمرا سوء
وما كانت أمك بغيا فأشارت إليه . قالوا : كيف نكلم من كان في المهد صبيا . قال : إني
عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة
ما دمت حيا وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت
ويوم أبعث حيا . ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمتنون . ما كان لله أن يتخذ
من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون . وإن الله ربي وربكم فاعبدوه
هذا صراط مستقيم ﴿

صدقت يا سيدى يا رسول الله حيث تقول في حديثك الشريف : « كمل من الرجال
كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع : آسية زوج فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وخديجة
زوج محمد ، وفاطمة بنت محمد » .

الفصل الرابع عشر ماذا قال عن خاتم الأنبياء (قاسم)

قال الكاتب : وتمر أجيال يسيطر فيها نظار الوقف واحدا وراء الآخر على الوقف ويأخذون خيراته لأنفسهم ويسومون الناس الظلم والاضطهاد مستعينين بالفتوات .. وبينما يعيش قوم جبل (اليهود) في الحى الخاص بهم وكذلك أتباع رفاعة (النصارى) في حبيهم بنشأ (قاسم) في أفقر الأحياء وأكثرهم بؤسا (حى الجرايع) و(قاسم) غلام يتيم يكفله عمه (زكريا) بائع البطاطا الفقير الذى لم يرزق بابنه (حسن) إلا بعد أن كفل ابن أخيه ولذلك اعتبر وجوده معه فألا حسنا وبركة .

ويشب (قاسم) على حكايات الجبلاوى وأدهم وجبل ورفاعة وتنطبع هذه الأحداث في ذاكرته ويذهب به عمه مرة إلى العجوز (يحيى) بائع الأحجية والمسابع والبخور الذى يتوسم فيه خيرا و(يحيى) هذا من أتباع رفاعة ولكنه هجر حى رفاعة بسبب بطش وظلم الفتوات (نلاحظ أن بعض الشخصيات في الرواية تؤدي أكثر من دور من الناحية الرمزية فكما رأينا [ياسمين] ترمز مرة لمريم المجدلية ثم في النهاية لهبوذا الخائن ترى هنا [العجوز يحيى] يرمز لبحيرى الراهب الذى رأى الرسول صغيرا وتنبأ بنبوته ثم يرمز بعد فترة لورقة ابن نوفل ثم يقوم بعد ذلك بدور أحد الصحابة وهكذا) . ويكبر (حسن) فيرى (قاسم) أنه - أى حسن - أحق منه بمصاحبة والده في جولاته على عربة البطاطا (هذه الجولات ترمز للرحلات التجارية التى اصطحب فيها أبو طالب الرسول ﷺ) ويتفرغ (قاسم) لرعى الأغنام وهى المهنة التى أحبها حبا جما وجعلته يقضى أوقاته كلها تقريبا في الصحراء يتأمل الطبيعة ويراقب الخراف في حياتها الفطرية وكذلك جعلته هذه المهنة يكثر من زيارة العجوز (يحيى) .

وفي أحاديثه مع العجوز (يحيى) يسأل (قاسم) : هل يمكننى أن أصبح مثل رفاعة فيسخر منه قائلا : أنت مثل رفاعة ؟ كيف وأنت مولع بالنساء وتتصيدهن في الصحراء

عندما تغيب الشمس (هكذا) وتستبد الرغبة بقاسم في أن يصبح مثل (جبل) و(رفاعه) (لاحظ أن سيدنا رسول الله ﷺ لم يفكر في أمر الرسالة أو النبوة مطلقا طوال ٤٠ عاما عاشها قبل البعثة وإنما جاءته من عند الله تبارك وتعالى وكل ما كان فيه من عفة وحسن خلق وصدق وأمانة وميل إلى الخلو والتأمل فقد كان من قبيل إعداد الله له ليكون رسولا) : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ .

أما هو فكان ينظر في حالة خلوته وتأمله (قبل البعثة) من وجهة نظر خاصة هي تفضيله للانزعال عن الحياة الجاهلية وحبه للتأمل وهي طبيعة خاصة له مثل باقي المتحنفين في عصره . والدليل أن مسلكه هذا لم يكن مثار إنكار أو دهشة من أحد . أما في هذه الرواية فيجعله المؤلف يسمع باهتمام وشغف أخبار السابقين وتملك عليه نفسه ويصبو ويتطلع إلى أن يكون مثلهم مما يوحي بأنه كانت لديه طموحات شخصية فاختلف أمر الرسالة اختلافا ليكون نبيا كالأنبياء السابقين . وتقع حادثة تعلى من شأن قاسم وتجلب له احترام الفتوات والناس وذلك عندما صاح أحد الناس (فنجرى) وهو منجد كان خارجا لتوه من بيت أحد السادة الكبار بعد أن قبض مبلغا ضخما من المال نظير عمل طويل وشاق صاح بأن نقوده سرقت منه والتف الناس حوله وخرج الفتوات كل من منطقته واتهم كل منهم الآخر بأن اللص من حيه ثم رأوا تفتيش كل الأحياء ولكن فتوة كل حى وقف متمرا يدافع عن كرامة حيه وكادوا يقتتلون وتحدث مجزرة إلى أن اقترح عليهم (قاسم) أن يطفئوا الأنوار في كل الأحياء وعلى من سرق النقود أن يضعها في الظلام دون أن يفتضح أمره أو أمر الحى الذى هو منه ونفذوا اقتراحه وأضاعوا الأنوار فإذا بالمحافظة ملقاة فأخذها صاحبها مسرعا وانتهت المشكلة (هذا يقابل قصة النزاع على وضع الحجر الأسود عند تجديد الكعبة في شباب رسول الله ﷺ عندما أنقذ الموقف بفكرة الثوب الذى يمسك كل واحد من أشرف قريش طرفا منه إلى أن وضعه الرسول ﷺ بيديه الشريفتين في مكانه) . ويحدث تقارب بين (قاسم) والسيدة (قمر) التى يرعى لها غنمها وتفانحه (سبكيئة) خادمتها في أمر زواجه منها ويستبعد عمه (زكريا) وزوجته أن يتم هذا الزواج نظرا للفارق الاجتماعى ويستنكر (عويس) عم قمر أيضا هذه الزيجة لما فيها من تنازل كبير من جانب ابنة أخيه ، إلا أن (قمر) تصر على ذلك ويتم الزواج بالفعل . وفى ليلة العرس يشرب الجميع الخمر بما فهمم (قاسم) الذى يتعاطى الخشيش أيضا .

المهم يعيش الزوجان (قاسم) و(قمر) فى هناءة وسرور وبعد فترة يكتسب (قاسم) ثقة عم زوجته فيعمل فى مكتبه ويدير أموال زوجته وتكتمل الفرحة عندما يرزق قاسم وقمر بمولودتهما الأولى (إحسان) ويصيب القلق قمر بسبب خروج قاسم إلى الصحراء فى الليل والهجوم التى بدأت تساوره . ويتأخر ذات ليلة إلى قرب الفجر فيستبد بها

القلق وترسل في طلب عمه (زكريا) وابنه (حسن) وصديقه (صادق) ليبحثوا عنه فيجدونه بعد بحث وتعب مغشيا عليه في كوخ العجوز (يحيى) ويعلمون الأمر منه بعد أن أفاق في بيته بعد ذلك . وقد أخبر زوجته أولا بالسر لأنها أول شخص يثق فيه فأخبرها أن شخصا غريبا ناداه وهو في خلوته بالصحراء وأبلغه أنه أحد خدم الجبلأوى واسمه (قنديل) وقال له أن الجبلأوى يعرف كل شيء وأنه اختاره هو - أى قاسم - بسبب حكمته يوم السرقة وبسبب ولائه لأسرته وأنه يبلغه أن كل أهل الحارة أولاده سواء بسواء وأن الوقف هو تركتهم جميعا بالتساوى وأن الفتوات هم شر يجب أن يزول وينتهى وأن الحارة يجب أن تكون امتدادا للبيت الكبير . ولما سأله قاسم : ولماذا يبلغني أنا بالذات بكل هذا ؟ أجابه قائلا : لأنك أنت الذى ستفعل كل هذا .

وبالرغم من حب قمر لقاسم وثقتها فيه ويقينها من أنه رجل صادق وأمين إلا أنها تحاول التأكد من أن الذى رآه وسمعه حقيقة وليس حلما فتعيد عليه السؤال تلو السؤال : ألم يكن حلما لقد وجدوك مغشيا عليك ؟ هل أنت على يقين أنك لم تشرب الحشيش ولم تختلط عليك الأمور (مرة أخرى التركيز على أن الذى قاله إما أن يكون مناما أو حدث له تحت تأثير الحشيش) ولكنه يؤكد لها أن الذى حدث كان حقيقة . وتتفاوت مواقف من حوله حينما يعلمون بالأمر ويقدرون عواقبه فيؤيده ويصدقه تماما صديقه (صادق) وابن عمه (حسن) على حين يحاول إثناؤه عن ذلك بكل ترغيب وترهيب ممكن كل من عم زوجته (عويس) وعمه (زكريا) ويحذرانه من أنه لن يقف معه أحد إذا تصدى له الكبار الأقوياء والفتوات بهراواتهم وبنبايتهم بينما لا يشغل بال زوجته قمر سوى الخوف عليه مغبة هذا الأمر ويصر قاسم على تنفيذ وصية جده الأكبر الجبلأوى . وفي زيارة إلى العجوز يحيى ومعه (صادق) و(حسن) يسأله (يحيى) : ما الذى ستركه للذين يتبعونك ؟ فيجيب قاسم : إذا نصرنى الله فإن الحارة لن تحتاج إلى أى شخص آخر بعدى (أولا ننبه إلى أن ذكر الله تعالى فى ثنايا الحوار من قبيل [إن شاء الله] و[يفعل الله ما يريد] و[إذا نصرنى الله] الخ .. تدخل ضمن الاطار الابهامى الذى وضعه المؤلف لنقل جو الرواية واضفاء المسحة الواقعية عليها ولا تعنى أكثر من ذلك .

وثانيا : يراد بهذه الجملة (أن الحارة لن تحتاج إلى أى شخص آخر بعدى) تسجيل المقولة الإسلامية بأن محمدا ﷺ خاتم النبيين لمحاولة دحضها فيما بعد حينما يأتي عرفه (العالم المادى الملحد) كاستجابة لحاجة جديدة للمجتمع البشرى مما يدخل فى النعمة المكررة - النشاز - التى تفتعل تناقضا بين الإسلام والعلم وضرورة غياب أحدهما إذا وجد الآخر . ثم يتعاطون جميعا الحشيش (قاسم وصادق وحسن والعجوز يحيى) فى هذه الجلسة وتدور رؤوسهم ويعود كل منهم إلى منزله تحت تأثير هذا المخدر (هكذا) .

وتأتى قاسم فكرة أن ينشأوا ناديا رياضيا خلف منزله وينضم إليه فقراء الحى بحيث يبنى فيه الجميع أجسامهم بممارسة الرياضة من رفع أثقال وخلافه ومعهم قاسم نفسه وصادق وحسن (فكرة الشيوعيين بأن الإسلام كان ثورة البروليتاريا ضد البرجوازية ولكن ماذا يقولون فى الأثرياء الذين انضموا للإسلام وساندوه وهم كثيرون) .

ويتفقون على أن يظل سرهم فى الحارة طى الكتمان أى تنفيذ رغبة الجبلاوى إلا أن أحد الأتباع (عجرمة) ييوح بالسرف فى الحارة ذات يوم وهو تحت تأثير الخمر فيعلن قاسم الخمر وما فعله بالإنسان (إجماء بأن تحريم الإسلام للخمر اقتناع شخصى من محمد ﷺ وليس وحيا إلهيا وهكذا يعاد تفسير كل مبادئ الإسلام وتعاليمه على أساس مادى بحت) ولكنهم يتفقون على الذهاب إلى محام من باب الاحتياط بحيث إذا حدثت مواجهة بينهم وبين ناظر الوقف والفتوات يمكنهم رفع قضية للمطالبة بالتنفيذ العادل للوصية وتوزيع ريع الوقف بالمساواة ويذهبون بالفعل إلى (الشنافرى) المحامى الشرعى الذى يقبل القضية لفرط دهشتهم ويتناول مقدم الأتعاب ، ويظهر بعد ذلك سر موافقته السريعة والسهلة عندما يعلمون أنه وشى بهم إلى ناظر الوقف وفتواته وتحدث مواجهة عنيفة بين قاسم والناظر وبعض الفتوات حيث يضربونه ويبنونهم وينذرونه بالقتل إن استمر فيما هو فيه من العزم على تنفيذ رغبة الجبلاوى لكى يسود العدل والمساواة .

وتبدأ فترة من الاضطهاد لأتباعه بينما لا يستطيع هو أن يغادر منزله وتأتيه الأخبار أن حى جبل وحى رفاعة يتداولون خبره مكذبين له ويقول فى حسرة : لماذا يتهموننى بالكذب فى حين كان الأولى بهم من دون الناس جميعا أن يكونوا أول من يؤمن بى ويؤيدنى (إشارة واضحة إلى موقف أهل الكتاب من رسالة سيدنا محمد ﷺ ودعوته) ويتصاعد الاضطهاد ويصل إلى درجة قتل بعض أتباع قاسم مثل (شعبان) وسط خوف الناس وذعرهم . ويصل قاسم مع أصحابه إلى قرار البعد عن الحارة والهجرة إلى الصحراء حتى يستكملوا بناء قوتهم كما فعل جبل من قبل ثم يعودوا بعد ذلك (إشارة إلى الهجرتين الأولى إلى الحبشة فرارا من الاضطهاد والثانية إلى يثرب حيث بناء الدولة) .

ثم تموت (قمر) بعد مرض ومعاناة وسيطر على قاسم حزن عظيم ويأتيه أصحابه المهاجرون فيقابلونه سرا فى المقابر لكى يقدموا له واجب العزاء وبوفاة زوجته الغنية ذات النسب والشرف يفقد قاسم جزءا كبيرا من الموانع الأدبية التى كانت تحول بين أعدائه وقتله أو التخلص منه وهكذا تصله الأخبار بأنهم يدبرون لقتله فى ليلة معينة فيضع خطة لانقاذ ابنته فيتفق مع (سكينه) الخادمة على أن تذهب بها إلى حى يوافقهم (حسن) ابن عمه لتهريبهم أما هو فسيبقى إلى أن يجيم الليل ويسود السكون فينتقل عبر الأسطح المجاورة إلى بيت عمه

تاركا مصباحا مشتعلا في شقته لتضليل المتريصين به (كناية عن نوم على فراش النبي ﷺ لتضليل المشركين ليلة الهجرة) . ومع أنه اضطر لتغيير خطته إلا أنه نجح آخر الأمر في الفرار وركض بأقصى سرعة حتى بلغ المكان الذي كان أصحابه ينتظرونه فيه وانطلق الجميع في عربة إلى الجبل حيث قابلوا العجوز (يحيى) ثم ذهبوا إلى المكان الذي استوطن فيه المهاجرون من قبلهم في جبل المقطم حيث استقبلوه بالترحاب والغناء والهتاف ونشيد (يا محنى ديل العصفورة) (إشارة إلى الهجرة إلى المدينة) ونشيد (طلع البدر علينا) .

وعندما تناوله (سكينه) الخادمة كوب ماء وتقول له إنهم أحضروه من الصنبور العمومي كما سقى جبل المرأتين من قبل يسر قاسم كثيرا لأن أى إشارة تقرنه بجبل ورفاعة أو تشبهه بهما تجعله سعيدا (كما لو أن لديه حاشا لله مركب نقص أو أنه ادعى النبوة متشبها بموسى وعيسى من غير أن يكون نبيا صادقا أو أهلا للرسالة أو كما لو أنه كان يشعر أنهما بلغا مكانة لا يستطيع أن يبلغها . ولاحظ أيضا مسألة تصوير الوحي أو الاتصال بالسماء بالنسبة لشخصية قاسم حيث حدثت مرة واحدة وحوها ظلال من الشك ممن حوله) وهو الراوية الوحيد لها مما يوحي بأن محمدا ﷺ اختلط عليه الأمر أو كان مجرد تهيؤات إذ لم يعد الملاك مرة أخرى وإذن فالرسالة كلها من عند محمد ولكنها بدأت بما (إعتقد) أو (خيل له) أنه وحي من السماء ، ويشعر (قاسم) بالوحدة بعد وفاة (قمر) ويفاتحه أصحابه في ضرورة الزواج وأخيرا يتزوج من (بدرية) الفتاة الصغيرة الناضجة أخت (صادق) أخلص أصحابه ويتذكر قاسم قمر ذات يوم وتفلت منه عبارة ثناء عليها فتتجهم بدرية غيرة وتقول له أنها كانت عجوزا ولم تكن جميلة فيهاها من أن تتحدث عنها هكذا ويقول لها أن امرأة مثل قمر ينبغي أن تذكر بالترحم عليها (طبق الأصل ما قالته السيدة عائشة مرة للرسول ﷺ عن السيدة خديجة ورده عليه السلام عليها) وبعد أن يزداد عدد المهاجرين وتزداد قوتهم في الحيل يهجمون على زفة (سوارس) فتوة الحارة وتحدث معركة رهيبة بالشوم والنبايت تنتهى بمصرع سوارس وانتصار قاسم وأصحابه (غزوة بدر) وما يلبث الفتوات وأنصارهم أن يرحفوا على الجبل حيث قاسم وأصحابه للانتقام منهم وبينما يخالف بعض أنصار قاسم أوامره ويتركوا مواقعهم الجنوبية يتسلل (لهيطة) (الفتوة الكبير) من الثغرة ويهاجم قاسم وأصحابه (غزوة أحد) ولكن ينتصر قاسم وأتباعه (الجرايع) بعد معركة رهيبة تسيل فيها الدماء أنهارا ويقتل فيها لهيطة .

ويستدعى رفعت (ناظر الوقف) (جلطة) و(حجاج) الفتوتين الباقيين ويأخذ عليهما عهدا بالاتحاد من أجل الانتقام وذلك بحصار قاسم وأصحابه في الجبل ولكن جلطة وحجاج يضمران لبعضهما البعض شرا حتى يفوز أحدهما بمنصب لهيطة (كبير الفتوات)

وبالفعل يقتل حجاج غدرا وهو مخمور بالليل ويتم أنصاره جلطة بتدبير مقتله وما تلبث أن تنشب معركة بين الفريقين يحاول ناظر الوقف منعها واقناعهم بأنها مكيدة من قاسم لبث الفرقة بينهم ومهاجمتهم على حين غرة ولكن نصح الناظر يذهب سدى ويحدث بالفعل هجوم مفاجيء من قاسم وأتباعه من أكثر من اتجاه وتحدث مواجهة عنيفة ينتصر قاسم وأصحابه في نهايتها نصرا مؤزرا (فتح مكة) ويقود قاسم الناس بعد انتصاره ويقف الجميع أمام البيت الكبير حيث يقف فيهم خطيبا قائلا :

(هنا يعيش الجبلوى جدنا جميعا ليس هناك حى من الأحياء أقرب صلة به من الآخر ولا أى شخص رجلا أو امرأة حولكم أوقافه وهى تخصكم جميعا على قدم المساواة كما وعد أدهم عندما قال له أن الوقف لك ولذريتك فيجب علينا أن نتستخدمه كما ينبغي حتى يحصل كل منا على نصيبه ويعيش كما أراد أدهم في بجموحة وسلام وسعادة . لقد ذهب ناظر الوقف بغير عودة وانتهى الفتوات ولا يجب أن يحل محلهم فتوة آخر لن تكون هناك أتاوة تدفع إلى طاغية أو تكون هناك استكانة وذل لفتوة مخمور يمكن أن تقضوا حياتكم في حب ورحمة وسلام وفي مقهوركم ألا تعود الأمور كما كانت عليه من قبل (لعلها إشارة إلى خطبته ﷺ في حجة الوداع) .

وقضى قاسم حياته في البناء والتعمير والسلام يوزع بالعدل ريع الوقف على الجميع ولم تشهد الحارة من قبل مثل هذه الوحدة والانسجام والسعادة لقد رأى فيه الجرايع رجلا نموذجيا لم يروا مثله من قبل (يُشكر المؤلف على كل حال) لكن ما قيمة شهادتهم هذه وهم أولاد (جرايع) فإنه كان يجمع بين القوة والرقه والحكمة والبساطة والسيادة والتواضع كان أمينا ومهيبا ومحبويا في آن واحد وإلى ذلك كله (خذ بالك مما سيأتى) كان ظريفا بشوشا أنيقا وحشاشا يلذ مجلسه اللهم إلا أنه توسع في حياته الزوجية فعلى حبه بدرية تزوج حسناء من آل جبل وأخرى من آل رفاعة .

وقال أناس في زواج قاسم من أكثر من واحدة أنه يبحث عن شيء فقد منذ افتقد زوجته الأولى قمر . وقال ابن عمه زكريا أنه يريد أن يوثق أسبابه بأحياء الحارة جميعا لكنهم لم يكونوا بحاجة إلى تفسير أو تحليل لما حدث بل الحق أنه إذا كانت الحارة قد أعجبت به لأخلاقه مرة فقد أعجبت به لحيويته وحبه النسوان مرات ان حب النسوان في حارتنا مقدرة يتيه بها الرجال ويزدهون ومنزلة تعدل في درجتها درجة الفتوات في زمانها أو تزيد .

القول الحق

وكما رمز الكاتب لموسى عليه السلام برمز جبل ورمز لعيسى عليه السلام برمز رفاة رمز لسيد الخلق محمد ﷺ برمز قاسم فانظر كيف طوعت له نفسه أن يتحدث عن الحى الذى نشأ فيه رسول الله ﷺ بحى الجرايع إنها كلمة تقشعر منها الأبدان وتشيب من هولها الولدان فلم يكن آل رسول الله ﷺ ولا أصحابه بالجرايع ، إن رسول الله ﷺ خير ثمرة فى خير شجرة نبتت فى هذا الوجود .

لقد نبتت فى حرم وبسقت فى كرم وكما قال بن مسعود : « اطلع الله على قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاختره برسالته ثم أطلع على قلوب العباد بعده فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فاخترهم لصحبته فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » . ثم قارن أيها القارئ بين ما ذكره الكاتب فى الفقرة السابقة وبين ما شهد به الأجانب الذين لا يدينون بالإسلام ما شهدوا به لمبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية .

يقول سباستيان شارتلئى : لقد مات الشرق بموت دارا وعادت إليه الحياة على يد محمد .

وقال توماس كارلايل : أحب محمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ما كان محمد بعابث قط ولا شاب قوله شائبة لغو وهو ويزعم المتعصبون أن محمداً لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية والجاه والسلطان كلا وأيم الله لقد انطلقت من فؤاد ذلك الرجل الكبير النفس والمملوءة رحمة وبراً وحناناً وخيراً ونوراً وحكمة أفكار غير الطمع الدنيوى وأهداف سامية غير طلب الجاه والسلطان .. فحينما محمد من رجل متقشف خشن الملبس والمأكل مجتهد فى الله دائب فى نشر دين الله .

وقال برنارد شو : إننى أعتقد أن رجلاً كمحمد لو تسلم زمام الحكم فى العالم بأجمعه لثم النجاح فى حكمه ولقاده إلى الخير وحل مشكلاته على وجه يكفل السلام والطمأنينة والسعادة المنشودة .

وقال المستر كاين تلى : إن الغلو فى الحرية والتهاك وراء الشهوات البهيمية لا تحيذه الشريعة الإسلامية والدين الإسلامى هو الدين الذى يعم به النظام بين الورى ويقمع النفس عن الهوى ويحرم إراقة الدماء والقسوة فى معاملة الحيوان والارقاء ويوصى بالإنسانية ويحض على الخير والأخوة ويقول بالاعتدال فى تعدد الزوجات وكبح جماح الشهوات .

وقال لامرتين : لقد كان محمد فيلسوفا وخطيبا ومشاعرا وقائدا وفتح فكر وناشر عقائد تنفق مع الذهن ومنشئ عشرين دولة في الأرض وفتح دولة في السماء من الناحية الروحية أى رجل قيس بجميع هذه المقاييس التى وصفت لوزن العظمة الإنسانية كان أعظم منه ؟

وقال غاندى : لقد كان محمد نبيا عظيما كان النبى العظيم فقيرا زاهدا فى متاع الدنيا فى الوقت الذى كان يستطيع فيه أن يكون ثريا كبيرا لو أراد .

لقد ذرفت الدموع وأنا اقرأ تاريخ ذلك الرجل العظيم إذ كيف يستطيع باحث عن الحقيقة مثل أن لا يبطأ على الرأس أمام هذه الشخصية التى لم تعمل إلا من أجل مصلحة البشرية كلها .

ولكن ما قيمة شهادة هؤلاء جميعا وهم ليسوا مسلمين وليسوا من المساطيل الذين لا يفارقون جلسات الحشيش فى حق محمد ما دام نجيب محفوظ عبد العزيز إبراهيم السبيجلى أحمد الباشا المولود بحى الجمالية فى ١١ ديسمبر سنة ١٩١١ والفائز بجائزة نوبل فى الآداب لعام ١٩٨٨ عن روايته (أولاد حارتنا) يرى غير هذا .

صور من حياة الرسول ﷺ المثل الأعلى فى الأنبياء

جاء فى كتاب (المثل الأعلى فى الأنبياء) :

لما اصطفى الله رسوله محمدا للنبوّة كان أول ما نزل عليه فى غار حراء قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ رسالة خلّت من كل نزعة شخصية أو قبلية ولكنها بلغت غاية العظمة والجلال لأنها دستور عام يهدف إلى النهوض بالإنسانية .

ثم يمضى المؤلف قائلا :

إن محمدا ﷺ جاء برسالة تختلف فى صبغتها عما تقدمها من كل الوجوه وتسمو على كافة الأغراض الشخصية والجنسية وتعتبر الناس جميعا أمة واحدة . وتحدث عن الهدف الأسمى الذى أعد الله الإنسان له وعن الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الغرض الأعظم وهى رسالة تتحدث كثيرا عن القراءة والكتابة كما يفهم من قوله تعالى : ﴿ الذى علم بالقلم ﴾ كما تتحدث عن تعلم العلوم التى كان الناس يجهلونّها وقت البعثة النبوية كما تدل عليه الآية :

﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ . وهى رسالة ذات صبغة عالمية تنتظم فى سلوكها الجنس البشرى كله ومعلوم أن الإنسان هو أكمل الكائنات نشأة إذ يبلغ النمو الجسمى غاية كماله فى هيكله الجسمانى ومع ذلك فقد نشأ كله من علقه كما تشير الآيات المذكورة واقتضت إرادة الخالق سبحانه وهو الذى أنشأ ذلك المخلوق العجيب من علقه أن يبلغ به غاية الكمال العقلى والخلقى والروحى .

فبلغ الإنسان عن طريق رسوله هذا الغرض الأسمى وأبان له فى أول وحى نزل عليه الوسائل الكفيلة ببلوغ هذه الغاية .

ثم يتحدث المؤلف تحت عنوان (المثل الأعلى فى الأخلاق) فيقول :

نزل جبريل الأمين بالوحى على النبي ﷺ فى غار حراء فأخذته رعدة شديدة فرجع إلى خديجة ترجف بوادره فقال : « زملونى .. زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الروح فقال لخديجة وأخبرها الخبر : « يا خديجة لقد خشيت على نفسى » فقالت : كلا والله لا يخزيك الله أبدا إنك تصدق الحديث ولا تخزى بالسيئة السيئة وتؤدى الأمانة وتصل الرحم وإن خلقك لكريم ولست بصخاب فى الأسواق .

ثم يسوق المؤلف هذا المشهد فيقول :

ويروى أنه بينما كان من رجالات قريش جلوسا يتحدثون عرضوا الذكر رسول الله ﷺ فاعترضهم النضر بن الحارث وكان أعلمهم بشئون الدنيا فقال مسفها لآرائهم : يا معشر قريش إنه قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم به قلم ساجر وكاهن وشاعر ومجنون لقد استمعت لما قاله محمد فلا والله ما هو بساجر ولا هو بكاهن ولا هو بشاعر ولا هو بمجنون . يا معشر قريش فانظروا فى شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

وكان أبو جهل عدو الرسول يقول : إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به .

(انتهى كلامه)

أجل يا رسول الله .. أعد على سمع الناس هذه العبارة النبوية الشفافة الطاهرة : « لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » .

والذى نفسى بيده يا رسول الله إنك جدير بهذا الحب حقيق بهذا التقدير أهل لهذه الحبة لا يجحدك إلا كل ظلوم جهول ولا ينقص من قدرك إلا كل معتد أثيم . وها نحن أولاء

نذكر هذه الاشارات وتلك التبيهات من حياتك الطاهرة بما تيسر من التقدير وتقدر من التيسير .

لقد أصاب الشاعر إذ يقول :

لم يبق للبلغاء فضل بعدما نطقت بك الآيات من رب السما
كلا ولو جعلوا القوافي أنجما أيروم مخلوق ثناءك بعدما
أنتى على أخلاقك الخلاق

مكانة النبي ﷺ

وها نحن أولاء نسوق هذه الآيات الكريمة بين يدي القارىء ليتبين مدى فضل رسول الله ﷺ ومدى مكانته في القرآن الكريم وكيف تربح على مناط الرفعة وسلك مدارج الفخار والعزة الإسلامية . يقول تبارك اسمه :

﴿ ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ .

﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ .

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ﴾ .

﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ .

﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ .

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

وبالإشارة إلى الآيتين الأخيرتين قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من امتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنم ولم تحل لأحد قبلي . وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » .

ويرحم الله الإمام البوصري حيث يقول :

كيف ترقى رقيق الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك في علاك وقد حال سنا منك دونهم وسناء
تباهى بك العصور وتسمو بك علياء فوق علياء

نسبه ﷺ

لقد اختار الله رسوله من أعظم القبائل شرفا وأعلاهم قدرا وحسبا فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن حكيم بن مرة بن كعب بن لؤي ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام .

إن الله تعالى اصطفى من ولد إسماعيل كنانة واصطفى من كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفى عمدا ﷺ من بنى هاشم فهو خيار من خيار عترته خير عترة وسيرته خير سيرة وشجرته خير شجرة نبتت في حرم وبسقت في كرم .

وأمه ﷺ السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن حكيم ، فهي تلتقى مع نسبه من أبيه في جده حكيم . وكل منهما ينتهي إلى إسماعيل بن إبراهيم . وكان الله تعالى قد أراد أن يلتقى كل منهما على أمر قد قدر .

فما أشرف نسبه وما أظهر مولده . وما زال ﷺ ينتقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الذاكية حتى استقر في رحم آمنة :

أبان مولده عن طيب عنصره
كالشمس تظهر للعينين من بعد
وكيف يدرك في الدنيا حقيقته
صغيرة وتكل الطرف من أمم
قوم نيام تسلوا عنه بالحلم
يا طيب مبتدا منه ومختتم

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

مولده الشريف ﷺ

سلام عليك يا رسول الله . أنت دعوة أبيك إبراهيم : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

فكنت أنت هذه الدعوة وما أجلها وما أجلها وأنت بشارة أخيك عيسى : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ .

يا رسول الله كنت أنت هذه البشارة :

البدر دونك في حسن وفي شرف
والبحر دونك في خير وفي كرم
أخوك عيسى دعا ميتا فقام له
وأنت أحييت أجيالا من العدم
أنت رؤيا أمك آمنة .

لقد رأيت حين ولدتك كأن نورا سطع منها أضواء لها قصور الشام فكنت أنت ذلك النور .

يا رسول الله :

أنت مصباح كل فضل فما تصدر
لم تنزل في ضمائر الكون تختار
إلا عن ضئلك الأضواء
لك الأمهات والآباء

في ليلة صفت سماؤها ورق ماؤها وطاب هواؤها وضعت آمنة بنت وهب خير خلق الله وصفوة رسله محمدا ﷺ وأذاعت على الكون هذا النبأ السعيد :

تجلى مولد الهادي وعمت
وأسدت للبرية نبت وهب
لقد ولدته وهاجا منيرا
فقام على سماء البيت نورا
بشائره البوادي والقصابا
يدا بيضاء طوقت الرقابا
كما تلند السموات الشهابا
يضئ جبال مكة والنقابا
وفاح القاع أرجاء وطابا
وضاءت يشرب الفيحاء مسكا

ولما بشر جده عبد المطلب بمولده سمياه (محمدا) .

يقول كتاب السيرة :

لما جاء عبد المطلب ليراه قيل له : ما سميت ابنك ؟ فقال : (محمدا) . فقيل له : كيف سميت به باسم ليس لأحد من أبنائك وقومك ؟
فقال : إني لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم .
ولقد كان ذلك كذلك .

هذه ثوية جارية عمه أنى هب عبد العزى بن عبد المطلب تبشر سيدها بمولده فيمتلىء فرحا وبهجة ويقول لها : اذهبي فأنت حرة وتكون أول جرعة لبن تصل إلى جوفه الشريف بعد مولده من هذه الجارية فكان هذا تنبيها للعالم أجمع أن هذا المولود سيحرر العبيد ويجعل منهم سادة ومن المستضعفين قادة .

ولقد أخبر الرسول ﷺ عن نفسه فقال :

« إن لي أسماء : أنا محمد وأنا أحمد وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمي وأنا الماحى الذى يحو الله بي الكفر وأنا العاقب الذى لا نبي بعدى » .

وفيما رواه الإمام أحمد :

« أنا محمد وأنا أحمد وأنا نبي الرحمة ونبي التوبة والحاشر والمقضى ونبي الملاحم » .

لقد كان في مولده عبرة لأولى الألباب .

هذا عبدالمطلب يقدم على نذرا ان رزقه الله بعشرة من الذكور ان يتقرب بذبح واحد منهم ويرزقه الله بهذا العدد ويأت يوم الوفاء بالنذر ويجرى القرعة بين أولاده فتأتى القرعة على عبدالله ولكن عبدالمطلب يجد في داخل نفسه ما يمنعه عن الاقدام على ذبحه فيعيد القداح مرة اخرى فتأتى على عبدالله ولكنه يجد نفس المانع وتعاد القداح فلم تجاوز عبدالله وهنا يشير القوم عليه ان يجرى القرعة بين عشرة من الابل وبين عبدالله فكلما جاءت على عبدالله ذبح العشرة واخذ العدد يتزايد الى ان بلغت الابل مائة وبعدها فارقت القرعة عبدالله وذبح المائة ليأكل منها الانسان والحيوان والطير فكان في هذا عبرة لمن يعتبر من الذى منع عبدالمطلب ان يقدم على ذبح عبدالله ولماذا؟ ان الذى منعه هو الله الذى منع السكين ان تذبح اسماعيل بن ابراهيم وكان الخليل يريد ان يذبح ولكن الخليل اراد أنه لا يذبح ﴿ فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام انى أذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديتاه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي

الحسنين ان هذا هو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم ﴿ كذلك حدث مع عبدالله بعدما لزمته القداح ولما تفارقه ومن ثم يقول النبي ﷺ « انا ابن الذبيحين » لماذا منع الله عبدالمطلب ان يذبح ابنه عبدالله ؟ لأن في صلب عبدالله خير خلق الله .

« عبدى انت تريد وانا أريد ولا يكون الا مأريد فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ماتريد وان لم تسلم لى فيما أريد اتعبتك فيما تريد ولا يكون الا مأريد »

عبرة أخرى

وتلك عبرة أخرى بعدما دخل عبد الله بآمنة قضى معها أياما قلائل ونادى المنادى للخروج الى رحلة الشام صيفا فكان عبدالله من الذين خرجوا في هذه القافلة وترك عروسه آمنة في أيامها الأولى وتمر الأيام سراعاً وتعود القافلة وشوق آمنة يزداد إلى عبد الله لتزف إليه البشرى بجنين يتحرك في احشائها ولكن اهل القافلة عادوا جميعا ماعدا واحدا هو الذى تأخر لماذا ؟ من الذى حجزه ؟ لقد جاءه الموت في يثرب فمات عند اخواله من بنى النجار ولقيت آمنة ما لقيت من عناء الفرقة وفداحة المصاب ولكن ماذا تفعل ؟

مشيهاها خطا كتبت علينا ومن كتبت عليه خطا مشاها
ومن كانت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها

وتمت مدة الحمل كما أراد الله ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ وجاء هذا النبي الى الكون يتيما حتى لايقول أبى أبى وانما يقول ربي ربي وهل وجود الأبوين أو فقد أحدهما يغير من مقادير الله شيئا ؟ كلا هذا يوسف بن يعقوب عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام نشأ في كنف اب أكن له الحب وافعم قلبه بالعطف عليه ولكن ذات يوم يتلفت الوالد حوله فلا يجد ابنه بين يديه وتقع الفرقة بينهما فهل أغنت حياة يعقوب بالنسبة ليوسف شيئا ؟

الفصل الخامس عشر القول المحي

ويهمنا في الفقرة التي تحدث فيها عن قاسم ان نرد فيها على مسألتين الوحي وتعدد زوجات الرسول ﷺ اما ماعدا ذلك مما قاله فعبث لا يستحق الرد عليه كقوله ان قاسما شرب الخشيش والخمر والدنيا كلها تعي ان رسول الله ﷺ كان معصوما من التلبس من اي شبهة أو شائبة بل انه في فجر حياته لما هم بأن يشارك قوما افراحهم القى الله النوم عليه فنام والدنيا كلها تعلم انه ﷺ لم يجد الاعداء عليه مغمزا أو مطعنا اما مقاله المؤلف عن الوحي فاليك هذه الفقرة من كلامه (ويتفرغ قاسم لرعي الأغنام وهي المهنة التي احبها حبا جما وجعلته يقضى أوقاته كلها تقريبا في الصحراء يتأمل الطبيعة ويراقب الخراف في حياتها الفطرية وكذلك جعلته هذه المهنة يكثر من زيارة العجوز يحيى .

« في سيرة الرسول ﷺ انه لم يلجأ الى ورقة أو بمعنى أصح لم تنصحه خديجة رضى الله عنها باللجوء اليه لاستشارته الا بعد أن نزل عليه جبريل في الغار ولكن المؤلف يجعل من يمثل شخصية ورقة في الرواية - وهو (يحيى) هو المعلم والاسناذ الذى يتلقى عنه قاسم منذ صغره النصح والارشاد والعلم واخبار الأولين مما يوحى بأن الرسول ﷺ انما أخذ عن علماء النصارى ماجاء به بعد ذلك وهي دعوى متهافة ساذجة من دعاوى المستشرقين المتعصبين واعداء الاسلام سبقت الاشارة اليها وتفنيدها في القرآن الكريم نفسه في غير موضع وكان أولى بها أهل الكتاب المعاصرون للرسول نفسه ولكنهم لم يدعوها والذى ادعاها منهم لم يستطيع الصمود بها امام صحيح القرآن ومنطقه القوى وهكذا ينتحيز المؤلف في قصته هذه التي تعتبر تقسيرا الحاديا « أى يستبعد تدخل السماء تماما » للتاريخ الدينى للبشرية الى ادعاءات اعداء الاسلام ضده لقد أوحى عبدالرحمن الشرقاوى في كتابه « محمد رسول الحرية » الذى تصدرت الغلاف في احدى طبعاته عبارة « انما انا بشر مثلكم » محذوفا منها (أقل) و(يوحى الى) اللتان تثبتان الوحي بحيث يبدو الأمر وكأنه دين بشرى خالص بالتوكيز على بشرية محمد نقول أوحى بأن القرآن كان من خواطر محمد ووحى نفسه وكانت بدايته حلما وناما ويقول الشرقاوى بالنص :

« ولكنه في تلك الليلة من رمضان أغفى قليلا فنام فرآى من يعرض عليه كتابا ويطلب منه ان يقرأ فسأله (ماذا أقرأ) فقال ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ﴾ وعندما استيقظ من نومه كان يحفظ ما سمعه في النوم وهو يستوضح حلمه فيما بينه وبين نفسه اذا به وهو بين اليقظة والنوم كأنه يسمع صوتا من بعيد يقول له « يا محمد أنت رسول الله وانا جبريل » طبعة دار الهلال ص ٦٥ واذن فالرسالة المحمدية في رأى الشرقاوى لم تكن إلا حلما رآه محمد في المنام كالأصوات التى كانت تسمعها جان دارك مثلا ويصفها علماء النفس بأنها (هلاوس سمعية وبصرية) ولقد استطردهنا كل هذا مع كلام الشرقاوى لكى نقول هنا ونسجل للأستاذ محفوظ انه ذهب شوطا أبعد من هذا بكثير فان الرسالة التى جاء بها محمد ليست حتى من عند نفسه هو بل تلقاها على يد علماء اهل الكتاب وكأنى بالاستاذ يكتب روايته هذه وامامه على المكتب دعاوى المستشرقين الحاقدين واقتراءاتهم ضد الإسلام يحشو بها كتابه حشوا وستأنى ملاحظات اخرى تثبت هذا الاتجاه الذى سار عليه المؤلف مثل وصفه قاسم بأنه مزواج وانه زير نساء الى غير ذلك والله غالب على أمره .

[قضية الوحي]

ما هو الوحي ؟ الوحي بمعناه الشرعى حقيقة يشترك فيها الانبياء جميعا وهو اعلام الله تعالى لنبيه من انبيائه بحكم شرعى ونحوه وقد يطلق ايضا على كلام الله المنزل على النبي ﷺ وجاء في تعريف الوحي ايضا عند بعض العلماء انه عرفان يجده الشخص في نفسه مع اليقين بأنه من عند الله بواسطة وبغير واسطة قال الله تعالى :

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء انه عليم حكيم . وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا الى الله تصير الأمور ﴾ ويقطع هذا النص بأنه ليس من شأنه انسان ان يكلمه الله الا وحيا وانما يتم كلام الله للبشر بوحدة من ثلاث .

- ١ - اما أن يكون وحيا بمعنى ان الله يلقى في النفس مباشرة فتعرف انه من الله .
- ٢ - واما ان يكون من وراء حجاب كما كلم الله موسى عليه السلام حيث طلب الرؤية

ولم يجب اليها ولم يطق تحيل الله على الجبل ﴿ وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وانا أول المؤمنين ﴾ .

٣ - واما ان يرسل رسولا وهو الملك ﴿ فيوحى بإذنه مايشاء ﴾ :

صور العرض التي وردت

عن رسول الله ﷺ

الأولى : ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير ان يراه كما قال ﷺ « ان ووح القدس نفث في روعى انه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب »
والثانية : انه كان ﷺ يتمثل له الملك رجلا فيخاطبه حتى يعي عنه مايقول .

والثالثة : أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس وكان اشده عليه حتى ان جبينه ليتفصد عرقا في اليوم الشديد البرد وحتى ان راحلته لتترك به الى الأرض ان كان راكبها ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت تردها .

والرابعة : انه يرى الملك في صورته التي خلق عليها فيوحى اليه ماشاء الله ان يوحى وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في سورة النجم ﴿ علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى الى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفخارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ﴾ هذه صورة الوحي وطرق الاتصال (انه على حكيم) يوحى من علو ويوحى بحكمة الى من يختار .

قال بعض المحققين : انه ما من مرة وقفت أمام آية تذكر الوحي أو حديث يتكلم عنه لأتأمل هذا الاتصال الا أحسست له رجفة في أوصالي كيف يكون هذا الاتصال بين ذات الله الأزلى الأبدى الذى ليس له حيز في المكان ولا حيز في الزمان المحيط بكل شيء والذى ليس كمثله شيء كيف يكون هذا الاتصال بين ذات الله العلى وذات الانسان المتحيضة في المكان والزمان المحدودة لحدود المخلوقات من ابناء الفناء ثم كيف يتمثل هذا الاتصال معاني وكلمات وعبارات وكيف تطيعه ذات محدودة فانية ان تتلقى كلام الله الأذلى الأبدى الذى لا حيز له ولا حدود ولا شكل له معهود وكيف ؟ وكيف ؟ ولكنى أعود فأقول : ومالك تسأل عن كيف وانت لا تملك ان تتصور الا في حدود ذاتك المتحيضة القاصرة الفانية لقد وقعت هذه الحقيقة وتمثلت في صورته وصار لها وجود هو الذى تملك أن تدركه من وجوده ولكن الوهلة والرجفة والروعة لاتزال أن النبوة هذه أمر عظيم حقا وان لحظة التلقى هذه

لعظيمة حقا تلقى الذات الانسانية لوحى من الذات العلوية .

أخى الذى تقرأ هذه الكلمات أنت معى فى هذا التصور أنت معى تحاول ان تتصور هذا الوحي الصادر من هناك أقول (هناك) كلا انه ليس هناك (هناك) الصادر من غير مكان ولا زمان لا حيز ولا حد ولا جهة ولا ظرف الصادر من النهائى الأزل، الأبدى الصادر من الله ذى الجلال .. الى انسان مهما يكن نبيا رسولا فانه هو هذا الانسان ذو الحدود والقيود هذا الوحي هذا الاتصال العجيب المعجز الذى لا يملك الا الله ان يجعله وقفه تتحقق ولا يعرف الا الله كيف يقع ويتحقق أخى الذى تقرأ هذه الكلمات هل تحس ما أحس من وراء هذه العبارات المنقطعة التى أحاول أن أنقل بها ما يخالج كيانى كله ؟ انى لا أعرف ماذا اقول عما يخالج كيانى كله من الروعة والرجفة وانا أحاول الآن تصور ذلك الحديث العظيم العجيب الخارق فى طبيعته والخارق فى صورته الذى حدث مرات ومرات وأحس بحوثه ناس رأوا مظاهره رأى العين على عهد رسول الله ﷺ . وهذه عائشة رضى الله عنها تشهد من هذه اللحظات العجيبة فى تاريخ البشرية فتروى عن واحدة منها فتقول : قال رسول الله ﷺ « يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام قلت وعليه السلام ورحمة الله قالت وهو يرى ما لا يرى » أخرجه البخارى .

وهذا زيد بن ثابت رضى الله عنه يشهد مثل هذه اللحظة وفخذ رسول الله ﷺ على فخذيه وقد جاءه الوحي فثقلت حتى كادت ترد فخذيه . وهؤلاء هم الصحابة رضوان الله عليهم فى مرات كثيرة يشهدون هذا الحادث ويعرفونه فى وجه رسول الله ﷺ فيدعونه للوحي حتى يسر عنه فيعود اليهم ويعودون اليه ثم أية طبيعة هذه النفس التى تتلقى ذلك الاتصال العلوى الكريم ؟ أى جوهر من جواهر الأرواح ذلك الذى يتصل بهذا الوحي ويختلط بذلك العنصر ويتسعد مع طبيعته وفحواه . انها هى الأخرى مسألة انها حقيقة ولكنها تترأى هنالك بعيداً على أفق عال ومرتقى صاعد لا تكاد المدارك تتمله روح هذا النبى ﷺ روح هذا الانسان كيف ياترى كانت تحس بهذه الصلة وهذا التلقى ؟

كيف كانت تفتح ؟ كيف كان ينساب فيها ذلك الفيض ؟ كيف كانت تجسد الوجود فى هذه اللحظات العجيبة التى يتجلى فيها الله الموجود والتى تتجاوب جنباته كلها بكلمات الله ؟ ثم أية رعاية ؟ وأية رحمة ؟ وأية مكرمة ؟ والله العلى الكبير يتلطف فيعنى بهذه الخليفة الضئيلة المسماة بالإنسان فيوحي اليها لاصلاح امرها وانارة طريقها ورد شاردها وهى أهون عليه من البعوضة على الإنسان حين تقاس الى ملكه الواسع العريض انها حقيقة ولكنها اعلى وارفع من أن يتصورها الإنسان الا مطالعا الى الأفق السامق الوضىء .

قوله تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض الا الى الله تصير الأمور ﴾ يريد الله تبارك وتعالى ان يقول لصفوة خلقه ومثل الوحي الذى أوحيناه الى الأنبياء السابقين عليك أوحينا إليك روحا من أمرنا فيه حياه يبث الحياة ويدفعها ويحركها وينمها فى القلوب وفى الواقع العمل المشهود ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ . والمقصود بهذا النص هو اشتغال قلب الحبيب محمد ﷺ على هذه الحقيقة حقيقة الكتاب والإيمان والشعور بها والتأثر بوجودها فى الضمير وهذا مالم يكن قبل هذا الروح من أمر الله الذى لابس قلب محمد ﷺ ﴿ ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ وهذه طبيعته الخالصة طبيعة هذا الوحي هذا الروح هذا الكتاب إنه نور تخالط بشاشته القلوب التى يشاء الله لها أن تهتدى به بما يعلمه من حقيقتها ومن مخالطة هذا النور لها ﴿ وانك لتهدى الى صراط مستقيم ﴾ .

هذا توكيد على تخصيص هذه المسألة مسألة الهدى بمشيئة الله جل شأنه وتجريدها من كل ملابسة وتعليقها بالله وحده يقدرها لمن يشاء بعلمه الخاص الذى لا يعرفه سواه والرسول ﷺ واسطة لتحقيق مشيئة الله فهو لا ينشئ الهدى فى القلوب ولكن يبلغ الرسالة فتقع مشيئة الله ﴿ وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ فهى الهداية الى طريق الله الذى تلتقى عنده المسالك لأنه الطريق الى المالك الذى له ما فى السموات وما فى الأرض فالذى يهتدى الى طريقه يهتدى الى ناموس السموات والأرض وقوى السموات والأرض ورزق السموات والأرض واتجاه السموات والأرض الى مالكتها العظيم الذى اليه تتجه والذى اليه تصير ﴿ الا الى الله تصير الأمور ﴾ فكلها تنتهى اليه وتلتقى عنده وهو يقضى فيها بأمره وهذا النور يهتدى الى طريقه الذى اختار للعباد أن يسيروا فيه ليصبروا اليه فى النهاية مهتدين طائعين . ومن الجدير بالذكر أن هذه السورة التى ختمت بآيات الوحي قد بدأت بالحديث عن الوحي انها سورة الشورى التى بدأها الله تعالى بقوله : ﴿ حم . عسق . كذلك يوحي إليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ لقد كان الوحي محورها الرئيسى وقد عاجلت قصة الوحي منذ النبوات الأولى لتقرير وحدة الدين ووحدة المنهج ووحدة الطريق وتعلن القيادة الجديدة للبشرية ممثلة فى رسالة سيدنا محمد ﷺ وفى العصبة المؤمنة بهذه الرسالة ولتلقى على عاتق هذه العصبة امانة القيادة الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ولتبين خصائص هذه العصبة وطابعها المميز الذى تصلح به للقيادة وتحمل به هذه الأمانة التى تنزلت من السماء الى الأرض عن ذلك الطريق العجيب العظيم .

[بشائر النبوة]

بعد الفراغ من تعريف الوحي وانه حقيقة واقعة يشترك فيها جميع الأنبياء فإن للوحي بشائر مثل نزوله تبعث الأمن والطمأنينة في قلب النبي الذي يوحى اليه الا وهى الرؤية الصالحة .

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم ثم ينزل الوحي بعد في اليقظة .

وقد روت عائشة رضى الله عنها في حديث بدء الوحي أنه أول ما بدىء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

[صور الوحي]

وهى كثيرة متنوعة كما روت عائشة رضى الله عنها ان الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي فقال رسول الله ﷺ : أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فينفضم عنى وقد وعيت عنه ما قاله واحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأوعى مايقول قالت عائشة رضى الله عنها ولقد رأيتته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فينفضم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا .

[الصحابة يشاهدون ساعة الوحي]

ويجدر بنا في هذا المقام أن نذكر ان هناك كثرة من الصحابة قد أبصروا الملك جبريل الأمين وقد تمثل في صورة بشرية حسنة الهيئة وهو يجلس ويخاطب رسول الله ﷺ وهذه بعض المشاهد التى رويت في ذلك :

أخرج الإمام أحمد في مسنده والخرايطى في مكارم الأخلاق عن طريق ابى العالية عن رجل من الأنصار قال : « خرجت مع أهلى أريد النبي ﷺ فإذا به قائم ومعه رجل يقبل عليه فظننت ان لهما حاجة قال الأنصارى لقد قام رسول الله ﷺ حتى جعلت ارثى له من طول القيام فلما انصرف قلت يا رسول الله لقد قام بك هذا الرجل حتى جعلت ارثى لك من طول القيام قال ولقد رأيتته قلت نعم قال أتدرى من هو ؟ قلت لا قال : ذاك جبريل مازال يوصينى بالجار حتى ظننت انه سيورثه ثم قال اما انك لو سلمت رد عليك السلام » وأخرج أبو موسى المدينى في المعرفة عن تميم بن سلمة قال : « بينا انا عند رسول الله ﷺ اذا انصرف من عنده

رجل فنظرت، اليه موليا معتماً بعمامة قد أرسلها من ورائه قلت يا رسول الله من هذا ؟ قال جبريل ! .

واخرج أحمد والطبراني في الدلائل عن حارثة بن النعمان قال : « مررت على رسول الله ﷺ ومعه جبريل فسلمت عليه ومررت فلما رجعنا وانصرف النبي ﷺ قال : هل رأيت الذى كان معى قلت : نعم ، قال : فإنه جبريل وقد رد عليك السلام » واخرج أحمد والبيهقى عن ابن عباس قال : « كنت مع ابي عند رسول الله ﷺ وعنده رجل يناجيه فكان كالمعرض عن ابي فخرجنا فقال لى ابي يا بنى الم تر أن ابن عمك كالمعرض عنى قلت يأتى انه كان عنده رجل يناجيه فرجع فقال لرسول ﷺ : قلت لعبد الله كذا وكذا فقال : انه كان عندك رجل يناجيك فهل كان عندك أحد ؟ قال : وهل رأيت يا عبد الله ؟ قلت : نعم ، قال : ذاك جبريل هو الذى شغلنى عنك » .

واخرج ابن سعد عن ابن عباس قال رأيت جبريل مرتين واخرج أبو بكر بن أبى داوود فى كتاب المصاحف عن ابي جعفر قال كان أبو بكر يسمع مناجاة جبريل للنبي ﷺ ، واخرج الحاكم عن عائشة رضى الله عنها قالت : « رأيت جبريل واقفا فى حجرى هذه ورسول الله ﷺ يناجيه فقلت : يا رسول الله من هذا ؟ قال : بمن شئت قالت : بدحية الكلبي وهو صحابى من اصحاب رسول الله ﷺ قال رسول الله لعائشة : لقد رأيت جبريل » وجاء فى صحيح الإمام مسلم ان جابر بن عبد الله الأنصاري وكان من اصحاب رسول الله ﷺ كان يحدث قال قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي قال فى حديثه فيبيننا انا أمشى سمعت صوتا فى السماء فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بجراة جالسا على كرسى بين السماء والأرض قال رسول الله ﷺ : فرجعت فقلت : زملونى دثرونى فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ كَبِيرٌ وَثِيَابُكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ ومن حديث أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فى صحيح الإمام مسلم عند قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ رَأَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ فقالت انا أول هذه الأمة سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : « انما هو جبريل لم أره فى صورته التى خلق عليها غير هاتين المراتين فرأيتيه منهبطا من السماء سادا عظيم خلقه ما بين السماء الى الأرض » .

وبعد بيان هذه المشاهد التى رأى فيها بعض أصحاب رسول الله ﷺ أمين الوحي رأى العين فان المستشرقين ومن لف لفهم من المستغربين لا يدعون قضية الوحي دون أن يكون لهم فيها غمز ولمز فقد طفحت نفوسهم بالحقد وقد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم اكبر وهانحن اولاء ندحض هذه الشبه بالرد القاطع فنبتلها ونمحوها فنذرنا هشيمًا تنزروه الرياح .

[شَهَابَاتٌ بَاطِلَةٌ]

ركز المستشرقون جهودهم حول قضية الوحي لأنها الأساس الأول في الإسلام فأخذوا ينفثون سمومهم ويثيرون غبار الشبهات حول اثبات الوحي لكي يسلم ماتواه نفوسهم المريضة وقلوبهم السقيمة ولكن الله يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ وقبل أن ندخل في تفاصيل هذه الشبه والرد عليها فاننا نضع بين يدي القارئ الكريم صورته مفصلة عن بدء الوحي كما جاء في كتب السنة الصحيحة حتى يكون للقارئ علم ببدء هذه القضية التي تعتبر الدعامة الأولى في صرح العقيدة . روى الإمام مسلم في صحيحه عن بن الطاهر أحمد عمر بن عبدالله بن عمر بن سرح أخبرنا بن وهب قال أخبرني يونس عن بن شهاب قال حدثني عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرت انها قالت : « كان أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه ، وهو التعبد ، الليالي أولات العدد ، قبل ان يرجع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال اقرأ قال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : اقرأ قلت : ما أنا بقارئ ، قال فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بواديه حتى دخل على خديجة فقال : زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، ثم قال لخديجة أى خديجة مالى ؟ وأخبرها الخبر ، قال لقد خشيت على نفسي . قالت له خديجة ، كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً ، والله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق فأنطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل أسد بن عبدالعزى (وهو عم خديجة) وكان امرأ تنصر في الجاهلية .

وكان يكتب الكتاب العري ويكتب من الإنجيل بالعربية ماشاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة أى عم أسمع من ابن أخيك ، قال ورقة بن نوفل يا ابن أخي ماذا ترى : فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رآه فقال له ورقة هذا الناموس

الذى أنزل على موسى عليه السلام ياليتنى فيها جزعاً : ياليتنى أكون حياً حين يخرجك قومك ، قال رسول الله ﷺ أو مخرجى هم ؟ قال ورقة نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودى وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً .

وهذا الحديث اشتمل على الخطوات التى مر بها رسول الله ﷺ عندما أراد الله تبارك وتعالى . أن يبعثه إلى العالمين بشيراً ونذيراً ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً . الذى له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ .

﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأسمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ .

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ .

﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يتغنون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى العرابة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيماً ﴾ .

نعم : لقد اتصل نور السماء بأرض الصحراء وكانت أول خطوه فى هذا الطريق (الرؤيا الصادقة فى المنام) فكان صلوات الله وسلامه عليه لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح جليه ناصعة ، لا لبس فيها ولا غموض ولا مرأى ولا خفاء . وخلت فى هذه الحال ستة أشهر ولذلك فإن الرؤيا الصادقة مع رسول الله تعدل جزءاً من ستة وأربعين جزءاً بيان ذلك أن الرسول ﷺ استمر ثلاثاً وعشرين سنة يوحى إليه فتكون ، الأشهر الستة تساوى بالنسبة لهذه المدّة جزءاً من ستة وأربعين ، ثم انتقل الوحي الى اللقاء المباشر بين الملك الموكل به وهو الأمين جبريل الذى بين الله وصفه فى قوله : ﴿ إنه لقول رسول كريم ، ذى قوه عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين ﴾ وفى قوله : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ﴾ .

﴿ وفى قوله : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصداقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ .

كان اللقاء الأول بين سفير الأنبياء وكبير أمناء وحى السماء وبين المبعوث رحمه للعالمين في غار حراء الذى كان الرسول يخلو فيه متأملاً في رحاب الكون ، مقلبا طرفه في أرجاء العالم بكواكبه ونجومه ، وأرضه وجباله ، ونباته وجماده وشمسه وقمره وليله ونهاره هاتفاً بخالفه مردداً آيات الحمد والثناء لرافع السماء بلا عمد سبحة الطير في وكره ، ومجده الروحى في قفزه ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ وكان الأمر بالقراءة ، وكان الرسول يقول ماأنا بقارىء ، وقال له أمين الوحى : أقرأ بأسم ربك الذى خلق ، وانطلق الرسول بهذه الآيات يرفف فؤاده من هول ما رأى .

إن هناك طائفة ملائكية شديدة الجذب كان جبريل يضمه إليه حتى يبلغ منه الجهد ثم يرسله ويأمره بالقراءة ، وهكذا دخل الأمين محمد ﷺ على زوجه الوفيه خديجة بنت خويلد يقول لها : زملونى . زملونى فتبعث إلى قلبه مايشرح الصدر ، وتريش بجناحها جراحه وتقسم له بالله إن الله لا ينجزيه أبداً ، وتنطلق به إلى ابن عمها ورقه الرجل الذى قرأ الكتاب الذى أنزل على عيسى ورأى فيه البشارات الصادقات بيعته محمد بن عبدالله ﷺ فيخبر رسول الله أن هذا الملك الذى نزل عليه هو الذى نزل على موسى قبل ذلك وينبئه بأمر ستقع فيقول له : ليتنى اكون حياً إذ يخرجك قومك ، يقصد هجرته من مكة إلى المدينة ويسأل الرسول متعجباً أو مخرجى هم ؟ فيقول له ورقه ، نعم ، ثم يبين له السبب وهو أنه ما من أحد يأتي قومه بمثل ما أتى به محمد ﷺ إلا عاداه الناس إنه يحمل لواء الحق فلا بد أن يصطدم بأصحاب الباطل ويتمنى ورقه بن نوفل أن يكون حياً وقت أن يخرج قومه حتى ينصر النبي ﷺ نصراً عزيزاً مؤزرا .

وهكذا يثبت لنا الحديث الشريف الخطوات الكاملة التى خطاها رسول الله ﷺ على طريق الوحى .

ونستنتج من هذا قاعده فى العقيدة لآبد لكل مسلم أن يعلمها هذه القاعده تثبت أنه لآنبوه بلا وحى ولا رساله بدون نبوه بهذا نطق القرآن العظيم فى قوله جل شأنه : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وأسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً . رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجه بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً لكن الله يشهد بما أنزله إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون . وكفى بالله شهيداً ﴾ .

من هذه الآيات أثبت الله أنه قد أوحى إلى نبيه محمداً كما أوحى إلى النبيين قبله ، وبناء عليه فليس هناك نبوه بدون وحى ، ثم اثبت القرآن أن هناك رسلا من هؤلاء الأنبياء جاءوا

مبشرين ومنذرين ، ليقطع المعاذير والحجج ، فإذا كان ذلك كذلك فإن النبوه أوسع من دائره الرساله ، فكل رسول لابد أن يكون نبياً .

وإذا كان الحبيب محمد قد ختم النبوه ، وهى الاعم فإنه يلزم على ذلك لزوماً حتمياً أن يختم الرساله وهى الأخص ولذا فإنه لأساس من الصحة لقول من قال إن هناك رساله بعد رسول الله ﷺ لأن الوحي لم ينزل على أحد بعده وحيث لا وحي فلا نبوه وحيث لا نبوه بلا نبوه .

وصدق الله إذا يقول : ﴿ ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ .

[ماذا قالوا عن الوحي]

الآن نبدأ في عرض شبه المبطلين الذين هاجت صدورهم بعقارب البغضاء ، فنقول لهم أن الرسول ﷺ نبي ثبتت نبوته ثبوتاً قطعياً وتضافرت على ذلك الأدلة التي لا مراء فيها وعلى رأسها الكتاب الخالد الذي تعهد الله بحفظه في قوله : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

فهو الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب ولم يذهب إلى أستاذ ولم يجلس أمام فيلسوف ، فنزول هذا الكتاب عليه بما اشتمله من قصص السابقين في القرون الأولى ، ومن الوعد والوعيد والإنباء بالغيب والنظم الفريدة التي اشتملت الحياة كلها من شتى نواحيها والدعوة الخالصة لإصلاح الفرد والمجتمع ، وهو الأمي ، دليل قاطع على أنه الصادق الأمين .

قال تعالى :

﴿ وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ .

لما لم يجد أعداء الرسول في حياته ، ولا في أخلاقه ما يمكنهم من الطعن فيه ، جنلوا أقلامهم وجمعوا صحفهم ، ليفتروا على الله ورسوله الكذب ، فيقولون : كان قادوسانيا غضب لأنه لم ينتخب لكرسي البابويه وأنه وهو الفيلسوف الحكيم ، عز عليه ذلك ولم يشأ أن يصبح شيخاً لقيلته ، أو رئيساً لأمته إنما اراه أن يكون لها أو في مصاف الآلهة ومما يثبت كذب هذا الافتراء أن محمداً جاء برسالته في وقت تناحرت فيه الفرق الدينيه وتشعبت المعتقدات ، وتناول البعض الرسالات الدينيه السابقه بالتحريف والتغيير وبلغ الأمر إلى

الإرتفاع بالأنبياء إلى مقام الألوهية ، فلو كان محمد يرجو مجداً دنيوياً لوجد البيئة الصالحة لذلك ولكنه كان يتلوا عليهم قرآن الله الذى يقول :

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما الحكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ .

﴿ قل إنما أبا بشر مثلكم يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ﴾ .

ويحسم الرسول الأمين الأمر حسماً فيقول في حديثه الشريف : « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم فإنما أنا عبد الله ورسوله فقولوا عبد الله ورسوله » فهل بعد ذلك يستقيم قول قائل إنه كان يريد مجداً أو كان يريد أن ينصب نفسه إلهاً؟ تهمة باطلة: ويتأدى أعداء الله في غيهم وبهتانهم فيزعمون أن رسول الله صلوات الله عليه وسلامه كان مريضاً بالصرع وأن الوحى التى كانت تعتربه ماهى إلا نوبات الصرع ويزيدون افتراءهم بهتاناً وإثماً مبيتاً فيقولون إنه كان يسمع كلاماً أثناء نوبات الصرع . سمى بعد ذلك قرآناً هذه فريه ما فيها مرية :

إن ما قالوه كلام سخيف لا أساس له من الصحة باطل لا نصيب له من الحقيقة العلمية ولذلك فإننا عندما نوجه شمس الحقيقة على هذه الخرافات فإنها ستبدد ظلماءها اللدائكة لتبدوا الحقيقة جلية واضحة لا يعترها لبس ولا يعورها غموض ولا شك يرد الدكتور (يحيى طاهر) أخصائى وأستاذ الأمراض العصبية بكلية طب ومستشفى القصر العينى بجامعة القاهرة على الفريه فيقول :

لقد أراد بعض الناس أن يطعنوا الدين الإسلامى فى شخص الرسول ﷺ فقالوا إن النبى محمد كان مريضاً بالصرع وإن الوحى الذى كان ينزل على الرسول بالقرآن ما هو إلا نوبات كان يسمع أثناءها كلاماً فردده ليصبح قرآناً . والذى يدرس الصرع من أى ناحية من نواحيه الطبية أو العلمية أو الفسيولوجية يتبين لنا جسامه هذا الافتراء إذ أن النوبات الصرعية ليست نوبات نفسه كما يتبادر إلى الذهن ولكنها ناتجة عن تغيرات فسيولوجية عضويه فى المخ بدليل انه امكن تسجيل تغيرات كهربائية فى المخ اثناء تلك النوبات الصرعيه مهما كان مظهرها الخارجى .

ومن المعروف ان هناك مظاهر خارجيه عديده ومختلفه للنوبات الصرعيه وذلك تبعاً لمراكز المخ التى تبدأ فيها التغيرات الكهربائيه وطريقة وسرعة انتشارها فإذا بدأت فى مراكز الحركة كانت النوبه على شكل تقلصات أو تشنجات عصبية وإذا بدأت فى مراكز الإحساس كانت النوبه . على شكل إحساسات مختلفه وإذا بدأت فى مراكز الابصار كانت النوبه على

شكل ذكريات أو احلام وهكذا .

ويكفى ان اشرح نوعاً واحداً من النوبات الصرعية الذى يشتهب أن يكون هو النوع الذى قيل عنه أن النبي ﷺ كان مصاباً به الا وهو النوبات الصرعية النفسية .

ففى هذه النوبات الصرعية النفسية يكون التغير العقلى هو المظهر الأساسى للنوبة ولا يفقد المريض شعوره تماماً كما فى الأنواع الأخرى من النوبات ويمكنه الى حد ما تذكر التجارب النفسية التى حدثت له اثناء النوبة بعد انتهائها وتكون هذه التجارب النفسية التى تمر بالمريض اثناء النوبة اما على شكل انفعالات مثل الخوف أو على شكل تفكير فى اتجاه معين كان يردد المريض فى ذهنه لايحجب ان اقول لفلان كذا أو كذا « أو على شكل خيالات أو هلاوس وفى هذه الحالة تمر بذهن المريض ذكريات وأحلام مرئية أو سمعية أو الاثنان معاً ومن امثلة الهلاوس المرئية ما قالته مريضه من انها ترى اثناء النوبة فتاه صغيره تسير بجانبها من الجهة اليمنى ثم من الجهة اليسرى وان هذه الصورة تتكرر بنفس الشكل فى جميع النوبات وبسؤال المريضه ثبتت انها لايمكن تبيين ملامح الفتاه أو معرفه ملابسها وقالت مريضه أخرى انها ترى اثناء النوبة شيئاً أسود يهددها ولا يمكنها ان تتبين ملامحه وصورته .

وتتكرر بنفس الشكل فى جميع النوبات ومن امثلة الهلاوس السمعية قول مريضه انها تسمع أصواتاً قادمة من الجهة اليمنى ولكنها ليست اصوات اطفالها انها تسمع فى نوبات أخرى قطعه موسيقية تظهر انها قادمة من المذياع الموضوع فى حجرة الجلوس وبالرغم من انها سمعت هذه القطعة الموسيقية مراراً فى المذياع فإنها لن يمكنها ان تتبين الا لحن فى تلك القطعة الموسيقية وقالت مريضه اخرى انها تسمع اثناء النوبة اغنية كانت تغنيها لها أمها فى صغرها وهذه المقاطع من الأغنية تتكرر بنفس النظام فى جميع النوبات .

من ذلك نرى ان الاحلام والهلاوس التى تمر بذهن المريض فى اثناء النوبة الصرعية ما هى الا تنبيه لذكريات قديمة مرت بالإنسان أو فكر فيها ثم حفظت فى ثنايا المخ وقد ثبت ذلك علمياً بأن نبت مراکز المخ المصابه بتيار كهربائى من الخارج فشعر المريض بنفس الهلاوس التى تتناهى اثناء النوبة الصرعية كما نرى من الأمثلة التى ذكرت ان الهلاوس تتكرر بنفس الشكل بتكرر النوبات وقد يكون هناك أكثر من نوع واحد من الهلاوس فى المريض الواحد ولكنها تتكرر كلها أو بعضها بالشكل نفسه كذلك نرى أن المريض يتذكر التجارب النفسية التى مرت به اثناء النوبة عامة ولا يمكنه ان يتذكر التفاصيل أو أن يصف ما مر به فى اثناء النوبة وصفاً دقيقاً ثم يستطرد الدكتور يحيى طاهر قائلاً « انه بطبيعته ما وصلنا اليه من هذا الوصف السريع للصرع على الافتراء الذى يفتره خصوم الإسلام على الوحى الذى أنزل على سيدنا محمد ﷺ نجد ان الهلاوس والاحلام التى تمر بذهن المريض بالصرع ما هى

إلا أجزاء من ذكريات قديمه نهبتها النوبه ولا يمكن للمريض بالصرع ان يؤلف اثناء النوبه شيئا فكيف بالقوانين والاداب والقصص والعلوم وغير ذلك مما اشتمل عليه القرآن الكريم كذلك لا يمكن ان تتحسن لغه المريض بالصرع اثناء النوبه أو بعدها لأن هذا التحسن يحتاج إلى تعلم اما الصرع فهو ارتباك مفاجيء في كهرباء المخ ووظيفته وقد نزل القرآن بلغه عربيه فصحي لم يتعلمها النبي ﷺ قبل الرساله كما ان الاحلام والهلاوس التي يشعر بها المريض في اثناء النوبات الصرعيه تكرر بعضها أو كلها بنفس الشكل بتكرار النوبات كما أن المريض لا يمكنه أن يصفها وصفا دقيقا أما القرآن الكريم فأنزلت آياته واضحه محددة شاملة كل ما يهم الناس في شئون دينهم ودنياهم ، فهل يمكن أن يقال بعد هذا العرض العلمى البحثى أن القرآن ما هو إلا هلاوس رجل مصروع سبحانك هذا بهتان عظيم وقد كذبوا ورب الكعبة ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ .

اما بعد فقد تبين لنا بالعلم الصحيح والحقائق الثابته ان هذه الشبهة التي وجهوها إلى القصص قد اجتثت من اصلها كشجره خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .
ونتقل بعد ذلك إلى رد علمى آخر على لسان الدكتور عبدالعزيز الشريف اخصائى واستاذ الأمراض الباطنية بكلية طب القصر العينى وعضو كلية الأطباء بأدنبره يقول عن هذه الفريه ان المرض علة تصيب أى عضو من اعضاء الجسم فتسبب خللا فيصبح الإنسان لذلك معتلا والشخص المريض هو الذى تغيرت حالته بسبب المرض فأصبح عاديا ان يقل في قوته وصحته وبالتالي في انتاجه وتفكيره ولم يعرف الطب ولم يحدثنا التاريخ الصحى ان شخصا أصيب بمرض فوهبه المرض علما أو عقلا أو مقدره اذ أن العقل السليم في الجسم السليم فكيف يقولون عن الرسول الكريم محمد ﷺ انه اصيب بالصرع فتتحسن لفته تحسنا بحيث لا يمكن ان نقارن بين حديثه العادى وبين القرآن الكريم الذى يقولون انه حديثه وهو في نوبه الصرع .

وكيف يشرع مريض هذه التشريعات التي تعتبر الأسس القويمه لكل القوانين التي تهدف الى العدالة . والرحمه والتقدم وهل يستقيم ذلك ؟ والصرع حالة تصيب بالاختلال المفاجيء في وظيفه المخ .

وكيف يكون ما عند الرسول ﷺ نوبات صرع وهذه النوبات تسبب للمريض آلاما شديده في عضلاته تكون مصحوبه بالصداع والغثيان وتبقى مده بعد النوبه التي هي تشنج وتصلب في العضلات فإذا غابت عنه حزن ووجل .

فقد فتر الوحى عن الرسول ﷺ فتره فتولاه الخوف والوجل وحزن حتى نزل قول الله سبحانه وتعالى ﴿ والضحى والليل إذا سجدى ما ودعك ربك وما قلى ﴾ .

فلو كان ماينزل بالرسول ﷺ من الوحي حالة صرع مصحوب بالصداع والغثيان والألم الشديد ما تمتى الرسول ان يعود إليه هذا الصرع .

والله ما هو بصرع انه الوحي لقد هبط الأمين جبريل بعد ان فتر الوحي اياما واشتاتت نفس رسول الله ﷺ حتى قال للأمين جبريل « لقد احتبست عنى حتى اشتقت إليك فقال له جبريل يارسول الله لقد كنت اشد شوقاً منك اليك ولكنى عبد مأمور اذا أمرت تنزلت وان منعت احتبست » ثم تلا عليه قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وما تنزل الا بأمر ربك لم ما بين ايدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميّاً ﴾ هل يشناق الرسول الى ان تنزل به حالة تسبب له الصداع والآلام هذا محال لا تقبله العقول ولا تستسيغه الافهام والله ما هو بصرع انما هو الوحي ﴿ وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض الا الى الله تصير الأمور ﴾ .

وننتقل بالحديث الى طبيب آخر هو الدكتور عزالدين عبدالقادر استاذ العقاقير بكلية الصيدلة بجامعة القاهرة .

يقول : تحبظ الناس منذ الخليقة فى تعريف مرض الصرع فمن قائل أنه يرجع الى أرواح شريره تسكن جسم المريض الى قائل انه من آثار الالهيه وان كل حركة يحدتها المريض انما هى من فعل اله من الآلهه ولهذا سموه بالمرض المقدس حتى جاء سقراط العظيم فى القرن الخامس قبل الميلاد واطهر كذب هذه الأقوال ونادى بأن هذه الأعراض انما هى اعراض مرض لا يختلف عن باقى الأمراض الأخرى من أن له سبباً ينشأ عنه ووصف نوبات الصرع بدقة متناهيه لا تختلف فى شئ عما تصفه به احدث المراجع الطبية فالمريض يفقد النطق ويخرج الزبد من فمه وتصتك اسنانه وتقبض يداه وتزيغ عيناه ويفقد الوعى تماماً كما يفقد القدره على ضبط البول أو البراز ومن هذا نرى ان مريض الصرع يفقد حواسه ويفقد السيطرة على نفسه فيصبح لاعقل له ولا وعى عنده ولاسيطره على حواسه جميعاً فلينظر الى ذلك من يقول ان القرآن الكريم انما هو هلوسه مصروع وحديث الرسول ﷺ وهو فى نوبات الصرع فكيف يمكن لمريض هذه حالته ان يأتي بجوامع الكلم والآيات البيّنات والبلاغه التى اعيت جهابذه العرب وارباب البيان ؟

سبحانك ربي يا من قلت: ﴿ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من

كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴿ ويا من قلت لحبيك محمد ﴿ وإنه لتزِيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ﴿ .

ويا من قلت له : ﴿ وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴿ .

ويا من تحدث العالم اجمع فتقول : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴿ .

وقلت للمعاندين ﴿ وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ﴿ .

كيف يتفق هذا التحدى مع الفريه القائله انه هلوسه مصروع وهل تقوى الهلاوس والخرافات أن تنزل ميدان التحدى الصارخ والله انها الأباطيل والاكاذيب لا جاده لها ولا قرار امام صولة الحق ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴿ وينتقل بنا الحديث بعد ذلك فى هذا الصدد إلى أستاذ أورى هو د . ر . ف . بودى فى كتابه حياة الرسول محمد يقول فى هذا الشأن :

« يذكر الأطباء ان المصاب بالصرع لا يفيق منه وقد ذخر عقله بأفكار لامعه وانه لا يصاب بالصرع من كان فى مثله الصحه التى يتمتع بها محمد حتى قبل مئاته بأسبوع واحد وما كان الصرع ليجعل من أحد نبيا أو مشرعاً وما رفع الصرع احداً إلى مراكز التقدير والسلطان يوماً وكان من تتابه مثل هذه الحالات فى الأزمنة الغابره يعتبر مجنوناً أو به مس من الجن ولو كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو محمد » .

ونخلص مما تقدم الى أن هؤلاء الدين يخطون فى الأمور خبط عشواء ويحاولون أن يكيلوا تمم الحقد من قلوبهم لمرض فى نفوسهم انما يرتد كيدهم فى نحورهم ويموتون بغيبظهم . ونعود إلى ما قاله الدكتور يحيى طاهر من 'حقائق عن الصراع على ما كان يعتري سيدنا محمد رسول الله ﷺ نجهه يختلف أصلاً وظاهراً عنه ويقرر بشكل قاطع أن ما كان يعتري الرسول انما هو وحى الله جل شأنه . فإن الحقائق العلميه الطبيه تثبت ان الهلاوس التى يراها أو يسمعها المريض اثناء نوبته لا بد ان يكون قد رآها أو سمعها فى طفولته ، وشبابه أو قبل مرضه فهل كان الرسول ﷺ قد رأى الأروام قبل عصر الاسلام وعاش بينهم واستمع الى احاديث الرسل والانبياء السابقين فردد مثل آيات القرآن الكريم التى بلغت قمة السمع وعلو الطبقة فى الاعجاز المطلق مثل قوله تعالى حكاية عن نبي الله نوح ﴿ ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴿ .

الى ان تنتهى هذه المشاهد بشأن نوح في قوله تعالى ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمٌّ سَمْتَهُمْ ثُمَّ يَسْهُمُ مِنَّا عَذَابَ الْيَمِّ ﴾ هل كان رسول الله محمد ﷺ مع نبي الله نوح وعاصره وعاشره وخالطه ثم ردد هذه الوقائع والذكريات في نوبات الصرع كلاً والى الف لانه الوحي كما قال تعالى في نهاية قصة نوح ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ تَوْجِيها إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وهل كان صلوات الله وسلامه عليه مع يوسف واخوته ومادار في هذه القصة من احداث ووقائع من أول قوله تعالى ﴿ اذ قال يوسف لأبيه يا أبت انى رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴾ .

الى ان تنتهى القصة بقوله جل شأنه على لسان يوسف ﴿ رب قد آتيتى من الملك وعلمتتى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض انت لى فى الدنيا والاخرة توفى مسلما والحقنى بالصالحين ﴾ .

هل كان رسول الله ﷺ مع يوسف واخوته حتى ردد هذه الذكريات في نوبه من نوبات الصرع كلاً .. ثم كلاً .. انه الوحي الذى قال فيه مولانا تعقيبا على قصة يوسف عليه السلام موجها الخطاب للرسول الكرم ﴿ ذلك من انباء الغيب نوحه اليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ .

وهل كان ﷺ مع آل عمران وما جرى في هذه القصة من احداث ووقائع بدأت بقوله تعالى : ﴿ اذ قالت امرأة عمران رب انى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى إنك أنت السميع العليم ﴾ الى ان انتهت القصة بقوله تعالى ﴿ يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين ﴾ هل كان الرسول الكرم معاصراً لتلك الاحداث حتى ظهرت هذه الذكريات عليه في حاله من نوبات الصرع كلاً ثم كلاً انه الوحي .

كما قال تعالى تعقيبا على قصة آل عمران ﴿ ذلك من انباء الغيب نوحه اليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ .

من الذى علم هذا الامى اخبار السابقين وقصص الأنبياء المكرمين هو الذى لم يختلف الى استاذ ولم يذهب الى جامعة ؟

واذا كان الصرع ترديداً لذكريات مضت تتاب المريض في نوبه من نوباته فهل يتفق هذا مع الانباء بما سيحدث في المستقبل في مثل قوله جل شأنه ﴿ ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح

المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴿١٠٠﴾ .

وهل يتفق هذا مع الاخبار بما سيقع من مشاهد القيامة من بعث وجزاء وحساب ونعيم وعذاب ؟ أين نوبات الصرع من هذا الوحي الذي نزل به الروح الأمين جبريل ؟ صدقت يارب العزة اذ تقول وقولك الحق ﴿١٠١﴾ والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى ذو مره فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتأرونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴿١٠٢﴾ .

هذا المشهد القرآني الرائع البديع يثبت حقيقة الوحي ثبوتاً لا مرء فيه ولا لبث ولا جدال ولا غموض وينفى أى ضلالة أو غواية أو زيف أو بهتان عن المعصوم صاحب الرسالة الطاهرة ويثبت انه قد رأى جبريل مرتين وهو على صورته الملائكية يقول في المرة الأولى « علمه شديد القوى ذو مره فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ .

فهذه أوصاف أمين الوحي ، وسفير الأنبياء جبريل فهو شديد القوى ، شديد البأس ، ينتقم الله به من أعدائه فيزلزل الأرض تحت أقدامهم فتأخذهم الرجفة فإذا هم أعجاز فخلل خاويه وجبريل ذو مرة أى ذو هيئة جميلة وذو قوة متينة مستوى فى الأفق الأعلى بهيئته الملائكية الجلية ولما استقر فى الآفاق ودنا وقرب وتدلى هابطاً حتى ازداد قرباً من رسول الله وصارت المسافة بينه وبين الحبيب المصطفى ﷺ أقل من مقدار قوسين وأوحى إلى رسول الله ما أوحاه الله وأمره بتبليغه إياه هذه كانت المرة الأولى من المرتين اللتين رأى الرسول ﷺ فيهما جبريل بهيئته الملائكية وكانت المرة الثانية ليلة المعراج عند سدرة المنتهى وفيها يقول تعالى : ﴿١٠٣﴾ ولقد رآه نزله أخرى ﴿١٠٤﴾ أى مره أخرى ﴿١٠٥﴾ عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ﴿١٠٦﴾ .

وذلك فى العالم العلوى ، والملا الملائكى (إذ يغشى السدرة ما يغشى) من النور والبهاء والجلال كان الرسول ثابت البصر ، ملتزماً بالحدود التى رسمها الله له ﴿١٠٧﴾ ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴿١٠٨﴾ انها آيات الجلال والكمال والعظمة والقدرة الباهرة وهكذا أثبتت هذه الآيات الكريمة المشهدين اللذين ظهر فيهما كبير امانه وحي السماء وسفير الانبياء فى صورته الملائكية الجلية .

[لقاء آخر مع جبريل]

ونرى من تمام الفائدة ان نسجل هذا المشهد الذى تم فيه لقاء كريم بين جبريل الامين ، والسيد الجليل محمد ﷺ وكان ذلك على مرأى ومسمع من عدد من صحابة رسول الله ﷺ وقد دخل جبريل فى صورة بشر جميل الهيئة بديع الرؤية لصاحب الرسالة ومبعوث العناية الالهية . وها نحن اولاء نستمتع الى الإمام مسلم رضى الله عنه وهو يروى لنا الحديث الجليل القدر العظيم الأثر الذى وقف الامين جبريل فيه موقف السائل ووقف سيدنا محمد ﷺ موقف الاستاذ المحيب .

عن عبدالله بن عمر قال حدثنى ابى عمر بن الخطاب قال بينا نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه اثر السفر ولا يعرفه منا أحد . حتى جلس الى النبي ﷺ فأسند ركبته الى ركبته ووضع كفيه على فخذيه قال يا محمد أخبرنى عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد ان لا اله إلا الله وان محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا قال صدقت قال فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرنى عن الإيمان قال ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت . قال اخبرنى عن الإحسان قال ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك قال فأخبرنى عن الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل قال فأخبرنى عن اماراتها قال ان تلد الأمة ربها وان ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان قال ثم انطلق فلبثت مليا ثم قال لى يا عمر اتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله اعلم قال فانه جبريل اتاكم يعلمكم دينكم .

هذا نص صريح وحديث صحيح يدل دلالة قاطعة على ان الوحي حقيقة . شهد بها الجمع الغفير الذين رأوا الأمين جبريل رؤية لا يعترىها شك ولا يطرأ عليها لبس رأوه فى أى صورة ؟ فى صورة بشرية جميلة عبر عنها عملاق الاسلام عمر بن الخطاب بقوله (طلع علينا) وفى التعبير (بطلع) اشارة إلى أن ذلك لذى رأوه يشبه فى جماله الكواكب النيرة كالشمس والقمر ثم بعد ذلك وصفه بقوله (شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر) فهذه المواصفات تدل على ثقة الرأى للمرئى رؤية واضحة وضوح الشمس فى كبد السماء انها الحقائق الثابتة التى لا يجادل فيها الا مكابر لم يصل نور الإيمان الى قلبه ولم يشرح للاسلام صدره .

سیدی ابا القاسم یا رسول الله :

یوحى اليك الله آياته جبريل رواح بها غداء
دين يشيد آية في آية ليناته السورات والاضواء
الحق فيه هو الاساس وكيف لا والله جل جلاله البناء

فاللهم انا اصبحنا نشهدك ونشهد حمله عرشك وملائكتك وجميع خلقك انك أنت
الله لا اله إلا أنت وحدك لا شريك لك وان محمدا عبدك ورسولك .

[رؤيا الأنبياء وحى]

من الاشياء التى يجب على المؤمن ان يعتقدھا ان رؤيا الانبياء فى منامهم وحى من الله
الهم ولقد ذكر القرآن العظيم نماذج من هذه الرؤيا فھا هو خليل الرحمن ابراهيم يبشر بغلام
حليم ثم يرى فى المنام انه يذبحه بعدما بلغ معه السعى فيصحه لتنفيذ أمر الله فيه فلو لم تكن
الرؤيا وحيا ما عزم ابراهيم على تنفيذ الأمر .

وهذا هو المشهد القرآنى ينطق بالجلال ويفيض بالرحمة ﴿ قال انى ذاهب الى ربى
سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى
أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبى افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من
الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي
المحسنين ان هذا هو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم ﴾ .

[نماذج أخرى]

ويحدثنا القرآن عن رؤيا رآھا سيدنا محمد ﷺ ونفذھا رأى فى المنام انه يزور بيت
الله الحرام معتمراً وأعلن ذلك فى صفوف اصحابه . فخرجوا معه ولبوا نداءهم وطافوا بالبيت
الحرام وفى هذا يقول تعالى : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام
ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون
ذلك فتحاً قريباً ﴾ .

[نماذج أخرى]

وهذه نماذج عديده عن الوحى بطريق الرؤيا وقد آثرنا أن نسوق هذا الحديث لما له من
قدر جليل ولما فيه من تشريع وخلق نبيل روى أبو موسى المدين فى كتابه الترغيب والترهيب

من حديث الفرخ بن فضالة قال : حدثنا هلال ابو حيلة عن سعيد بن المسيب عن عبدالرحمن بن سمرة قال خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في صفة بالمدينة فقام علينا فقال : انى رأيت رجلا من امتى قد احتوشته الشياطين فجاء ذكر الله فطير الشياطين عنه - ورأيت رجلا من امتى قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستتقدته من أيديهم ورأيت رجلا من امتى يلهث عطشا كلما دنا من حوض منع وطرد فجاءه صيام شهر رمضان فاسقاه وارواه ورأيت رجلا من امتى ورأيت النبيين جلوساً حلقا حلقا كلما دنا الى حلقة طرد ومنع فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعدته الى جنبي ورأيت رجلا من امتى من بين يديه ظلمه ومن خلفه ظلمه وعن يمينه ظلمه وعن شماله ظلمه ومن فوقه ظلمة وهو متحير فيه فجاء حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وادخله في النور ورأيت رجلا من امتى يتقى وهج النار وشرها فجاءته صدقته فصارت سترا بينه وبين النار وظلا على رأسه ورأيت رجلا من امتى يكلم المؤمنين ولا يكلمونه فجاءته صلته لرحمه فقالت يا معشر المؤمنين انه كان وصولا لرحمه فكلمونه المؤمنين وصافحوه وصافحهم ورأيت رجلا من امتى قد احتوشته الزبانية فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستقده من أيديهم وادخله في ملائكة الرحمة ورأيت رجلا من امتى جاثيا على ركبته وبينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فادخله على الله عز وجل ورأيت رجلا من امتى قد ذهبت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله عز وجل فأخذ صحيفته فوضعها في يمينه ورأيت رجلا من امتى قائماً على شفير جهنم فجاءه رجاؤه من الله عز وجل فاستقده من ذلك ومضى ورأيت رجلا من امتى قد هوى في النار فجاءته دمعته التي بكى من خشية الله عز وجل فاستقده من ذلك ورأيت رجلا من امتى قائماً على الصراط يردد كما ترعد السعفة في رياح عاصف فجاءه حسن ظنه بالله عز وجل فسكن روعه ومضى ، ورأيت رجلا من امتى يزحف على الصراط يحبوا أحيانا ويتعلق أحيانا فجاءته صلاته فأقامته على قدميه وأنقذته . ورأيت رجلا من امتى انتهى إلى أبواب ففلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة ان لا اله إلا الله ففتحت له الأبواب وادخلته الجنة .

قال الحافظ أبو موسى : هذا حديث حسن جداً رواه عن سعيد بن المسيب عمر بن ذرو على بن زيد بن جدعان .

[آيات كبرى]

ويجدر بنا ونحن بصدد الحديث عن النماذج التي رآها رسول الله ﷺ ان نسجل هنا هذه المشاهد وتلك الصور التي رآها السيد الجليل محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج رآها بعين بصره ووقعت امامه في هذا الطواف المبارك الذى صحبه فيه أمين السماء جبريل وكان

الرسول يسأل عما يرى وجبريل الأمين يجيب ويوضح حتى يكون لنا فيما رآه الرسول العبره والموعظة والدروس النافعة الناجعة التي تسمو بالمجتمع الى الدرجات العلى وترتفع به من غياهب الظلمات وفلول الدجى الى باذخ العلياء واضواء اليقين لقد حدثنا الكتاب العزيز عن هذه المشاهد فقال : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير ﴾ وقال فى مشهد المعراج ﴿ ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ فبين قوله جل شأنه ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ وقوله تبارك وتعالى :

﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ تتضح لنا هذه المشاهد وضوحا كله دروس

مستفادة .

الفصل السادس عشر الحكمة من تعدد زواجه الرسول

وهنا نرد على قول المؤلف (اللهم الا أنه توسع في حياته الزوجية فعلى حبه بدرية تزوج حسناء من آل جبل وأخرى من آل رفاعة) « إشارة إلى أن من نسائه ﷺ (صفية بنت حسي) التي كانت يهودية و(مارية القبطية) وتعشقه امرأة من الجرايع ثم تزوج منها أيضا .

[دعوى باطلة]

ونبدأ الرد على تلك العبارة ببيان الحكمة البالغة من زواجه ﷺ بأمهات المؤمنين ونقول نعم انها دعوى باطلة لأنه لم يقم عليها دليل يثبت صحتها وباطلة لأنها جاءت بدافع الحقد والحسد على رسول الاسلام ونبتت من قلوب تفرز البغضاء كما يفرز الكبد عصارة الصفراء لذلك رأينا ونحن نتكلم عن زواج المصطفى ﷺ بالسيدة خديجة رضی الله عنها ان نعقب بهذا البحث لنلجم السنة الحاسدين الحاقدين الذين يحاولون ان يثيروا غبار الشبهات الباطلة على التعدد في أزواج رسول الله وهم بذلك يفضحون ما في قلوبهم من زيغ فلو تحول الناس جميعا إلى كتاسين ليثيروا التراب على السماء فسيثرونه على أنفسهم وتبقى السماء هي السماء ضاحكة السن بسامة الحيا .

ما ضر شمس الضحى في الأفق ساطعة ... ان لا يرى نورها من ليس ذا بصر نعم يا أعداء الله من المستشرقين ومن لف لفهم من المستغربين وادعياء الثقافة وابناء الغزو الثقافي ان الرسول لن يضره ان تنبح عليه هذه الأصوات فستظل القافلة سائرة مهما كانت الذئاب تعوى .

وما ضر الورود وما عليها اذا المزكوم لم يطعم شذاها نعم ثم نعم هل عرفتم من هو ذلك الذى تحاولون ان توجهوا اليه هذه السهام الطائشة انه الرجل الذى بعثه الله شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا ، ما يضر البحر أمسى زاخرا ان رمى فيه غلام بحجر .

وها نحن اولاء نسلط مدفعية الإسلام الثقيلة على هذه المواقع فنأتى عليها جميعا فنذرنا قاعاً صافصفا ان قصة زواجه ﷺ من خديجة رضی الله عنها كما ذكرنا سابقا توضح للإنسان وضوحاً لا تلتبس مع الرؤية ان رسول الله ﷺ لم يكن في اعتباره الاهتمام بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها فلو كان مهتماً بذلك كبقية اقرانه من الشباب لطمع فيمن هي أقل منها سناً أو فيمن ليست اكبر منه على أقل تقدير ويتجلى لنا انه ﷺ انما رغب فيها لشرفها ونبيلها بين جماعتها وقومها حتى انها كانت تلقب في الجاهلية بالعفيفة الطاهرة ولقد ظل هذا الزواج قائماً حتى توفيت خديجة عن خمس وستين عاماً وقد ناهز النبي الخمسين من العمر دون أن يفكر خلالها بالزواج بأية امرأة أخرى . وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزمن الذى تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية ولكن محمداً ﷺ تجاوز هذه الفترة من العمر دون ان يفكر كما قلنا بأن يضم الى خديجة مثلها من الاناث زوجة أو أمة ولو شاء لوجد الزوجة والكثير من الاماء دون أن يخرق بذلك عرفاً أو يخرج على مألوف أو عرف بين الناس هذا فضلاً عن انه تزوج خديجة وهى أيم وكانت تكبره بما يقارب مثل عمره وفي هذا ما يلجم افواه أولئك الذين يأكل الحقد اقتدتهم على الإسلام وقوة سلطانه من المبشرين والمستشرقين وعبيدهم الذين يسرون من وراءهم ينعمون بما لا يسمعون الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون انهم يهرفون بما لا يعرفون ويحاولون ان يطاولوا السماء وان يمدوا إلى الشمس يدا شلاء انهم يمضغون الهواء ويفتلون من الرمال حبلاً لقد ظنوا أنهم واجدون في موضوع زواج النبي ﷺ مقتلاً يصاب فيه الإسلام ، ويمكن أن تشوه منه سمعة المصطفى ﷺ وتخيّلوا انه بمقدورهم ان يجعلوه عند الناس في صورة الرجل الشهوانى العارق في لذة الجسد العازف في معيشته المنزلية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح . حاشا لله يارسول الله والله ما علمنا عليك من سوء انها فرية ما فيها مرية ﴿ كبريت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون إلا كذباً ﴾ .

علمتنا سر الحياة وقدتنا	للخير والتوفيق والبركات
جنبتنا الذلل الكبير وصنتنا	من شهوة تطغى ومن نزوات
ان شرق القوم الكبار وغربوا	فإليك حتماً منتهى الخطوات
خلت علومهم برغم نبوغهم	وتعرضوا لمهالك خطرات
وتكبوا سبل السلام وأقبلوا	يتشدقون بأجوف الكلمات
لو أحسنوا فهم السلام لأسلموا	ما غير دينك سلم لنجاة

ما ثمة ادنى شك في أن المستشرقين والمبشرين هم الخصوم المحترفون للإسلام يتخذون القدرح في هذا الدين صناعة يتفرغون لها ويتكسبون منها كما هو معلوم .

أما الأغرار الذين يسرون من ورائهم فأكثرهم يخاصمون الإسلام على السماع والتقليد ولا يعنهم أن يفتحوا أذهانهم لبحث أو فهم وإنما هو هواتر التقليد والاتباع فخصامهم للإسلام ليس إلا من نوع الشارة التي قد يعلقها الرجل على صدره لمجرد أن يعرف بها بين الناس اتناؤه لجهة معينة . ومعلوم أن الشارة ليست أكثر من رمز .

فخصوصة هؤلاء للإسلام ليست سوى الرمز الذي يعلنون به عن هويتهم بين الناس ، إنهم ليسوا من هذا التاريخ الإسلامي في شيء وان ولاءهم إنما هو لهذا الفكر الاستعماري الذي يمثل فيما يدعو إليه دعاة الاستعمار الفكري من مبشرين ومستشرقين فهنا هو اختيارهم من قبل أى بحث ودون محاولة أى فهم .. أجل ان مخاصمتهم للإسلام ليست إلا مجرد شارة يسمون بها انفسهم بين قومهم وبنى جلدتهم وليس عملا فكريا لقصد البحث أو الحجاج ، وإلا فموضوع زواج النبي ﷺ من أهون مما يمكن أن يستدل منه المسلم المتبصر العارف بدينه والمطلع على سيرة نبيه على عكس ما يروجه خصوم هذا الدين تماما يريدون ان يلصقوا به ﷺ صورة الرجل الشهواني الغارق في لذات الجسد وموضوع زواجه ﷺ هو وحده الدليل الكافي على عكس ذلك تماما ، فالرجل الشهواني لا يعيش الى الخامسة والعشرين من العمر في بيئة مثل بيئة العرب في جاهليتها عفيف النفس دون أن ينساق في شيء من التيارات الفاسدة التي تموج من حوله والرجل الشهواني لا يقبل بعد ذلك ان يتزوج من أم لها ما يقارب ضعف عمره ثم يعيش معها دون ان تمتد عينه الى شيء مما حوله وان من حوله الكثير وله الى ذلك أكثر من سبيل إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب ثم الكهولة ويدخل في مدارج الشيخوخة ، أما زواجه بعد ذلك من عاتشة ثم من غيرها فإن لكل منهن قصة ولكل زواج حكمة وسبب يزيدان من إيمان المسلم بعظمة محمد ﷺ ورفعة شأنه وكال أخلاقه .

أيا كانت الحكمة والسبب فإنه لا يمكن ان يكون مجرد قضاء الوطر واستجابة الرغبة الجنسية اذ لو كان كذلك لكان أخرى به أن يستجيب للوطر والرغبة النفسية في الوقت الطبيعي لهذه الرغبة وندائها خصوصا وقد كان اذ ذاك خالي الفكر ليس له من هموم الدعوة ومشاغفها ما يصرفه عن حاجته الفطرية والطبيعية يقول بعض المحققين الباحثين في الرد على هذه الفرية مانصه : لقد طعن كثير من سفلة البشر ومن أراذل المحترفين لمهنة التبشير في محمد عليه الصلاة والسلام واتخذوا من زواجه مذمة يعيبونه بها ومنقصة يلصقونها به وقالوا : انه رجل شهواني يميل الى النساء ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون إلا كذبا ﴾ في حين أن زواجه ﷺ يسمو بإنسانيته الى الحد الذي لا يجاربه فيها انسان ولا يباريه فيها بشر فلو أراد أن يضم في بيته كرائم العقائل ونفائس الحرائر لكان له ما يريد من اسمى بيوت العرب واجمل الجوارى من سبايا فارس والروم يرفلن في حلل الدمقس ويتحلين بأفخر الجواهر وكان سماطه كسماط قيصر وكسرى .

كيف لا وقد كانت تحمل اليه الأموال حتى يضيق بها مسجده فلا يقوم وفي كفه منها شيء وما شبع هو واله من خبز الشعير وحاله من الغنى والجاه ما قدمنا وما وصفنا ولم يضم في حريمه سوى المغتربات المكتهلات التي مات عنها زوجها فلم تجد مأوى والتي عز عليها العيش في كنف غيره من الأزواج ولم تكن بينهم من فتاة عذراء سوى واحدة هي عائشة ابنة رفيقه وصديقه ابى بكر الصديق (ثاني اثنين اذ هما في الغار) وعندما بلغت قسوة الحياة متنهاها حاد جاوزت الشدة مداها نزلت آية التخيير : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزَوِّجُكُم مِّنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا مَتَّعَالِينَ أَسْرَحْتُمْ وَأَسْرَحْتُمْ سَرَّاحًا جَمِيلًا وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدار الآخرة فإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُم أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وقد أكرمهن الله تعالى بالتوفيق الى حسن الاختيار واخترن دار القرار وقلن جميعا بل نريد الله ورسوله والدار الآخرة فتمت لهن بذلك السعادة وحزن الحسنى وزيادة .

وقد تزوج عليه الصلاة والسلام بالسيدة خديجة - رضى الله عنها - ولها أربعون سنة وهو ابن خمس وعشرين ولم يدفعه لزوجها سوى انها خطبته لنفسها بنفسها وكانت من أعف النساء واعرقهن نسبا وحسبا ولها بعد ذلك فضل السابقة في الإسلام فلم يتقدمها اليه رجل ولا امرأة وماتت وسنها خمس وستون سنة وكانت مدة مقامها معه ﷺ خمساً وعشرين سنة ولم يتزوج عليها حتى ماتت ، ولم يكن وفاؤه لخديجة رضى الله عنها وفاء المتعة والجنس بل وفاء الروح والنفس فلقد فضلها بعد ذلك على عائشة وهي أصغر زوجاته وأحبهن إليه .

فترى من هذا أنه ﷺ قضى عنفوان شبابه وزهرة حياته مع خديجة ولم يتزوج عليها وإنما تزوجها لعفافها وعقلها وطهرها ومعاونتها له ومناصرتها اياه ، فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا .

[زواجه بالسيدة سودة - رضى الله عنها -]

وتزوج بالسيدة سودة بنت زمعة رضى الله عنها وكانت زوجا للسكران بن عمرو وكان قد أسلم قديما وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ومات حين قدما مكة ولو عادت إلى اهلها بعد موت زوجها لعذبوها وفتوها فى دينها فكفلها ﷺ وهو المثل الأعلى للهمة والنجدة والمروءة وكانت مسنة ولم يكن معه غيرها ومكث معها خمس سنين إلى أن تزوج بالسيدة عائشة رضى الله عنها فى السنة الأولى من الهجرة .

فترى من هذا أنه ﷺ لم يتزوج السيدة سودة إلا لإيوائها وتعويضها خيرا من زوجها الذى مات معها حريصا على إيمانه فارا بعقيدته وتألفا لقومها وقوم زوجها الذين أسلموا ونالوا صحبته ﷺ فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا .

[زواجه بالسيدة عائشة - رضى الله عنها -]

وتزوج بالسيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق - رضى الله عنهما - وكلنا يعلم من هو أبوبكر الصديق الذى كان معه ﴿ ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ﴾ ولم يتزوج بكرا غيرها .

وإذا علمنا انه لم يتزوجها إلا وهو ابن خمس وخمسين سنة علمت أنه لم يرد الا مكافأة أبيها واحكام الرابطة بينهما وقد كانت - رضى الله عنها - واسطة فى نقل شتى الاحكام والتشريعات إلى سواء الأمة الإسلامية خصوصا ما يتعلق منها بالنساء وقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟

[زواجه بالسيدة حفصة - رضى الله عنها -]

وتزوج بالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وكانت زوجا لخنيس بن حذافة ومات عنها من جراح أصابته بيلدر وتزوجها ﷺ مكافأة لها وحبا فى أبيها الذى سره كل السرور هذا النسب الشريف ورغبة فى ايوائها وتعويضها عن فقد زوجها الذى قتل فى سبيل الله وهو يدافع عن الله ورسوله ودينه فقل لى بربك أين الشهوة والميل الى النساء فى هذا .

[زواجه بالسيدة زينب بنت جحش - رضى الله عنها -]

وتزوج بالسيدة زينب بنت جحش وهى ابنة عمته وكان قد زوجها لمولاه زيد بن حارثة ليرفع من شأن الأسير الكسير ويعلى من قدره ويجعله أهلا لمصاهرة بن هاشم مصداقا لقوله تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ وقد تزوجها ﷺ بعد طلاقها من زيد يوحى من الله تعالى للتشريع ﴿ لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا ﴾ وقد كان زواجه بها اعفاء لها من اهمال يصيبها بعد طلاق يذللها فيقصى عنها الخاطبين الذين لا يتقدمون مختارين الى مطلقات الأحرار فما بالك بمطلقات الارقاء ؟ فقل لى بربك اين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟

[زواجه بالسيدة زينب بنت خزيمة - رضى الله عنها -]

وتزوج بالسيدة زينب بنت خزيمة وكانت زوجا لعبد الله بن جحش رضى الله تعالى عنها فقتل عنها يوم أحد فتزوجها ﷺ إيواء لها وجبرا لمصاها فى زوجها وحفظا لديها . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟

[زواجه بالسيدة أم سلمة - رضى الله عنها -]

وتزوج بالسيدة أم سلمة (هند بنت أمة) وكانت زوجا لابن عمها عبد الله بن عبد الأسد وكانا أسلما قديما وهاجرا الى الحبشة ثم قدما مكة وهاجرا إلى المدينة فمات أبو سلمة من جرح أصابه في غزوة أحد فتزوجها ﷺ ويروى عنها انها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيسترجع ويقول اللهم اجرنى في مصيبتى واخلفنى خيرا منها الا أخلفه الله خيرا منها » فلما مات أبو سلمة تذكرت قول الرسول عليه الصلاة والسلام وقالت في نفسها ومن خير من اى سلمة ؟ رجل نال الصحبة وشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ولكنها استرجعت وقالتها فأخلف الله تعالى لها رسول الله ﷺ فأواها وحفظها . فترى من هذا انه ﷺ تزوجها ليعوضها خيرا من زوجها الذى فقدته (وكانت كثيرة الأولاد فأراها وآرى أولادها ، قام بشئونها جزاء لها على هجرتها وإيمانها وثباتها ووفائها) .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟

[زواجه بالسيدة أم حبيبه - رضى الله عنها -]

وتزوج بالسيدة أم حبيبه (رملة بنت أمة سفيان) وكانت زوجا لعبيد الله بن جحش . وقد هاجر إلى الحبشة ، الهجرة الثانية . ثم تنصر زوجها ومات بالحبشة وثبتت هى على إسلامها ، وأبت أن تنصر معه وخالفته ، واختارت الإسلام عليه فأتم الله تعالى لها الإسلام والهجرة والصحبة واكمل لها الشرف بزواجها من رسول الله ﷺ .

ويروى أن أباهما - أبا سفيان - قدم المدينة فدخل عليها . فلما ذهب ليجلس على الفراش طوته دونه . فقال : يا بنية أرغبت بهذا الفراش عنى أم بى عنه :

فقالت : بل هو فرش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس .

فقال : لقد أصابك بعدى شر قالت : بل خير .

وقد خطبها ﷺ من ملك الحبشة حيث سمع بانقطاعها وفقد نصرائها . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟

[زواجه بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية - رضى الله عنها -]

وتزوج بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية وسنها رضى الله عنها زهاء خمسين سنة وقد تزوجها إيواء لها وتألفا قومها وقد أسلم بسبب هذا الزواج كثير من قومها منهم ابن

اختها سيف الإسلام خالد بن الوليد فقل لى بربك أين الشهوة والميل الى النساء فى هذا ؟

[زواجه بالسيدة جويرية بنت الحارث - رضى الله عنها -]

وتزوج بالسيدة جويرية بنت الحارث بن ضرار وكانت زوجا مانع بن صفوان المصطلق وقد قتل كافرا يوم المريسيع واخذت سبية ضمن سبايا وأسرى بنى المصطلق وكانت سيدة بنى المصطلق و بنت سيدهم فأعتقها ﷺ وتزوجها فلما سمع المسلمون بذلك اعتقوا ما فى أيديهم من سبى بن المصطلق وقالوا هم اصهار رسول الله ﷺ فأسلم بسببها بنو المصطلق عن بكره أبيهم وحسن اسلامهم فترى من ذلك أنه لم يتزوجها سوى رغبة فى اسلام قومها وقد انقذها من الاسر واعتقها من الرق وأعزها من الذل .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟

[زواجه بالسيدة صفية بنت حى بن اخطب - رضى الله عنها -]

وتزوج بالسيدة صفية بنت حى بن اخطب سيد بنى النضير قتل أبوها مع بنى قريظة وكانت زوجا لسلام بن مشكم القرظى ثم فارقتها فتزوجها كنانة بن أى الحقيق وقتل عنها يوم خيبر فأخذت رضى الله تعالى عنها فى السبى فخبرت بين العودة إلى قومها وزواجها بالرسول فاختارت الخيرة فأعتقها ﷺ وتزوجها رغبة فى اسلام قومها (اليهود) وقد اسلم كثير منهم فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟

« حكمة راشدة »

ويتضح مما تقدم ان الرسول ﷺ لم يتزوج احداهن إلا لأسباب دينية ومقاصد أخروية لا تمت إلى الشهوة بسبب ولا تتصل إلى الميل للنساء بصلة هذا عدا أن هناك حكمة لهذا التعدد من أجل الحكم وهى نشر الأحكام الخاصة بالنساء والتي لا يستطيع تليغها الرجال كالطهارة والغسل والحيض والنقاب والولادة والرضاع إلى غير ذلك من الأحكام التي لا يستطيع افهامها للناس على وجهها الأكمل سوى النساء ولا يمكن بحال ان تقوم بمهمة الأحكام لسائر نساء المسلمين على اختلاف طبقاتهم فى ذلك الحين امرأة واحدة بل عدة نساء من عدة قبائل وبذلك يتم ما أراده الله تعالى من اظهار نوره وبسط شرائعه وقد ثبت أنهم أذعن عنه ﷺ علما وفضلا وفقها ولو كان ﷺ يريد بالتعدد ما يريد سائر الملوك والأمراء من التمتع واللذة ليس غير لا نتخب الحسان الأبهكار والكواعب والأتراب ولم يتجه صوب هؤلاء الثيبات المكتهلات .

وفضلاً عن ذلك فلم تكن علاقاته عليه افضل الصلاة والسلام بزوجاته كعلاقة أى زوج مهما دنا بأى زوجة مهما علت فقد عاشرهن السنين الطوال ، فلم تفلت من لسانه الكلمة النايه ، بل الكلمة الرقيقه ، ولم تبد على سماته النظره القاسيه ، بل النظره الحانيه .

وما من رجل - بلغ ما بلغ من المروءة والرقه وسعه الصدر - إلا واستحال رضاه إلى غضب فى ساعه ما ، وبدا منه التزمز والتضجر لزاء تصرف ما ، وبدرت منه بوادر الشر ونذر السوء حيال عمل ما . ولكن الرسول ﷺ الذى أوتى جماع الفضائل . وبعث ليتم مكارم الأخلاق الرسول الذى أرسل من البشر ليعلى من أقدار البشر ويرفع من شأنهم ويسمو بنوعهم ، لم يكن كذلك ولم يكن هذا منه ﷺ جينا أو ضعفاً ، بل كان كإلا وجلالا فإن الضعف الاختيارى : أقوى من سائر القوى ، وأكمل من سائر الكمالات ، وهو خير مقياس للعظمة الإنسانية فى أجمل صورها وأرفع مراتبها ، فإن من يتعهد نفسه باختياره ليترفق بضعيف لا طاقة له باحتمال القهر ولا غنى له عن طلب اللين والرفق هو الشجاع الباسل القوى .

وننتقل بعد ذلك إلى موقف آخر يتعلق بزواج الرسول ، وهو قصة التخيير ، فما هى تلك القصة ؟ قصة التخيير : - ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأزْوَاجِكُ إِن كُنْتُن تَرْضْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسْرَحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً . وَإِن كُنْتُن تَرْضْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴾ .

إن رسول الله ﷺ لم يرد الحياة متعة فانية ، لا زخارف براقه ، لأن قلبه كان مليئاً بالقناعة والرضا والإيمان والحكمة ، لقد خيره الله بين أن يكون نبياً عبداً أو نبياً ملكاً ، فاختار أن يكون نبياً عبداً ، وقال فى ذلك « أجوع يوماً فأذكرك ، وأشبع يوماً فأشكرك » ورفض الحياة فى زخارفها ومباهجها ومفاتها ، ولو أرادها مملكة ونعيماً وخدماء وحشماً وترفاً لكان له ذلك .

ورأودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته إن الضرورة لا تعدو على العصم
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته قوم نيام تسلوا عنه بالحلم

أيقال على هذا النبى الكريم إنه كان غارقاً فى ملذات الحياة وكان شهوان إلى النساء ؟

سبحانك هذا بهتان عظيم : - إن حياة هذا النبى كما أخبرت أم المؤمنين عائشة قالت :
إن كنا لنمكث الهلال ثم الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهله بشهرين ولم يوقد فى بيت رسول الله ﷺ
ثار يطبخ عليها . أعلمت كيف كانت حياة هذا الرسول فى بيته ؟

كان طعامهم في معظم الأحيان التمر والماء ومع ذلك كانت العيشة راضية لاتسمع فيها
لاغيه ، إن السعادة مملكة قائمه بالنفس ، كما صورها السيد الجليل محمد ﷺ في هذه
الكلمات « اتق الحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس
وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً وأحب لأخيك ما تحب لنفسك تكن مسلماً . ولا تكثر
الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب » .

ليست السعادة في انتشاء الكئوس المترعة ولا في الاستمتاع بالغير الأمليد .. إنما
السعادة في رضاك عن الله وفي رضا الله عنك وفي تزكية النفس وإشراق العقل وانتصار الذهن
واستعلاء النفس على مطالب المادة وسيطرة القيم والمبادئ التي تحقق في الإنسان إنسانيته .
كيف يقال على هذا النبي إنه نظر إلى الحياة على أنها متعة جسدية وهو الذي كان يمكث في
بيته شهرين ولم توقد في بيته نار يطبخ عليها ؟ لله درك يا رسول الله .

الحق أنت وأنت إشراق الهدى ولك الكتاب الخالد الصفحات
من يقصد الدنيا بغورك يلقها تمها من الأهوال والظلمات
إن الله تعالى خاطب نبيه ﷺ بهاتين الآيتين في أمر عرض له من أزواجه عندما طلبن
منه ذينة الحياة الدنيا .

فلو كان الرسول يسمى لمتعة جسدية وشهوة نسائية لوفر لهن هذه المطالب وأكثر منها
كما يفعل أصحاب الرغبات والشهوات ولكن ماذا حدث ؟ اسمع إلى العلامة ابن كثير يفسر
هذا المشهد القرآني بما تيسر من التقدير يقول رحمة الله تعالى :

« هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسول الله ﷺ أن يخبر نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن
إلى غيره أو يقنعن بالعيش ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل فاخترن رضی الله عنهن
وأرضاهن - الله ورسوله والدار الآخرة - فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا
وسعادة الآخرة .

قال البخارى حدثنا أبوإيمان ، أخبرنا شعيب عن الزهري قال : أخبرني أبو سلمة بن
عبدالرحمن أن عائشة رضی الله عنها زوج النبي ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ جاءها حين
أمره الله تعالى أن يخبر أزواجه قالت : « فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال : « إني ذاكرك لك أمراً
فلا عليك أن لاتستعجلي حتى تستأمرى أبويك » وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني
بفراقه . قالت : ثم قال : « إن الله تعالى قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزَوِّجَكُمُ إِلَىٰ تَمَامِ
الآيَاتِ فَقُلْتُ لَهُ : ففَىٰ أَيِّ هَذَا اسْتَأْمَرُ أَبُوِي فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ » .

وروى الإمام أحمد قال : حدثنا أبو عامر عبدالملك بن عمرو . حدثنا زكريا بن
إسحاق عن ابن الزبير عن جابر رضی الله عنها قال : « أقبل أبو بكر رضی الله عنه يستأذن

رسول الله ﷺ . والناس يباه جلوس ، والنبي ﷺ جالس فلم يؤذن له ثم أقبل عمر رضى الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له ، ثم أذن لأبي بكر وعمر رضى الله عنهما فدخلوا ، والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه ، وهو ﷺ ساكت ، فقال عمر رضى الله عنه : لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك فقال عمر رضى الله عنه : يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتني النفقة أنفا فوجأت عنقها ؟

فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجره . وقال : « هن حولي ويسألن النفقة » فقام أبو بكر رضى الله عنه إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر رضى الله عنه إلى حفصة - كلاهما يقولان : تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده ؟ فهما رسول الله ﷺ فقلن ، : والله لانسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده . قال : وأنزل الله عز وجل الخيار . فبدأ بعائشه رضى الله عنها فقال « إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك » قالت وما هو ؟ قال : فتلا عليها ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْوَاجِكُمْ ﴾ الآية . قالت عجائشة رضى الله عنها : أفيك أستأمر أبوي ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله وأسألك ألا تذكر لامرأه من نسائك ما اخترت . فقال ﷺ : « إن الله تعالى لم يعثى معنفاً ولكن بعثى معلماً مبشراً ، لاتسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها » تفرد بإخراجه مسلم دون البخارى . فرواه هو والنسائي من حديث زكريا بن اسحاق المكي به .

أرأيت يا أخا الإسلام لم كان التخيير وفيم كان ؟؟ لأنهن أردن الحياة الدنيا وزينتها ، فخيرن بين الحياة الدنيا وزينتها ، والتسريح الجميل ، وبين الله ورسوله والدار الآخرة . ومعنى ﴿ أمتعن وأسرحكن سراحاً جميلاً ﴾ أى أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن .

لو كان هذا الإنسان الكامل والمثل الأعلى طالب متعه وصاحب رغبة شهوانية هل كان يمانع فى أنه يأتى لهن بزينة الحياة الدنيا ليستمتع بمفاتيح النساء ومباهج الحياة .

سيحانك ربي . لقد بعثته أسوه حسنه وقدوة طيبه إن هذا البيت بيت النبوه . لقد قال الله تعالى لنساء هذا البيت ﴿ واذكرون ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴾ بيت يهبط فيه الأمين جبريل ورفقاؤه من كبار الملائكة .

بيت يتلقى الوحي من رب السماء .

بيت قرآنى يفوح من أريج القرآن عطراً وريحاناً إنه البيت الذى قال الله تعالى فى شأنه ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ .

سیدی ابا القاسم یا رسول الله :

ياسيد الكون في ذكراك تذكره
من أنقذ الكون من شرك يدنسه
من نظم العرب من فوضى ومهزلة
من لقن الناس أخلاقاً مهذبه
من حرر العبد من رق يكبله
من علم البيت قرآناً يرتله
وفي رحابك يسمو نظم أشعاري
وخلص الناس من تأليه أجمار
وطهر الأرض من رجس وأوضار
وشاد للناس ديناً غير منهار
وحرر العقل من سخف بأفكار
فتنصت الجن إعجاباً بتذكار

« بحث قيم »

جاء في كتاب « الإسلام والعلم الحديث » للأستاذ عبدالرزاق نوفل بحث قيم في زواج الرسول ﷺ وقد آثرنا أن نثبته ونحن بصدد الكلام عن هذا الموضوع وها هو ذا نسوقه بنصه . قال المؤلف :

« لم تظهر حكمه زواج الرسول ﷺ بمن تزوجهن إلا عندما اتسع أفق الفكر في العصر الحديث فإذا ما استعرضنا زواج النبي ﷺ نجد أن كل زواج إنما كان يحقق غرضاً سامياً أو كسباً للدين ، أو عملاً بتشريع جديد . وأن الرسول الأمين كان بعيداً كل البعد عن كل مرغبات الزواج من مال أو جاه أو شهوة أو مغنم .

فخديجة بنت خويلد سيدة بنى أسد ، كانت تزوجت عتيقاً المخزومي ، ولما مات تزوجت أبا هاله التيمي فمات أيضاً . بذلك ورثت عنهما مالاً وفيراً علاوه على ما كانت تملكه . وقد كانت ذات شهره كبيره بين قومها ، لما امتازت به من جاه وحسب ونسب ، علاوه على مالها مما جعله مقصد القاصدين للزواج من كبار القوم وأشرف قريش ، ولكنها كانت ترد كل طالب . فقد كانت عازفه عن الزواج وكانت ترسل الرجال على تجارتها ، فأرسلت نبي الله ليشراف على هذه التجاره لما سمعت عنه من أمانه واستقامه وعادات القافله وقد حققت أرباحاً لم تعهدها ورواجاً لم تكن تتوقعه ، فلما سألت غلامها ميسره الذي صاحب الرسول ﷺ روى لها رقه شمائل محمد وجمال نفسه ، وصفاء قلبه ، وطهاره سريره ، وعفته .. فأرسلت له صديقتها (نفيسة بنت منيه) تقترح عليه أن يتزوجها ، وتزوجها الرسول وهو شاب في ريعان شبابه ، إذ لم يكن تجاوز الخامسة والعشرين من عمره في حين كانت السیده خديجه قد بلغت الأربعين من عمرها .

فهل كان سيدنا محمد رجل متعه ؟ وهل كان كما يقول عنه أعداء الإسلام مشغوقاً بالنساء ؟ وها هو ذا يتزوج من سيده تزوجت قبله مرتين وتكبره بخمسه عشر عاماً ؟

لقد شددت خديجة أذر الرسول برجالها وعصبيتها حتى إنه عندما جاءه الوحي وخشى منه . سألت خديجة ابن عمها ورقة بن نوفل ، الذي كان أول من بشر بنبوته ، وشجعه على إعلان الدعوة حيث قال له وقد قابله في طواف بالكعبة :

« والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن . ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه » ثم قبله وشجع ذلك النبى على أن يدعو قريشاً فيعلن لهم دعوه الله .

كما أن السيدة خديجة شاركت الرسول في جهاده فكانت تهون عليه أمر إيذاء الكفار له وتدفعه إلى النضال والصبر .. وعاشت معه خمس وعشرين عاماً أمضت منها خمس سنوات في جهاد الدعوة . تقاسمه مايلقى من عنت وشده حتى لقيت ربهما ولها من العمر خمسة وستون عاماً .

وبعد موت خديجة ازدادت قريش في اذاها للنبى ﷺ ، فخرج إلى الطائف يدعو إلى الإسلام فوجد من ثقيف التكذاب ، والإعراض وبعد عام من جهاده عاد إلى بيته بمكة فوجده قفراً ، فلما أحس المسلمون بما شعر الرسول به من وحشه أوغزوا إلى خوله بنت حكيم حيث حدثته بأمر حاجته إلى من ترعاه ، وتقضى حاجه بيته وتقوم على شأنه ، فعرضت العذراء عائشه بنت أبى بكر أو سوده بنت ذمعه التى آمنت به واسلمت وهاجرت إلى الحبشه مع زوجها الذى مات وتركها وحيدة فقبل الرسول العزيز الزواج من الاخيرة التى كانت كبيره السن ضامرة الجسد ليس فيها مشتبهى الرجال . ولكنها كانت مؤمنة مجاهده من الصابرين .

هذا هو زواج الرسول إذ أن ماتم بعد ذلك من زواج إنما كان يرمى إلى تحقيق هدف أو كسب للدين ، وقد أمكن أن يقف العلم الحديث على أسباب ما هو بعد ذلك من زواج .

فالمشاهد في العصر الحديث أن قادة الأمم والزعماء يحاولون أن يرتبطوا مع وزراءهم وقوادهم برباط المصاهرة . بل إن قادة الأمم المختلفه يجعلون المصاهرة بينهم من وسائل التقريب بين الأمم ببعضها ببعض ، وكان هذا الهدف من أول الأهداف التى سعى الرسول الكريم لتحقيقها فلربط رجال المسلمين الأول بعضهم ببعض تزوج الرسول ﷺ بعائشه بنت وزيره الأول أبى بكر ثم تزوج بحفصه بنت عمر عندما مات زوجها ، ولهذا السبب نفسه زوج بنته رقية لعثمان بن عفان ، فلما ماتت زوجته بعدها أختها أم كلثوم ، كما زوج ابنته فاطمه لعلى بن أبى طالب .

وهكذا جمعت المصاهرة سيدنا محمداً ﷺ برجاله الأوائل : أبى بكر ، وعثمان وعلى أقوى الرجال في الإسلام ، وأول من أسلموا وهناك هدف آخر هدف إليه الرسول بزواجه . فقد كان من عادة العرب إذا مات الرجل ذهب إخواته واصدقاؤه إلى أرملته يواسونها ، ويعرض

أقربهم إلى زوجه مرتبه أن يتزوجها إكراماً لزوجهها ، وذلك للإشراف على شعون بيته .

وقد أبلى من المسلمين في الحروب رجال تحدث التاريخ عما قاموا به في سبيل الله ورسوله ، ومن هؤلاء المسلمين من لقي حتفه في سبيل دين الله ، فتزوج الرسول من بعض نساء قتلى المسلمين ممن تحدث التاريخ عن جليل أعمالهم . ولم يجدن أزواجاً لهن إما لكبر سنهن ، أو لكثرة أولادهن ، فزاد ذلك من تعلق المسلمين برسولهم ورفع من روحهم المعنوية وأصبح المسلم يعرف أنه لو قتل في سبيل الله لم يعدم رجلاً يشرف على بيته . ولم يعدم أباً يحنو على أولاده ، ولو لم يجد من المسلمين لو جد نبي الله نفسه . بل حيب ذلك الإسلام لغير المسلمين فأسلموا .

ولذلك تزوج الرسول من زينب أم المساكين زوجه عبدالله بن جحش أحد أمراء المسلمين الذى قتل في وقعة أحد وكان على رأس أول سريره خرجت للغزو في الإسلام .

كما تزوج للسبب نفسه هذا أم سلمة زوجة أوى سلمه أحد مهاجرى المسلمين إلى الحبشة الذى أبلى بلاء حسناً في الدعوة ، فلما مات تقدم لخطبتها كبار العرب ومنهم أبو بكر وعمر فرفضت حيث قالت « إني امرأة مسنة وأم أيتام) وعز على الرسول ﷺ أن تظل السيدة حزينه وحيدة فتزوجها .

وهناك تشريع هدف إليه الإسلام في زواج الرسول ، يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الحجرات ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وقد كان الرق منتشرأ في بلاد العرب فدعا الإسلام إلى العتق وتحرير الرقبه وكان للسيدة خديجة زوجة النبي - عبد اسمه (زيد) وهبته لسيدنا محمد ، وكان زيد من أوائل الذين آمنوا بالدعوة ، وقربه الرسول إليه حتى كانوا يطلقون عليه اسم زيد بن محمد . هذا العبد الذى تحرر هل من بين العرب من يجرؤ فيعتبره ندأ له فيزوجه من قريته مثلاً ؟

لقد طلب زيد يوماً من الرسول ان يزوجه زينب بنت جحش ابنة عمه الرسول فوافق عليه الصلاة والسلام ولكن هذا الزواج وجد معارضة من زينب نفسها ومن أهلها لذلك فقد أحل الله له ما لم يحله لغیره ولما تحقق الهدف وانتفت الأسباب التى من أجلها أحل الله لنبيه تعدد زوجاته نزل قول الله تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ﴾ وبذلك تزوج العبد السابق من سيدة قريش سليمة المجد والحسب وكان ذلك تشريعا جديدا للمسلمين وعملا يقول الله تعالى في سورة البقرة : ﴿ ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ﴾ ولم يدم ذلك الزواج طويلا فطلب زيد الطلاق من زينب فكان رد النبي كما جاء في سورة الأحزاب : ﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله ﴾ .

وأراد الله تعالى تشريعاً جديداً ، إذ كانت التقاليد لاثمزم للمدعى أن يتزوج ممن كانت زوجاً لمن ادعاه ، كما لاثمزم للمتمبى أن يتزوج ممن كانت زوجاً لمتبناه ، ولا للسيد أن يتزوج ممن كانت زوجة عبد .

فنبى عن ذلك الله تعالى إذ يقول فى سورة الأحزاب ﴿وما جعل أءعباءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهذى السبيل ﴾ .

لذلك أمر الله بأن يكون الرسول القدوة للناس فى ذلك ، وخبشى فى نفسه أن يقول عنه الناس تزوج ممن كانت زوجاً لءعبه أو كان بضمى فى نفسه تنافر الزوجين وكراهيتهما بعضهما لبعض حتى لا يتزوجها ولكن الله مبدى هذا التنافر ، يقول المولى عز وجل فى سورة الأحزاب ﴿وتخفى فى نفسك ما الله مبدىه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زىء منها وطراً زوجناكمها لكى لا يكون على المؤمنى حرج فى أزواج أءعبائهم إذا قضاوا ممنهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً ﴾ .

هذه هى حكمة زواج الرسول من زىب بنت جحش . وهى بعبه كل البعد عما يرويه خصوم الإسلام من أن الرسول ﷺ كان قد ذهب لزياره زوجها فاستهواه جماها فطلب من زوجها أن يطلقها ليتزوجها .

وأين كان الرسول يوم أن كانت زىب عذراء وهى ابنة عمته ، والتى كان يعرفها تماماً ؟ .

أو لم تستهويه محاسنها وهى عذراء ؟

ولكنه الحقء على الإسلام ونبى الإسلام الذى يجعل الخصوم يفترون .

وهناك حكمة من زواج الرسول إذ حقق به أهدافاً سياسية ، فعندما هزم المسلمون بنى قريظة بعد حصار طويل . كانت ريمانه بنت عمرو زوجه الحاكم أحد كبار بنى قريظة من نصيب الرسول فى الغنائم فعرض الرسول عليها الإسلام فأسلمت وتزوجها وكان لزواجه منها أكبر الأثر فى نشر الدعوة الإسلامية بين قبائل اليهود الذين هءأت ناثرتهم . وهز مشاعرهم إكرام الرسول لأحد سيداتهم بزواجه منها .

وكذلك عندما انتصر المسلمون فى غزوة بنى المصطلق كانت جوربية بنت الحارث بنت سيد قومها من نصيب ثابت بن قيس الذى طلب منها أن تفتدى نفسها فاستعانت بالرسول على فك أسرها فعرض عليها الإسلام وأسلمت فتزوجها وكان لذلك أثره فى نفس بنى المصطلق الذين ارتبطوا بهذا الزواج مع الرسول ، فءخلوا جميعاً فى الإسلام .

ولما انتصر المسلمون على يهود خيبر ، كانت صفية بنت حبي بن أخطب ضمن الأُسرى ، فأعتقها الرسول وتزوجها ، وهذا مايفعله الفاتحون من ذوى الرحمه إذ يتزوجون من بنات الملوك والعظماء في الدول المهزومة حفظاً لكرامتهم وتخفيفاً من وقع الهزيمة عليهم .

وبعد أن انتشر الإسلام في جزيرة العرب أرسل الرسول إلى النجاشي ملك الحبشة الذى آوى المسلمين المهاجرين وأكرمهم ، ليكون النجاشي رسوله في طلب الزواج من أم حبيبه رملة بنت أبى سفيان بعد أن مات زوجها عبيدالله بن جحش الذى كان قد أسلم ثم ارتد ، وبقيت زوجته مسلمة صادقه العقيدة ، وكانت لفته كريمه لسيدة مسلمه ارتد زوجها المسلم وتمسكت بدينها . تحافظ عليه وتقيم شعائره في دولة غريبه ، كما كانت سياسية بارعة ، إذ أن أم حبيبه بنت أبى سفيان عدو الرسول الألد واكبر مهاجمي الإسلام ، وزواجه منها انتصر على آخر معقل من معاقل الكفر والشرك في قريش ، انتصاراً دون إراقة دماء ، وبدون حرب أو اعتداء .

وعندما بدأ الرسول في نشر الدعوه إلى الخارج أرسل رسله إلى الملوك والأمراء ، منهم هرقل . وكسرى ، والمقوقس يدعوهم إلى الإسلام ، فكان من ضمن رد المقوقس عظيم القبط في مصر أنه أرسل للرسول هدايا فيها جاريتان إحداهما ماريه القبطية التي تزوجها الرسول وسيرين التي أهداها إلى حسان بن ثابت .

ولما أحل للنبي للدخول إلى مكة وزيارة الكعبة الشريفة بعد صلح الحديبيه دخل الرسول على رأس المسلمين في عمرة القضاء وظلوا أياماً ثلاثه هي مااتفق عليه في المعاهده .

وكان المسلمون من الكثره والقوه والخلق الكريم لايشربون حمراً ولايأتون معصية ولايتقاتلون على شراب أو طعام ، ولا يعبدون أحجاراً أو أوثاناً وإنما دعوتهم الله اكبر الله اكبر زلزل ذلك عقائد أهل مكة من الكفار ، فأسلم ضمن من أسلم ميمونه بنت الحارث خالة خالد بن الوليد ، فخطبها الرسول وهو ينظر إلى أن زواجه منها تكريم لها وأى تكريم وفتح لعائلتها التي كانت ومازالت على الكفر وقد صحت فراهة الرسول ﷺ كما كانت تصح دائماً ، فأسلم بعدها خالد بن الوليد الذى هدم العزى ، وقتل سدنتها وأسلم عمرو بن العاص الذى هدم سواعاً وكذلك أسلم عثمان بن طلحه حارس الكعبه وبإسلامهم أسلم كثير من أهل مكة .

هنا هو زواج رسول الله ﷺ فهل منه مايشير في أى نفس الشك في أنه تزوج لحبه للنساء وهل في أزواجه كلهن واحده كان جمالها أو شبابها سبباً في زواجه منها ؟

وهذه هي الأهداف التي هدف إليها الرسول من زواجه لمصلحة الدعوة والدين .
لذلك فقد أحل الله له ما لم يحله لغيره ، ولما تحقق الهدف وانتفت الأسباب التي من
أجلها أحل الله لنبية تعدد زوجاته نزل قول الله تعالى في سورة الأحزاب ﴿ لا يجمل لك النساء
من بعد ﴾ .

هذا هو زواج الرسول ﷺ فهل فيه ما يثير في أى نفس الشك في أنه تزوج بأكثر من
واحدة لحبه للنساء ؟

وهل كان بين كل هذه الزوجات عذراء سوى عائشة ؟

أو ليس قول الخصوم بعد ذلك افتراء على النبي وعلى الحق أى افتراء ؟؟

والى هنا نكون قد أتينا على الحكمه البالغه التي من أجلها تعددت زوجات الرسول

ﷺ .

سيدي أبا القاسم يا رسول الله :

لما أراد الله جل جلاله	أن ينقذ الدنيا من العثرات
اهدأك ربك للورى ياسيدي	فيضا من الأنوار والرحمات
ياصاحب الخلق الكبير عرفته	وبسطته في حكمة وأناة
وظلعت في الليل البهيم مؤذنا	بالحق والأنوار والصلوات
ودعوت للخيرات قوما ضللوا	ماكان أبعدهم عن الخيرات
ودعوت حتى كنت أصير من دعا	وأقمت بين إساءه وأذاه
فصبرت ثم رحلت ثم ضربت في	أعناقهم في عزة وثبات
فحظيت بالنصر المبين مؤذرا	وأقمت حقك خافق الرايات
وضربته مثلا لكل مكابر	لايستوى حق بغير حماة

الإسلام وتعدد الزوجات

رأينا من المناسب بعد الكلام عن أزواج سيدنا رسول الله ﷺ أن نعقب هنا بكلمه
عن حكمه الإسلام البالغه في أباحه تعدد الزوجات وقبل أن نسجل هذه السطور نود أن نبدأ
بهذه القواعد التي تتبنى عليها دائما الحكم البالغه والأهداف الساميه لتشريعات الله أحكم
الحاكمين وأعدل العادلين .

عالمية الدعوة

القاعده الأولى من تشريعات الإسلام أنه شريعته عالميه ، وليس حكما إقليميا .
قال سبحانه وتعالى : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾
وقال سبحانه : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .
وقال جل جلاله : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ .
وقال عظمت حكمته : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على
الدين كله ﴾ .
وقال ﷺ « كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعث إلى كل أحر وأسود » .
وإذا قد تقرر ذلك فلا بد أن يكون تشريع الإسلام شاملا بكل مقتنيات الزمن ومحيطا
بكل نواحي الحياه .

الفصل السابع عشر عرفة

وقد عقد المؤلف فصلا تحت هذا العنوان قال فيه : بعد وفاة قاسم يخلفه صديقه صادق بينا يحرص آخرون حسن على تولى الأمر لأنه أحق به من أى شخص آخر ولكن حسن لايقبل ان يستخدم العنف من أجل ذلك وبعد فترة من الزمن يعود الأمر إلى ما كان عليه قديما اذ يسيطر أحد أحفاد الناظر القديم (رفعت) بعد تقاتل اتباع قاسم ويكون لكل حى فى الحارة فتوته ويأتى إلى الحارة ذات يوم (عرفة) الساحر وهو بن جحشه العرافة التى كانت تقيم فى الحارة قديما ومعه أخوه ومساعده (حنش) ويستأجر (بدروما) فى الحارة ويستدعيه الفتوة (حجاج) ليعرف منه ماذا ينوى ان يعمل ويخبره عرفه انه ساحر وانه سيدفع له الأتاوة المفروضة ويغريه بأن يقدم له شيئا يقول له : جربه فى فنجان شاي قبل الجماع بساعتين وستعرف بعد ذلك إن كنت ستسر عرفه أم ستطلق خلفه اللعنات ويخاف حنش عندما يعرف أن الشقة التى سيعيشون فيها ماتت فيها امرأة محترقة من قبل ويخشى أن تكون مسكونة بالعفاريت فيسخر عرفة من خوفه ويقول أنسىت أننا نمارس عملنا مع العفاريت تماما كما كان جبل يفعل مع الحيات (ايجاء بأن مافعله سيدنا موسى بالحيات كان من قبيل السحر والشعوذة ولايختلف كثيرا عن أى سحر آخر ولم يكن وراءه قوة سماوية واطارة من ناحية أخرى إلى أن العلم استطاع أن يخرج العفريت من القمقم) ويتردد الزبائن على عرفة طالبين السحر والشفاء ويطلب معظمهم منه سر الوصفة الجنسية التى اهداها للفتوة وشاع أمرها ويكثر فى كلام أهل الحارة الاستخفاف بما كان عليه جبل ورفاعة وقاسم وان كانت ما تزال قصتهم تروى فى المقاهى على الربابة .

يسر عرفه إلى أخيه حنش بأفكاره بينا هو منهمك فى خلط أشياء غريبة فى ورشته حيث توجد الطلاسم والنباتات والبخور والعقارب والفئران والحشرات والجير والتراب

وحيوانات محنطة وقطع زجاجية وعلب بها سوائل لها روائح نفاذة غريبة وفحم نباتي وموقد إلمخ ، ويقول عرفه لاتنس متعة السحر نفسه متعة استخراج شيء نافع من بين مواد غير نقية متعة الناس عندما يسمعون نصائحك ثم هناك القوى الخفية التي ستحب ان تمتلكها إن أحداً من السذج الذين يظنون انفسهم ذوى شأنه عظيم في هذه الحارة لا يفهم أهمية مايفعل في هذه الغرفة المظلمة القنرة بروائحها الغريبة .

(اشارة إلى أن المخترعات العظيمة والإبداعات الكبيرة للعلم خرجت من معامل متواضعة انقطع فيها العلماء عن العالم الخارجى وعكفوا على بحوثهم في صمت مما لايقدره الناس بعد ذلك وهم يستفيدون من نتائج هذا العمل) انهم يدركون فقط فائدة (الهدية) ولكن هذه الهدية ليست كل شيء فهناك عجائب لايمكن تخيلها يمكن أن تخرج من هذه الغرفة يوماً ما سوف تتدفق المعجزات ولن تقف عند حد ان الحمقى لايقدرن قيمة عرفة الحقيقية ولكن لعلهم يقدرونه يوماً ما) ويزداد زبائن عرفة ويتعلق هو بفتاة فقيرة جميلة اسمها « عواطف » (سنعلم أن إرتباطه بها سيعوقه عن عمله وانه سيحدث خلاف بينهما وان رغبته في زيارتها ستكون سببا في القبض عليه والفتك به مما قد يشير إذا اخذنا في الحسبان ما يرمز إليه اسمها « عواطف » ان العاطفة المنافية للعقل والعقلانية إلى أن انتصار العلم ونجاحه مرهون بتخلصه من كل اثر للعاطفة البشرية) وأبوها « شكرون » الذى اضناه في شيخوخته التحول بعربة في الطرقات فافتتح مقهى متواضعا كان من معاصرى قاسم ويواجه عرفة مشكلة هى ان (سنطورى) الفتوة معجب أيضا بالفتاة ولكن عرفة بحسن علاقته بحجاج الفتوة ينجح في الزواج منها بعد أن قتل سنطورى أباهما العجوز ويتضح من حوار عرفة وحسن أن عرفة كان يفكر في الانتقام لأمه ومصبرها البائس من اهالى الحارة (يبدو أنها لقيت معاملة سيئة وساءت سمعتها بين أهل الحارة إلى أن ماتت في بؤس) ولكن عرفة يخبر حنش ان تفكيره لم يعد يتركز في الانتقام بل في جلب السعادة للجميع بالتخلص من الفتوات وبطشهم ووسيلته في ذلك : السحر وفي حوار مع عواطف يقول عرفة : كل من يمر بضيق يصيح (يا جبلاوى) كما كان أبوك المسكين يفعل ولكن هل سمعت عن أناس مثلنا لم يروا مطلقا جدهم هنا مع أنهم يحيون حول منزله الموصد وهل سمعت عن انسان له وقف يترك الناس يعثون بوقفه من غير ان يحرك ساكنا على الإطلاق وتجييه (انه كبير السن) فيقول بأرتياب « اننى لم اسمع مطلقا عن شخص عاش مثلما عاش » فتقول « إنهم يقولون ان هناك رجلا في سوق المقطم عمره مائة وخمسون عاما فيقول عرفة بعد صمت « الله قادر على كل شيء » ثم يغمغم قائلا « ونفس الشيء بالنسبة للسحر انه الآخر قادر على كل شيء » وتبنت في ذهن عرفة فكرة تسيطر عليه وهى ان يقابل الجبلاوى الجمد الأكبر للحارة كلها بأن يذهب إليه في قصره وتفكر عواطف زوجته في دوافعه لذلك وهل هو رجل مجنون أم انه مخلوع وواهم ونعلم هنا أن عرفة هو

الوحيد في الحارة كلها الذي لا يتعاطى الحشيش (هذه مسألة في غاية الأهمية لأنه لأول مرة منذ بداية القصة وحتى نهايتها نجد شخصا واحداً لا يتعاطى الحشيش هو عرفة الذي يرمز للعلم المادى الملحد من حيث ان الجميع بما فهم حتى أولئك الذين يرمزون لرسالات السماء كانوا يتعاطون المخدرات كالأكل والشرب تماماً لدرجة ان القارىء يحس من سياق الرواية ان المخدرات من لوازم الحياة بين الجميع في هذا المجتمع وكذلك الخمر دون أن يرد في النص أى اشارة ولو خافتة إلى أن هذا محرم أو أن هناك من يستنكره أو يحاربه أو يجتنبه وفي كل ذلك اشارة واضحة إلى ان (الدين أفيون الشعوب) وإلى أن العلم المادى الملحد هو المنقذ الوحيد من هذه الحالة من فقدان الوعي) .

وتواتى عرفة فكرة يستعين بها لتحقيق غايته فيحفر على مدى عدة ليال وفي ظلام الليل الدامس نفقا من خارج البيت الكبير إلى داخله ثم يتسلل عبره ذات ليلة إلى داخل الحديقة الغناء ثم إلى داخل البيت إلى أن يصل إلى غرفة النوم التي بداخلها الغرفة الصغرى التي تحوى الكتاب السرى ولكن قبل أن يتمكن من الوصول للكتاب يستيقظ احد الخدم ويحاول الإمساك به وتمتلك عرفة المفاجأة والذعر فيجد نفسه وقد اطبق على عنق الخادم ولم يتركه إلا جثة هامدة وأسرع خارجا من غير أن يتمكن من تحقيق ماجاء لأجله فلا هو رأى الجبلاوى أو حادثه ولا اطلع على خفايا الكتاب السرى وعاد مذعورا إلى بيته ثم استيقظ الجميع على أصوات بكاء وصراخ آتية من البيت الكبير وعلموا ان (الجبلاوى قد مات) وتبين بعد ذلك انه علم بقتل خادمه ولم يستطع انقاذه لكبر سنه وشيخوخته وضعفه فأصابه الهم والغم ومات كمدماً .

قال المؤلف وكان عرفة في تلك الاثناء قد فرغ من تركيب مادة سحرية أو كيمياوية عكف على صنعها وتجربتها زمنا طويلا واستعملها لأول مرة عندما ارتكب جريمته الثانية بعد قتل خادم الجبلاوى وهى جريمة قتل فتوة الحارة فقد البقى على مطارديه هذه المادة فأحدث انفجارا هائلا واصابهم في وجوههم اطرافهم (مما يفهم منه انها مادة حارقة) ويستطيع بذلك أن يفر ولكن الفرار لا يلدوم لأن بعض شهود العيان الذين نجوا من الحادث كانوا قد تعرفوا عليه وابلغوا ناظر الوقف الذى استدعاه وهدده بأن يسلمه لأهل القتل فيمزقوا جسده وينتهى اللقاء بعقد صفقة هى أن يحصل الناظر على هذا الدواء العجيب أو هذه التركيبة الخطيرة التى يملكها ويعرف سر تركيبها عرفة وحده مقابل ان يحميه الناظر من العقاب والانتقام .

ثم يمضى المؤلف قائلا وفيما يتعلق بموت الجبلاوى فقد ثار نزاع بين حى جبل وحى رفاعة وحى قاسم ورأى كل فريق أنهم أولى بالجبلاوى واحق بأن يدفن عندهم هم (اشارة

إلى فكرة تنازع ابناء الديانات الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام حيث يدعى كل فريق منهم صحة انتساب عقيدته إلى الله تعالى وصحة كتابه المقدس وانه الوحيد الذى على حق الخ وهذه فكرة قديمة ويجب الا يظن المؤلف انه أتى بمجديد عندما طعن فكرة الدين نفسها فى الصميم تأسيسا على هذا النزاع ذلك ان القرآن نفسه اشار إلى ذلك فى مثل قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ ذلك ان اختلاف وتنازع أتباع الأديان لا ينهض دليلا أو دفاعاً لرفضها كلها لكى يرج المرء نفسه ، فمن الطبيعى أن تختلف عقائد الناس وتتفاوت ولكن الإنسان مسئول ان ينظر فيها ويعمل عقله ويرضى باتباع العقيدة التى يطمئن اليها قلبه وعقله والا فما جدوى العقل .

ثم يقول المؤلف وينتهى النزاع بأن يدفن الجبلاوى فى الزاوية الصغيرة الملحقة بمحديقة قصره الكبير ويثور صراع بين حى جبل وحى رفاعه وحى قاسم على من يكون الفتوة الجديد بعد مقتل فتوة الحارة ويستدعى الناظر (يوسف) فتوة حى جبل متمنياً له الفوز بالمنصب ولكن (عجاج) فتوة حى رفاعه و(سنطورى) فتوة حى قاسم يتفان عليه فيقتلانه ثم يبرمان عهدا ان تكون القرعة هى التى تحدد من منهما يكون فتوة الحارة كلها وعندما تأتى القرعة فى صالح سنطورى يهجم عليه أحد اتباع عجاج ويقتله ويقتل الفريقان إلى أن يأتى الناظر ويحسم الأمر بأن يصارح عجاج بأنه لا يريد أى فتوات فى الحارة وسرعان ما يأمر خدومه بإلقاء الزجاجات التى تحوى المادة السحرية عليهم فيحدث الانفجار ويسقط الجميع ويرتج المكان وتتساقط الجدران ويعلو الصياح ويجهز الخدم على الفتوات واتباعهم وينتقل عرفة وزوجته عواطف وأخوه حنش للإقامة فى قصر الناظر الذى قرر الاعتماد على سحر عرفة فى السيطرة على الحارة وأهلها بعد ان تخلص من الفتوات ويحس عرفة أنه فى سجن لأن الناظر استغل خوفه من انتقام أهل الفتوة الذى قتله وأصبح عرفة مضطرا للإنياد له وخدمته بسحره مقابل حمايته وتحس عواطف بالملل والرتابة داخل جدران القصر فتذهب مغضبة الى بيت احدى النساء فى الحارة ويذهب عرفة ليقنعها بالعودة ولكنها تأتى ويحدث حادث مهم ذات يوم عندما تقابل عرفة فى الطريق امرأة نوبية عجوز تخبره أنها خادمة الجبلاوى وانه أوصاها قبل موته بإبلاغ رسالة إلى عرفة وهذه الرسالة هى (أذهبى إلى عرفة الساحر وأبلغيه عنى أن جدته مات وهو راض عنه) واصابت الدهشة عرفة واتهم المرأة بالكذب أول الأمر بل وأبلغها صراحة أنه هو الذى تسبب فى موت الجبلاوى فكيف يكون قد مات وهو عنه راض إلا أن المرأة نفت عن نفسها الكذب وأكدت الوصية وكررتها له وقالت له : ان أحداً لم يقتل

«الجيلالوى ولم يكن لأحد ان يستطيع ذلك» ولكنه قال لها « أنت مخطئة فالذى قتل خادمه قتله» (حيث ان خادمه يرمز لنا موس وحيه ورسوله إلى رسله وانبيائه فان المعنى هو ان الذى استطاع هدم هذه الأديان فكأنما بذلك قد قضى على مصدر الوحي نفسه) .

ويشك حنش فى رواية عرفة ويتهمه بأنه كان غائب الوعى وأن كل هذا (تهيؤات) ولكن عرفة يؤكد له ان ذلك حدث وان الجيلالوى مات وهو راض عنه .

ومضى الكاتب قائلاً بعد ذلك يفكر عرفة فى الهرب وينفذ خطته ليلا فيهرب هو وحنش قاصدين المنزل الذى تقيم فيه عواطف (منزل أم زنفل) ولكنه سرعان مايسرع وراءه أتباع الناظر وخدومه ويحاصرونه ويقبضون عليه بعد أن ينجح فى القاء الكتاب الذى أودعه خلاصة علمه السحرى فى منور بيت أم زنفل حتى لايقع فى يد الناظر بينما يفلح أخوه حنش فى الهرب . ويلقى عرفة وعواطف حتفهما على أيدي خدم الناظر الذين يدفنونهما حين فى جبل المقطم ويعود حنش متخفياً إلى أم زنفل يسألها عن الكتاب الأمل الوحيد فتحيره ان يذهب إلى حيث يحرقون القمامة فى (الصالحية) وهناك وبينما هو منهمك فى البحث يراه أحد أبناء الحارة ويسرع ناقلاً الخبر وعندما يذهب الناظر للقبض عليه يجذونه. قد اختفى ويتناقل الناس خبر حنش واحتمال عثوره على الكتاب لكى يعود مرة أخرى ذات يوم فينتقم ابشع انتقام من الناظر بعد أن يستكمل ويطور كل ما وصل اليه عرفة من علوم السحر ويدعى الناظر للناس انه عقد الصفقة مع عرفة لكى يقى الناس شر سحره ثم لما تمكن منه اقتص منه جزاء وفاقا لتسببه فى قتل الجيلالوى جدهم جميعا ويقابل الناس هذه الأخبار التى أمر الناظر ان تغنى على الرابة فى المقاهى بالاستخفاف واللامبالاة ويقولون اتنا الان لم نعد نهم بالماضى فلم يعد يعنى أى شىء بالنسبة لنا ان أملنا الوحيد هو سحر عرفة واذا كان لنا أن نختار بين الجيلالوى والسحر فإننا سنختار السحر (الكلام أوضح من ان يحتاج لأى تفسير أو تعليق) ويعرف الناس حقيقة عرفة من أم زنفل التى عرفته عن قرب وعاشرت زوجته طويلا وعن طريق حنش عندما قابل بعض الناس فى مكان بعيد عن الحارة وشعر الناس أنهم ظلموه وكان حكمهم عليه قاسيا واصبحوا يبجلونه ويرفعونه إلى مكانه أعلى من مكانة جبل ورفاعة وقاسم حتى ولو كان هو حقا الذى قتل الجيلالوى وادعاه كل حى لنفسه وبدأ بعض الناس يختفون من الحارة واحداً وراء الآخر وتهامس الناس أنهم يفرون إلى المكان الذى يختبئ فيه حنش حيث يعلمهم جميعا مبادئ السحر لكى يكونوا قوة كبيرة تعود فتنقم من الناظر وتدفع هذه الأخبار الناظر إلى احكام قبضته على الحارة واضطهاد أهلها ولكن الناس يصبرون على الأذى فى انتظار بزوغ فجر جديد يتخلصون فيه من القهر والطغيان .

بيان وتعليق

بعد أن تقرأ أيها الأخ الفقرة السابقة من أولها تعرف ان (عرفه) « الأسم مشتق من المعرفة » أى الذى لديه العلم والمعرفة لكن ليس عن طريق الوحي أو الرسالات أو الأساطير أو الدين بل عن طريق ورشته ومعمله وما يخلطه من مواد وكل هذا يرمز للعلم المادى وما فيه من اكتشافات واختراعات وتكنولوجيا ولذلك فهذا العلم فيه وحده كل العجائب والغرائب وفيه وحده النفع والفائدة ولكن لأن اهالى الحارة قريبو العهد بقصص السابقين مثل أدهم وجبل ورفاعة وقاسم فلم يقدروا قيمة العلم المادى بعد ونلاحظ كذلك ان (عرفه) فى الرواية ينتمى إلى أم ساحرة يعنى ترى فى بيئة علمية بعيدا عن قصص السابقين واحداثهم وأساطيرهم ثم انه مجهول الأب أى أن العلم لا أب له أو لا يهيم فيه الاسلام بل ما يكتسبه كل شخص باجتهاده أو أن العالم لا ينقص منه ان يكون ابن زنا أو أن ينجب هو نفسه من الزنا أو أن عرفه هذا مشكوك فى عودة نسبه إلى الجبلاوى وبالتالى فالعلم نشأ بعيداً عن الدين منقطع الصلة به لا ينتسب اليه إلى آخر الدلالات التى يمكن أن تخرج بها من شخصية عرفه .

وقال المؤلف وفى حوار مع عواطف « كل من يمر بضيق يصيح يا جبلاوى كما كان أبوك المسكين يفعل ولكن هل سمعت عن اناس مثلنا لم يروا مطلقا جدهم هذا مع أنهم يجيئون حول منزله الموصلد وهل سمعت عن انسان له وقف يترك الناس يعبثون بوقفه من غير أن يحرك ساكنا على الاطلاق وتجيئه « إنه كبير السن » فيقول بارتباب « إننى لم اسمع مطلقا عن شخص عاش مثلما عاش » فتقول « انهم يقولون أن هناك رجلا فى سوق المقطم عمره مائة وخمسون عاما فيقول عرفه بعد صمت « الله قادر على كل شىء » ثم يغمغم قائلا « ونفس الشىء بالنسبة للسحر انه الآخر قادر على شىء » .

« تعليق »

هنا يخرج الكتاب عن الرمز إلى الحقيقة لأول مرة ولعلها المرة الوحيدة اذ لا تنصب الاتهامات هذه المرة على رأس جبلاوى كالعادة حتى مع كونه يرمز إلى الله تعالى بل ينتجه الكلام إلى الله نفسه صراحة ومن غير- غلالة الرموز أو غموض الأجواء الغريبة الله قادر على كل شىء وكذلك السحر قادر على كل شىء أى أن نعلم يشارك الله فى احدى صفاته وهى القدرة المطلقة وبالتالى فالعلم إله جديد له نفس الصفة ومن هذه الزاوية يستحق التقديس على قدم المساواة ثم نأتى إلى التعقيب على هذه الدلالة فالمقصود انه إذا كان الدين قادرا على تحقيق

المعجزات أو تفسيرها فإن العلم المادى قادر على تحقيقها وتفسيرها تفسيراً مادياً وأنه إذا كانت انجازات الأنبياء قد بقيت زمناً قصيراً فإن العلم هو الذى ستدوم معجزاته وهذه الأفكار لا تحتاج إلى دحض من فرط سذاجتها فمن ذا الذى يقول ان العلم جاء بديلاً للدين ومن ذا الذى يمكنه ان يدعى ان عصر النبوة انقضى وورثه عصر العلم مع ان معجزة الإسلام في بقاء قرآنه وشريعته وسنة رسوله دليل على ان زمن رسالته ممتداً إلى يوم القيامة ومن ذا الذى لم يسمع حتى الآن بمدى اهتمام الإسلام بالعلم والعلماء والنهضة العلمية العظيمة إبان ازدهار حضارة الإسلام العظيمة التى تطلعت عليها أوروبا وبنيت عليها نهضتها الحديثة بل من ذا الذى ينكر وجود مئات من العلماء من غير المسلمين يجمعون بين تفوق علمى عالمى في تخصصاتهم وإيمان روحى عميق بالدين وقيمه ومبادئه وان التناقض بين نصوص الدين ومعطيات العلم أو بين سلطة الدين والكهنوت والسلطة الزمنية ... إلخ حدث في أديان أخرى غير الإسلام فحتى لو انطبق هذا الكلام على أديان بعينها لا يمكن أن ينطبق على الإسلام ومن العجيب والمحرزن ان تثار هذه القضية المختلقة على يد كاتب ملم من باب المحاكاة والتقليد الأعمى فقط لما قاله فلاسفة غربيون من قبل وان كان لا عجب مادام أمثال هذا الكاتب يولون وجوههم شطر الغرب في كل حركة وسكنة .

قال المؤلف :

وتواتى عرفه فكرة يستعين بها لتحقيق غايته فيحفر على مدى عدة ليال وفي ظلام الليل الدامس نفقا من خارج البيت الكبير إلى داخله ثم يتسلل عبره ذات ليلة إلى داخل الحديقة الغناء ثم إلى داخل البيت إلى أن يصل إلى غرفة النوم التى بداخلها الغرفة الصغيرة التى تحوى الكتاب السرى ولكن قبل ان يتمكن من الوصول للكتاب يستيقظ أحد الخدم ويحاول الإمساك به وتملك عرفه المفاجأة والذعر فيجد نفسه وقد أطبق على عنق الخادم ولم يتركه إلا جثة هامدة واسرع خارجاً من غير ان يتمكن من تحقيق ما جاء لأجله فلا هو رأى الجبلاوى أو حادثه ولا اطلع على خفايا الكتاب السرى وعاد مذعوراً إلى بيته ثم استيقظ الجميع على أصوات بكاء وصراخ آتية من البيت الكبير وعلموا ان « الجبلاوى قد مات » وتبين بعد ذلك انه علم بقتل خادمه ولم يستطع انقاذه لكبر سنه وشيخوخته وضعفه فأصابه الهم والغم ومات كمدأ .

« تعليق »

نلاحظ ان تفاصيل موت الجبلاوى زاخرة بالرموز والدلالات ولا ريب في انها هم أخذت هذه الرواية على الاطلاق وهى الهدف الذى يريد المؤلف أساساً ان يصل بالقارىء

اليه عبر كل تلك الأحداث المتشابكة المتلاحقة فنجد ان موت الجبلوى (أو موت الاله)
يرمز إلى أن الدين والإيمان بالله تعالى قد استنفذ أغراضه وانقضى عهده ولا أمل في عودته لان
الموتى لا يعودون إلى الحياة في هذه الدنيا ثم أن موته كان بسبب تعرف عرفه أو أن عرفه كان
هو السبب في موته يعنى ان موت الاله أو انقضاء وإنهيار الدين السماوى حدث على يد العلم
الدينوى الملحد وهكذا نرى ان الرمز مركب فمن ناحية ! مات الإله ومن ناحية أخرى مات
على يد العلم .

وهذه هى الفكرة الطفولية الساذجة ومؤداها ان البشرية شهدت عصورا متتابعة قضى
كل منها على ماسبقه فكانت أولا حقبة الأساطير والتفكير الخرافى ثم جاءت الأديان فى عصور
تالية فهذبت شيئا ما من التفكير الأسطورى واضفت عليه قيما معينة لا بأس ببعضها لأنها
مرحلة من التطور الفكرى الإنسانى ثم جاء عصر العلم فألغى رحلة الأساطير ومرحلة الدين
وحل محلها بمنطقه المادى العقلانى وهكذا وفق هذا التصور يجب أن يظل هذا المنطق المادى
الملحد هو السائد لأنه الذى ورث كل هذه العهود الخرافية الأسطورية بما فيها عهود الدين
لأنها فى أحسن الأحوال ليست إلا امتدادا لعصر الأسطورة وبمجرد مرحلة مر بها العقل البشرى
فى مدارج تصوره ورقبه ثم تحطها مع ان دارسى الفلسفة والتاريخ والمثقفين عموما يعلمون
جيدا أن الذين اعلنوا هذه الصيحة « أن الله قد مات » قالوها وفى أذهانهم « اله » غير
« الله » الواحد الأحد .. فكله (الله) فى لغات الغرب المسيحى تعنى (الابن) مثلما تعنى
(الأب) (والروح القدس) - أقانيم المسيحية أو الثالوث المقدس وفى هذا الإطار كان
المقصود بموت الاله هو موت يسوع المسيح على الصليب (فى اعتقادهم) وكأن اصحاب
هذه الصيحة ومن اشهرهم نيتشه وقد دعوا تماما الاثار السلبية لسيطرة الكهنوت المسيحى
الأوربى على المجتمع حكاما ومحكومين ومعاداته للعلم وحرية الرأى .. الخ فأرادوا أن يذهب
هذا السلطان البغيض إلى غير رجعة ووجدوا فى موت الرب المخلص يسوع المسيح على
الصليب حجتهم فيما من لاتزالون تؤمنون بمثل هذا الدين تذكروا أن ربكم هذا قد مات
واذن فالطريق خالى لرب جديد . مالنا نحن يااستاذ محفوظ ومال هذا ساعحك الله المهم نعود
إلى رموز وفاة الجبلوى فنجد ان عرفه هو الوحيد الذى استطاع الدخول إلى بيت الجبلوى
ثم تسبب فى القضاء عليه واذن فالعلم المادى هو الوحيد الذى استطاع قهر فكرة الألوهية
والقضاء عليها ثم انه كان الوحيد فى الحارة الذى لم يكن يشرب الحشيش « الأقرب أو اواخر
الرواية وكرمز لوقوعه تحت سيطرة السلطة الزمنية » واذن فكل اتبا الأديان - بما فهم أتباع
الإسلام (مساطيل) فى اتباعهم للدين الذى هو (الحشيش) و(الأفيون) الذى يسيطر على
الناس إلا الذى يتمسك بأهداب العلم المادى فهو وحده اليقظان الواعى الذى يملك على
حواسه وعقله وارادته والسحر الذى يمارسه عرفه فى الرواية ويحقق به كل ذلك يرمز للعلم

المادى فهو الوحيد القادر على صنع المعجزات وهى معجزات حقيقية يمكن ان نراها وليست كنتلك المعجزات التى يحكى عنها الشعراء والرواة على الرابة فى المقامى « رمز للكتب المقدسة التى يردد ما فيها علماء الدين والمتدينون » فهل من قبيل الأساطير التى لا يعلم أحد ان كانت حدثت أو لا .

كما ان عجز الجبلاوى عن الدفاع عن خادمه وقهر عرفه يرمز لعجز الدين أو الاله - كما يزعمون - عن التصدى لقوة العلم القاهرة والدفاع عن اتباع الدين (الضعاف المسحوقين) فى مواجهته كذلك يقول عرفه بعد تجربة دخوله قصر الجبلاوى فى اطار التوبيخ لمعتقدات أهل الحارة انهم يظنون أن حارتهم هى وكذا الكون ولكنها ليست إلا ملازا للتافهين الصعاليك والشحاذين وحيث ان الحارة ترمز قبل عرفه لعصر الأديان فاعنى أن الدين هو الوهم الذى يلجأ إليه كل فقير فى العلم الدنيوى فهو كالشحاذ لا يملك قوتا « فكريا وعقلانيا » وكالتافه غير جاد لأنه يشغل نفسه بهذه الأقايصص التى تحكى على الرابة (الآيات والاختيار الدينية) كذلك من الدلالات أن الجبلاوى بالرغم من اعلان وجوده الطاغى وتصرفاته القاهرة المؤثرة فى أوائل الرواية إلا أن عرفه (العلم المادى الذى يكتشف كل شىء ويحكم عليه بالوجود أو العدم طبقا لأدواته وحواسه فقط) لم يره عندما دخل بيته فهذا يشير إلى انه غير موجود أو غير حقيقى أى ان الكل يسمع ويتحدث عنه ولكن عندما يفامر العلمانى الشجاع المتسلح بروح التحدى ليكشف حقيقة هذا الاله لا يجد شيئا فكأنه وهم موجود فقط فى رؤوس المؤمنين به كل ذلك علاوة على الدلالة الأخرى الموازية والمتمثلة فى موت الجبلاوى وكأن المؤلف هداه الله لم يكتف برمز يشير إلى الشك فى وجود الخالق لعدم التمكن من رؤيته جهرة فأضاف إلى ذلك رمز موته و(دفنه) حتى يقطع الشك باليقين ويؤكد مقولة نيتشه بأن الخالق الذى يزعم المؤمنون وجوده ان كان له وجود اصلا قد مات وشبع موتا بل ودفن أيضا إلى الأبد . ان قضية عدم الإيمان بالله لاننا لانستطيع ان نراه أو نكلمه فكم جاء عليها من ردود عديدة فى القرآن منها ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ وقال تعالى حكاية عن قوم موسى ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكثر من ذلك فقالوا أرنا الله فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ﴾ فرؤية الله تعالى فوق طاقة البشر فى الدنيا فهو سبحانه وتعالى لا تدركه ولا تحويه الأنظار ولا يؤثر فيه الليل ولا النهار وهو الواحد القهار ﴿ ذلكم الله ربكم لا اله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ .

قال تعالى : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وانا أول المؤمنين ﴾ .

ومن لطيف مايروى من مسألة تشبث الملحدين برؤية الإله قبل الإيمان به قصة استاذ ملحد قال لتلاميذه أيها التلاميذ هل تزيّن المدرس؟ قالوا نعم قال اذن فالمدرس موجود هل ترون المكتب قالوا نعم قال اذن فالمكتب موجود هل ترون الله؟ قالوا لا قال اذن فالله غير موجود فقام تلميذ نابه ذكى وقال للتلاميذ أيها التلاميذ هل ترون عقل الاستاذ؟ قالوا لا قال اذن فعقل الاستاذ غير موجود .

والحديث عن رؤية الله تبارك وتعالى مبحث كبير لعلماء العقيدة ليس هذا محله ولكن نقول ان رؤية الله تعالى حاصلة للمؤمنين فى الآخرة قال جل شأنه ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ .

« تعليق آخر »

ونسوق هذا التعليق الذى نختم به كتابنا هنا وهو الذى نشرته جريدة النور الصادرة بتاريخ ٢٠ ربيع آخر ١٤٠٩ هـ ٣٠ نوفمبر ١٩٨٨ للأستاذ مصطفى عدنان ونجترىء هذا الجزء الذى يتحدث عما نحن بصده قال ما نصه :

نحن نؤكد للأستاذ الكبير نجيب محفوظ - بعد فحص النص الذى أماننا لأولاد حارتنا انه حين كتبه كان يكتبه خدمه للشيعوية كيف ؟

فلقد انتصر للشيعوى الملحد (الذى قتل الله) ولترجع للحلقه المنشوره فى الأهرام يوم ١٩٥٩/١٢/٢٥ وهى الحلقه الخاتمه للرواية ويتضح منها جلليا الهدف من الرواية وينكشف بلا أية أردية حيث يقول الأستاذ نجيب محفوظ : هذا الشيعوى الملحد الذى قتل الله هو المصلح الأخير . للبشرية وهو الأمل الذى سيقود العالم إلى « يوم الخلاص » .

فعلى طول ٩٦ حلقة و ١٤ فصلا ، انتهى الأستاذ نجيب إلى أن الوصايا العشر (التى انزلها الله على موسى عليه السلام) والكلمات التى جاء بها موسى (التوراه) وعيسى (الإنجيل) ومحمد (القرآن) عليهم أفضل الصلاة والسلام أجمعين . هى بنص كلماته . احلاما ضائعة قد تصلح الحانا للرباب لا للمعاملة فى هذه الحياه الفصل ١٤ .

وان الحكام المستبدين الذين يوحون إلى شعراء المقاهى ان يتغنوا بقصة الله ... وبخاصه مقتله بيد الشيعيين الملحدين الذين يهادنهم الحاكم خوفا مما لديهم من السحر ... وانه من

عجب ان تلقى الناس اكاذيب الرباب (عن الله) بفتور وسخرية .. وقالوا لا شأن لنا بالماضى (الله ورسله هو الماضى) ولا أمل لنا إلا فى سحر عرفه (الشيوعى قاتل الله) ولو خبرنا بين الله (الجبلاوى) وهذا السحر لأخذنا السحر وان الناس أكبروا ذكر الشيوعى قاتل الله فوق اسماء موسى (سماه جبل لأن الله كلمه على جبل الطور) وعيسى سماه رفاغه الذى رفعه الله ومحمد سماه قاسم لأن من أولاده القاسم) ... وان هذا الشيوعى الملحد قاتل الله هو المصلح الأخير وهو الأمل الذى سيقود الناس إلى يوم الخلاص .. لأنه رغم فشل شرائع السماء المنزلة .. فلا بد على يدي هذا الملحد وهذا المصلح للظالم من آخر ، واللبل من نهار ... ولترين مصرع الطفغان ومشرق النور والعجائب بيدي هذا المخلص .

ونحمد الله تعالى ان هذه الجائزه - جائزه نوبل - قد منحت لهذا الفكر الذى رفعه عليا نجيب محفوظ فى ختام روايته الآن . بعد أن كفر الشيوعيون فى بلادهم بشيوعيتهم .. وانهم الذين يقولون لنا هذه الآن وبعد أن أصبح عدد أعضاء الأحزاب الشيوعية فى العالم لا يتعدى ٣٢,٨ مليوناً أى حوالى ١,٧٥٪ من سكان العالم (وهى أسوأ نسبة منذ عام ١٩٣٢) رغم أنهم يمسكون بالسلطه فى ١٧ دولة تحتل ثلث سكان العالم فى مساحه تزيد عن ثلث مساحه الأرض إذا فالشيوعية كما روجوا لها تترهل الآن فى اسبانيا هبط عددهم واصبحوا الربع ، وهناك ٥٠ ألفاً تركوا الحزب فى إيطاليا وهبط العدد فى بريطانيا من ٤٦ ألفاً إلى ١٢ ألفاً .

ولا شك ان هذا الإنهيار فى العدد . لايهنا بقدر إنهيار العقيدة نفسها داخل هؤلاء القاده والقيادات الشيوعية لأن الانتها للأحزاب الحاكمة لايمثل بالضرورة كامل الولاء لها ولفكرها .

وإذا كانت أولاد حارتنا قد ترجمت قول كارل ماركس : ان الدين هو آفة الإنسان المقهور وانه أفيون الشعوب .. وان القضاء عليه كما قضت عليه أولاد حارتنا بقتل الله بعد ان اتهمته بكل نقيصه (راجع النصوص فى مقالنا السابق) فإننا نتشكك فى ان هناك فرقا بين شخصية اليسارى وشخصية الشيوعى بالصوره التى يوحى بها لنا تصریح الأستاذ نجيب محفوظ السابق الإشارة إليه عن نفسه .. وإلا لثار بقلمه البارع وحطم ودمر فكره الملحد قاتل الله ولمجد وسبح بعظمة الخالق . ورسالته ورسله .. فى ختام الدرره للرواية ... ولكنه فعل العكس .

ومن عجب ان أولاد حارتنا التى روجت ان جميع الأنبياء كانوا يتعاطون المخدرات والمسكرات - بمعنى أن الدين أفيون - تواجه الآن فضيحة لها وبلسان جورباتشوف الرئيس السوفيتى الحالى حيث يقول للعالم ان الإدمان هو المشكلة الكبرى فى الاتحاد السوفيتى الان :

وانه هو المأساة القومية ، أرأيت يا استاذ نجيب أين ينتشر الإدمان الحقيقي ؟ في جنة الشيوعيه وجنة العلمانية ... وجنة العصاه لا المؤمنين ثم تفوز أولاد حارتنا بجائزة نوبل وفي عام ١٩٨٨ اما ثورات الشعوب في الدول الشيوعية التي تطالب بممارسة حقوقها ضد الاستبداد والتي نقرأ عن انبائها كل صباح ، فهي ترد الآن على الختام الذي جئتنا به في أولاد حارتنا من أن الشيوعى هو المخلص كما قلت لنا قبل ٢٩ عاما فقط من اليوم في أولاد حارتنا وفي أوج حكم الاستبداد الناصرى في مصر .. وعند بدء غزو الشيوعية لقمم الحكم فيها ... (نهاية عام ١٩٥٩ يوم صدرت الرواية) .

ولذا فنحن نغزى حقاً لأن أولاد حارتنا حاولت ان تحقق هدف البروتوكول الرابع لحكام صهيون الذى يقول : يمت علينا ان نتزع فكرة الله . وعندها يصير المجتمع منحلا ومبغضا من الدين .. ويستطرد الاستاذ مصطفى عدنان قائلا :

ثم نعود إلى الشيوعية التي ستخلص بها أولاد حارتنا العالم من بؤسه ... لقد اعترف مسعود بولندى أخيرا ان تكهنات الشيوعية بانهار الرأسمالية حل محلها انهيار الشيوعية لا الرأسمالية فعلا ..

وها نحن في العالم الشيوعى نتجه إلى الأسواق الحره ولم يمض علينا قرن واحد . كذلك فإن المانيا الشرقية تتلقى معونة المانيا الغربية الآن ... وفي الصين يلغون بأيدولوجى الثورة الشيوعية الثقافية في السجون ويبدأون عصر الانفتاح ..

وفي انجلترا تحطم تاتشر (رئيسة الوزراء) كل فلول الاشتراكية حيث بدأ غروب الفكر الماركسى .. وفي اليونان انسحب بابا ندرىو ولم تتحقق وعوده .. ولم يرح حلف الأطنطى والسوق المشتركة كما وعد من قبل بل حافظ على قواعد أمريكا في اليونان وفي إيطاليا تحول بيتينو كراسكى عن الاشتراكية متحالفا مع الاطنطى واخذ يبتعد بحزبه عن الشيوعية وفي فرنسا حيث كانت الشيوعية هى أقوى الأحزاب في أوروبا الغربية رأينا كيف أن الحزب الشيوعى يخض مع عدم تجديد عضويته وناخبيه من الشيوخ والمسنين وانهارت النسبه من ٢٠٪ من عدد الناخبين إلى ١٠٪ فحسب ولهذا اعترف أحد الكتاب الفرنسيين : لو ان ماركس كان حيا اليوم لاعترف بالفشل : فهل تعترف به الطبقات الجديده من أولاد حارتنا .. أم انها مصره على مافعلته ولقد أسرع الرئيس الفرنسى ميتران بالتخلص من وزرائه الشيوعيين الأربعة وولى على وزارة فرنسا مليونيرا .

ويستطرد الأستاذ مصطفى عدنان قائلا وسوف يتيقن الجميع ممن علمهم هذا الأمر اليوم - ان إنتظار يوم الخلاص الذى وعدتنا به أولاد حارتنا في الحلقات الأخيرة على يد

الشيوعي الملحد الذى قتل الله .. ان هذا الانتظار سوف يمتد إلى الأبد .. لأن الجنة التى وعدت بها الشيوعية البشر ان يأخذ كل واحد حسب حاجته ويعمل كل واحد حسب طاقته لتجرى انهار الخمر والعسل . وتمتلىء بمحيرات الحليب وترتفع جبال الزبد ويشبع الجائع وينعم المحتاج لن تتحقق وها هم بعد ٧٥ عاما من مولد انبياء الشيوعية يعترفون بانهم يواجهون فى معقلها كارثة القمح (فى روسيا) وفى بولندا الخراب الاقتصادى معترف به لا ينكره أحد ... وحدث عن سائر هذه الدول بلا حرج ... نفس الشيء عمن خانوا قيم المسيح عليه السلام .

إن إنهيار الاقتصاد الستالينى الذى نشأ فى الاتحاد السوفيتى وصدرته موسكو إلى أوروبا الشرقية والصين فى ١٩٤٨ و ثورة جورباتشوف وسقوط هويابوانج فى الصين والانقراض العسكرى فى بولندا عام ٨١ والغزو السوفيتى لتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ وثورات الشعوب الشيوعية ترد على مقولة الأستاذ نجيب محفوظ فى آخر سطور أولاد حارتنا - يوم فوزها وكل هذا الفشل جرى لتجربة تحدث خالق الأرض والسماء . وتطلبت فى روسيا وحدها إعدام ١٦ مليون شخص (من عام ١٩٢٨ إلى عام ١٩٣٦) غير ١,٤ مليون صرعتهم المعتقلات وهذا كما يعترف نائب رئيس الادارة الدولية التابعة للحزب الشيوعى السوفيتى .. (فشلت الشيوعية حتى فى موطنها الأسمى) .

وها هى موسكو تتهم الأحزاب الشيوعية فى أوروبا بعدم الولاء لسياستها .. وان القوميات التى خلقها الله لتتعارف لم تذب كما شاء الحزب الشيوعى الأم . ثم جاءنا المستشرق الشيوعى سيمون لجوانى الكسندر وريفوفينى السوفيتى ليعترفا فى كتابيهما ان الدين سيظل مصدر قوة للدولة بصرف النظر عن مدى تطورها .

الإسلام والعلم

ليس ثمة ريب فى أن الإسلام والعلم أخوان متلازمان تلازم الضوء للشمس والنور للقمم والإسلام والعلم متصالحان متوافقان متعانقان قال جل شأنه : ﴿ سنريهم آياتنا فى الأفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك انه على كل شىء شهيد ﴾ ومن ظن ان رسالة الدين قد استنفذت بظهور العلم فقد اعظم على الله الفرية .

ومن ظن أن هناك خصاما بين الإسلام والعلم فقد أعظم على الله الفرية فلو اننا ذهبننا ننقب فى بطون التاريخ ونستنطقه لحدثننا الحقائق بلسان اليقين ومنطق الحق المبين بأن الإسلام هو دين العلم ألم تقرأ أول خطوة من خطواته فى طريق الوحي تقول ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾

ألم تقرأ في باب العقيدة ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو الملائكة وأولو العلم قائما بالقسط﴾ وقوله تعالى ﴿فاعلم انه لا إله إلا الله﴾ وقوله جل شأنه ﴿فلنقصن عليهم بعلم﴾ وقوله تبارك اسمه : ﴿وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ وقوله تعالى : ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ وقوله : ﴿فلما تبين له قال أعلم ان الله على كل شيء قدير﴾ ثم ألم تدر ما أعده الله لأهل العلم في قوله : ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ ومالأهل العلم من مكانة عند الله في قوله : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ ثم ألم تقرأ قوله جل شأنه : ﴿لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه﴾ إلى غير ذلك مما لا يتسع له المجال هنا من آيات ناطقات بأن الإسلام علم وعمل وعقيدة وشريعة وسلوك فقد اشتملت آياته على أصول العقيدة وشعائر العبادات وشرائع المعاملات ومناهج السلوك ومبادئ الأحكام وقواعد النظام وأسألوا التاريخ عن ابن سينا صاحب كتاب القانون في الطب الذي ظل يدرس ثلاثة قرون في جامعات باريس ثم أسأله عن الحسن ابن الهيثم وماله من علم نافذ في الضوء والبصريات ثم أسأله عن ابن النفيس وماله من علم ثاقب في الدورة الدموية وأسأله عن ابن البيطار وماله من باع في الطب البيطري والنباتات وأسأله عن الخوارزمي ورياضياته وعن جابر بن حيان وكيميائه وثابت بن قره والتفاضل والتكامل والمتنبى وماله في الفلك والجاحظ وماله في النبات والحيوان وغيرهم وغيرهم كثير لا يحصره عد ولا يحيط به حد وفي هذا الباب مراتب لا تحصى ومراق لا تستقصى ومن اراد المزيد فليسأل التاريخ عن مدرسة محمد التي تخرج فيها المصلح العظيم كأتى بكر والزعيم الملهم كعمر والحبي الكريم كعثمان والعبقري الفذ كعلي والمحدث الجليل كأتى هريرة والمدرس القدير كابن عباس والمفتي الخبير كابن عمر والقائد الجبار كخالد والفيلسوف البارع كسلمان والزاهر الطاهر كأتى ذر في أى الجامعات تخرج هؤلاء وأه لك .

لم يتخرجوا في جامعات الشرق والغرب إنما تخرجوا في جامعة فيها العميد المصطفى ليلحق وما حصلت عليه أوروبا من قواعد الحضارة والمدنية والرق والعلوم الكونية إنما هو من نبع هؤلاء فقد عبرت تلك العلوم من شرقنا إليهم عن طريق الأندلس الفردوس المفقود وعن طريق الحروب الصليبية والقسطنطينية والتجارة ومن انكر شيئا من تلك الحقائق فقد اعظم على الله الفرية والله خير الشاهدين .

حكمتنا فكان العدل منا سجية فلما حكمتم سال بالدم أبطح
وماعجب هذا التفاوت بينا فكل اناء بالذى فيه ينضح

فأى خصومة بين الإسلام والعلم وهؤلاء هم اساتذة العلم واساطير الفكر تنطق
اهمالم شاهدة بما للإسلام من فضل على الدنيا والله تعالى هو الذى يقول لصفيه ومصطفاه
﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك
عظيما ﴾ .

خاتمة

﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ .

﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

وبعد .

فليس المقصود الأهم من كتابة هذا السفر الرد على رواية من الروايات اذ الأمر أشد من أن يهنا ذلك لكن الرد يأتي عرضا اذ المقصود الأهم الشرح والتفصيل والدفاع عن قضايا الإسلام التي تدور حول عقيدته الراسخة وشريعته الغراء خاصة مايتعلق بقضية الألوهية والنبوة والتي يحاول خصوم الإسلام أن يجعلوا منها غرضا يصوبون إليه سهامهم ونسى هؤلاء أو تناسوا ان سفينة الإسلام ستظل تمخر عباب الماء وتجري في موج كالجبال مهما عوت الذئاب ومهما ارتفعت أصوات البوم والغربان فمن ركبها نجح ومن قال ساوى إلى جبل يعصمنى من الماء فإن الإسلام سيرد عليه قاتلا لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وسيكون المصير وحال بينهما الموج فكان من المغرقين .

ولقد كانت تلك السفينة ومازالت وستظل طريق النجاة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها اما ماوراء الطبيعة في العقيدة الإسلامية فإنه محيط اعنف من أن يمخر عبابه سبحانه ماهر ومن طلب المحسوس في غير المحسوس فقد أصيب بالعمى عن المحسوس كغشاء عين الخفاش عن رؤية الاجسام البينة لنا في ضوء الشمس انك اذا سألت الكون من عرشه إلى فرشه ومن ساءته إلى أرضه وقلت له من خالقك لاجابك بلسان الحال والمقال انا مخلوق للواحد الديان .

تأمل في نبات الأرض وانظر	إلى اثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات	بأبصار هي الذهب السبيك
على قضب الذرجد شاهدات	بأن الله ليس له شريك

وكما قال أمير الشعراء :

تلك الطبيعة فف بنا ياسارى	حتى أريك بديع صنع البارى
الأرض حولك والسماء اهترتا	لروائع الآيات والآثار
من شك فيه فظنرة في خلقه	تمحو أثيم الشك والانكار

﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ذلكم الله ربكم لا اله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل

لا تدركه الأنصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ﴿ وسبحان من بين لخلقه الطريق إلى سعادة الدارين بعد أن هبط آدم وحواء من الجنة قال مولانا تبارك اسمه ﴿ فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا وتحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه وللعذاب الأخرة أشد وأبقى ﴿ .

فإن كنت قد وفقت في هذا الكتاب فلن ادعى لنفسي فضلا فالفضل كله لله يؤتيه من يشاء وإن كانت الأخرى فمن نسي وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا من رحم ربي إن ربي لغفور رحيم وأقول للذين يحاولون أن يثيروا الشبهات حول الإسلام انهم كمثل الذين يحاولون ان يثيروا التراب على السماء فلسوف يثرونه على أنفسهم وتبقى السماء هي السماء ضاحكة السن بسامة الحيا والله تعالى يقول لهم ولأمثالهم إلى يوم القيامة قل الله ثم ذرهم في حوضهم يلعبون تباركت ربنا وتعاليت فإنهم في غيهم يعمهون وفي غيهم يترددون ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴿ فلمثل هذا فليعمل العاملون وفي ذلك فليتنافس المتنافسون والله المستعان على ما تصفون والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون والله المستعان وعليه التكلان .

ما يضر البحر أمسى زاخرا إن رمى فيه غلام بحجر .

وما ضر الورود وما عليها إذا المزكوم لم يطعم شذاها .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم ﴿ أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على سمعه غشاوة فمن يهديه من بعد الله فلا تذكرون ﴿ ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد ﴿ .

اللهم انا نسألك علما نافعا ورزقا واسعا وشفاء من كل داء ونعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشيع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع .

انتهت كلمتنا في الرد على أولاد حارتنا .

عبد الحميد كشك

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٨٧	عناية الله بالكوكب الأرضي	٣	إهداء
٨٩	حقيقة علمية	٥	مقدمة الكتاب
	الفصل الرابع	٩	الفصل الأول (خطورة هذا الكتاب)
٩٤	(دلالات الرموز في القصة)	١٠	(أ) أضواء كاشفة
	الفصل الخامس	٢٤	(ب) وسائل الإعلام
٩٨	(عرض لأحداث أولاد حارتنا)	٣٤	الفصل الثاني (عرض ومقارنة)
١٠٠	جبل	٣٩	العقيدة الإيمانية الصحيحة
١٠٢	رفاعة	٤٠	الله واجب الوجود لذاته
١٠٥	قاسم	٤٢	الله حق
١١٠	الفصل السادس (القول الحق)	٤٨	غزو الفضاء
١١١	كلمات ربي	٤٨	مؤمنون حقاً
	الفصل السابع	٥٠	رجاء ورجاء
١٣٠	(بيان الحق في عقيدة النبوة)	٥٠	وقفه تأمل
١٣٠	الرسول	٥١	قضية الألوهية
١٤٧	آيات الرسل	٥٢	معرفة الله تعالى
١٥١	الفرق بين المعجزة والكرامة	٥٦	الألوهية في الإسلام
١٥٦	الفصل الثامن (الرد التفصيلي)		الفصل الثالث
١٥٦	تعليق	٧٤	(مقارنة بين الجبلاوى والزعبلاوى)
١٥٧	اعرف الله قدره	٧٧	القول الحق
١٥٨	اقرأ أيها الكاتب سورة النحل	٧٧	لا مجال في هذا الكون للبعث أو الصدفة
١٦٠	عالم الحيوان	٨٠	لا مجال للصدفة في هذا الكون
١٦٠	عالم الفلك	٨١	الكون يتحدث عن وحدانية الله
١٦٢	عالم النبات	٨١	آيات ناطقة بالحكمة والقدرة
١٦٧	نعم الله على خلقه	٨٢	آية أخرى
١٦٨	الكون وقدرة الله	٨٤	آية الله في الماء
١٦٨	العلم الحديث ووحدانىة الله	٨٥	آية الله في نظام الفلك
		٨٥	الشمس والأرض والقمر والنجوم

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	الفصل الحادى عشر	١٦٩	خطوات في الحب الإلهى
٢٢٧	(ردود علمية موجزة)	١٧٠	وقفة تأمل
٢٤٧	ردود أخرى	١٧٢	ولا يظلم ربك أحدا
	أكل من يتبع دين الله يعيش في القمل	١٧٣	فضل الله على عباده
٢٤٩	والقاذورات ؟	١٧٤	نظرات وعبر
	الفصل الثانى عشر	١٧٦	المبحث الأول (كلام المفسرين)
٢٦٢	(ماذا قال عن أنبياء الله ؟) [جبل]	١٧٨	المبحث الثانى (ذكر الحقائق العلمية)
٢٦٤	القول الحق	١٨٠	المبحث الثالث (ما يقرره الطب الحديث)
٢٦٥	القرآن يرد على أمثال هؤلاء	١٨١	عسل النحل وفوائده : ١ - المواد السكرية
	الفصل الثالث عشر	١٨٢	٢ - الأصماغ
٢٧١	(ماذا قال عن نبي الله عيسى ؟) [رفاعة]	١٨٢	٣ - فيتامين ج
٢٧٦	القول الحق	١٨٢	٤ ، ٥ - المعادن وبيض النحل
٢٧٩	الحكمة وفصل الخطاب	١٨٣	حقائق علمية
	الفصل الرابع عشر	١٨٣	استعمالات عسل النحل
٢٨١	(ماذا قال عن خاتم الأنبياء ؟) [قاسم]	١٨٤	إلهى ما أعظمك
٢٨٧	القول الحق	١٨٥	الرد على أعداء الإسلام
٢٨٨	صور من حياة الرسول ﷺ	١٨٥	العقاد والرد على المبشرين
٢٩٠	مكانة النبي ﷺ	١٨٩	الإيجاد والعدم
٢٩١	نسبه ﷺ	١٩٠	عود إلى أدلة التوحيد
٢٩٢	مولده الشريف ﷺ	١٩٣	إيضاح وتبيين
٢٩٤	عبرة أخرى	١٩٥	مع القدرة الباهرة والعلم المحيط
٢٩٥	الفصل الخامس عشر (القول الحق)	١٩٦	هذا خلق الله
٢٩٦	قضية الوحى	١٩٦	فلينظر الإنسان مم خلق
	صور العرض التى وردت عن	١٩٧	عالم الطير
٢٩٧	رسول الله ﷺ	٢٠٠	الفصل التاسع (القول الحق)
٣٠٠	بشائر النبوة	٢٠٢	حقيقة استخلاف آدم
٣٠٠	صور الوحى	٢٠٢	قصة استخلاف آدم
٣٠٠	الصحابة يشاهدون ساعة الوحى	٢٠٩	آدم وزوجه والملائكة وإبليس
٣٠٢	شبهات باطلة	٢٢٥	الفصل العاشر (قدرى وهام)
		٢٢٥	القول الحق

الصفحة	الموضوع
٣٠٥	مد فانو من نوحى ؟
٣١٣	لقاء آخر مع جبريل
٣١٤	رؤيا الأنبياء وحى
٣١٤	نماذج أخرى
٣١٤	نماذج أخرى
٣١٥	آيات كبرى
الفصل السادس عشر	
٣١٧	(الحكمة من تعدد زوجات الرسول ﷺ)
٣١٧	دعوى باطلة
٣٢٠	زواجه بالسيدة سودة
٣٢١	زواجه بالسيدة عائشة
٣٢١	زواجه بالسيدة حفصة
٣٢١	زواجه بالسيدة زينب بنت جحش
٣٢١	زواجه بالسيدة زينب بنت خزيمة
٣٢٢	زواجه بالسيدة أم سلمة
٣٢٢	زواجه بالسيدة أم حبيبة
٣٢٢	زواجه بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية
٣٢٣	زواجه بالسيدة جويرية بنت الحارث
٣٢٣	زواجه بالسيدة صفية بنت حيى بن أخطب
٣٢٣	حكمة راشدة
٣٢٧	بحث قيم
٣٣٢	الإسلام وتعدد الزوجات
٣٣٣	عالمية الدعوة
٣٣٤	الفصل السابع عشر (عرفة)
٣٣٩	بيان وتعليق
٣٣٩	تعليق
٣٤٠	تعليق
٣٤٣	تعليق آخر
٣٤٦	الإسلام والعلم
٣٤٨	خاتمة

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET